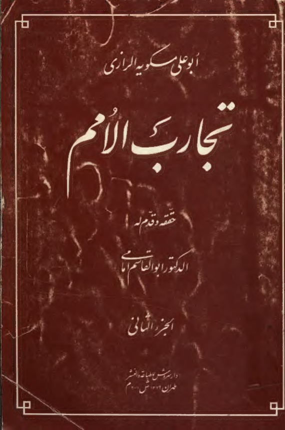


أبو علي مسكويه الرازي
تجارب الأمم
حققه وقدم له
الدكتور ابو القاسم امامي
الجزء الثاني
دار سروش للطباعة والنشر
طهران ١٣٧٩ ش ٢٠٠١ م

أبو علي مسكويه الرازي
(٣٢٠-٤٢١)

تجارب الأمم

٣٢٧٠٤

کتابخانه
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
شماره ثبت: ۰۰۳۵۶۹
تاریخ ثبت:

حققه وقدم له
الدكتور ابوالقاسم امامي

الجزء الثاني

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

دار سروش للطباعة والنشر

سروش
تهران ١٣٧٩

ابن مسکویه، احمد بن محمد، ۳۲۰-۴۲۱ق.
تجارب الامم / ابوعلی مسکویه الرازی؛ حققه و قدم له ابوالقاسم امامی. - طهران: دار سروش للطباعة والنشر، ۱۹۸۷-۲۰۰۷م = ۱۳۶۶-ق.
ISBN 964-435-331-5 (دوره) ISBN
964-435-327-7 (ج.۱)

فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
پشت جلد به انگلیسی:
Miskawayh. Tajarib al-umam (experiences of nations).
عربی.
کتابنامه.
ج.۵ (چاپ اول: ۱۳۷۷) ISBN 964-435-328-5
ج.۶ (چاپ اول: ۱۳۷۹) ISBN 964-435-551-2
ج.۷ (چاپ اول: ۱۳۷۹) ISBN 964-435-552-0
ج.۱، ۲، ۳، ۴ (چاپ دوم: ۱۳۸۱) ... ریال.
(با جلد شمیز: (ج.۵) ISBN 964-435-592-x
ـ ۳۲۰۰۰ ریال (با جلد گالینگور) ۳۶۰۰۰ ریال
(با جلد شمیز: (ج.۴) ISBN 964-435-493-8
ـ ۳۲۰۰۰ ریال (با جلد گالینگور) ۳۶۰۰۰ ریال
(ج.۶) ISBN 964-435-551-2
۱. اسلام -- تاریخ -- متون قدیمی تا قرن ۱۴. ۲. تاریخ جهان -- متون قدیمی تا قرن ۱۴. ۳. ایران -- تاریخ -- متون قدیمی تا قرن ۱۴. الف. امامی، ابوالقاسم، ۱۳۱۳ -، مصحح. ب. صداوسیمای جمهوری اسلامی ایران. انتشارات سروش. ج. عنوان.
۹۰۹/۰۹۷۶۷۱ DS۳۵/۶۳/الف۲ت۵
۱۳۶۶
کتابخانه ملی ایران
محل نگهداری: م۶۶-۸۲۳

دار سروش للطباعة والنشر

طهران، شارع الاستاذ مطهري، مفترق الدكتور مفتح بناية جام‌جم، رقم ۲۲۸
مركز التوزيع: مجمع سروش الثقافي، المعلونية التجارية، رقم التليفون ۶۴۰۴۲۵۵

العنوان: تجارب الامم (المجلد الثاني)

المؤلف: ابوعلي مسكويه الرازي

تحقيق: الدكتور ابوالقاسم امامي

تنضيد الحروف والاخراج: دار البصائر للخدمات الثقافية

الطبعة الثاني: ۱۳۷۹ ش / ۱۴۲۲ ق / ۲۰۰۱م

عدد النسخ: ۲۰۰۰ نسخة

طبع هذا الكتاب بجميع مراحل الطبع في مطابع دار سروش للنشر.

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

شابک: ۸ - ۵۹۳ - ۴۳۵ - ۹۶۴ (جلد دوم) ISBN: 964 - 435 - 593 - 8 (Vol. 2)
شابک: ۵ - ۳۳۱ - ۴۳۵ - ۹۶۴ (دوره ۷ جلدی) ISBN: 964 - 435 - 331 - 5 (7 Vol. SET)



تجارب الأمم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تجارب العصر الأمويّ





أيّام معاوية بن أبي سفيان

ذكر مُماحكة[1] جرت
بين المغيرة بن شعبة وبين عمرو بن العاص

استعمل معاوية عبدالله بن عمرو بن العاص على الكوفة، فأتاه المغيرة بن شُعبة، فقال:

ـ «استعملت عبدالله بن عمرو على الكوفة، وأباه عمراً على مصر، تكون أنت بين لحيي[2] الأسد.»

فعزله عنها واستعمل المغيرة على الكوفة، وبلغ عمراً ما قاله المغيرة لمعاوية، فدخل عمرو على معاوية، فقال:

ـ «أ تستعمل المغيرة على خراج الكوفة، فيغتال المال، ويذهب به، فلا تستطيع أن تأخذه منه؟ استعملْ على الخراج رجلاً يهابك، ويتّقيك.»

فعزل المغيرة عن الخراج، واستعمله على الصلاة. فلقى المغيرة عمراً، فبدأ عمرو وقال:

ـ «أنت المشير على أميرالمؤمنين بما أشرت، فى عبدالله؟» قال:

ـ «نعم.» قال:

---

١. المماحكة: اللجاج والمنازعة.

٢. فى مط: يحى الأسد!. واللحيان: العظمان اللذان فيهما الأسنان.

ـ «فهذه بتلك!»

المغيرة بن شعبة يختار الدعة

ولمّا ولى المغيرة بن شعبة الكوفة، أتاها، وترك التشدّد، وإثارة الناس عن أهوائهم، وأحبّ السلامة، واختار الدعة، فكان يُرىٰ، فيقال له: فلان بن فلان يرىٰ رأى الشيعة، وفلان يرىٰ رأى الخوارج، فكان يقول: [44]

ـ «قضى الله أن لاتزالوا مختلفين، وسيحكم بين عباده.»

فأمنه الناس.

فكان عاقبة هذا الفعل منه

أن لقيت الخوارج بعضها بعضاً، ورأوا أنّ فى جهاد الناس الفضل والأجر. ففزعوا[1] إلى رؤسائهم، وتجمّعوا، وتمّت آراؤهم، واجتمع أمرهم، وبايعوا المستورد بن عُلّفة[2]، وكان زياد متحصناً بفارس، قد عمر قلعة إصطخر. فكان معاوية يكاتبه، ويطالبه بالمال، ويستقدمه، فيأبىٰ.

فأرق معاوية ذات ليلة، فلمّا أصبح، دعا بالمغيرة بن شُعبة، فقال له:

ـ «كيف أنت بسرّ أستودعك؟»

فقال: «يا أميرالمؤمنين، إن تستودعنى، تستودع ناصحاً، شفيقاً، ورعاً، وثيقاً.»

رأى لمعاوية وتدبير صحيح

قال: «ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس، وامتناعه بالقلعة، فلم أنم ليلتى.»

---

١. فى مط: ففرعوا. وما فى الطبرى يوافق الأصل: ففزعوا. أى: لجأوا، واستغاثوا.

٢. فى مط: مستور بن علفة. وضبط اللام فى «عُلِّفة» (الكسر والتشديد) من الطبرى (٧: ٢٠)، وابن الأثير (٣: ٤٢١). وضُبط فى بعض المراجع: «عُلَّفة» بفتح اللام.

فأراد المغيرة أن يطأطئ من زياد، فقال:

ـ «مازياد هناك، يا أميرالمؤمنين.»

قال: «بئس الوطاء[١] العجز، داهية العرب معه الأموال، متحصّن بقلاع [45] فارس، يُدبّر، ويُربّض الخيل[٢]. ما يُؤمننى أن يُبايع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعاد الحرب جَذعة[٣].»

فقال المغيرة: «أتأذن لى، يا أميرالؤمنين، فى إتيانه؟»

قال: «نعم، وتلطّف!»

كان المغيرة يحفظ يداً لزياد عنده، فأتى المغيرة زياداً. فقال زياد لمّا رءاه:

ـ «أفلح الزائر.»

فقال المغيرة:

ـ «إليك ينتهى الخبر، أنا المغيرة، إنّ معاوية استخفّه الوجل، حتّى بعثنى إليك، ولم يكن يعلم أحداً يمدّ يده إلى هذا الأمر، غير[٤] الحسن، وقد بايع معاوية، فخُذ لنفسك قبل التوطين، فيستغنى معاوية عنك.»

قال: «أشِرْ علىّ، وارمِ الغرض الأقصى، ودع عنك الفضول، فإنّ المستشار مؤتمن.»

فقال المغيرة:

ـ «فى محض الرأى بشاعة[٥]، ولا خير فى التمذيق[٦]، أرى أن يصل حبلك

---

١. فى مط والطبرى: الوطأ.

٢. كذا فى مط: ويُربض الخيل. وفى الطبرى: يربص الحيل.

٣. فى مط والطبرى (٧: ٢٣): قد أعاد: «الحرب خدعة». وقوله: «قد أعاد الحرب جذعة» أى: جديدة. وذلك من قولهم: «أعدت الأمر جذعاً»، أى: جديداً كما بدأ.

٤. فى مط: «إلّا عين الحسن». وفى هامش مط: «عن الحسن» بدل «الأمر غير الحسن».

٥. فى مط: شناعة.

٦. كذا فى الأصل ومط: فى التمذيق. وفى الطبرى (٧: ٢٤): المذيق. وفى حاشيته: المتديق. التمذيق:

بحبله، وتشخص إليه.»

قال: «أرى، ويقضي الله.»

وأقام زياد في القلعة، وجعل يرتأي ويسكر.

ذكر حيلة لزياد على معاوية

فسنح لزياد من الرأي أن دعا بعض ثقاته، وبذل له، ومنّاه ووعده، وقال:

ـ «امض، حتّى تأتي معاوية، فإنّه سيدعوك، ويسألك عنّي، فقل له: إنّك قد أهملته، [46] وأضربت عنه، مع ما قد احتجبه[1] من الأموال، وارتكبه من الأمور، حتّى قد شاع في الناس: أنك إنما تُرخي له الحبل، وتُساهله، للنسب بينكما. فإذا قال: وما ذاك؟ فقل: يقول الناس: إنّه أخوك، وإنّك قد عرفت ذلك له.»

فذهب الرجل، حتّى أتى معاوية، فجرى بينهما ما لقّنه زياد.

فقال معاوية:

ـ «أوَ قد تحدّث الناس بذلك؟» قال:

ـ «نعم.»

فسكت معاوية، وخرج الرجل من عنده، وشاع المجلس، وقال الناس:

ـ «زياد بن أبي سفيان.»

ثمّ كاتب زياد معاوية، وأجابه، واستقرّت المكاتبة بينهما، إلى أن ورّد على معاوية، على أن يرفع إليه حساباً بما صار إليه من الأموال، ويَصدُقه في ما خرج منه إلى أمير المؤمنين، وما بقي عنده.

فخرج إليه زياد، فأخبره بما حمله إلى عليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ وما

الخلط والمزج. والمذيق: الممزوج، المخلوط.

١. في مط: قد احتجبه.

مرّقه في الأرزاق، والحمالات[1]، وبقّىٰ بقيّة، وقال:

ـ «قد أودعتها عند قوم.»

فصدّقه معاوية، ومكث يُردّده بذلك.

ثمّ كتب زياد كُتباً إلى قوم:

ـ «قد علمتم ما لي عندكم من الودائع، وهي الأمانة الّتي يقول الله تعالى: إِنّا عرضنا الأمانة علىٰ السّماوات والأرض، [47] الآية[2]، فاحتفظوا بما قبلكم.»

وسمّىٰ في الكتب بالذي أقرّ لمعاوية، ودسّ الكتب مع رسوله، وأمره أن يتعرّض لبعض من يبلغ معاوية، فتعرّض الرسول حتّى أُخذ، فأُتي به معاوية.

فقال معاوية لزياد:

ـ «لئن لم تكن مكرت بي، إنّ هذه الكتب لمن حاجتي.»

فقرأها، فإذا هي بمثل ما أقرّ به لمعاوية[3]

فقال معاوية:

ـ «أخاف أن تكون مكرت بي، فصالحني عليها.»

فصالحه علىٰ شيء، ممّا ذكر أنّه عنده، فحمله.

ذكر حيلة لعبدالله بن خازم

كان عبدالله بن عامر، والياً على البصرة، من قبل معاوية، فأنفذ إلى خراسان قيس بن الهيثم[4]، واستبطأه في بعض الأحوال، وكتب إليه، يستحثّه حمل المال

---

١ نحمالات الحاء غير مشكولة في الأصل، وهي مفتوحة في الطبري (٧ ٢٦). والحمالة (بالفتح) والحمال أيضاً بالفتح حُمُل الدية، أو الغرامة ما يحملها قوم عن قوم. والحمالة (بالضمّ): أجر الحمّال.

٢ س ٣٣ الأحزاب. ٧٢.

٣ انظر الطبري (٧: ٢٦).

٤ في مط والطبري (٧ ٦٦) أيضاً: قيس بن الهيثم، ولكن في الأصل كلمة مهجمة تقرأ «سعد بن»، «سعدى»؟. وسيأتي الإسم: «قيس بن الهيثم» من دون أيّ إضافة، في الأسطر الآتية من الأصل ومط.

وكان عبدالله بن خازم حاضراً. فقال لابن عامر:

ـ «إنّك قد وجّهت إلى خراسان رجلاً ضعيفاً، وإنّى أخاف ـ إن لقى حرباً ـ أن ينهزم بالناس، فتهلك خراسان، وتفتضح أخوالك.»

قال ابن عامر:

ـ «فما الرأى؟»

قال: «تكتب لى عهداً ـ إن هو انصرف عن عدوّ ـ قمت مقامه.»

فكتب له، وسار عبدالله بن خازم إلى خراسان فحاشت جماعة من طخارستان فشاور [48] قيس بن الهيثم الناس، فأشار عليه ابن خازم أن ينصرف حتّى يجتمع إليه أطرافه، فانصرف فلمّا سار مرحلة أو مرحلتين، أخرج ابن خازم عهده، وقام بأمر الناس، ولقى العدوّ، فهزمهم. وبلغ الخبر المصرين[1]، والشام، فغضبت القيسيّة وقالوا:

ـ «خدع قيساً وابن عامر».

وأكثروا فى ذلك على معاوية، حتّى بعث إلى عبدالله بن خازم، فقدِم به واعتذر ممّا قيل فيه.

فقال معاوية:

ـ «فإذا كان غداً، فقُم فى الناس، واعتذر!»

فرجع ابن خازم إلى أصحابه، فقال:

ـ «قد أُمرت بالخطبة، ولست صاحب كلام، فاجلسوا حول المنبر، فإذا تكلّمت، فصدّقونى.»

فقام من الغد، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمّ قال:

---

١ المصران: الكوفة والبصرة. قال ابن الأعرابى: قيل لهما «المصران»، لأنّ عمر ـ رضى الله عنه ـ قال: لا تجعلوا البحر فى ما بينى وبينكم، مصّروها، أى: صيّروها مصراً بين البحر وبينى، أى: حدّاً (نم)

ـ «إنّما يتكلّف الخطبة، إمّا[١] مَن لا يجد بُدّاً منها، وإمّا أحمق يهمر[٢] رأسه، لا يبالي ما خرج منه، ولست بواحد منهما، وقد علم مـن عـرفني أنّـي بـصير بالفُرص، وثّاب عليها، وقّاف عند المهالك، أنفذ بالسريّة، وأقسم بالسويّة. أنشُدكم بالله، من كان يعرف ذلك منّي، لمّا صدّقني.»

فقال أصحابه حول المنبر:

ـ «صدقت.»

فقال: «يا أميرالمؤمنين، [إنّك ممّن][٣] نشدتك، قل ما تعلم!»

فقال: «صدقت.» [49]

ذكر تدبير نفذ للمغيرة بن شعبة علي زياد

قدم زياد الكوفة من عند معاوية، ونزل في دار سلمى بن ربيعة الباهليّ ينتظر أمر معاوية، أن يُجيبه إمرته على الكوفة. فبلغ المغيرة بن شعبة ـ وهو أمير على الكوفة ـ أنّ زياداً ينتظر الإمرة فدعا قطن بن عبدالله الحارثيّ، فقال:

ـ «هل فيك من خير: تكفيني المؤونة حتّى آتيك من عند أميرالمؤمنين؟»

قال: «ما أنا بصاحب ذا.»

فدعا عُتيبة بن نهّاس[٤]، فعرض عليه ذلك، فقبل.

فخرج المغيرة، فلمّا قدم على معاوية، سأله أن يعزله، وأن يقطع له منـازل بقرقيسا بين ظهرى قيس. فلمّا سمع معاوية ذلك، خاف بائقته، وقال:

ـ «والله، لترجعنّ إلى عملك يا با عبدالله.»

---

١ إما من لا يجد. كذا في الأصل ومط. وفي الطبري (٧: ٦٦): إمام لا يجد.

٢ يهمر رأسه: كذا في الأصل ومط. وفي الطبري: يهمر من رأسه. همر الماء ونحوه (ويهمره، ويهمُره): صبّه. همر الكلام، وفي الكلام: أكثر فيه. ٣ تكملة عن الطبري.

٤ نهّاس: الكلمة مهملة في الأصل. في مط: نهاس. وضبطناها حسب مط والطبري (٧: ٧٢)

فأبىٰ عليه، فلم يزده ذلك إلّا تهمة له. فردّه إلى عمله، فطرق المغيرة الكوفة ليلاً.

قال معبد بن خالد الجَدَليّ:

ـ «فوالله إنّي لفوق القصر أحرسه، إذا قرعَ البابَ[١]، فأنكرناه. فلمّا خاف أن ندلّي عليه حجراً، تسمّىٰ لنا. فنزلت إليه، وسلّمت، فتمثّل بقول القائل

بمثلي فاقرَعي[٢] يا أُمَّ عمرو إذا ما هاجَني السفرُ النَّفورُ[٣] [40]

ـ «إذهب إلى ابن سميّة، فرحِّله، حتّى لا يصبح إلّا من وراء الجيش[٤].»

فخرجت، فأتيناه، فأخرجناه، حتّى طرحناه، قبل أن يصبح من وراء الجيش.

ذكر سياسة زياد العراق حتّى صلح بعد الفساد

إنّه بلغ معاوية فساد أهل البصرة، وكثرة العيث، وضعف السلطان بها عن ضبط الناس، وكان والي البصرة عبدالله بن عامر، وكان فيه لين وكرم. فكان إذا أُشير عليه بقطع السارق، عفا عنه، وإذا أُشير بقتل من يستحقّ القتل، قال:

ـ «أنا أتألّف الناس، وأتحبّب إليهم، فكيف أنظر في وجه من قتلت أباه، أو أخاه، أو قطعته؟»

فكثر الفساد بالبصرة، فعزله معاوية، وكتب إليه يستزيره، وولّىٰ حارث بن عبدالله الأزديّ، فتركه أربعة أشهر، ثمّ عزله بزياد.

---

١. إذ قرع الباب. كذا في الأصل. وفي مط: اذ قرع الباب. وما في الطبري: فلما قرع الباب.

٢. كذا في مط: فاقرعي. في الطبري: فاصرعي. وفي حاشيته: فاقرعي.

٣. في الطبري: السفر النفور. في مط: النفر النفور

٤. كذا في مط: الجيش. وفي الطبري (٧: ٧٢): الجسر (في كلا الموضعين).

وإنما أراد معاوية أن يولّي زياداً، فولّى الحارث كالفرس المجلّل، فقدم زياد البصرة، فخطب خطبته البتراء[1]، ثمّ قال:

الخطبة البتراء

ـ «أمّا بعد، فإنّ الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والعجز[2] الموقد لأهله النار، الباقي عليهم سعيرها، ما يأتي سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام، [51] يسبت[3] فيها الصغير، ولا يتحاشى منها الكبير، [كأن لم تسمعوا بآي الله، ولم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدّ[4] الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمد الذي لا يزول. أتكونون كمن طرفت عينَه الدنيا، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون [أنّكم][5] أحدثتم[6] في الإسلام الحدث الذي لم تُسبقوا إليه[7] [من تركِكم][8] هذه المواخر[9] المنصوبة، والضعيفة المسلوبة، في النهار المبصر، والعدد غير قليل.

---

١. سمّيت بتراء، لأنّه لم يحمد الله فيها، وقيل بل حمد الله. فقال: «الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه، اللّهم، كما رزقتنا نعماً، فألهمنا شكراً على نعمتك علينا. أما بعد، ...» أنظر الطبري (٧/ ٧٢)، وابن الأثير (٣/ ٤٤٧).

٢. كذا في مط، وفي حاشية الطبري: العجر. في الطبري وابن الأثير: الفجر.

٣. يسبت: كذا في الطبري، وفي مط: يبيت. في حاشية الطبري: ينبت.

٤. في الطبري: عدّ الله، وما أثبتناه من ابن الأثير.

٥. ما بين [ ] تكملة من الطبري.

٦. في الأصل «فأحدثتم» بدون «إنكم».

٧. في الطبري: به.

٨. ما بين [ ] تكملة من الطبري.

٩. المواخر، والمواخير كلاهما جمع مفرده: الماخور: مجلس الفسّاق، بيت الريبة والدعارة.

ـ «ألم تكن منكم نُهاة تمنع الغواة عن دلج[1] الليل، وغارة النهار؟ قرّبتم القرابة وباعدتم [الدين، تعذرون][2] بغير العذر، [وتغطّون على المختلس][3] كلّ امرئ منكم يذبّ عن سفيهه، صُنع من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معاداً، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم، حتّى انتهكوا حرمة الإسلام، ثمّ أطرِموا[4] وراءكم كُنوساً في مكانس الريب. حرام عليّ الطعام والشراب حتّى أسوّيها بالأرض، هدماً وإحراقاً، فإنّي رأيت آخر هذا الأمر، لا يصلح إلّا بما يصلح أوّله: لين في غير ضعف وشدّة في غير جبريّة [وعنف][5].

ـ «وإنّي أقسم بالله، لآخذنّ الوليّ بالوليّ، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتّى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انجُ سعد، فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم. إنّ كذبة المنبر بلقاء[6] مشهورة، فمن تعلّق لي بكذبة، فقد حلّت[7] له معصيتي، من بُيّت منكم فأنا ضامن لما [52] ذهب له. إيّاي ودَلَجَ الليل! فإنّي لا أُوتى بمدلج إلّا سفكت دمه، وقد أجّلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإيّاي ودعوى الجاهليّة! فإنّي لا أجد أحداً دعا بها إلّا قطعت لسانه.

---

١. الدلج: اسم من قولهم: أدلج يدلج إدلاجاً إذا سار أوّل الليل. ومنهم من يجعل الإدلاج لليل كلّه

٢. في الأصل ومط: «الذين يعتذرون» وهو تصحيف. وما أثبتناه يؤيده الطبري وابن الأثير

٣ ما بين [ ] تكملة من الطبري. وما في ابن الأثير: وتغطون على المختلس.

٤. أطرحوا. كذا في الطبري وابن الأثير وما في مط وحواشي الطبري: أطرموا

٥. ما بين [ ] تكملة من الطبري وابن الأثير ٦ بلقاء. كذا في مط وفي الطبري: تبقى

٧ كذا في الطبري (٧: ٧٤) أيضاً: حلّت

ـ «لقد أحدثتم أحداثاً، وقد أحدثنا لها عقوبات[١] فمن غرّق قوماً غرّقناه، ومن حرّق على قوم حرّقناه، ومن نقب على قوم نقبت قلبه، ومن نبش قبراً دفنته حيّاً. فكفّوا أيديكم وألسنتكم، أكفف يدي وأذاي. لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامّتكم إلّا ضربت عنقه.

ـ «وقد كانت بيني وبين قوم أحن، فجعلت ذلك دَبْر أذني، وتحت قدمي. فمن كان منكم محسناً، فليزد إحساناً، ومن كان مسيئاً، فلينزع عن إساءته. إنّي لو علمت أنّ أحدكم قد قتله السلّ من بغضي، لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتّى يبدي لي صفحته. فإذا فعل، لم أناظره. فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فربّ مبتئس بقدومنا سيسرّ، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

ـ «أيها الناس، إنّا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، [53] نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا. فلنا عليكم السمع والطاعة فى ما أحببنا، ولكم علينا العدل فى ما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم.

ـ «واعلموا أنّي مهما قصّرت عنه، فإنّي لا أقصّر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم، ولو أتاني طارقاً، ولا حابساً عطاءً عن إبّانه ولا مجمّراً لكم بعثاً. فادعوا الله بالصلاح لأئمّتكم، فإنّهم ساستكم المؤدّبون، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى تصلحوا، يصلحوا[٢]، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتدّ لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم. ولا تدركوا حاجتكم، مع أنّه لو استجيب لكم،

١ كذا فى مط لها عقوبات. وفى الطبرى وابن الأثير: لكلّ ذنب عقوبة

٢. فى الأصل: ومتى يصلحوا، تصلحوا. وما أثبتناه يؤيده مط والطبرى وابن الأثير

كان شرّاً لكم.»

ـ «أسأل الله أن يعين كلاً على كلّ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم أمراً، فأنفذوه على إذلاله، وأيم الله إنّ لي فيكم لصرعى كثيراً، فليحذر كلّ امرئ منكم أن يكون من صرعاي.»

وأمهل الناس حتّى بلغ الخبر الكوفة، وعاد إليه وصول الخبر منها. فكان يؤخّر العشاء الآخرة حتّى يكون آخر من يصلّي. ثمّ يُمهل بقدر ما يرى أنّ الإنسان يبلغ أقصى البصرة من أدناها، [54] ثمّ يأمر صاحب شرطته بالخروج، فلا يرئ إنساناً إلّا قتله.

ذكر قتله البرىء

فأخذ ذات ليلة أعرابياً، فأتى به زياداً، فقال:

ـ «هل سمعت النداء؟»

قال: «لا، والله، إنّما قدمت بحلوبة لي، وغشيني الليل، فاضطررتها إلى موضع، وأقمت لأُصبح، ولا علم لي بما كان من الأمير.»

قال: «أظنّك صادقاً والله، ولكن في قتلك صلاح الأمّة»!

ثمّ أمر به فضُربت عنقه.

ضبطه البصرة بشدّة وتأكيده المُلك لمعاوية

وكان زياد أوّل من سدّد[1] أمر السلطان، وأكّد المُلك لمعاوية، بعد أن كادت البصرة خاصّة تخرج عن حدّ الضبط، وتخرج بخروجها المُلك كلّه فتقدّم زياد

١ سدّد: كذا في الأصل ومط وابن الأثير (٣: ٤٥٠)، وفي الطبري (٧: ٧٧) شدّ أمر السلطان، وفي حواشيه: شدّد أمره.

في العقوبة، وجرّد السيف، وأخذ بالظِّنّة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس خوفاً شديداً، حتّى أمن الناس بعضهم بعضاً، وحتّى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة، فلا يعرض له أحد، حتّى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة لا تغلق عليها بابها. وساس الناس سياسة لم يُر مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها[١] أحداً قبله، وأدرّ العطاء.

وقيل لزياد:

ـ «إنّ السبل مخوفة.»

فقال: [55]

ـ «لا أعاني شيئاً وراء المصر، حتّى أغلب على المصر وأُصلحه، فإن غلبني المصر، فغيره أشدّ غلبة.»

فلمّا ضبط المصر، تكلّف ما وراء ذلك، فأحكمه.

وكان يقول:

ـ «لو ضاع حبل بيني وبين خراسان، علمت مَن أخذه.»

وكتب خمسمائة رجل من مشيخة أهل البصرة في صحابته، فرزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة، واستعان بعدّة من أصحاب رسول الله، صلّى الله عليه.

وزياد أوّل من سير بين يديه بالحربة، ومُشي بين يديه بالعُمد الحديد، واتّخذ الحرس رابطة خمسمائة[٢]، فكانوا لا يبرحون المسجد، وجعل خراسان أرباعاً، فولّى كلّ رُبع رَجُلاً كافياً.

قطع أيدي الحاصبين في الكوفة

ولمّا مات المغيرة بن شعبة، كتب معاوية إلى زياد بعهده على الكوفة، فكان

---

١ في الأصل ومط. لم يهابوه. وما أثبتناه يؤيّده الطبري.

٢ و تحد الحرس رابطه خمسمائة. كذا في مط والطبري ٧ ٧٩

أوّل من جُمعت له البصرة والكوفة. واستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وشخص إلى الكوفة، وكان زياد يقيم ستّة أشهر بالبصرة، وستّة أشهر بالكوفة.

فلمّا دخل الكوفة صعد المنبر، وقال في خطبته:

ـ «إنى أردت أن أشخص [56] إليكم فى ألفين من شرط البصرة، ثمّ ذكرت أنكم أهل حقّ، وأنّ حقّكم طال ما دمغ الباطل، فأتيتكم فى أهل بيتى.»

فلمّا فرغ من خطبته، حصب على المنبر، فجلس، حتّى أمسكوا. ثمّ دعا قوماً من خاصّته، فأمرهم أن يأخذوا أبواب المسجد. ثمّ قال:

ـ «ليأخذ كلّ امرئ منكم جليسه، ولا يقولنّ: لا أدرى من جليسى.»

ثمّ أمر بكرسىّ، فوضع له بباب المسجد، فدعا أربعة أربعة، يحلفون بالله:

ـ «ما منّا من حصبك.»

فمن حلف خلّاه، ومن لم يحلف، حبسه وعزله، حتّى صار إلى ثمانين[1]، فقطع أيديهم على المكان.

قال الشعبي: فوالله ما تعلّقنا عليه بكذبة، وما وعدنا خيراً أو شرّاً إلّا أنفذه.

ولمّا قدم الكوفة، أتاه عُمارة بن عُقبة بن أبى مُعيط، فقال:

ـ «إنّ عمرو بن الحمِق يجمع من شيعة أبى تراب.»

فقام إليه عمرو بن الحارث[2] فقال:

ـ «ما يدعوك إلى رفع ما لا تتيقّنه، ولا تدرى ما عاقبته.»

فقال زياد:

---

١. كذا فى مط: ثمانين. وفى الطبرى (٧: ٨٨): ثلاثين، ويقال: بل كانوا ثمانين.

٢. كذا فى الأصل ومط: الحارث (= الحرث). وما فى الطبرى: حريث.

ـ «كلاكما لم يصب: أنت حيث تكلّمني في هذا علانية، وعمرو حين يردّك عن كلامك. قُوما إلى عمرو بن الحمق، فقولا له: ما هذه الزرافات [57] الّتي تجتمع إليك؟ من أرادك، وأردت كلامه، ففي المسجد.»

استخلاف زياد سمُرة على الكوفة وتشدّده في أمر الحروريّة

ثمّ استخلف زياد على الكوفة سمُرة بن الجندب، وهو من أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وخرج زياد إلى البصرة، وعاد إلى الكوفة، وقد قتل سمرة ثمانية آلاف من الناس، فقال له زياد:

ـ «هل تخاف أن تكون قتلت أحداً بريئاً؟» قال:

ـ «لو قتلت إليهم مثلهم، ما خشيت ذلك.»!

وكان زياد قد تشدّد في أمر الحروريّة، وأوصى سمُرة بذلك، وكان سمرة يخلفه على البصرة، إذا خرج إلى الكوفة، وعلى الكوفة، إذا خرج إلى البصرة، فقتل سمرة منهم خلقاً كثيراً.

ذكر حيلة للمهلّب بخراسان

كان زياد ولّى الحكم بن عمرو ناحية من خراسان، وكتب إليه:

ـ «إنّ أهل خُتّل[1] سلاحهم اللّبود، وآنيتهم الذهب.»

---

١ كذا في الأصل ومط: ختل. وفي الطبري (٧: ١٠٩): أهل جبل الأشل. وفي حاشيته: الأسل والخُتّل كورة واسعة كثيرة المدن، خلف جيحون، أحلّ من صغانيان، وأوسع خطّة، وأكثر مدناً، وأكثر خيراً، وهي على تخوم السند يقال لقصبتها: هُلْبُك، ولها مدن كثيرة. قال المرادي:

أيّها السائلي عن الحارث النذ ... ل، وعن أهل وُدّه الارجاسِ

عُدّ من خُتّلٍ، فخُتّلُ أرضٌ ... عُرِفت بالدولبِ، لا بالناسِ

فغزاهم، حتّى إذا توسّطهم، أخذوا عليه بالشعاب والطرق، وأحدقوا به فعيّ[1] بالأمر، فولّى المهلّب الحرب، وولي المغيرة بن أبي صفرة أمر العسكر، ولم يزل المهلّب يحتال، حتّى أخذ عظيماً من عظماء الأعاجم [58] فقال له:

- «إختر بين أن أقتلك، وبين أن تخرجنا من هذا المضيق.»

فقال له:

- «أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق، ومُرْ بالأثقال فلتُوجّه نحوه، حتّى إذا ظنّ القوم أنّكم قد دخلتم الطريق لتسلكوه، فإنّهم[2] سيجتمعون لكم، ويُعرون[3] ما سواه من الطرق، إلّا من لا يبالى به، فبادروهم إلى غيره، فإنّهم لا يدركونكم حتّى تخرجوا منه.»

ففعلوا ذلك، ونجوا، وغنموا غنيمة عظيمة، والقوم كانوا أتراكاً.

أسماء كتّاب معاوية
ومطالبته الهدايا في النوروز والمهرجان

كتب له على الرسائل عبيدالله بن أوس الغسّاني، ثمّ تولّى له ديوان ما بالعراق من صوافي كسرىٰ وآل كسرى. وكتب له على الخراج سرجون بن منصور الرومىّ.

وكان لمعاوية كاتب يقال له: عبدالرحمان بن الدرّاج، كان من مواليه، فقلّده خراج العراق لمّا قلّد المغيرة الحرب بها، وطالب أهل السواد بأن يهدوا إليه في النوروز، والمهرجان. ففعلوا ذلك، فبلغ عشرة آلاف ألف [١٠،٠٠٠،٠٠٠] درهم

١. كذا في الأصل والطبري: عيّ. وفي مط وحواشي الطبري: عنى. فسمي
٢. في الأصل ومط: فإنّه. وما أثبتناه يؤيّده الطبري.
٣. كذا في الأصل ومط: يعرون. وفي الطبري: يعرّون. وفي حواشيه: يعرون.

في سنة

ثمّ دعا بالدهاقين، فسألهم عمّا كان من صوافي كسرى، فعُرّف [59] أنّ الديوان بحُلوان. فبعث، فأُحضر، ثمّ استخرج ما كان فيه. فكان أوّل ذلك كلواذى للأساورة، والكتّاب، والحاشية.

وكان كسرى لا يُقطع الكتّاب أكثر من ثلاثين جريباً. فكتب ابن الدرّاج إلى معاوية بذلك، فكتب إليه معاوية: أن استصفها، واستخرج ما فيها. ففعل، فبلغت صوافي معاوية على يده خمسين ألف ألف [٥٠،٠٠٠،٠٠٠].

وكان عمرو بن سعيد بن العاص يكتب له على ديوان الجند.

معاوية واتخاذ ديوان الخاتم

وكان معاوية أوّل من اتّخذ ديوان الخاتم. وكان سبب ذلك أنّه كتب لعمرو بن الزبير بمائة ألف [١٠٠،٠٠٠] درهم إلى زياد، وهو عامله على العراق، ففضّ عمرو الكتاب، وجعلها مائتي ألف [٢٠٠،٠٠٠] درهم.

فلما رفع زياد حسابه قال له معاوية:

ـ «ما كتبت له إلّا مائة ألف.»

وقال معاوية:

ـ «المائة الألف ينبغي أن تُؤخذ منه.»

فحبسه مروان، فصار عبدالله بن الزبير إلى مروان، وهو على المدينة، فأخبره بقصّته، فقال مروان:

ـ «فإنّ الخبر كيت وكيت.»

فقال عبدالله:

ـ «أرأيت ـ إن أعطيناكها ـ أ لك عليه سبيل؟» قال:

ـ «لا.» قال:

ـ «فابعث، فخذها».

ففعل. [60] واتّخذ[1] معاوية ديوان الخاتم. وقلّده عبدالله بن محصن، وكان قاضياً[2].

من سيرة زياد

وكان زياد يجلس في كلّ يوم، إلّا يوماً في الجمعة، فيبدأ بِرُسل عمّاله. فينظر في ما قدموا له، ويسألهم عن بلادهم، ويجيبهم عن كتبهم، ثمّ ينظر في نفقاته، وفي أعطيات رجاله، ثمّ في ما دخل من البياعات، وفي الأسعار، ويسأل عن الأخبار، وينظر في ما يحتاج إليه من حفر نهر، وإصلاح قنطرة، أو تسهيل عقبة، أو نقل طريق إلى غيره، ثمّ يأخذ في كتب العمّال، فيملها بنفسه، فكان معاوية يفعل مثل ذلك سواءً، ولا يخالفه حتّى كبر[3]. وكان الضحّاك بن قيس يُملي وهو يسمع.

وخلا زياد يوماً على كاتبه أسراراً له، وبحضرته عبيدالله ابنه. فنعس زياد، فقام لينام، وقال لعبيدالله:

ـ «تعهّد هذا، لا يغيّر شيئاً ممّا رسمته له.»

فعرض لعبيدالله حاجة إلى البول، واشتدّ به ذلك، وكره أن ينبّه أباه، وكره أن يقوم عن الكاتب ويخلّيه، فشدّ إبهاميه بخيط، وختمهما، وقام لحاجته، فاستيقظ زياد قبل عوده. فلمّا نظر إلى الكاتب سأله عن خبره، فأخبره، فأحمد ذلك من فعل عبيدالله.

وأهدى زياد إلى معاوية [61] هدايا كثيرة، وكان فيها عقد جوهر نفيس، فأعجب به معاوية. فلما رأىٰ ذلك زياد، قال له:

---

١. في مط: أحد. ٢. في مط: قاضياً.

٣. كذا في الأصل ومط: ولا يخالفه حتّى كبر.

ـ «يا أمير المؤمنين، دوّخت لك العراق، وجبيت لك برّها وبحرها، وغثّها وسمينها، وحملت لك لبّها وقشرها.»

فقال له يزيد:

ـ «أين فعلت ذلك؟ لقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى عزّ قريش، ومن عُبيد إلى أبى سفيان، ومن القلم إلى المنابر، وبعد، فما أمكنك شىء ممّا اعتددت بـه، إلّا بنا.»

فقال معاوية:

ـ «حسبك! وريتْ بك زنادى.»

كلّ شيء هالك!

وقلّد معاوية عبدالرحمان بن زياد خراسان بعد موت أبيه، وكان سخيّاً، فـلم يزل عليها إلى أن ولى يزيد، وقتل الحسين بن علىّ ـ عليهما السلام ـ واستخلف على عمله قيس بن الهيثم، وأقبل إلى يزيد، فأنكر قدومه، ثمّ رضى عنه، وسأله عمّا حصل له، فاعترف له بعشرين ألف ألف [٢٠،٠٠٠،٠٠٠] درهم، فسوّغه إيّاها[1]، وكان معه من العروض أكثر منها.

فقال يوماً لكاتبه إصطفانوس.

ـ «ويحك! كيف يجيئنى النوم وهذا المال عندى؟»

فقال له:

ـ «وكم مبلغه؟»، فقال:

ـ «قدّرت منه لمائة سنة، فى كلّ يوم ألف درهم، لا أحتاج منه إلى شراء رقيق، ولا كُراع، ولا عرض من الأعراض[2].» [62]

---

١ كذا فى الأصل ومط. فسوّغه إيّاها.

٢ كذا بالأصل عرض من الأعراض (بالعين المهملة). وفى مط. غرض من الأغراض (بالغين المعجمة)

فقال له إصطفانوس:

ـ «أنام الله عينك أيها الأمير، لا تعجب من نومك وعندك هذا المال، ولكن اعجب من نومك إن ذهب، ثمّ نمت.»

قال: والله، لقد ذهب ذلك المال كلّه، أودع بعضه فجُحد، وأنفق بعضه، وسُرق أسبابه بعضه. فآل أمره إلى أن باع فضّة كانت حلية مصحفه، وكان يركب حماراً صغيراً تنال رجله الأرض عليه.

فلقيه مالك بن زياد[١]، فقال له:

ـ «ما فُعل المالُ الذى كنت تقول فيه ما تقول؟» قال:

ـ «كلّ شىء هالك، إلّا وجهه[٢]، يابا يحيى!»

تحريض معاوية بين سعيد بن العاص ومروان

وكتب معاوية إلى سعيد بن العاص: أن:

ـ «إقبض أموال مروان، واهدم داره.»

فأمسك سعيد عن ذلك. ثمّ كاتبه فى ذلك ثانياً. فراجعه سعيد. فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، قرابته قريبة.»

فكتب إليه ثالثاً، يقبض أمواله، وهدم داره، فلم يفعل. فعزل سعيداً[٣]، وولّى مروان، وكتب إليه أن:

ـ «إهدم دار سعيد.»

فأرسل الفعلة، وركب ليهدمها، فقال له سعيد:

ـ «يابا عبدالملك، أتهدم دارى؟» قال:

ـ «نعم! كتب إلىّ أميرالمؤمنين، ولو كتب إليك، لفعلت.» قال

---

١ زياد: كذا فى الأصل، وما فى مط: دينارا. ٢ س ٢٨، القصص ٨٨.

٣ أنظر الطبرى (٧: ١٦٤).

ـ «ما كنت لأفعل.» قال:
ـ «بلىٰ والله، لو كتب إليك لفعلت.» قال:
ـ «كلّا، يابا عبدالملك.» [63]
وقال لغلامه:
ـ «انطلق، وجئنى بكتب معاوية.»
فجاء بها، فقرأها عليه فى ما كتب فى هدم داره.
فقال مروان:
ـ «يابا عثمان! وردت عليك هذه الكتب فى هدم دارى، فلم تفعل، ولم تعلمنى!» قال:
ـ «ما كنت لأهدم دارك، ولا أمنّ عليك، وإنّما أراد معاوية أن يحرّض بيننا.»
فقال مروان:
ـ «بأبى أنت، والله أكثر منّا ريشاً وعَقِباً.»
ورجع ولم يهدم دار سعيد.

بين سعيد ومعاوية

وقدم سعيد على معاوية، فقال:
ـ «يابا عثمان، كيف تركت أبا عبدالملك؟» قال:
ـ «تركته ضابطاً لأعمالك، منفّذاً لأمرك.» قال:
ـ «إنّه لصاحب الخبزة كُفى نُضجها، فأكلها.» قال:
ـ «كلّا، والله يا أميرالمؤمنين، إنّه مع قوم لا يجمل[1] بهم السوط، ولا يحلّ[2] لهم السيف، يتهادون كوقع النبل، سهم لك، وسهم عليك.» قال:

---

١. لا يجمل: مهيا عموض بالأصل، وفى مط. تحمل.
٢. كذا فى الأصل وفى مط. تحمل.

ـ «ما الذى باعد بينك وبينه؟» قال:

ـ «خافنى على شرفه، وخفته على شرفى.» قال:

ـ «فماذا له عندك؟» قال:

ـ «أسرّه غائباً، وأسوءه شاهداً.» قال:

ـ «تركتنى يابا عثمان، فى هذه الهنات؟» قال:

ـ «إنّك تحمّلت الثقل، وكُفيت الحرم[1]، وكنت قريباً، فلو دعوتَ لأُجبتَ، ولو وهيتَ لرُقعتَ[2].» [64]

كلام واقع ارتفع به صاحبه

ومن الكلام الذى الواقع الذى ارتفع به صاحبه، كلام عبيدالله بن زياد لمعاوية. وذلك أنّه وفد على معاوية، بعد موت أبيه، فقال له معاوية:

ـ «من استخلف أخي على عمله؟»

قال عبيدالله:

ـ «استخلفَ خالد بن أسيد على الكوفة، وسمُرة بن الجندب على البصرة.»

فقال له معاوية:

ـ «لو استعملك أبوك، لاستعملتك.»

فقال عبيدالله:

ـ «أنشدك الله، أن يقولها لى أحد بعدك: لو ولّاك أبوك، أو عمّك، ولّيتك.»

وكان معاوية لا يولّى أحداً حتّى يمتحنه بولاية الطائف، فإن أحسن الولاية، ولّاه مكّة، فإن وفى، ولّاه معها المدينة، ثمّ رتّبه كذلك. فلما قال عبيدالله بن زياد ما قال، استرجحه، وعهد إليه، ووصّاه، وولّاه مكان أبيه. فغزا خراسان، وفتح

١ الحرم: كذا بالأصل وفى مط: الجرم. ٢ لرقعت: كذا فى الأصل وفى مط: لوقعت.

رامين[1]، ونَسَف[2]، وبيكند[3]، وهى من بخارىٰ. فقدم بألفين من سبى بخارىٰ، وكلّهم جيّد الرمى بالنشّاب.

وكان معاوية ولّى البصرة عبدالله بن عمرو بن غيلان، فاحتال له أهل البصرة، حتّى عزله عنهم.

ذكر حيلتهم هذه

[65] خطب عبدالله بن عمرو بن غيلان[4]، على منبر البصرة. فحصبه رجل من بنى ضبّة، فأمر به، فقُطعت يده، فأتته بنو ضبّة، فقالوا:

ـ «إنّ صاحبنا جنىٰ ما جنىٰ، وقد بلغ الأميرُ[5] فى عقوبته، ولا نأمن أن يبلغ خبره أميرالمؤمنين أنه قطع على فاحشة، وتسألك أن تكتب إلى أميرالمؤمنين أنه قطع على تبرئة[6]، وأمر لم يضح[7].»

فكتب لهم إلى معاوية بما سألوه، فأمسكوا الكتاب عندهم، حتّى بلغ رأس السنة، ثمّ وافوه، فقالوا:

ـ «يا أميرالمؤمنين، إنّه قَطَع صاحبنا، وهذا كتابه بإقراره على غير ذنب.»

فقرأ الكتاب، وقال:

ـ «أمّا القود من عمّالى، فلا سبيل إليه، ولكن، إن شئتم، وَدينا صاحبكم.»

قالوا:

١. رامين: كذا فى الأصل ومط. وما فى ابن الأثير: رامنى. وفى الطبرى: راميش.

٢. فى الأصل ومط: نصفه. وما فى ابن الأثير: نسف.

٣. بيكند: مهملة فى الأصل ومط. والإعجام من ابن الأثير (٣: ٤٩٩).

٤. من «غيلان» إلى «غيلان» ساقطة من مط.

٥. كذا فى الطبرى (٧: ١٧١)؛ بلغ الأميرُ

٦. كذا فى الأصل: تبرئة. فى مط: تبرية. وفى ابن الأثير: شبهة.

٧. لم يضح: كذا فى الأصل ومط. وما فى ابن الأثير: لم يتضح (٣: ٥٠٣). وفى الطبرى (٧: ١٧٢): على شبهة وأمر لم يَضِح

ـ «فَدِهْ»

فوداهُ من بيت المال، وعزل عبدالله، وولّى عبيدالله بن زياد.

ذكر بعض سيرة معاوية، وآرائه، ودهائه

ما قاله عمر فيه

كان عمر بن الخطّاب كثيراً ما يقول:

ـ «تذكرون كسرىٰ وقيصر ودهيهما، وسياستهما وعندكم معاوية.»

بين معاوية وعمرو بن العاص

فممّا يحضرنا من ذلك: أنّ عمرو بن العاص، كان وفد إلى معاوية ومعه أهل مصر، فقال لهم عمرو:

ـ «انظروا، إذا دخلتم على ابن هند، فلا تسلّموا عليه [66] بالخلافة، فإنّه أعظم لكم في عينه، وصغّروه ما استطعتم.»

فلمّا قدموا عليه، قال معاوية لحاجبه:

ـ «كأنّي بابن النابغة، قد صغّر شأني عند القوم، فإذا دخل الرجل، أو الوفد، فتعتعوهم[1] أشدّ ما يكون، فلا يبلغنّي رجل منهم، إلّا وقد أهمّته نفسه.[2]»

فكان أوّل من دخل عليه رجل من مصر، يقال له. ابن خيّاط، فدخل وقد تُعتع، فقال:

ـ «السلام عليك، يا رسول الله!»

فتتابع القوم على ذلك، فلمّا خرجوا من عنده، قال لهم عمرو:

۱. تعتعه، تلتله وتلتله فأقبل به وأدبر: حرّكه بعنف: أكرهه في الأمر حتّى قلق. تعتع في الكلام تردّد من عيّ أو حصر (مد مل).

۲. في الطبري (۷: ۲۰۷ـ۲۰٦): همّته نفسه بالتلف.

ـ «لعنكم الله. بهيتكم أن تسلّموا عليه بالإمارة، فسلّمتم عليه بالنبوّة!»

وكان معاوية قد لبس ذلك اليوم أبهىٰ لباسه، واكتحل، وكان من أجمل الناس، إذا فعل ذلك.

بينه وبين عمر بن الخطّاب

ومن ذلك أنّ عمر بن الخطّاب، كان خرج إلى الشام، فرأىٰ معاوية فى موكب يتلقّاه، ثمّ راح إليه فى موكب.

فقال له عمر:

ـ «يا معاوية! تغدو فى موكب، وتروح فى مثله. ويبلغنى أنّك تصبّح فى منزلك، وذوو الحاجات ببابك.» فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، العدوّ بها قريب، ولهم عيون وجواسيس فأردت أن يروا للإسلام عزّاً.»

فقال عمر:

ـ «إنّ هذا [67] لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب.»

فقال معاوية:

ـ «يا أميرالمؤمنين مُرني بما شئت أصِر إليه.» قال:

ـ «ويحك! ما ناظرتك[1] فى أمر أعتب عليك فيه، إلّا تركتنى لا أدرى: آمرك، أم أنهاك[2]!»

ما كان بينه وبين المغيرة

ومن ذلك أنّ المغيرة كتب إلى معاوية:

---

١. فى مط: «ما ناظرتك! فى ما أعتب» بدل: «ما ناظرتك فى أمر أعتب.»

٢. فى مط: أم نهاك

ـ «أمّا بعد، فإنّي كبرت، ودقّ عظمي، وشنفت[١] لي قريش. فإن رأيت أن تعزلني، فاعزلني.»

فكتب إليه معاوية:

ـ «جاءني كتابك تذكر أنّه كبرت سنّك. فلعمرى، ما أكل عمرك غيرك، وتذكر أنّ قريشاً شنفت لك، ولعمري، ما أصبت خيراً إلّا منهم، وتسألني أن أعزلك. فقد فعلت، فإن تك صادقاً فقد شفعتك[٢]، وإن تك مخادعاً، فقد خادعتك.»

فلما ورد المغيرة باب معاوية، ذهب كاتبه إلى سعيد بن العاص، وأشار عليه أن يخطب ولاية الكوفة، ودلّه على وجوه من الرغائب. فلما بلغ ذلك المغيرة، شقّ عليه، ودخل على يزيد بن معاوية، وعرّض له بالبيعة، فدخل يزيد على أبيه. فأعلمه ذلك، فدعا معاوية المغيرة، ورفق به، وردّه إلى الكوفة، وسأله أن يأخذ بيعة يزيد على الناس. [68]

وقال عمرو بن العاص:

ـ «ما رأيت معاوية متّكئاً قطّ، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى، كاسراً[٣] عينه، يقول لرجل: تكلّم، إلّا رحمته.»

بين معاوية وهانئ

حكى الشعبيّ: أنّ وفد الكوفة قدموا على معاوية لمّا أراد البيعة ليزيد، وفيهم هانئ بن عروة المرادي. فبينا أنا جالس إذ قال هانئ بن عروة:

ـ «العجب من معاوية، يريد أن يقسرنا على بيعة ابنه يزيد، وحاله حاله[٤]، وما ذاك بكائن.»

---

١ شنف فلاناً، وبه: أبغضه، وتنكّره. ٢. شفع فلاناً في كذا: قبل شفاعته فيه

٣ كسر فلان من طرفه، وعلى طرفه كسراً: غضّ منه شيئاً

٤ وحاله حاله: كذا في الأصل، وما في مط: حاله (مرة واحدة).

وغلام من قريش قاعد في حلقته، فقام، فدخل على معاوية. فأخبره بقول هانئ، فقال له:

ـ «أنت سمعت هانئاً يقوله؟» قال:

ـ «نعم » قال:

ـ «فاخرج من هذا الباب وائت حلقته من باب من أبواب المسجد، غير بابك الذي خرجت منه. فقل له إذا خفّ مَن عنده:

ـ «أيها الشيخ! قد سمعت مقالتك، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر، ولا أُحبّ لك أن تتكلّم بهذا الكلام، فإنّهم بنو أميّة، وجرأتهم جرأتهم، وإقدامهم ما قد علمت.»

ثمّ قال له معاوية:

ـ «.. إذا فرغت من كلامك، فقل له:

ـ إنه لم يدعني إلى هذا، إلّا النصيحة لك.

ثمّ احفظ عليه ما يقول.»

فأقبل الفتىٰ إلى مجلس هانئ، فلما خفّ مَن عنده، دنا منه، فكلّمه بهذا [69] الكلام.

فقال له:

ـ «يابن أخي، والله ما بلغتْ نصيحتك لي كلّ هذا، وإنّ هذا الكلام لكلام معاوية، وأعرفه، وأشهد به.»

فقال الفتىٰ:

«ما أنا ومعاوية! والله ما يعرفني، ولا يدرى من أنا.» قال:

ـ «يابن أخي، فلا عليك، ولكن إذا لقيته فقل له: يقول لك هانئ: لا والله، لا إلى ما أردت من سبيل، إنهض يابن أخي!»

فذهب الفتىٰ، فأعلم معاوية ما قال، فقال:

ـ «بالله نستعين عليه.»

ثمّ أذن للوفد، وقال لهم:

ـ «إرفعوا حوائجكم.»

ففعلوا، فلما عرض كتاب هانئ على معاوية، قال:

ـ «يا هانئ ما صنعتَ شيئاً، فزد[١].»

فزاد هانئ ومعاوية يقول:

ـ «ما صنعت شيئاً، هات حوائجك!»

حتّى لم يدع حاجة لمن[٢] يهتمّ به إلّا رفعها وقضاها. ثمّ قال:

ـ «يا هانئ لم تصنع شيئاً.» فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، قد بقيت حاجة.» قال

ـ «وما هي؟» قال:

ـ «بيعة يزيد، أتولّاها له بالعراق.» قال:

ـ «هي إليك.»

فقدم هانئ، فقام بأمر يزيد، وتولّى المغيرة بن شعبة البيعة.

من تشبّهَ بمعاوية في ذلك

وتشبّه بمعاوية عبدالملك، وذلك أنه لمّا أراد البيعة للوليد، وجّه الوليد إلى القين، وعاملة[٣]، فأصلح بينهم، وكانت بينهما دماء، فاحتملها. فكانت القين وعاملة أوّل من دعا إلى الوليد.

ثمّ أراد [70] الوليد ذلك عبدالعزيز ابنه، فوجّهه إلى قيس بن غسّان، وكانت بينهما دماء، فأصلح بينهم، واحتمل دماءهم. فكانت قيس وغسّان أوّل من دعا

---

١ فزد: سقطت من مط. ٢. لمن: سقطت من مط.

٣ القين وعاملة، كذا في الأصل. وما في مط. القين وعامله. (في كلا الموضعين)

إلى عبدالعزيز.

ثمّ صنع ذلك سليمان لمّا وقع بين قيس وحمير بدمشق من الدماء ما وقع. وجّه ابنه أيّوب، فأصلح بينهم، واحتمل دماءهم، ومات أيّوب قبل أن تظهر له بيعة.

ثمّ صنع ذلك يزيد بن عبدالملك. كتب إليه ابن هبيرة من الجزيرة، يشير عليه: أن يوجّه الوليد بن يزيد، ليصلح ما بين قيس وتغلب. فوجّهه، فأصلح بينهم، واحتمل دماءهم، فكانوا أوّل من تكلّم في أمر الوليد. وذلك في حياة أبيه، حتّى بايع[1] بعد هشام له.

كلام لمعاوية

وقال معاوية:

ـ «إنّي لأرفع نفسي، أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو عورة لا أواريها بستري، أو إساءة أكثر من إحساني.»

---

١ بايع كذا في الأصل، وما في مط بويع.



أيّام يزيد بن معاوية
وما جرىٰ فيها من الأحداث الّتي يليق ذكرها بهذا الكتاب

وصايا معاوية ليزيد

كان معاوية وطّأ لابنه يزيد الأمور، وأخذ على الوفود له البيعة، فلما مرض [71] المرضة التي توفّي فيها، دعا به وقال:

ـ «إنّي لا أتخوّف عليك أن ينازعك هذا الأمر الذي استتبّ لك، إلّا أربعة نفر من قريش: الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمان بن أبي بكر.

ـ «فأمّا عبدالله بن عمر، فرجل قد وقذته[1] العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره، بايعك.

ـ «وأما حسين بن عليّ، فإنّ أهل العراق لن يدعوه، حتّى يُخرجوه، فإن خرج عليك، فظفرت عليه، فاصفح عنه، فإنّ له رحماً ماسّة، وحقّاً عظيماً.

ـ «وأمّا ابن أبي بكر، فرجل ليست له همّة إلّا في النساء، واللهو.

ـ «وأمّا الذي يجثم عليك جثوم الأسد، ويراوغك روغان الثعلب، فإذا أمكنته

---

١. في مط: وقدته. وقذ فلاناً يقذه وقذاً: ضربه حتّى استرخىٰ، وأشرف على الموت.

فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك، فقدرت عليه، فقطّعه آراباً.»

فلما مات معاوية امتنع هؤلاء من البيعة، وخرج عبدالله بن الزبير، والحسين، إلى مكّة لمّا أخذهما عامل يزيد بالبيعة، وكانا يومئذ بالمدينة. وأما عبدالله بن عمر، فلم يتشدّد عليه، وكذلك عبدالرحمان بن أبي بكر.

فلما قدم عبدالله بن الزبير والحسين مكّة، اجتمع الناس على الحسين، وابن الزبير قد [72] لزم جانب الكعبة، فهو قائم يصلّي عندها عامة نهاره ويطوف، ثمّ يأتي الحسين في من يأتي، ولا يزال يشير عليه بالرأي، وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير، قد عرف أنّ أهل الحجاز لا يطيعونه، ولا يبايعونه أبداً، مادام الحسين بالبلد، وأنّ الحسين أعظم في نفوسهم، وأعينهم منه، وأطوع في الناس منه.

وبلغ أهل العراق امتناع الحسين من البيعة ليزيد، وأنه لحق بمكّة، فأرجفوا[1] بيزيد.

ذكر رأي أُشير به

على الحسين بن عليّ عليهما السلام

كان عبدالله بن مطيع لقي الحسين، وهو يريد مكّة، فقال:

ـ «جعلني الله فداءك، أين تريد؟»

قال:

ـ «أما الآن، فإني أريد مكّة، وأما بعد، فإني أستخير الله عزّوجلّ.»

قال:

ـ «خار الله لك، وجعلنا فداءك. فإذا أتيت مكّة، فإيّاك أن تقرب الكوفة، فإنها بلدة مشؤومة قتل بها أبوك، وخذل فيها أخوك، واغتيل بطعنة كادت تأتي على

١. أرجفوا: خاضوا في الأخبار السيئة، وذكر الفتن.

نفسه إلزم الحرم، فإنك سيّد العرب، لا يعدل بك أهل الحجاز أحداً، ويتداعى الناس إليك من كلّ جانب.»

ذكر رأي آخر أُشير به عليه [73]

فأمّا محمد بن الحنفيّة، فإنه أتاه، فقال:

ـ «يا أخي، أنت أعزّ خلق الله عليّ، ولست أذخرك نصيحتي[١]، تنحّ عن الأمصار ما استطعت. ثمّ ابعث رسلك إلى الشام، فادعهم إلى نفسك فإن بايعوك، حمدت الله عليه، وإن اجتمع على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك، ولا عقلك، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك. إني أخاف أن تأتي مصراً من الأمصار، فيختلف الناس بينهم، فمنهم طائفة معك، والأخرى عليك، فيقتتلوا، فتكون لأوّل الأسنّة. فإذا خير هذه الأمّة نفساً، وأباً، وأمّاً، أضيعها دماً، وأذلّها أهلاً.»

فقال له الحسين:

ـ «فأين أذهب يا أخي؟» قال:

« إنزل مكّة، فإن اطمأنّت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبتْ لك، لحقت بالرمال، وشعف[٢] الجبال، وتنقّلت[٣] من بلد إلى بلد حتّى يفرق[٤] لك الرأي، فتستقبل الأمور استقبالاً، وتستدبرها استدباراً.»

فقال:

ـ «يا أخي، قد نصحت وأشفقت.»

---

١. في مط: أدخرك نصيحتي. لست أدّخرك: لست أدّخر منك.

٢. في مط: صعف. والشعفة من كلّ شيء: أعلاه. يقال: شعفة الجبل، شعفة الرأس، وأيضاً شعفة القلب: الحبّ الزائد.

٣. في مط: ينقلب.

٤. يفرق لك: ترى، يستبين.

ما كتبه إليه أهل الكوفة

ثمّ إنّ أهل الكوفة، من شيعة أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام اجتمعوا، فكاتبوا الحسين بن عليّ:

ـ «إنّا قد [74] اعتزلنا الناس، فلسنا نصلّي بصلاتهم، ولا إمام لنا، فلو أقبلت إلينا رجونا أن يجمعنا الله لك على الإيمان.»

ثمّ اجتمع رؤساء الشيعة مثل سليمان بن صُرد، والمسيّب بن نجبة[١] وأشباههم، وكتبوا إليه:

[«بسم الله الرحمن الرحيم»][٢]

ـ «للحسين بن عليّ من شيعته المؤمنين. أما بعد، فحيّ هلا، فإنّ الناس ينتظرونك، لا رأى لهم في غيرك، فالعجل، فالعجل، ثمّ العجل، والسلام.»

ثمّ اجتمعوا ثالثة، فكتبوا إليه:

ـ «من شبث بن ربعيّ، وحجّار بن أبجر، ويزيد بن الحارث بن رويم، وعمرو بن الحجاج، ومحمد بن عمير. أما بعد، فقد اخضرّ الجناب، وأينعت الثمار، [وطمّت الجمام،][٣] فإذا شئت فاقدم على جنود مجنّدة لك[٤]، والسلام.»

فاجتمعت الرسل كلّهم عند الحسين، وقرأ الكتب، وسأل الرسل عن أمر الناس. ثمّ كتب أجوبة كتبهم، وأنفذ مسلم بن عقيل بن أبي طالب إليهم، وقال له:

ـ «اذهب، فاعرف أحوال الناس، وانظر ما كتبوا به، فإن كان صحيحاً قد اجتمع عليه رؤساؤهم، وتابعهم من يوثق به، خرجنا إليهم.»

فسار مسلم إلى الكوفة، وبها النعمان بن بشير الأنصاري أميراً [75] من قبل

---

١. نجبة: مهملة في الأصل ومط. والضبط من الطبري ٧: ٢٣٣

٢. البسملة غير موجودة في الأصل ومط. فأضفناها من الطبري (٧: ٢٣٤).

٣. ما بين [ ] تكملة من الطبري (٧: ٢٣٥). ٤. في الطبري: على جند لك مجنّد

يزيد. فلما تحدّث الناس بمقدمه دبّوا إليه، فبايعه منهم اثنا عشر ألفاً. فقام عبدالله بن مسلم الحضرمي إلى النعمان بن بشير، فقال له:

ـ «إنك ضعيف، أو متضعّف، قد فسد البلاد، وليس يصلح ما ترىٰ إلّا الغشم.»

فقال النعمان:

ـ «لأن أكون ضعيفاً وأنا في طاعة الله، أحبّ إليّ من أن أكون قويّاً، وأنا في معصية الله، وما كنت لأهتك ستراً ستره الله.»

فكُتب بقول النعمان إلى يزيد وقيل له[1]:

ـ «إن كانت لك حاجة في الكوفة، فابعث إليها رجلاً قويّاً ينفّذ أمرك، ويعمل مثل عملك، فإنّ النعمان بن بشير إمّا ضعيف، أو متضعّف.»

فدعا يزيد كاتبه سرجون، وكان يستشيره، فأخبره الخبر.

ذكر رأي أشار به الكاتب على يزيد

قال له:

ـ «أكنت قابلاً من معاوية لو كان حيّاً.» قال:

ـ «نعم.» قال:

ـ «فاقبل منّي، فإنّه ليس للكوفة إلّا عبيدالله بن زياد، فولّه.»

وكان يزيد ساخطاً عليه، وهمّ بعزله عن البصرة. فكتب إليه برضاه عنه، وأنه قد ولّاه الكوفة مع البصرة، وكتب إليه [76] أن يطلب مسلم بن عقيل، فيقتله.

فأقبل عبيدالله في وجوه أهل البصرة، حتّى قدم الكوفة متلثّماً، فلا يمرّ على مجلس من مجالسهم فيسلّم، إلّا قالوا:

ـ «وعليك السلام يابن بنت رسول الله.»!

---

١ ل: سقطت من مط.

وهم يظنّون أنه الحسين بن عليّ، حتّى نزل القصر، واجماً كئيباً لما رأى.

ثمّ جمع الناس فخطبهم، وأعلمهم نيّة يزيد[1] في الإحسان إلى سامعهم ومطيعهم، والشدّة على مريبهم وعاصيهم، ووعد، وأوعد، وختم الخطبة بأن قال:

ـ «ليُبق امرؤ على نفسه، الصدق ينبئ عنك لا الوعيد.[2]»

ثمّ أخذ العرفاء أخذاً شديداً، ودعا الناس، فقال:

ـ «اكتبوا لي العرفاء، ومن فيكم من طلبة أميرالمؤمنين، وأهل الريب، الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتبهم لنا، فهو برىء، ومن لم يكتب لنا أحداً، فليضمن لنا ما في عرافته: أن لا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي علينا فيهم باغ، فمن لم يفعل ذلك، فبرئتْ منه الذمّة وحلال علينا دمه وماله. وأيّما عريف وُجد في عرافته من بغية[3] أميرالمؤمنين أحد لم يرفعه إلينا، صُلب على باب داره، وأُلقيت تلك العرافة من العطاء.»

[77] ذكر تلافي عبيدالله مُلك يزيد
بعد أن أشرف على الذهاب، وما كان من حيله ومكائده

ثمّ إنّ عبيدالله دعا مولى له، فأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وقال له:

ـ «إذهب، حتّى تسأل عن الرجل الذي يبايع أهل الكوفة[4]، فأعلمه: أنّك رجل من أهل حمص جئت[5] لهذا الأمر، وهذا مال تدفعه إليه، ليتقوّى[6] به.»

فلم يزل يتلطّف، ويرفق، ويسترشد، حتّى دُلّ على شيخ من أهل الكوفة

١ مط: «وأعلمهم أنه يريد الإحسان» بدل «وأعلمهم نيّة يريد في الإحسان».
٢ والعبارة في مط: ليتق امرؤ على نفسه، لا الصدق ينبي عنك، ولا الوعيد.
٣ في مط: «من بقية أميرالمؤمنين»! بدل «من بغيه أميرالمؤمنين»
٤. في مط: يبايع على الكوفة
٥. كذا في الأصل والطبري (٧: ٢٢٨): جئت وفي مط: حيث، وهو خطأ
٦. في مط: لتقوى.

يأخذ[1] البيعة، فلقيه، فأخبره.

فقال الشيخ: «لقد سرّني لقاؤك، وساءني. أمّا ما سرّني من ذاك، فما هداك الله له، وأمّا ما ساءني، فإنّ أمرنا لم يستحكم بعد.»

قال:

فأدخله عليه، وقبض منه المال، وبايعه، ورجع الرجل إلى عبيدالله، فأخبره.

مسلم ينتقل إلى بيت هانئ

وانتقل مسلم، حين وافى عبيدالله، إلى منزل هانئ بن عروة المراديّ، وكتب إلى الحسين يخبره ببيعة بضعة عشر ألفاً من أهل الكوفة، ويأمره بالقدوم عليه.

وقال عبيدالله لوجوه أهل الكوفة:

ـ «إنى أعلم أنه قد سار معي، وأظهر الطاعة لي من هو عدوّ للحسين، حين ظنّ أنّ الحسين قد دخل البلد، وغلب عليه، ووالله، ما عرفت منكم أحداً.»

وقدم شريك بن الأعور [78] من البصرة، وكان من شيعة عليّ، عليه السلام.

ذكر مكيدة بليغة لشريك ما تمّت له

فقال لهانئ:

ـ «مُر مسلماً يكون عندي، فإنّ عبيدالله يعودني.»

وقال شريك لمسلم:

ـ «أرأيتك، إن أمكنتك من عبيدالله، تضربه بالسيف؟» قال:

ـ «نعم والله.»

وأظهر شريك زيادة على ما به من الشكاة، وهو نازل في دار هانئ. وجاء

---

١ في الطبري: بلى.

عبيدالله يعود شريكاً في منزل هانئ.

فقال شريك لمسلم:

ـ «إذا تمكّن عبيدالله، فإنّي مطاوله الحديث، فاخرج إليه بسيفك، واقتله، فليس بينك وبين القصر من تحول دونه. وإن شفاني الله كفيتك البصرة.»

فقال هانئ:

ـ «إني لأكره قتل رجل في منزلي.»

وشجّعه شريك، وقال:

ـ «هي فرصة لك، وإيّاك أن تضيّعها، فانتهزها فيه، فإنّه عدوّ الله، وعلامتك أن أقول[1]: إسقوني ماءً.»

وجاء عبيدالله بن زياد، فدخل، وجلس، وسأل شريكاً عن وجعه، وقال:

ـ «ما الذي تجد، ومتى اشتكيت؟»

فلما طال سؤاله إيّاه، ورأى أنّ أحداً لايخرج، خشي أن يفوته، فأخذ يقول:

ـ «إسقوني ويحكم [ماءاً]،[2] ما تنتظرون بنفسي[3] [79] لن[4] تحيوها، إسقونيه[5] وإن كانت نفسي فيه[6].»

فقال ذلك مرّتين، أو ثلاثاً.

فقال عبيدالله:

ـ «ما شأنه؟ أو ترونه يهجر؟»

فقال هانئ:

---

١ أقول: سقطت من مط ٢ ماءاً: سقطت من الأصل، فأثبتناها كما في مط.

٣ في مط «بليلي» بدل «بنفسي».

٤ في مط: أن يحتوها. وفي الطبري (٧: ٢٤٨): «ما تنظرون بسلمى أن تحيوها، اسقنيها»، في ابن الأثير «اسقونيها»، وفي حواشي الطبري: «ما الإنتظار لسلمى لا تحيّوها». «ما انتظار سلمى لا يحيّيها». أيضاً في الطبري (٧: ٢٢٤): «ويلكم تحموني الماء، ولو كانت فيه نفسي».

٥ إسقونيه: ما في الأصل ومط: إسقنيها ٦. فيه: ما في الأصل ومط: فيها

ـ «نعم، أصلحك الله، هذا ديدنه منذ الصبح.»

ففطن مولىً لعبيدالله قائم على رأسه، فغمزه، فقام عبيدالله.

فقال شريك:

ـ «انتظر، أصلحك الله، فإنى أريد أن أُوصى إليك.»

فقال:

ـ «أعود.»

فلما خرج، قال شريك لمسلم:

ـ «ما منعك من قتله؟» قال:

ـ «خصلتان: أما إحداهما، فكراهة هانئ أن يقتل في داره رجل، والأخرى، فحديث سمعته من عليّ عن النبيّ ـ صلّى الله عليه ـ أنّ الإيمان قيّد الفتك، فلا يفتك مؤمن.»

فلبث شريك بن الأعور بعد ذلك ثلاثاً ومات.

هانئ يُطلب إلى القصر

ودعا عبيدالله هانئ بن عروة، فأبى أن يجيبه إلّا بأمان، فقال:

ـ «ماله وللأمان، هل أحدث حدثاً؟»

فجاءه بنو عمّه، ورؤساء العشائر، فقالوا:

ـ «لا تجعل على نفسك سبيلاً، وأنت برىء.»

وأُتى به، فقال عبيدالله:

ـ «إيه[1] يا هانئ، ما هذه الأمور التى تربّص[2] فى دورك لأمير المؤمنين، وعامّة المسلمين؟» قال:

---

١. والضبط في الطبرى: «إيهٍ» بالتنوين.

٢. ما فى الأصل غير واضح. وفى مط: تربص. وما أثبتناه من الطبرى (٧: ٢٥١).

ـ «وما ذاك، يا أميرالمؤمنين؟» قال:

ـ «جئت بمسلم بن عقيل، وأدخلته دارك [80] وجمعت السلاح، والرجال فى دور حولك[1]، وظننت أنّ ذلك يخفى.» فقال:

ـ «ما فعلتُ، وما مسلم عندى.» قال:

ـ «بلى، قد فعلتَ» قال:

ـ «لا، ما فعلتُ.» قال:

ـ «بلى.»

فلما كثر ذلك، وأبى هانئ إلّا مجاحدته، دعا عبيدالله ذلك الدسيس الذى دسّه، وحمل على يده المال، وكان قد أنس بهم، وداخلهم، وجعل ينقل كلّ ما يكون منهم، إليه. فلما رءاه هانئ، قال له عبيدالله:

ـ «هل تعرف هذا؟»

فعلم هانئ أنه كان عيناً عليهم، فسقط فى خلده[2] ساعة، ثمّ إنّ نفسه راجعته، فقال له:

ـ «إسمع منّى، فإنّى، والله الذى لا إله إلّا هو أصدقك: ما دعوته، ولكن نزل علىّ، فاستحييت من ردّه، ولزمنى ذمامه، فأدخلته، وأضفته، وآويته. فإن شئت، أعطيتك موثقاً، وما تطمئن إليه، لا أبغيك سوءاً ولا غائلة، وإن شئت أعطيتك رهينة تكون فى يدك حتّى آتيك، وأنطلق إليه، فآمره أن يخرج من دارى إلى حيث شاء من الأرض، فأخرج من ذمامه وجواره.»

فقال:

١ كذا فى الأصل ومط. فى دور حولك. وفى الطبرى (٧: ٢٥١) فى الدور حولك

٢ فى الأصل ومط، وبعض الأصول: فى جلده! وما ضبطناه من الطبرى. وفى ابن الأثير فى يده. وهو أصحّ. سقط فى يده: زلّ، وأخطأ فى الكلام، ندم، تحيّر. ولعلّ «فى خلده» تعبير آخر عمّا أثبته ابن الأثير

ـ «والله، لا تفارقني أبداً، حتّى تأتيني به.» قال:

ـ «والله، لا أجيئك به أبداً، أنا أجيئك بضيفي تقتله؟»

قال: [81]

ـ «والله، لتأتيني به.»

وقام الناس إليه، يناشدونه في نفسه، ويقولون:

ـ «إنّه سلطان، وليس عليك في دفعه إليه عار، ولا نقيصة.» فقال:

ـ «بلىٰ والله، عليّ في ذلك، الخزي والعار: أدفع جاري وضيفي إلى قاتله، وأنا صحيح، أسمع، وأرىٰ، شديد الساعد، كثير الأعوان!»

فقال عبيدالله بن زياد:

ـ «أدنوه منّي!»

فأُدني منه، وله ضفيرتان قد رجّلهما[1]. فأمر بضفيرتيه، فأُمسك بهما، واستعرض وجهه بقضيب في يده، فلم يزل يضرب أنفه، وجبهته، وجبينه، حتّى نثر لحم خدّيه، وهشم أنفه. وتلوّىٰ هانئ، وضرب بيده إلى قائم سيف شرطيّ ممّن حضر، فمانعه الرجل، ومُنع.

فقال عبيدالله:

ـ «أحروريّ سائر اليوم؟ حلّ لنا قتلك.»

فقام أسماء بن خارجة، فقال:

ـ «أ رُسل غدر[2] نحن منذ اليوم؟ أمرتنا أن نجيئك بالرجل، حتّى إذا جئناك به، فعلت به ما ترىٰ، وزعمت أنّك تقتله.»

فقال عبيدالله:

ـ «إنّك هاهنا.»

١. رجّل الشعر: سوّاه، رتّبه، سرّحه.

٢. ضبط في الأصل أرُسل غُدر. وفي الطبري (٧: ٢٥٣): رسل غدر.

وأمر، فلُهِز، وتمع ساعة، ثمّ تُرِك فجلس، وسكت الناس.

وأمر بهانئ، فجعل في بيت، ووكّل به من يحرسه. وبلغ ذلك مذحجاً، فأقبلت إلى القصر، فقيل لعبيدالله:

ـ «هذه مذحج، قد اجتمعت [82] بالباب.»

فقال لشريح القاضي:

ـ «ادخل على صاحبهم، فانظرْ إليه، ثمّ اخرج، فأعلمهم أنّه حيّ.»

فخرج إليهم شريح، فأعلمهم أنه رءاه، وهو حيّ سالم، وإنّما عاتبه كما يعاتب الأمير رعيّته. فانصرفوا.

مسلم يقبل نحو القصر بالمبايعين

وبعث مسلم بن عقيل من يأتيه بالخبر. فأتوه بالخبر على وجهه، وأمر أن يُنادىٰ بشعاره:

ـ «يا منصور أمِتْ.»

وكان قد بايعه ثمانية عشر ألف [١٨،٠٠٠] رجل. فاجتمعوا إليه، فعقد لجماعة على الأرباع، وقدّم أمامه صاحب ربع كندة، وأقبل نحو القصر، فتحرّز عبيدالله، وغلّق الأبواب. وسار مسلم حتّى أحاط بالقصر، وتداعى الناس، واجتمعوا، حتّى امتلأ المسجد والسوق، ومازالوا يتوثّبون[1] حتّى المساء.

فضاق بعبيدالله أمره، وكان أكبر همّه أن يتمسّك بباب القصر، وليس معه في القصر إلّا ثلاثون رجلاً من الشرط، وعشرون رجلاً من أشراف الناس، وأهل بيته، وجعل من في القصر يشرفون فيشتمهم الناس، ويفترون على ابن زياد وأبيه، ويتّقون أن يرموهم بالحجارة. ففتح عبيدالله الباب الذي يلي دار الروميّين[2]

---

١. كذا في الأصل وحاشية الطبري: يتوثبون. وفي الطبري (٧: ٢٥٥): يثوبون.

٢. دار الروميين: ما في الأصل وحط غير واضح، وما أثبتناه يؤيده الطبري (٧: ٢٥٦).

ليدخل [83] إليه من يأتيه، ودعا كثير بن شهاب، فأمره أن يخرج في مَن أطاعه من مدحج، فيخذّل الناس عن مسلم بن عقيل، ويخوّفهم عقوبة السلطان، وغائلة أمرهم، وأمر محمد بن الأشعث بمثل ذلك، في مَن أطاعه من كندة، أن يرفع راية أمان لمن جاءه من الناس، وقال لمثل هؤلاء من أهل الشرف مثل ذلك.

فخرجوا، وجاؤوا بعدّة، فحُبسوا، ورجع إليه الرؤساء من ناحية دار الروميّين، فدخلوا القصر، فقال لهم عبيدالله:

ـ «أشرفوا على القصر فمَنّوا أهل الطاعة، وخوّفوا أهل المعصية.»

فتكلّم القوم، وقالوا:

ـ «أيها الناس! إلحقوا بأهاليكم، ولا تعجّلوا الشرّ، ولا تعرّضوا للقتل، فإنّ أميرالمؤمنين، قد بعث جنوده من الشام، وقد أعطى الله الأمير عهداً لئن تـمّمتم على حربكم، ولم تنصرفوا مـن عشيّتكم، أن يـحرم ذرّيـتكم العطاء، ويـفرّق مقاتلتكم في مغازي الشام على غير طمع، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتّى لا يبقى له فيكم بقيّة من أهل المعصية، إلّا أذاقها وبال أمرها.»

فأخذ الناس ـ كما [84] سمعوا هذا وأشباهه من رؤسائهم ـ يتفرّقون. فكانت المرأة تأتي إلى ابنها، وأخيها، فتقول:

ـ «انصرفْ، فإنّ الناس يكفونك.»

ويجيء الرجل إلى ابنه، وأخيه، فيقول:

ـ «غداً يأتيك جنود الشام، فما تصنع بالحرب؟»

فينصرف به.

فمازال الناس يتفرّقون، حتّى أمسـىٰ مسلم بن عقيل، وما معه إلّا ثلاثون رجلاً حين صُلّيت المغرب، فصلّى بهم مسلم. فلما رأى أنه قد أمسـىٰ وليس معه إلّا أولئك، خرج متوجّهاً نحو كندة، فما بلغ الأبواب ومعه منهم عشرة، ثمّ خرج من الباب، فإذا ليس معه إنسان، والتفت فإذا هو لا يحسّ أحداً يدلّه على الطريق، ولا

على منزل، ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدوّ. فبقى متلدّداً فى أزقّة الكوفة، لا يدرى أين يذهب.

فمشىٰ حتّى انتهىٰ إلى باب امرأة [يقال لها: طوعة](١) كانت أمّ ولد للأشعث، فزوّجها أُسيداً(٢) الحضرمى، فولدت له بلالاً. وكان بلال خرج مع الناس، وأمّه قائمة تنتظر، فسلّم مسلم عليها، فردّت عليه، فقال لها:

ـ «يا أمة الله، اسقينى ماءً.»

فدخلت، فسقته، فجلس، فقالت:

ـ «يا عبدالله، إذهبْ إلى أهلك.»

فسكت، ثمّ عادت، فسكت، فقالت:

ـ «سبحان [85] الله! قم إلى أهلك، فما يصلح الجلوس على بابى، ولا أحلّه لك.» فقال:

ـ «يا أمة الله، مالى فى هذا المصر منزل، ولا عشيرة، فهل لكِ فى أجر ومعروف، ولعلّى أكافئك به بعد اليوم.» قالت:

ـ «وماذاك؟» قال:

ـ «أنا مسلم بن عقيل، كذبنى هؤلاء القوم، وغرّونى.» قالت:

ـ «أُدخلْ!»

ولم يكن بأسرع من أن جاء ابنها. فقالت:

ـ «يا بنىّ، مكرمة وافتك.»

وأخذت عليه الأيمان، أن لا يخبر أحداً، فحلف، فأخبرته الخبر، فاضطجع وسكت.

وأخذ ابن زياد لا يسمع لأصحاب ابن عقيل صوتاً، فقال لأصحابه:

---

١. ما بين [ ] تكملة من الطبرى ٧ ٢٥٨

٢. أسيداً: كذا ضبط فى الأصل، وما فى الطبرى: أسيداً، من دون ضبط.

ـ «أشرفوا، فانظروا ما بالهم؟»

فأشرفوا، فلم يروا أحداً. قال:

ـ «فانظروا، لعلّهم تحت الظلال قد كمنوا لكم.»

فجعلوا يخفضون شُعل النار في أيديهم، وينظرون: هل في الظلال أحد؟ فكانت أحياناً تضيء لهم، وأحياناً لا تضيء، كما يريدون. فدلّوا أنصاف الطُّنان تُشدّ بالحبال، ثمّ تُجعل فيها النيران، ثمّ تدلّى إلى الأرض. ففعلوا ذلك من أقصى الظلال وأدناها، فلم يروا شيئاً. فعلموا أنّ القوم انصرفوا نادمين.

فأعلموا ابن زياد، فأمر بفتح باب السُّدّة التي في المسجد، ثمّ خرج فصعد المنبر، وخرج أصحابه، فجلسوا حوله [86] قبل[1] العتمة، ونادى:

ـ «برئت الذمّة من رجل من الشرطة، أو العرفاء، أو المناكب[2] والمقاتلة، صلّى العتمة إلّا في المسجد.»

فلم تكن إلّا ساعة حتّى امتلأ المسجد.

فقال الحصين بن تميم:

ـ «إن شئت، صلّى غيرك، ودخلت القصر، فإنّي لا آمن أن يغتالك بعض أعدائك.» فقال:

ـ «مُرْ حرسي أن يقوموا ورائي، وزد فيهم، فإنّي لست بداخل بعد أن آثرت الخروج.»

فصلّى بالناس، ثمّ قال:

ـ «أمّا بعد، فإنّ ابن عقيل، السفيه الجاهل، قد أتى ما رأيتم من الخلاف والشقاق، فبرئت الذمّة من رجل وجدناه في داره، ومن جاء به فله ديته.»

ثمّ توعّد الناس، وحضّهم على الطاعة، وخوّفهم الفرقة والفتنة. ونادى حصين

---

١. في مط: قبيل.

٢. في مط: المناكث. والباء مهملة في الأصل. والمنكب من القوم: عريفهم أو عونهم.

بن تميم، فأجابه، وكان على شرطه. فقال:

ـ «ثكلتك أمّك إن ضاع باب سكة من سكك الكوفة، أو خرج هذا الرجل، ولم تأتني به. فابعث مراصد على أفواه السكك، وأصبح غداً واستبرئ[1] الدور، وجُسْ[2] خلالها حتّى تأتيني بهذا الرجل.»

ثمّ نزل ابن زياد، ودخل القصر، وأصبح ابن تلك العجوز، وهو بلال بن أسيد، فغدا إلى عبدالرحمان بن محمد بن [87] الأشعث، فأخبره بمكان ابن عقيل عنده، وكان محمد بن الأشعث قد باكر ابن زياد، وهو عنده. فأقبل عبدالرحمان حتّى أتى أباه، فدنا منه، وسارّه.

فقال ابن زياد:

ـ «ما يقول ابنك؟» فقال:

ـ يقول: إنّ ابن عقيل في دار من دورنا.»

فنخس بالقضيب في جنبه، وقال:

ـ «قم، وائتني به الساعة.»

وبعث إلى خليفته، وهو في المسجد أن:

ـ «ابعثْ مع ابن الأشعث سبعين رجلاً من قيس.»

وإنّما كره قومه لأنّه علم أنّ قومه يكرهون أن يصاب فيهم مثل ابن عقيل. ففعل ذلك، وسار محمد بن الأشعث، حتّى أطاف بالدار.

فلمّا سمع مسلم وقع الحوافر، بادر إلى سيفه، وخرج إليهم، فاقتحموا عليه، فردّهم، ثمّ عادوا، فردّهم، حتّى ضربه رجل منهم بسيفه، فقطع شفته، وثناياه، وضربه مسلم بأعلى رأسه، كادت تأتي عليه، ولكن سلم. فلمّا رأى الناس ذلك، أخذوا يرمونه من فوق البيت.

---

١ كذا في الأصل وحاشية الطبري (٧: ٢٦٠): واستبرئ. في مط وايرى، وفي الطبري، وامتبرا

٢ جاسوا بين الدور، داروا فيها بالعيث والفساد وطلبوا ما فيها. الجوس: الطلب بالحرص والإستقصاء

محمد بن الأشعث يُعطى الأمان لمسلم

فأقبل عليه محمد بن الأشعث، فقال:

ـ «إنك أُثخنت، وعجزت عن القتال، فلِمَ تقتل نفسك، أقبل إليَّ، ولك الأمان.»

فقال: «آمن أنا؟»

قال: «نعم.»

وقال القوم: «أنت آمن.»

فأمكن من نفسه، [88] فدنوا منه، وحملوه. فقال.

ـ «يا محمد بن الأشعث، أراك ستعجز عن أماني..»

وذلك أنه نُزع سيفه من عاتقه، فاستوحش.

ـ «.. فهل لك في خير؟ تستطيع أن تبعث رجلاً من عندك على لساني يبلغ حسيناً ـ فإنى أراه قد خرج، أو هو خارج غداً ـ فيقول له: إنّ ابن عقيل بعثنى، وهو أسير، لا يرىٰ أنه يمسي وهو يقتل، وهو يقول لك: ارجع بأهل بيتك، ولا يغرّك أهل الكوفة، فإنّهم أصحاب أبيك، الذى كان يتمنّى فراقهم بالموت، أو القتل. إنّ أهل الكوفة قد كذبوك، وكذبوني. وليس لكذوب[1] رأى.»

فقال ابن الأشعث:

ـ «والله، لأفعلنّ. ولأعلمنّ الأمير عبيدالله، أنّى آمنتك.»

مسلم فى قصر ابن زياد

وذهب به إلى ابن زياد، وأنفذ رجلاً على راحلة إلى الحسين بما قال مسلم.

فلما دخل به على ابن زياد، قال:

---

١. وما فى الأصل والطبرى (٧: ٢٦٣): لمكذوب. وفى مط: لكذوب

ـ «إنّى آمنته.» قال:

ـ «وما أنت والأمان، كأنما أرسلناك لتؤمنه. إنما أرسلناك لتأتينا[1] به.»

فسكت، وانتهى بمسلم إليه. فقال:

ـ «إيه يا ابن عقيل، أتيت الناس، وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة، لتشتّت بينهم، وتحمل بعضهم على بعض.» قال:

ـ «كلّا [89] لست لذلك أتيت، لكنّ أهل المصر زعموا أنّ أباك قتل خيارهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالمعروف والعدل، وندعو إلى حكم الكتاب.»

وتراجعا الكلام إلى أن قال له ابن زياد:

ـ «قتلنى الله، إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد فى الإسلام.» قال:

ـ «أما إنّك[2] أحقّ من أحدث فى الإسلام، ما لم يكن فيه، وإنّك لا تدع سوء القتلة، وقبح المثلة، وخبث السريرة، ولؤم الغلبة. لا أحد[3] من الناس أحقّ بها منك.»

وأخذ ابن زياد يشتمه، ويشتم حسيناً وعليّاً، وأمسك مسلم لا يكلّمه.

ثمّ قال:

ـ «إصعدوا به فوق القصر، فاضربوا عنقه، ثمّ أتبعوا جسده رأسه.»

فصعد وهو يقول:

ـ «اللّهمّ احكم بيننا وبين قوم غرّونا، وخذلونا.»

وأشرف به على موضع الحذّائين[4] اليوم، فضربت عنقه، وأتبع جسده رأسه.

---

١ فى الأصل: ما تينا (بدون اللام) والللام أضفناها كما فى مط.

٢ فى مط: أما أنا إنك!

٣ فى الأصل ومط: لأحد وهو خطأ والصحيح من الطبرى ٧: ٢٦٧ ولبن الأثير ٤: ٣٥

٤ كذا فى الأصل ومط وابن الأثير. الحذّائين. وفى الطبرى: الجزّارين.

ثمّ أُمر بهانئٍ بعد قتل مسلم، أن يُخرج إلى السوق، فضرب عنقه. فأُخرج إلى حيث تباع فيه الغنم، وهو مكتوف[1]، فجعل يقول:

ـ «وا مذحجاه، ولا مذحج لي اليوم.»

ولا ينصره أحد، حتّى قتل. [90]

وأمر بكلّ من عرفه ممّن خرج مع مسلم، فأُتي به إلى قومه، فضربت عنقه فيهم، وبعث برؤوس من قتل منهم إلى يزيد وكتب بالقصّة.

ولحق رسول مسلم الذى أشخصه محمد بن الأشعث، الحسين، وهو بزبالة لأربع ليال، فأخبره الخبر، وبلّغه الرسالة.

فقال له الحسين:

ـ «كلّ ما حُمّ[2] نازل، وعند الله نحتسب أنفسنا، وفساد أُمّتنا.»

الحسين وآراء المشيرين عليه

ذكرُ رأي أشير به على الحسين

عليه السلام

لقيه عمر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى، فقال له، وقد قدمت عليه كتب العراق:

ـ «يابن عمّ، إنّي أُتيت لحاجة أُريد ذكرها لك نصيحة، فإن كنت ترىٰ أنك مستنصحي، قلتها، وأدّيت ما عليّ من الحقّ فيها، وإن ظننت أنك لا تستنصحني، كففت عمّا أُريد أن أقول.»

قال: فقال:

ـ «قل، فوالله ما أستغشّك، وما أظنّك بشيء من الهوىٰ لقبيح من القول والفعل.»

---

١ مكتوف: كذا في الأصل والطبرى ٧: ٢٦٨ في مط: مكتوب، وهو خطأ

٢ حمّ الأمر حمّاً: قضى، قدّر

قال: قلت:

ـ «بلغنى أنّك تريد السير إلى العراق، وإنّى أشفق أن تأتى بلداً فيه عمّاله وأمراءه، ومعهم بيوت الأموال. وإنما الناس عبيد لهذه الدراهم والدنانير. [91] فلا آمن أن يقاتلك من وعدك بنصره، ومن أنت أحبّ إليه ممّن يقاتلك معه.»

فقال الحسين:

ـ «جزاك الله خيراً يابن عمّ، مهما يُقض، يكن، وأنت عندى أحمد مشير، وأنصح ناصح.»

رأى أشار به عبدالله بن عباس على الحسين

وأتاه عبدالله ابن عبّاس[1]، فقال:

ـ «يا ابن عمّ، إنّه قد أرجف الناس أنّك سائر إلى العراق، فبيّن لى ما أنت صانع.»

فقال له:

ـ «إنى قد أجمعت السير إلى العراق فى أحد يوميّ هذين إن شاء الله.»

فقال له ابن عبّاس:

ـ «فإنّى أُعيذك بالله من ذلك. أخبرنى ـ رحمك الله ـ أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوّهم؟ فإن كانوا[2] قد فعلوا ذلك، فسر إليهم، وإن كانوا إنّما دعوك إليهم، وأميرهم عليهم، قاهر لهم، وعمّاله يجبون بلادهم، فإنّهم دعوك إلى الحرب، ولا آمن أن يغرّوك، ويكذبوك، ويخذلوك، ويستنفروا إليك، فيكونوا أشدّ الناس عليك.»

١ لقد ورد هذا الاسم: «العباس»، «عباس»، وفى مط والطبرى، وابن الأثير عباس. فآثرنا توحيد ضبطه بدون «ال».

٢ فى الأصل ومط: كان. فصححنا ضبط الطبرى وابن الأثير.

فقال له الحسين:

ـ «فإنّي أستخير الله، وأنظر.[١]»

---

١ وهنا ترك مسكويه ذكر ما دار بين ابن الزبير والحسين بن عليّ من حديث، عند إتيان ابن الزبير إيّاه بعد إجماع الحسين على المسير إلى العراق. ولما للحديث من أهمّيّة تاريخيّة، فإنّا نثبته في ما يلي كما أورده الطبري (٧: ٢٧٤) وابن الأثير (٤: ٣٨):

قال.

فخرج ابن عبّاس من عنده، وأتاه ابن الزبير، فحدّثه ساعة، ثمّ قال

ـ «ما أدري ما تركنا [كذا] هؤلاء القوم، وكفّنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم. خبّرني ما تريد أن تصنع؟»

فقال الحسين:

ـ «والله لقد حدّثت نفسي بإتيان الكوفة. ولقد كتب إليّ شيعتي بها، وأشراف أهلها. وأستخير الله.»

فقال ابن الزبير:

ـ «أما لو كان لي بها مثل شيعتك، ما عدلت بها.»

قال: ثمّ إنّه خشي أن يتّهمه، فقال:

ـ «أما إنّك لو أقمت بالحجاز، ثمّ أردت هذا الأمر ههنا، ما خولف عليك إن شاء الله.»

ثمّ قام، فخرج من عنده، فقال الحسين:

ـ «ها إنّ هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحبّ إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علم أنه ليس له من الأمر معي شيء، وأنّ الناس لم يعدلوه بي، فودّ أنّي خرجت منها لتخلو له.» ـ انتهى ما عند الطبري

وأما ابن الأثير، فيختلف ما ذكره بعد قول الراوي: «ثمّ إنّه خشي أن يتّهمه فقال.» فقال في الكامل.

ـ «أما إنّك لو أقمت بالحجاز، ثمّ أردت هذا الأمر ههنا، لما خالفنا عليك، وساعدناك، وبايعناك، ونصحنا لك.»

فقال له الحسين:

ـ «إنّ أبي حدّثني أنّ لها كبشاً به تستحلّ حرمتها، فما أحبّ أن أكون أنا ذلك الكبش.»

قال. «فأقم إن شئت وتولّيني أنا الأمر، ولا تُعصى.»

قال. «ولا أريد هذا أيضاً.»

ثمّ إنّهما أخفيا كلامهما [دوننا]. فالتفت الحسين إلى من هناك وقال

ـ «أتدرون ما يقول؟»

قالوا: «ما ندري، جعلنا الله فداك.» قال:

فجاءه من الغد ابن عبّاس، وقال له:

ـ «إبن عمّ، إنّى أتصبّر، ولا أصبر، وإنّى أتخوّف عليك فى هذا الوجه الهلاك. إنّ أهل العراق قوم [92] غدر، فأقم بهذا البلد، فإنّك سيّد أهل الحجاز. فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا، فاكتب إليهم، فلينفوا عدوّهم. ثمّ اقدم عليهم. فإن أبيت إلّا الخروج، فسر إلى اليمن، فإنّ بها حصوناً وشعاباً. وهى أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت فى عزلة عن الناس، فتكتب وتبثّ دعاتك، فإنّى أرجو أن يأتيك ما تحبّ فى عافية.»

فقال له الحسين:

ـ «يا ابن عمّ، إنّى أعلم أنّك ناصح شفيق، ولكنّى قد أجمعت على المسير.»

فقال له ابن عبّاس:

ـ «فإن كنت سائراً، فلا تسر بنسائك، وصبيتك، فوالله إنّى أخاف أن تُقتل كما قتل عثمان، ونساءه وولده ينظرون إليه، والله الذى لا إله إلّا هو: لو أعلم أنى إذا أخذت بشعرك وناصيتك، حتّى تجتمع علىّ وعليك الناس، أطعتنى وأقمت؛ لفعلت.»

فلما أبىَ عليه، قال له:

ـ «إنه يقول: أقم فى هذا المسجد أجمع لك الناس!»

ثمّ قال له الحسين:

ـ «والله لئن أقتل خارجاً منها بشبر أحبّ إلىّ من أن أقتل فيها، ولأن أقتل خارجاً منها بشبرين، أحبّ إلىّ من أن أقتل خارجاً منها بشبر. وأيم الله، لو كنت فى جحر هامّة من هذه الهوامّ، لاستخرجونى، حتّى يقضوا بى حاجتهم! والله، ليعتدنّ علىّ كما اعتدت اليهود فى السبت.»

فقام ابن الزبير، فخرج من عنده. فقال الحسين:

ـ «إنّ هذا ليس شيء، أحبّ إليه من أن أخرج من الحجاز. وقد علم أنّ الناس لا يعدلونه بى، فودّ أنّى خرجت حتّى يخلو له.»

ـ «قد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إيّاه والحجاز، وهو اليوم لا يُنظر إليه معك.»

وخرج من عند الحسين، ومرّ بعبدالله بن الزبير، فقال:

ـ «قرّت عينيك يابن الزبير!»

ثمّ قال: [93]

يـــا لكِ مِـــنْ حُــمَّرةٍ[1] بــمَعمَرِ   خَلا لكِ الجوُّ، فَبيضِى واصـفِرى
ونقّرى ما شئتِ أن تُنقّرى

قال: «وما ذاك؟» قال:

ـ «هذا الحسين يخرج إلى العراق، ويخلّيك والحجاز.»

خروج الحسين إلى العراق

لقاء بين الحسين والفرزدق

وخرج الحسين فى أهل بيته، ونسائه، وصبيته. فلقى الفرزدق الشاعر بالصفاح، فتواقفا. فقال له الحسين:

ـ «بيّن لنا نبأ الناس خلفك.»

فقال له الفرزدق:

ـ «الخبير سألت. قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بنى أُميّة، والله يفعل ما يشاء.»

فقال له الحسين:

---

١. كذا فى الأصل حُمَّرة وفى هامش الأصل. وصط والطبرى (٧ ٢٧٥) وابن الأثير (٤ ٣٩): قُبَّرة. الحُمَّرة: القُبَّرة. نوع من العصافير.

ـ «صدقت، الأمر لله، يفعل ما يشاء.»
ثمّ حرّك راحلته، وقال:
ـ «السلام عليك.»
وافترقا.

ما كان من أمر رسوله قيس بن مُسهر

وقد كان وصل إلى الحسين كتاب مسلم بن عقيل، قبل أن يقتل بأيام، يقول فيه.
ـ «أما بعد، فإنّ الرائد لا يكذب أهله. إنّ جميع أهل الكوفة معك، فأقبل حين تقرأ كتابي، والسلام.»

فأقبل الحسين بصبيانه ونسائه لا يلوى على شيء، ولا يسمع قول أحد، حتّى بلغ الحاجر من بطن الدومة[1]، وبعث قيس بن مُسهر إلى الكوفة بكتاب يعرّفهم [94] فيه أنه شخص إليهم، لما عرفه من اجتماع ملأهم على نصره، والطلب بحقّه.

فلما انتهى قيس إلى القادسيّة، وجد خيل ابن زياد منظومة ما بينها وبين الكوفة، فأخذ الحصين بن تميم، فبعث به إلى ابن زياد.

فقال له ابن زياد:
ـ «إصعد القصر، فسبّ الكذّاب بن الكذّاب.»

فصعد قيس بن مسهر القصر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمّ قال:
ـ «أيّها الناس، هذا حسين بن عليّ خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم، وفارقته بالحاجر[2]، فأجيبوه.»

ثمّ لعن زياداً وابنه، واستغفر لعليّ بن أبي طالب. فأمر به عبيدالله فرمى به من

---

١. من بطن الدومه. سقطت من مط وفي الطبري (٧: ٢٨٨) الحاجز من بطن الرمّة.
٢. في الأصل: بالراء المهملة. (في كلا الموضعين).

فوق القصر، فمات.

الحرّ بن يزيد يُقبل بخيله

وأقبل الحسين، حتّى نزل شراف، وأمر فتيانه فاستقوا من الماء، ثمّ ساروا صدر يومهم. فقال رجل:

ـ «الله أكبر.»

فقال الحسين:

ـ «الله أكبر، ممّ كبّرت؟» قال:

ـ «رأيت النخل.»

فقال رجلان أسديّان كانا معه:

ـ «إنّ هذا مكان ما رأينا به نخلاً قطّ.»

قال الحسين:

ـ «فما تريانه رأى.» فقالا:

ـ «نراه والله رأى هوادى[1] الخيل.» فقال:

ـ «وأنا، والله، أرى ذلك.»

فقال الحسين:

ـ «أما لنا ملجأ نعدل إليه، [95] نجعله فى ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد؟»

قال: فقلنا له:

ـ «نعم، هذا ذو حُسم[2] إلى جنبك، تميل إليه عن يسارك.»

فأخذ إليه، ومال أصحابه معه. فما كان بأسرع من أن طلعت علينا هوادى

١ الهادية: المتقدّمة من كل شيء. هاديات الخيل وهواديها: متقدّماتها

٢ ذو حُسم: والضبط من الطبرى ٧: ٢٩٦.

الخيل، فتبيّنّاها، وعدلنا. فلما رأونا قد عدلنا عن الطريق، عدلوا، كأنّ[١] أسنّتهم اليعاسيب، وكأنّ[٢] راياتهم أجنحة الطير، فسبقناهم، فنزل الحسين، وضُربت أبنيته، وجاءنا القوم وهم ألف رجل، مع الحرّ بن يزيد التميمى.

فأقبل حتّى وقف هو وخيله مقابل الحسين وأصحابه فى حرّ الظهيرة. فأمر الحسين أن يُسقى القوم، فقام فتيانه يسقون الخيل بالأتوار والطساس حتّى أرووها.

فكان سبب تقدّم الحرّ فى ألف رجل أنّ عبيدالله بن زياد بعث الحصين بن تميم، وكان على شرطه، على أن ينزل القادسيّة، وينظّم ما بين القطقطانية وخفّان بالمسالح. فقدّم الحرّ هذا بين يديه فى ألف رجل يستقبل الحسين، ويكون معه يسايره، ويحفظه إلى أن يرد[٣] عليه الخبر.

فحضرت الصلاة، فأذّن مؤذّن الحسين، [96] ثمّ أقام. فخرج الحسين فى إزار ونعلين، وقال:

ـ «أيها الناس، معذرة إلى الله، وإليكم. إنّى لم آتِكم حتّى أتتنى كتبكم، وقدمت علىّ رسائلكم أن اقدم علينا، فإنّه ليس لنا إمام. فإن كنتم على ذلك، فقد جئتكم، فإن تعطونى ما أطمئنّ إليه من عهودكم أقدم مصركم، وإن كنتم لمقدمى كارهين، انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه إليكم.»

فسكتوا عنه.

فقال الحسين للحرّ:

ـ «أتريد أن تصلّى بأصحابك؟» قال:

ـ «لا، بل تصلّى أنت ونصلّى بصلاتك.»

فصلّى بهم الحسين، وانصرف الحرّ إلى مكانه، وأخذ كلّ رجل منهم بعنان

١ فى الأصل: كان. والضبط من الطبرى. ٢ فى الأصل: كان. والضبط من الطبرى.

٣ فى الأصل: يرد. ولا توجد العبارة فى رواية الطبرى (٧: ٢٩٧).

دابّته، وجلس في ظلّها. فلما كان وقت العصر، أمر الحسين أن يتهيّأوا للرحيل، ففعلوا ثمّ إنّه خرج، فأمر مناديه، فنادىٰ بالعصر، واستقدم الحسين، فصلّىٰ بالقوم، ثمّ سلّم، وانصرف إلى القوم بوجهه، فحمد الله وأثنىٰ عليه، وأعاد على القوم قريباً من مقالته الأولىٰ.

فقال الحرّ:

ـ «إنّا، والله، لا ندري هذه الكتب، والرسل التي تذكر.»

فدعا الحسين بخُرجين مملوّين كتباً فنشرها بين أيديهم. فقال له الحرّ:

ـ «لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، إنما أُمرنا، إذا نحن لقيناك، ألّا نفارقك [97] حتّى نقدمك الكوفة على عبيدالله بن زياد.»

فقال له الحسين:

ـ «الموت أدنىٰ إليك من ذلك.»

ثمّ قال لأصحابه:

ـ «إنصرفوا بنا.»

فلما ذهبوا لينصرفوا، حال القوم بينه وبين الإنصراف.

فقال الحسين للحرّ:

ـ «ثكلتك أُمّك، ما تريد؟»

قال:

ـ «أما والله، لو غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أُمّه، كائناً من كان. ولكن لا سبيل إلى ذكر أُمّك، إلّا بأحسن ما نقدر عليه.»

فقال له الحسين:

ـ «فما تريد؟» قال:

ـ «أن أنطلق بك إلى عبيدالله بن زياد.»

فقال له الحسين:

ـ «إذاً[1] لا أتبعك.»

فقال له الحرّ:

ـ «إذاً[2] لا أدعك.»

فترادّا القول. فلمّا طال الكلام، قال الحرّ:

ـ «إنّي لم أومَر بقتالك، إنّما أُمرت ألّا أفارقك حتّى تقدم الكوفة. فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يدخلك المدينة، ولا يردّك إليها، ولا يردّك عنها يكون بيني وبينك نصفاً، وتكون بالخيار، بين أن تكتب إلى يزيد إن أردت، أو إلى ابن زياد، إن أردت، فلعلّ الله يأتي بأمر يرزقني فيه العافية أن أبتلي بشيء من أمرك.»

فتراضيا، وتياسر الحرّ عن طريق القادسيّة، وسايره الحسين. وأخذ الحسين يخطب [98] القوم ويذكّرهم الله، ويدلّهم على نفسه ومكانه عن النبوّة والحكمة، واستحقاقه للإمامة دون الفجرة الفسقة.

فقال له الحرّ، وهو يسايره:

ـ «يا حسين! أذكّرك الله في نفسك، فوالله، لئن قاتلت لتُقتلنّ.»

فقال له الحسين:

ـ «أبالموت تخوّفني؟»

وأنشده أبياتاً، وهي أبيات تمثّل بها:

سأمضي، فما بالموتِ عارٌ على الفتىٰ إذا ما نَوىٰ حقّاً، وجاهدَ مُسلماً

وآسىٰ الرجالَ الصالحينَ بنفسِه وفارقَ شرّاً أن يعيشَ ويُرغَما[3]

---

١ و ٢ كذا في الأصل ومط في كلا الموضعين إذاً والضبط في الطبري (٧: ٢٩٩) وابن الأثير (٤: ٤٧) إذن.

٣ في الطبري (٧: ٣٠٢): وفارق مثبوراً يغشّ ويرغما وبيت ثالث في حواشيه بثلاث روايات وانظر أيضاً ابن الأثير (٤: ٤٩).

فكان يسير الحرّ ناحية، والحسين ناحية. فبينا هم كذلك، فطلع عليهم أربعة من الفرسان، فعدلوا إلى الحسين، فسلّموا عليه، فمنعهم الحرّ أن يسيروا معه.

فقال الحسين:

ـ «مالك تمنعهم؟»

فقال الحرّ:

ـ «هؤلاء لم يأتوا معك، وإنّما هم أهل الكوفة.»

قال الحسين:

ـ «هم بمنزلة من جاء معي، فإنّهم أنصاري وأعواني، وقد أعطيتني ألّا تعرض لي بشيء، حتّى آتي الكوفة. فإن تمّمت على ما كان بيني وبينك، وإلّا ناجزتك.»

قال: وكفّ عنهم الحرّ.

فقال الحسين للقوم:

ـ «أخبروني [99] خبر الناس وراءكم.»

فقالوا:

ـ «أمّا أشراف الناس، فقد أعظمت رشوتهم، ومُلئت غرائرهم، واستميل ودّهم، واستخلصت نصيحتهم، وهم ألب عليك، وأمّا سائر القوم، فأفئدتهم معك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك.»

قال:

ـ «فخبّروني عن رسولي إليكم.» فقالوا:

ـ «من هو؟» قال:

ـ «قيس بن مسهر الصيداوي.» فقالوا:

ـ «نعم، أخذه الحصين بن تميم، فبعث به إلى ابن زياد، فأمره ابن زياد بلعنك ولعن أبيك، فصلّى عليك وعلى أبيك، ولعن ابن زياد وأباه، ودعا الناس إلى

نصرتك، وأخبرهم بمقدمك، فأمر به ابن زياد، فأُلقي من طمار القصر، فمات.»

فتغرغرت[١] عينا الحسين بالدموع، ولم يملك دمعه، ثمّ قال:

ـ ﴿فَمِنهُم مَن قضىٰ نحبهُ، ومنهُم مَن ينتظِرُ، وما بدَّلُوا تبديلاً﴾ [٢]

ما قاله الطرمّاح بن عديّ للحسين

فقالوا[٣] له بعدما دنوا منه:

ـ «والله، إنّا لننتظر، فما نرىٰ معك أحداً، ولو لم يقاتلك إلّا هؤلاء الذين نراهم ملازميك، لكفىٰ بهم، فكيف وقد رأينا قبل خروجنا من الكوفة ما لم نر قطّ مثلهم ناساً في صعيد واحد عُرضوا ليُسرّحوا إليك. فننشدك الله إن قدرت [100] ألّا تقدّم شبراً إلّا فعلت. فهاهنا بلد منعك الله به، حتّى ترىٰ رأيك، فسر بنا حتّى تنزلك جبلنا الذي يدعىٰ أجأ، امتنعنا به والله من ملوك غسّان، وحمير، ومن النعمان، ومن الأسود والأحمر[٤]، والله ما دخل علينا ذلّ قطّ، ثمّ تبعث الرجال إلى من يترل أجأ، وسلمىٰ من طيّء، فيأتيك الرجال[٥]، وأنا زعيم لك بعشرين ألف طائيّ يضربون بين يديك بالسيوف[٦]»

فقال الحسين:

ـ «جزاك الله وقومك خيراً. إنّه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم من أهل الكوفة قول لسنا نقدر معه على الإنصراف، ولا ندري علامَ تنصرف بنا وبهم الأمور في

١. كذا في الأصل ومط: فتغرغرت. وما في الطبري (٧: ٣٠٣) وابن الأثير (٤: ٥٠): فترقرقت. ترقرقت عيناه: تردّد فيهما الدمع. ترقرقت عيناه: دمعتا. ترقرق الماء وغيره: تحرّك واضطرب.

٢. س ٣٣ الأحزاب: ٢٣

٣. والقائل هو «طرمّاح بن عديّ». أنظر الطبري (٧: ٣٠٤) وابن الأثير (٤: ٥٠).

٤. في الطبري أيضاً: الأسود والأحمر. وفي ابن الأثير: الأحمر والأبيض.

٥. زاد في الطبري وابن الأثير هنا: ثمّ أقم فينا ما بدا لك. فإن هاجك هيج فأنا زعيم...

٦. زاد في الطبري وابن الأثير: والله ما يوصل إليك ومنهم عين تطرف.

العاقبة.»

فودّعوه وقالوا:

ـ «قد حملنا ميرة من الكوفة لأهلينا، فنحن نحملها إليهم، ونعود إليك.»[١]

نزول الحسين بنينوى وقدوم راكب بكتاب من ابن زياد

وسار الحسين، فجعل يتياسر، فيأتيه الحرّ بن يزيد، فيردّه وأصحابه، فجعل إذا ردّهم إلى الكوفة ردّاً شديداً امتنعوا عليه. فلم يزالوا كذلك، حتّى انتهوا إلى المكان الذى نزل به الحسين[٢] ـ عليه السلام ـ فإذا راكب على نجيب له، وعليه السلاح متنكّباً قوسه، مقبل من الكوفة، فوقفوا جميعاً ينتظرونه. فلما انتهى إليهم، سلّم [101] على الحرّ وأصحابه، ولم يسلّم على الحسين وأصحابه، ودفع إلى الحرّ كتاباً من عبيدالله بن زياد، فإذا فيه:

ـ «أما بعد، فجعجع[٣] بالحسين وأصحابه حيث يبلغك كتابى، ويقدم عليك رسولى، فلا تنزله إلّا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء. وقد أمرت رسولى أن يلزمك حتّى تردّه بإنفاذ أمرى، والسلام.»

فلما قرأه الحرّ قال:

ـ «هذا كتاب الأمير عبيدالله، يأمرنى أن أجعجع بكم فى المكان الذى يأتينى كتابه، وهذا رسوله وقد أمرنى ألّا يفارقنى حتّى أنفذ أمره.»

وأخذ الحرّ يريدهم على النّزل هناك على غير ماء، ولا فى قرية، فقالوا:

---

١ واستعجله الحسين عند التوديع، وبقى الطرمّاح بو عده، و عاد بعد أن وضع الميرة عند أهله وأوصاهم، ولكنّه لمّا بلغ عذيب الهجانات، لقيه سماعة بن بدر، وأخبره بقتله، فرجع إلى أهله. أنظر الطبرى (٧ ٣٠٥) وابن الأثير (٤ ٥١).

٢ والمكان هو نينوى. أنظر ابن الأثير نفس الصفحة

٣. جعجع به أزعجه شرّده حبسه. ألزمه الجعجاع. والجعجاع والجعجع المكان الضيق الخشن الغليظ

ـ «دعنا ننزل فى هذه القرية ـ يعنون الغاضريّة ـ أو تلك ـ يعنون نينوى ـ أو تلك، أو تلك.» فقال:

ـ «لا والله، ما أستطيع هذا. أما ترون الرجل قد بعثه عيناً عليَّ.»

فقال زهير بن القين وكان مع الحسين:

ـ «يا ابن بنت رسول الله، إنّ قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمرى ليأتينا من بعد من ترى، من لا قِبل لنا به.»

فقال الحسين:

ـ «لا أبدأهم بالقتال.»

فقال زهير:

ـ «فسر بنا إلى هذه القرية القريبة حتّى ننزلها، فإنّها حصينة، وهى على [102] شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم، فقتالهم اليوم أهون من قتال من يجيء بعدهم».

فقال الحسين:

ـ «وأيّة قرية هى؟» قال:

ـ «العَقر.»

فقال الحسين عليه السلام:

ـ «اللّهمّ أعوذ بك من العقر!»[1]

ثمّ نزل، وذلك يوم الخميس الثانى من المحرّم سنة إحدى وستّين.

---

١ عقرت المرأة والرجل عقراً وعُقراً لم يلدا. عقر البعير: قطع إحدى قوائمه. عقر الحيوان: ذبحه. عقر الكلب الولد: عضّه. عقره عن حاجته: قطعه عنها. عقر عقراً: بقى مكانه لم يتقدّم أو يتأخّر فزع أصابه، كأنه مقطوع الرجل. عقرت المرأة: عقمت. وعقر الرجل والأمر: لم تكن لهما عاقبة

عمر بن سعد والخيار الصعب

وكان عبيدالله بن زياد قد ولّى عمر بن سعد بن أبي وقّاص الريّ، وكتب عهده عليها، وجهّز معه أربعة آلاف، لأنّ الديلم كانوا غلبوا على دستبى[1]، فخرج عمر بن سعد، وكان قد عسكر بحمّام أعين.

فلما كان من أمر الحسين ما كان، كتب عبيدالله بن زياد إلى عمر بن سعد أن:

ـ «سر إلى الحسين، فإذا فرغنا ممّا بيننا وبينه، سرت إلى عملك »

فكتب إليه عمر بن سعد:

ـ «إن رأيت أن تعفيني، فعلت.»

فقال عبيدالله:

ـ «نعم، على أن تردّ إلينا عهدنا.»

فاستعظم عمر بن سعد أمر الحسين. وكان يستشير نصحاءه، فلا يشير عليه أحد به، ثمّ حلا في قلبه الإمارة، فاستجاب وأقبل في أربعة آلاف حتّى نزل بالحسين في غد يوم نزل فيه الحسين بالمكان الذى ذكرناه.

فبعث عمر بن سعد من يسأله: ما الذى جاء به. فجاء [103] الرسول حتّى سلّم على الحسين، وأبلغه رسالة عمر.

فقال الحسين:

ـ «كتب إليّ أهل مصركم أن اقدم، فأمّا إذا كرهتموني، فأنا أنصرف عنهم.»

فانصرف إلى عمر بجوابه. فقال عمر بن سعد:

ـ «إني لأرجو أن يعافيني الله من حربه.»

وكتب إلى عبيدالله بذلك.

---

١ دَستَبى، دُستُبى [بفتح الباء وكسرها]. كورة كبيرة كانت مشتركة بين الريّ وهمذان، فقسّمت كورتين. وتسمّى قرية منها دستبى همذان (مع. يا).

اشتداد العطش على الحسين وأصحابه

واشتدّ على الحسين وأصحابه العطش. فدعا العبّاس بن عليّ[1]، فبعثه فى ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً، وبعث معهم بعشرين قربة. فدنوا من الماء ليلاً.

فقال عمرو بن الحجاج الزبيديّ، وكان قد أرسله عمر بن سعد فى خمسمائة على الشريعة يمنعون الحسين وأصحابه من الماء بكتاب ورد عليه من عبيدالله:

ـ «من الرجل، وما جاء بك؟» قال:

ـ «جئنا نشرب من هذا الماء الذى حلأتمونا[2] عنه.» فقال:

ـ «اشرب هنّأك الله.» قال:

ـ «لا والله، ما أشرب والحسين ومن ترى من أصحابه عطاش.» فقال:

ـ «لا سبيل إلى سقى هؤلاء، إنّما وُضعنا بهذا المكان لنمنعهم الماء.»

فلما دنا أصحابه قال لرجّالته:

ـ «إملأوا قربكم.»

وشدّ على القوم مع أصحابه فملأوا قربهم، وثار بهم عمرو بن الحجاج، فقاتلهم العبّاس وأصحابه، حتّى انصرف أصحاب القرب [104] بالقرب، فأدخلوها على الحسين وأصحابه.

إلتقاء بين الحسين وعمر بن سعد

وبعث الحسين إلى عمر أن:

ـ «إلقنى الليلة، بين عسكرى وعسكرك.»

فخرج إليه عمر بن سعد فى نحو من عشرين فارساً، وأقبل الحسين فى مثل

---

١. وزاد فى مط: رضى الله عنه.

٢. حلأ الشيء تحلياً: منعه منه.

ذلك. ملما التقيا، أمر الحسين أصحابه أن يتنحّوا، وأمر عمر بن سعد أصحابه بمثل ذلك، فانكشفنا عنهما حيث لا نُسمع أصواتهما. فكلّما، فأطالا، حتّى ذهب هزيع من الليل. ثمّ انصرف كلّ واحد إلى أصحابه، وتحدّث الناس بينهم بالظنون ولا يدرون حقيقة شيء. ثمّ التقيا بعد ذلك مراراً ثلاثاً وأربعاً.

كتاب ابن سعد إلى ابن زياد
في ما دار بينه وبين الحسين

فكتب عمر بن سعد إلى عبيدالله بن زياد:

ـ «أما بعد، فإنّ الله قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة، وأصلح أمر الأُمّة. هذا الحسين قد أعطاني:

أن يرجع إلى المكان الذي أتىٰ منه.

أو أن نسيّره إلى أيّ ثغر من الثغور شئنا، فيكون رجلاً من المسلمين: له ما لهم، وعليه ما عليهم،

أو أن يأتي أميرالمؤمنين يزيد، فيضع يده في يده، فيرىٰ فيه رأيه، وفي هذا لكم رضىً، وللأُمّة صلاح.»[1]

فلما قرأ عبيدالله الكتاب، قال:

ـ «هذا كتاب ناصح لأميره، وشفيق على قومه، قد قبلت.»

ما أشار به شمر على ابن زياد

فقام إليه شمر بن ذي الجوشن، فقال:

ـ «تقبل هذا منه، وقد نزل بأرضك [105] وإلى جنبك؟ فوالله لئن رحل من

---

١. أنظر أيضاً الطبري (٧: ٣١٥)، وابن الأثير (٤: ٥٥).

سلطانك. والله، لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك، ليكوننّ أولىٰ بـالقوّة والعزّ، ولتكوننّ أولىٰ بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه المنزلة، فإنّها مـن الوهـن، ولكن ليـنزل على حكمك، فإن عاقبت، فأنت أولىٰ بالعقوبة، وإن عفوت، كان ذلك لك. ولقد بلغني أنّ الحسين وعمر بن سعد يجلسان، فيحدّثان عامّة الليل »

فقال عبيدالله بن زياد:

ـ «نعم ما رأيت، الرأي رأيك.»

ثمّ قال ابن زياد:

ـ «اخرجْ أنت بجواب كتاب عمر بن سعد. فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي، فإن فعلوا، فليبعث بهم إليّ سلماً، وإن أبوا، فقاتلوهم. فـإن فعل عمر بن سعد، فاسمع منه وأطع، وإن أبىٰ، فأنت الأمير عـلى النـاس، وثب عليه، واضرب عنقه، وابعث إليّ برأسه.»

جواب ابن زياد لكتاب ابن سعد

ثمّ كتب إلى عمر بن سعد:

ـ «أمّا بعد، إنّي لم أبعثك إلى الحسين لتطاوله، وتكفّ عنه، ولا لتمنّيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له شافعاً عندي. انظرْ، إن نزل الحسين وأصحابه على حكمي واستسلموا، فابعث بهم، وإن أبوا، فازحف إليهم حتّى تقتلهم وتمثل بـهم، [106] فإنّهم لذلك مستحقّون[1]. فإن أنت فعلت جزيناك خيراً، لأنّك السامع المطيع، وإن

١ هنا زيادة من الطبري (٧: ٣١٦) وابن الأثير (٤: ٥٥) مع اختلاف طفيف بينهما، ونحن نورد ما في الطبري: « فإن قُتل الحسين فأوطِئ الخيل صدره وظهره، فإنّه عاقّ مشاقّ [= شاقّ ـ ابن الأثير] قاطع ظلوم، وليس دهري في هذا أن يضرّ بعد الموت شيئاً، ولكن عليّ قول لو قد قتلته، فعلت هذا به. إن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل. »

أنت أبيت، فاعتزل عملنا وجندنا، وخلِّ بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر [فإنّا قد أمرناه بأمرنا][1]، والسلام.»

قدوم شمر بالكتاب

فقدم شمر بالكتاب، فقرأه عمر، وقال لشمر:

ـ «ما لك ويلك! لا قرّب الله دارك! وقبّح الله ما قدمت به! إنّك أنت ثنّيته عمّا كتبت به إليه، وقد ـ والله ـ أفسدت علينا أموراً رجونا معه الصلاح، والله يا شمر! لا يستسلم حسين، إنّ نفسه نفس أبيّة.»

فقال له شمر:

ـ «أخبرني ما أنت صانع، تمضى لأمر أميرك، وإلّا فخلّ بيني وبين العسكر.»

قال:

ـ «لا، ولا كرامة لك! أنا أتولّى ذلك.» قال:

ـ «فدونك!»

زحفُ ابنِ سعد نحو الحسين

فركب عمر بن سعد فى الناس، ثمّ زحف نحوهم، والحسين جالس أمام بيته محتبٍ[2] بسيفه.

فقال له العبّاس بن عليّ:

ـ «يا أخى أتاك القوم، أما تراهم؟»

وكان الحسين قد خفق برأسه [على ركبتيه،][3] فنهض ثمّ قال:

---

١. زيادة من الطبرى (٧: ٣١٦).

٢. محتبى: جلس على أليتيه، وضمّ فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.

٣. تكملة من الطبرى (٧: ٣١٨)، حمق: مال. نام.

ـ «يا عبّاس اركب ـ بنفسي أنت يا أخي ـ حتّى تلقاهم فتقول لهم: مالكم؟ وما بدا لكم؟ وتسألهم عما جاء بهم.»

فأتاهم العبّاس، واستقبلهم في نحو عشرين فارساً. فقال لهم:

ـ «ما جاء بكم؟ وما بدا لكم؟» فقالوا:

ـ «إنّ أمر الأمير قد جاء بكيت وكيت.» قال:

ـ «فلا [107] تعجلوا حتّى أرجع إلى أبي عبدالله، فأعرض عليه ما ذكرتم.»

فانصرف العبّاس يركض نحو الحسين، يخبره الخبر، وترك أصحابه يخاطبون القوم. ثمّ أقبل العبّاس يركض، فقال:

ـ «إنّ أبا عبدالله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشيّة حتّى ننظر في هذا الأمر، فإنّ هذا الذي جئتم به، لم يجر [بينكم وبينه][1] فيه منطق. فإذا أصبحنا التقينا، فإمّا رضيناه فاستسلمنا، وإمّا كرهناه فرددنا.»

وكان الحسين قال للعبّاس:

ـ «ارجع إليهم، فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غدوة وتدفعهم عنّا العشيّة، لعلّنا نصلّي لربّنا ونستغفره، ونوصي إلى أهلنا.»

فجاءهم رسول عمر، فقام بحيث يسمعون الصوت، وقال:

ـ «قد أجّلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سرّحناكم إلى أميرنا، وإن أبيتم، فلسنا تاركيكم.»

كلام الحسين لأصحابه

فجمع الحسين أصحابه، وحمد الله، وأثنى عليه، ودعا دعاءاً كثيراً، وقال:

---

١. ما بين [ ] تكملة من الطبري (٧: ٣١٩).

ـ «أمّا بعد. فإنّي لا أعرف أهل بيت أبرّ، ولا أوصل من أهل بيتي. فجزاكم الله عنّي خيراً، وإنّي لا أظنّ يومنا من هؤلاء إلّا غداً، وإنّي قد أذنت لكم. فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم منّي ذمام. هذا الليل قد غشيكم [108] فاتّخذوه جملاً. ليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرّقوا بسوادكم ومدائنكم، فإنّ القوم إنّما يطلبونني، ولو قد أصابوني، لَهَوا عن طلب غيري.»

فقال له إخوته:

ـ «لِمَ نفعل ذلك؟ لنبقىٰ بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً. قبّح الله العيش بعدك.»

وتكلّم أهله كلّهم مثل ذلك.

ثمّ قام مسلم بن عوسجة الأسديّ فقال:

ـ «نحن نخلّي عنك، ولم نُعذر فيك؟ والله، لو لم يكن معي سلاح، لقذفتهم بالحجارة دونك حتّى أموت. ويعلم الله أنّا حفظنا غيبة رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ والله، لو علمت أنّي أُقتل، ثمّ أُحيىٰ، ثمّ أُقتل، ثمّ أُحرق، ثمّ يُذرىٰ بي، يفعل بي ذلك سبعين مرة، ما فارقتك. فكيف وإنّما هي قتلة واحدة، ثمّ هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.»

ثمّ قام زهير بن القين، فقال مثل ذلك، وتكلّم جماعة أصحابه بمثل ذلك، وأشبه كلام بعضهم كلام بعض، وكانوا اثنين وثلاثين رجلاً من الفرسان وأربعين راجلاً.

ثمّ أوصى الحسين، وقال لأخته:

ـ «يا أُخيّة، أقسم عليك، فبرّي قسمي، لا تشقّي علَيَّ جيباً، ولا تخمشي وجهاً، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور إذا [109] أنا هلكت.»

فبكت، فارتفعت الأصوات من جهة النساء، ولهنّ الرقّة والجزع

وقالت أخته:

ـ «بأبي وأمّي أبا عبدالله! استقتلتَ؟»

فردّد غصّته، ثمّ قال:

ـ «لو ترك القطا لنام.» فقالت:

ـ «يا ويلتى! أفتغصب نفسك اغتصاباً؟ فذلك أروع لقلبي، وأعظم لبلائي.»

ثمّ لطمت وجهها وخرّت مغشياً عليها، فصبّ الحسين على وجهها الماء، وعزّاها بكلام طويل.

يوم عاشورا

وحرسهم بالليل أصحاب عمر بن سعد. فلما أصبحوا ـ وذلك يوم الجمعة، وقيل: يوم السبت، وكان يوم عاشورا ـ خرج الحسين، فعبّى أصحابه، وأمر بأطناب البيوت، فقُرنت حتّى دخل بعضها في بعض، وجعلوها وراء ظهورهم لتكون الحرب من وجه واحد، وأمر بحطب وقصب كانوا جمعوه وراء البيوت، وكان من ورائهم موضع منخفض كأنّها ساقية، فأمر، فحفروه من الليل في ساعة، وجعلوه كالخندق، وطرح ذلك الحطب والقصب فيه، وألقى فيه النار، وقال:

ـ «لا نؤتىٰ من ورائنا.»

قال الشعبي: ففعلوا ذلك، وكان لهم نافعاً.

وأمر الحسين بمسك، فميث في جفنة عظيمة، واطّلى[1]، وركب دابّته، ودعا بمصحف فوضعه [110] أمامه، واقتتل أصحابه بين يديه قتالاً شديداً.

---

١. اطّلى بكذا: إدّهن به. وفي الطبري (٧: ٣٢٧): ثمّ دخل الحسين ذلك الفسطاط [الذي كان أمر به فضرب] فتطلّى بالنورة. وفي الكامل (٤: ٦٠): فاستعمل النوره.

جاء الحرّ تائباً

فحرّك الحرّ دابّته، حتّى استأمن إلى الحسين، وقال له:

ـ «بأبي أنت وأمي، ما ظننت الأمر ينتهي بهؤلاء القوم إلى ما أرى، وظننت أنّهم سيقبلون منك إحدى الخصال التي عرضتها عليهم، فقلت في نفسي: لا أُبالي أن أُطيع[1] القوم في بعض أمورهم، وأمّا الآن فإنّي جئت تائباً ومواسياً لك بنفسي حتّى أموت بين يديك، أترى لي ذلك توبة؟» قال:

ـ «نعم. يتوب الله عليك ويغفر لك. إنزل!» قال:

ـ «أنا فارساً خير لك منّي راجلاً، أُقاتلهم على فرسي ساعة، وإلى النزول ما يصير آخر أمري.»

ثمّ بارز، فقتل واحداً بعد آخر.

فلم يزل يبارز الواحد من أصحاب الحسين، فيقتل عدّة من أصحاب عمر بن سعد.

فقام عمرو بن الحجاج رافعاً صوته:

ـ «يا حمقى، أتدرون من تقاتلون؟ [تقاتلون][2] فرسان المصر، وقوماً مستميتين، والله، لا يبرز لهم منكم أحد إلّا قتل. لا تبرزوا لهم! فإنّهم قليل، وقلّ ما يبقون، وقد جهدهم العطش.»

فقال عمر بن سعد:

ـ «صدقتَ.»

وأرسل في الناس، فعزم عليهم أن:

ـ «لا يبارز منكم رجل رجلاً منهم.»

---

١. في الطبري (٧: ٣٣٢) «أصيع» بدل «أطيع». ٢. ما بين [ ] تكملة من مط.

فأخذت الخيل تحمل، وأصحاب الحسين تثبت، وإنّما [111] هم اثنان وثلاثون فارساً.

فقال عمر:

ـ «ليتقدّم الرماة إلى هذه العدّة اليسيرة، فليرشقوهم بالنبل»

فتقدّموا، فلم يلبثوهم أن عقروا خيلهم، فصاروا كلّهم رجّالة. وقاتلوا قتالاً لم يُر أعظم منه ولا أشدّ، إلّا أنهم كانوا إذا صرع الواحد منهم أو الإثنان تبيّن ذلك عليهم، وإذا قتلوا أضعاف عدّتهم من أولئك لم يتبيّن عليهم.

ووصل الناس إلى الحسين، وقاتل بين يديه كلّ من استهدف للنبل، فرمى يميناً وشمالاً، حتّى سقطوا، وجعل أصحابه يستقتلون بين يديه، ويسلّمون على الحسين، ويودّعونه، ثمّ يقاتلون حتّى يُقتلوا.

فكان أوّل من قتل من بني أبي طالب عليّ الأكبر بن الحسين بن عليّ، ثمّ عبدالله بن مسلم بن عقيل، ثمّ محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، ثمّ جعفر بن عقيل بن أبي طالب.

قال: ثمّ رأينا غلاماً كأن وجهه شقّة قمر، في يده سيف، وعليه قميص ونعلان، وقد انقطع شسع أحدهما. فحمل عليه رجل، فضربه بالسيف على رأسه، فوقع الغلام لوجهه، وصاح:

ـ «يا عمّاه!»

فجلّى الحسين كما يجلّي الصقر، ثمّ شدّ على الرجل بسيفه، فاتّقاه فضرب ساعده، [112] فأطنّها[1] من المرفق وتنحّىٰ عن الغلام، وانجلت الغبرة. فرأيت الحسين قائماً على رأس الغلام، والغلام يفحص برجله الأرض. والحسين يقول:

ـ «بُعداً لقوم قتلوك، ومن خصمهم جدّك.»

---

١ في مط: «سطها» بدل «فأطنّها»

ثمّ قال:

ـ «عزّ، والله، على عمّك أن تدعوه، فلا يجيبك، أو يجيبك، ثمّ لا ينفعك.»

ثمّ احتمله، فكأنّي أنظر إلى رجلَي الغلام يخطّان في الأرض، وقد وضع الحسين صدره على صدره.

قال: فقلت في نفسي: ما يصنع به؟ فجاء به حتّى ألقاه مع ابنه عليّ بن الحسين والقتلىٰ حوله من أهل بيته، فسألت عن الغلام، فقيل لي: القاسم بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ـ صلوات الله على جميعهم.

ومكث الحسين طويلاً من النهار، وكلما انتهىٰ إليه رجل انصرف عنه وكره أن يتولّى قتله، حتّى أتاه مالك بن النسير، فضربه على رأسه بالسيف، فقطع بُرنُس خزّ كان عليه، وأدمىٰ رأسه، فألقىٰ ذلك البرنس، ودعا بقلنسوة، فلبسها واعتمّ، وكان قد أعييٰ وبلّد[1]، ولم يبق له قوّة، وجهده العطش. فدنا إلى الماء ليشربه، فرماه حصين بن تميم بسهم، فوقع في فمه يتلقّى الدم من فيه، فيرمي به إلى السماء. ثمّ حمد الله وأثنىٰ [113] عليه، ثمّ جمع يده وقال:

ـ «اللهمّ أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تذر منهم أحداً»

ثمّ أقبل إليه شمر بن ذي الجوشن في نحو من عشرة من رجّالة أهل الكوفة، وطلب منزل الحسين الذي فيه ثقله. فمشى نحوهم[2]، فحالوا بينه وبين رحله. فقال الحسين عليه السلام:

ـ «ويلكم! إن لم يكن لكم دين، فكونوا في دنياكم أحراراً. امنعوا أهلي من طغامكم وجهّالكم.»

قال ابن ذي الجوشن:

---

١ كذا في الأصل بلّد. والضبط من الطبرى (٧: ٣٥٩): وبَلُد. والصحيح ما في الأصل بلَّد فتر في العمل وقصّر سقط إلى الأرض من الضعف. وفي مط: نكد، وهو تصحيف.

٢ في الطبرى (٧: ٣٦٢): نحوه، في حاشيته: نحوهم

ـ «ذلك لك.»

وأقدم عليه بالرجّالة.

قال عبدالله بن عمار: فلقد رأيته وهو يحمل على مَن فى يمينه فيطردهم، وعلى مَن فى شماله فيطردهم وعليه قميص خزّ وهو معتمّ، فوالله، ما رأيت مكثوراً[1] قتل ولده وأهل بيته وأصحابه، أربط جأشاً منه، ولا أمضى جَناناً، ولا أجرأ مُقدماً[2]. والله، ما رأيت قبله ولا بعده مثله، إن كانت الرجّالة لتنكشف عن يمينه وشماله انكشاف المعزىٰ إذا شدّ فيها الذئب. فكأنّى بزينب أُخته وهو على تلك الحال، قد خرجت وأنا أنظر إلى قرطها يجول بين أُذنها وعاتقها وهى تقول:

ـ «ليت السماء انطبقت على الأرض.»

وكان قد دنا عمر بن سعد من الحسين، فقالت:

ـ «يابن سعد [114] أيُقتل أبو عبدالله وأنت تنظر إليه؟»

وكأنّى أنظر إلى دموع [عمر بن][3] سعد تسيل على خدّيه ولحيته، وصرف وجهه عنها.

فنادىٰ فى الناس شمر:

ـ «ويحكم! ما تنتظرون بالرجل؟ اقتلوه، ثكلتكم أُمّهاتكم!»

فحُمل عليه من كل جانب، وضُرب على كتفه وطُعن.

فقال شمر لخولى بن يزيد الأصبحى:

ـ «انزل، فاحتزّ رأسه.»

فضعف وأرعد.

ـ فقال له سنان بن أنس وهو الذى طعنه:

١ كذ فى مط والطبرى (٧: ٣٦٤): مكثوراً. وفى حاشية الطبرى: مكسوراً. والمكثور المغلوب بالكثرة.

٢ فى مط: أجرى مقدماً. والضبط فى الطبرى: مقدماً. وفى الأصل يشبه أن يكون: مُقدماً

٣. ما بين [ ] ساقط من الأصل، فأثبتناه كما فى مط.

ـ «فتّ الله عضديك!»
فنزل، فذبحه وأخذ رأسه.

سلب الحسين وانتهاب نساءه

وسُلب الحسين حتّى سراويله، وتُرك مجرّداً. ومال الناس على الإبل والمتاع، فانتهبوه وانتهبوا نساءه. فإن كانت المرأة لتُنازع ثوبها عن ظهرها حتّى تُغلب عليه، فيذهب به، حتّى جاء عمر بن سعد، فقال:
ـ «لا يدخلنّ بيت هؤلاء النسوة أحد، ولا يعرضنّ لهذا الغلام المريض.»
يعني عليّ بن الحسين، وكان مريضاً.
وقتل من أصحاب الحسين عليه السلام اثنان وسبعون رجلاً، وسُرّح برأسه إلى بن زياد.

كلام دار بين علي بن الحسين وابن زياد

فحدّث حميد بن مسلم، قال: كنت واقفاً عند ابن زياد حين عُرض عليه عليّ بن الحسين عليهما السلام، فقال:
ـ «ما اسمك؟» قال:
ـ «عليّ بن الحسين.» قال:
ـ «أولم يقتل الله عليّ بن الحسين؟»
فسكت.
فقال له ابن زياد:
«مالك [115] لا تتكلّم؟» قال:
ـ «قد كان لي أخ يقال له: عليّ بن الحسين أيضاً، [فقتله الناس].» فقال:
ـ «قد قتله الله.»

فسكت.

فقال ابن زياد:

ـ «مالك لاتتكلّم؟» قال:

ـ ﴿الله يتوفّىٰ الأنفس حين موتها﴾ [1] ﴿وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله﴾ [2] قال:

ـ «أنت والله منهم، ويحكم، انظروا هذا قد أدرك [3] والله إنّي لأحسبه رجلاً.»

فكشف عنه بعض أصحاب ابن زياد، فقال:

ـ «نعم، قد أدرك» فقال:

ـ «أقتله.»

فقال عليّ:

ـ «فوكّل بهؤلاء النسوة من يكون محرماً لهنّ يسير معهنّ إن كنت مسلماً.»

فقال ابن زياد:

ـ «دعوه، سر أنت معهنّ.»

وبعث بهنّ معه إلى الشام.

ما قاله يزيد بعد تسلّم كتب البشارة

فيقال: إنّ يزيد لمّا وردت عليه كتب البشارة، دمعت عينه وقال:

ـ «كنت أرضىٰ من طاعتهم بدون قتل الحسين؛ لعن الله ابن سميّة، أمّا إنّي لو كنت صاحبه لعفوت عنه.»

ولمّا وضعت الرؤوس بين يدي يزيد، قال يزيد:

---

١. س ٣٩ الزمر: ٤٢.   ٢. س ٣ آل عمران: ١٤٥.

٣. في الطبري (٧: ٢٧٧٣): أنظروا هل أدرك؟

نُفلّق[1] هاماً من رجالٍ أعزَّةٍ علينا، وهم كانوا أعقّ وأظلما

ثمّ جهّز النساء وعليّ بن الحسين، وضمّ إليهم جيشاً حتّى ردّهم إلى المدينة.

ذكر حيل ابن الزبير

كان ابن الزبير يُظهر أنه عائذ بالبيت، ويبايع الناس سرّاً. وبلغ ذلك يزيد بن معاوية، فأعطى الله عهداً: ليُوثقنّ في سلسلة. فبعث بسلسلة من فضّة وعمرو بن العاص [116] يومئذ عامل مكّة، وكان شديداً عليه، ولكنّه كان كثير المداراة رفيقاً. فلما ورد البريد بالسلسلة رفق حتّى ردّه ردّاً جميلاً. وخطب الناس، وعاب أهل الكوفة خاصّة، وأهل العراق عامّة بقتل الحسين، وبكىٰ وقال:

ـ «لقد كان لأبي عبدالله ـ رضى الله عنه ـ في ما جرىٰ على أبيه وأخيه من هؤلاء القوم ناه، ولكنّه ما حُمّ نازل.»

ثمّ عظّم ما جرىٰ عليه واستفظعه، وقال في كلامه:

ـ «لقد قتلوه كثيراً صيامه بالنهار، طويلاً صلاته بالليل، ما كان يبدل بالقرآن غناءً، ولا بالصيام شرب الخمر، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في طلب الصيد.»

يعرّض بيزيد. فثار إليه أصحابه وقالوا له:

ـ «أيّها الرجل! أظهر بيعتك، فلم يبق بعد الحسين أولىٰ بهذا الأمر منك.» فقال:

ـ «لا تعجلوا!»

وعلا أمره بمكّة، وكاتبه أهل المدينة وقالوا:

ـ «أمّا إذ هلك الحسين فليس أحد ينازع ابن الزبير.»

---

١ كذا في مط: ىعلق. وفي الطبري (٧: ٣٧٦): يفلّقن.

وبلغ ابن الزبير[1] أنّ مروان تمثّل لمّا اجتاز به البريد ومعه سلسلة من فضة وجامعة يجعل فيها ابن الزبير:

فـــخُذها، فـــليست للـــعزيز بـخُطَّةٍ   وفـــيها مَـــقالٌ لامـــرئٍ مـــتذلّلِ
أعــامرُ إنّ القـــوم ســـاموك خُـــطَّةً   وذلك في الجيران، غزلاً[2] بمغزلِ [117]
أراك إذا قـــد صـــرتَ[3] للقوم ناضحاً   يُـــقال له بـــالغرب[4] أدبِـرْ وأقبلِ

وأرسل مروان ابنيه وقال:
- «إذهبا فتعرّضا لابن الزبير، ثمّ تمثّلا بهذه الأبيات إذا بلّغته الرسل الرسالة.»
ففعلا. فلما تعرّضا لينشداه، بادر ابن الزبير وقال:
- «إي بني مروان، قد سمعت ما قال أبوكما، فاذهبا، فأنشداه:

إنّــي لَمِن نَـبعةٍ صُمٍّ مَكاسرُها   إذا تـنـاوحتِ الـقـصباءُ والعُشَرُ
فـــلا ألـــينُ لغـــير الحـــقِّ أســـألُهُ   حتّى يلينَ لِضِرسِ الماضغِ الحجرُ»

عزل عمرو بن سعيد وتولية الوليد مكّة

ثمّ إنّ يزيد اتّهم عمرو بن سعيد وظنّ أنه يقدر على أخذ ابن الزبير وليس يفعل، فعزله، وولّى الوليد بن عقبة. وخرج عمرو حتّى قدم على يزيد، فرحّب به يزيد، وأدنى مجلسه، ثمّ عاتبه في أشياء كان يأمر بها في ابن الزبير فلا ينفذها

١ وبلغ ابن الزبير: سقطت من مط.
٢ غزلاً: كذا في الأصل ومط. وفي الطبري (٧: ٣٩٨): غزلٌ بمنزل.
٣. في الطبري (٧: ٣٩٨): إذا ما كنت
٤ في الطبري: بالدَّلو. وفي مط: بالغرب. وفي حواشي الطبري: بالغرب، كما في الأصل

فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، الشاهد يرىٰ ما لا يرى الغائب، وإنّ جُلّ أهل مكّة قد كانوا مالوا إليه، وأعطوه الرضا، ودعا بعضهم بعضاً إليه سرّاً وجهراً، ولم يكن معي جند أتقوّى بهم عليه لو ناهضته، وقد كان يحذر منّي ويتحرّز، [118] وكنت أنا أرفق به وأُداريه لئلّا يستوحش، فإذا استمكنت منه وثبت عليه، مع[1] أنّي ضيّقت عليه، ومنعته من أشياء لو تمكّن منها كانت معونة له، وجعلت على مكّة وطُرقها وشعابها رجالاً لا يدعون أحداً يدخلها حتّى يكتبوا لي اسمه، واسم أبيه، وما جاء فيه، وما الذي يريد. فمن كان من أصحابه أو ممّن اتّهمه، رددته صاغراً، وقد بعث الوليد، وسيأتيك من أثره وعمله ما تعرف به مبالغتي في أمرك، ومناصحتي لك.»

فعذره يزيد، وتلقاه بجميل[2]، ولبث الوليد مدّة بمكّة، ثمّ عزله يزيد، وولّى عثمان بن محمد بن أبي سفيان. فكان حدثاً، فلم يضبط الأمر، ولا كان له رأي.

ذكر الحال في المدينة

وظهر في المدينة أنّ يزيد بن معاوية يشرب الخمر حتّى يترك الصلاة، وصحّ عندهم ذلك، وصحّ غيره ممّا يشبهه، فجعلوا يجتمعون لذلك[3] حتّى خلعوه، وبايعوا عبدالله بن حنظلة الغسيل، ووثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومن معه من بني أُميّة ومن يرىٰ رأيهم، فنفوهم وكانوا ألف رجل. فخرجوا حتّى نزلوا دار مروان بن الحكم، فحاصرهم الناس حصاراً ضعيفاً. فتولّىٰ تدبيرهم مروان، لأنّ عثمان بن محمد كان غُرّاً لا يُرجع [119] إلى رأيه.

وكتب مروان إلى يزيد كتاباً من جماعة بما جرىٰ عليهم ويطلبون الغوث منه. قال الرسول: فلما وردت على يزيد، قال:

---

۱. في مط: ومع (بالواو). ۲. في مط: بجهل، بدل: بجميل.

۳. في مط كذلك، بدل: لذلك.

ـ «أما تكون بنو أميّة ومواليهم ألف رجل بالمدينة؟» قلت:

ـ «بلى.» قال:

ـ «فما استطاعوا أن يقاتلوهم ساعة من نهار؟» فقلت:

ـ «أجمع الناس كلّهم عليهم، فلم تكن لهم بهم طاقة.»

فكتب إلى عبيدالله بن زياد أن اغزُ ابن الزبير، فقال:

ـ «والله لا أجمعهما للفاسق أبداً: أأقتل ابن رسول الله وأغزو البيت؟»

وندب مسلم بن عقبة المرّي، وهو شيخ كبير مريض[1]، للمدينة، فخرج ونادىٰ أن:

ـ «سيروا إلى[2] الحجاز على أخذ أعطياتكم كملاً، ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته.»

فانتدب له اثنا عشر ألف رجل. ووصّاه يزيد، إذا ظفر، أن ينهب المدينة ثلاثة أيّام، وذلك في سنة ثلاث وستّين.

وكان معاوية وصّىٰ يزيد:

ـ «إذا أرابك من أهل المدينة ريب، فارمهم بمسلم بن عقبة.»

ولمّا بلغ أهل المدينة خبر مسلم ومن معه، أخذوا على بني أميّة المحصورين في دار مروان العهود والمواثيق، ألّا يدلّوا على عورة لهم، ولا يبغونهم غائلة، وأخرجوهم، فلقوا [120] مسلم بن عقبة بوادي القرىٰ مع أثقالهم، فسأل مسلم عمرو بن عثمان بن عفّان عن القوم واستشاره، فقال:

ـ «عليَّ عهد ألّا أدلّ على عورة.»

فانتهزه مسلم وقال:

ـ «والله، لولا أنّك ابن عثمان، لضربت عنقك، والله، لا أُقيلها[3] قرشيّاً بعدك.»

---

١. في مط: أربص المدينة ٢. في مط: على.

٣. في مط: أقتلها

وبلغ ذلك الناس، فهابوه.

وقال مروان لابنه عبدالملك:

ـ «ادخل قبلي إلى مسلم لعلّه يجتزي[١] بك منّي.»

فدخل عليه عبدالملك، فقال:

ـ «هات ما عندك، أخبرني خبر الناس، وكيف ترىٰ؟»

ذكر رأي عبدالملك وما ظهر من حزمه

قال:

ـ «نعم، أرى أن تسير بمن معك، فتركب هذا الطريق إلى المدينة، حتّى إذا انتهيت إلى أدنى نخل بها نزلت، فاستظلّ الناس بظلّه، وأكلوا من صفوه، حتّى إذا كان الليل، أذكيت الحرس الليل كلّه عُقْباً بين أهل عسكرك، حتّى إذا أصبحت وصلّيت الصبح، مضيت بهم، وتركت المدينة ذات اليسار. ثمّ أدرت بالمدينة، حتّى تأتيهم من قبل الحرّة[٢] مشرّقاً، ثمّ تستقبل القوم، فإذا استقبلتهم، أشرقت الشمس عليهم، وطلعت من أكتاف أصحابك، فلا تؤذيهم، وتقع في وجوههم فتؤذيهم، ويرون ما دمتم مشرّقين [121] ايتلاق بيضكم، وحرابكم، وأسنّة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم، ما لا ترونه أنتم لشيء من سلاحهم ماداموا مغرّبين، ثمّ قاتلهم[٣]، واستعن الله عليهم.»

فقال له مسلم:

١ يجترى: كذا في الأصل ومط: يجبرى (بالزاء المعجمة): يكتفي.

٢ كذا في الأصل الحرّة. وفي مط. الخرّة. والحرّة: أرض ألبستها الحجارة السود، كأنّما أحرقت بالنار وأكثر الحرار حول المدينة وتسمّى مضافة إلى أماكنها، مثل حرّة أوطاس، حرّة تبوك، و... (يا، مع).

٣ قاتلهم في الأصل: قاتلتم وما أثبتناه يوافق مط والطبرى ٧ ٤١١

ـ «لله أبوك، أيّ امرئ ولد إذ ولدك[1]، لقد رأى بك خلفاً.»

ثمّ إنّ مروان لقيه، فقال له:

ـ «إيه.» فقال:

ـ «أليس قد لقيك عبدالملك؟» قال:

ـ «بلى، وأيّ رجل عبدالملك! [قلّ][2] ما كلّمت من رجال قريش شبيهاً به.»

وقعة الحرّة وإباحة المدينة ثلاثاً

ثمّ ارتحل، وعمل برأى عبدالملك، فكانت وقعة الحرّة، وذلك فى سنة ثلاث وستّين، وهى من أعظم الوقائع وأشدّها. هزم فيها مسلم بن عقبة مراراً، وأهل المدينة مراراً، وكثر القتلى فى الفريقين، ولم يكن فى اقتصاص الحديث بأسره فائدة، إلّا أنّ آخره كان قتل عبدالله بن حنظلة الغسيل، وخلق من أهل المدينة وصالحيهم، وانهزم الناس.

فأباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون الأموال.

بايع أهل المدينة ليزيد بن معاوية على أنّهم خَوَل له

وجىء بيزيد بن وهب بن ربيعة ـ وهو من وجوه قريش ـ فقال له:

ـ «بايع!» فقال:

ـ «أبايع على سنّة أبى بكر وعمر.» قال:

ـ «اقتلوه!» قال:

ـ «فإنّى أبايع.» قال:

---

١. أيّ امرئ ولد إذ ولدك: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: أىّ امرأٍ أنت.

٢. ما بين [ ] زيادة من الطبرى.

ـ «لا والله! لا أُقيلك عثرتك.»

فقام مروان بن الحكم وكلّمه، لصهر كان بينهما، فأمر بمروان، [122] فوجئت عنقه، ثمّ قال:

ـ «بايعوا على أنكم خول ليزيد بن معاوية »

ثمّ أمر بقتل يزيد بن وهب.

هذا، وبلغ أهل مكّة ما جرى على أهل المدينة، وما ارتكب منهم. ففتّ ذلك فى أعضادهم، وجاءهم[1] منه أمر عظيم، وعرفوا أنّه نازل بهم.

ذكر اتّفاق حسن
اتّفق لمسلم بن عقبة فى مسيره إلى أهل المدينة
وحيلة لأهل المدينة ما[2] تمّت

كان بعث أهل المدينة إلى كلّ ماء بينهم وبين أهل الشام، فصبّوا فيه زِقّاً من قطران، وعوّر، فأرسل الله عليهم السماء حتّى لم يحتاجوا أن يستقوا بدلو، حتّى وردوا المدينة.

موت مسلم بن عقبة ورمى الكعبة وإحراقها
وابن الزبير محاصر فيها

واستخلف مسلم على المدينة رَوح بن زنباع متوجّهاً إلى مكّة، يريد ابن الزبير. فلمّا كان ببعض الطريق هلك، وذلك فى آخر المحرّم من سنة أربع وستّين.

ولمّا حضره الموت، دعا الحصين بن نمير السلولى[3]، وقال له:

---

١. جاءهم: كذا فى الأصل، وما فى مط: جاء بهم

٢. فى مط: وما تمّت.

٣ السلولى: كذا فى الأصل ومط والظاهر أنّه تصحيف. وما فى الطبرى (٧: ٤٢٤): السكونى

ـ «يا برذعة الحمار، والله، لولا أنّ أميرالمؤمنين عهد إليّ ـ إن حدث بي حدث ـ أن أستخلفك لما ولّيتك، ولكن انظر وصيّتي، وإيّاك والمخالفة! احفظ عنّي أربعاً: أسرع السير، وعجّل الوقائع، وعمّ الأخبار، ولا تمكّن قريشاً من أذنك.»[1]

ومات. [123]

وخرج الحصين بن نمير إلى مكّة، وقد بايع أهل مكّة ابن الزبير، وقدم عليه نجدة بن عامر مع الخوارج يمنعون البيت، فحاصرهم الحصين، وأخرج ابن الزبير إليهم أخاه المنذر بن الزبير. فلما اشتدّ القتال، دعوه إلى المبارزة، فخرج وقُتل، وقتل معه عدّة من وجوه أصحاب ابن الزبير، ولم يزل القتال دائماً بينهم طول صفر. ولمّا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأوّل، نصبوا المجانيق على البيت، ورموه بالحجارة والنار، وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خطّارة[2] مثل الفنيق[3] المُزبِدِ[4] نرمي بها أعوادَ هذا[5] المسجدِ

واحترقت الكعبة، وتصدّع منها ثلاثة أمكنة، واحترق ما كان فيها من خشب، وما عليها من كسوة.

وقد قيل: إنما احترقت، لأنّ أصحاب ابن الزبير كانوا يوقدون حولها. فطارت إليها شرره ليلة ريح، فاحترقت.

---

١. في الطبري (٧: ٤٢٥): ولا تُرِع سمعك قريشاً.

٢. الخطّارة: المقلاع المنجنيق.

٣. الفنيق من الإبل: الفحل.

٤. المزبد كذا في الأصل والطبري (٧: ٤٢٦)، وفي مط: المريد.

٥. في مط: أعلى المسجد بدل هذا المسجد.

خلافة معاوية بن يزيد

ولم يزل الحصار والقتال واقعاً على ابن الزبير ـ وهو يصابر ـ إلى أن ورد نعي يزيد بعد أربعة وستّين يوماً من الحصار. وذلك في جمادى الأولى سنة ثلاث وستّين، ويقال: أربع وستّين، [124] وكانت ولايته ثلاث سنين وكسراً. وبايع الناس معاوية بن يزيد بن معاوية بالشام، وبايعوا عبدالله بن الزبير بالحجاز.

ذكر سوء رأي ابن الزبير
وضعف تدبيره، ومخالفته من أشار عليه بالصواب
حتّى فاتته الخلافة

مكث أهل الشام مع الحصين بن نمير يقاتلون ابن الزبير، وليس عندهم خبر وقد ضيّقوا على ابن الزبير، فبلغ ابن الزبير موت يزيد. فصاح:

ـ «إنّ طاغيتكم قد هلك، فمن شاء منكم أن يدخل في ما دخل فيه الناس[1]، فليفعل، ومن كره، فليلحق بالشام.»

فلم يسمع الناس منه.

فدعا ابن الزبير الحصين بن نمير، وقال:

١ـ الناس: كذا في الأصل. وفي مط: المسلمون.

ـ «ادنُ منّى!»

فخرج أحدهما إلى الاخر، فطاوله الحديث، إلى أن دُعى الذى أخبر ابن الزبير بالخبر، وكان ديّناً فاضلاً، وبينه وبين الحصين صهر، فلما سمع الحصين كلامه، عرف صحة الخبر، فقال لابن الزبير:

ـ «إن يك هذا الرجل هلك، فأنت أحقّ مَن أرى بهذا الأمر. هلمّ فلنبايعك، على أن تخرج معى إلى الشام، [125] فإنّ هذا الجند الذى معى، هم وجوه الناس، وفرسانهم، فوالله، لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس، وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك، والتى كانت بيننا وبين أهل الحرّة.»

فأبى ابن الزبير أن يخرج إلى الشام، وكان ذلك من جدّ مروان وإقباله، وإدبار ابن الزبير.

وكان من ردّ ابن الزبير على الحصين أن قال:

ـ «أنا أهدر تلك الدماء، حتّى أُقتل بكل رجل عشرة.»

فأخذ الحصين يكلّمه سرّاً، وهو يجيبه جهراً.

فقال الحصين بن نمير:

ـ «قبّح الله من يعدّك[1] بعد هذا داهياً، أو أريباً[2]. قد كنت أظنّ أنّ لك رأياً، ألا، أرانى أكلّمك سرّاً وتكلّمنى جهراً، وأدعوك إلى الخلافة، وتوعدنى بالقتل، وأبذل لك طاعة فى من معى، وتهدّدهم بالهلاك.»

ثمّ خرج من عنده، وصاح فى الناس بالرحيل، وخرج إلى المدينة. وقدم ابن الزبير، فأرسل إليه:

ـ «أما خروجى إلى الشام، فلا يمكن، فإنّى أتبرّك بالبيت، ولكن بايعوا لى

١ يعدّك: كذا فى الأصل، وما فى مط: يعدل. وهو خطأ
٢ أريباً: كذا فى الأصل، وما فى مط: أوربيا! وهو خطأ

هناك، فإنّي بعد ذلك أؤمنكم، وأقدم عليكم[1].»

فردّ عليه الحصين، وقال:

ـ «إن أنت لم تقدم بنفسك، وجدنا من نبايعه هناك.»

وأقبل بأصحابه نحو المدينة. [126] فاستقبله عليّ بن الحسين بن عليّ، عليه السلام، فسلّم عليه، ولم يكد يلتفت إليه أحد، واجترأ[2] أهل المدينة وأهل الحجاز على أهل الشام، وذلّوا حتّى كان لا ينفرد منهم رجل إلّا أخذ بلجام دابّته، ونكّس عنها. فكانوا يجتمعون فى عسكرهم، ولا يتفرّقون.

فاجتمعت إليهم بنو أميّة، وقالوا:

ـ «لا نبرح حتّى تحملونا.»

ففعلوا. فخرج بنو أميّة بنسائهم وعيالاتهم، ومضى ذلك الجيش، حتّى دخل الشام.

ولم يلبث معاوية بن يزيد إلّا ثلاثة أشهر، حتّى مات. ويقال: بل مكث أربعين يوماً، وكان أقرّ عمّال أبيه.

خطبة ابن زياد بالبصرة

بعد انتهاء موت يزيد بن معاوية إليها

وبلغ موت يزيد بن معاوية عبيدالله بن زياد بالبصرة، فصعد المنبر، وخطب الناس، وقال:

ـ «يا أهل البصرة! قد علمتم قيامى بأمركم، وجبايتى الأموال، وتفرقتها، وانتسبوني، فوالله، تجدوننى مهاجراً إليكم، ووالدى ومولدى فيكم ودارى. ولقد

---

١. والعبارة فى الطبرى (٧: ٤٣١): ولكن بايعوا لى هنالك، فإنّى مؤمنكم وعادل فيكم.

٢. واجترأ: كذا فى الأصل وما فى مط: واجترى.

وليتكم، وما أُحصي ديوان مقاتلتكم إلّا سبعين ألفاً، ولقد أُحصي اليوم ثمانين ألفاً، وما كان ديوان عيالكم إلّا سبعين ألفاً، وقد أُحصي اليوم مائة ألف وأربعين ألفاً، وما تركت لكم ذا ظنّة أخافه [127] عليكم، إلّا وهو في سجنكم. وقد توفّي أميرالمؤمنين يزيد، واختلف أهل الشام، وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً، وأوسعهم بلاداً، فاختاروا رجلاً ترضونه [و](١) تجتمعون عليه، إلى أن يجتمع أهل الشام، فإن اختاروا من ترضونه دخلتم في ما دخلوا فيه، وإن كرهتم ذلك، كنتم على جديلتكم، فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة، وما يستغني الناس عنكم.»(٢)

ذكر طمع عبيدالله في الخلافة
وما احتال فيه

وكان عبيدالله قد أنفذ بالليل إلى شقيق بن ثور، ومالك بن مسمع وحصين بن المنذر، وفرّق فيهم مالاً كثيراً. فلما خطبهم هذه الخطبة، قام هؤلاء، وهم رؤساء الناس، فقالوا:

ـ «مالنا غيرك، ولا نعرف أحداً هو أقوىٰ على هذا الأمر منك.»

وبايعه هؤلاء، وبايعه الناس. فجعل الرجل إذا خرج من عنده، مسح يده على الحائط ويقول:

ـ «أ ظنَّ ابن مرجانة أنّا نولّيه أمرنا في الفرقة، كما تولّاه إلى اليوم؟»

فلم تمض بعبيدالله أيّام حتّى جعل سلطانه يضعف. فكان يأمر بالأمر، فلا يمتثل، ويرتأى الرأى، [128] فلا يقبل ويردّ عليه، ويأمر بحبس الظنين، فيحال

١. الواو زيادة منّا ولم تكن موجودة لا في الأصل ولا في مط
٢. قس بما في الطبري ٧: ٤٣٣.

بين أعوانه وبينه. فبينا هو كذلك، إذ ظهر رجل بالبصرة، يدعو إلى ابن الزبير، وكثر الناس معه. فبلغ ذلك عبيدالله، وأراد أخذه، فامتنع عليه، وكشف جمعه، وقعد الناس عن عبيدالله، وقال في خطبته:

ـ «يا أهل البصرة، قد عرفتم بيعتي في أعناقكم، وحرصي على ضبط أموركم، وقد تقاعد عنّي من يريد قرتكم، وأن يضرب بعضكم وجوه بعض آخر بالسيف. ووالله يا أهل البصرة، لقد لبسنا الخزّ واليُمنة[1] واللّيّن من الثياب، حتّى لقد أجمته[2] جلودنا، فما نبالي أن نلبس الحديد أيّاماً.»

فما لبث أن رُمي بجماع الناس، فقال لهم:

ـ «أيّها الناس، إنّ هذا المال فيكم، فخذوا أعطياتكم، وأرزاق ذراريكم.»

وأمر الكتّاب بتحصيل الناس، وتخريج الأسماء، واستعجلهم حتّى وكّل بهم من يحبسهم في ديوان، وأسرج لهم الشموع، فكانوا يأخذون المال، ويتقاعدون عنه، فكفّ عن إخراج المال، وكان في بيت مال البصرة يومئذ ألف ألف [١،٠٠٠،٠٠٠] درهم، فنقل ما بقي منها إلى من أودعها عنده.

ودعا عبيدالله [129] محاربة[3] السلطان وأرادهم على القتال. فقال له أخوه عبدالله بن زياد:

ـ «قد علمت أنّ الحرب دِوَل، فلعلّها تدول عليك، وقد اتخذنا أموالاً بين أظهر هؤلاء القوم، فإن ظفروا بك أهلكونا، ثمّ أهلكوها، فلم تبق لك باقية.»

وقال له:

---

١ اليُمنة كذا في الأصل وفي مط اليمنة. واليُمنة واليَمنة (بكسر الياء وفتحها): ضرب من برود اليمن.

٢ أجمته كذا في الأصل والطبري، وما في مط: أجمته. أجم الطعام وغيره أجماً: ملّه من المداومة عليه.

٣ محاربة في الأصل ومط غموض. في مط «بحاربة» من دون نقط. وفي الأصل: بحاربة، بخاربة؟ ويبدو أنها تصحيف، بدليل ما في ابن الأثير «محاربة» وذلك في حاشية الطبري. وما في الطبري (٧: ٤٣٩): خاصة السلطان.

ـ «والله لئن قاتلت القوم لأعتمدنّ على ظُبَة سيفي حتّى يخرج من صلبي.»

فلما رأى عبيدالله ذلك، همّ بالهرب، فاحتال بالليل حتّى فرّ مستخفياً إلى مسعود بن عمرو، وكان سيّد الأزد، حتّى حصل فى داره.

ذكر حيلته فى ذلك

وجّه عبيدالله إلى الحارث بن قيس الأزدى، وذكّره بيد له عنده، وسأله أن يحمله إلى منزله، ويكتم أمره، حتّى يجتمع الناس.

فقال له الحارث:

ـ «إنّ مسعود[1] بن عمرو سيّد الأزد، وإن طلبك عندى لم أقدر على الإمتناع منه، ولكن سأحتال لك من قبل امرأته، فإنّها بنت عمّه.»

فقال له ابن زياد:

ـ «فخذ معك مالاً تطعمها فيه.» قال:

ـ «هات.»

فحمل معه مائة ألف درهم، فخرج بها الحارث حتّى أتى بها امرأة مسعود، ومعه عبيدالله، وعبدالله ابنا زياد، فاستأذن عليها، فأذنت له، ودخل. [130]

ثمّ قال لها الحارث:

ـ «قد أتيتكِ بأمر تسودين به نساءك، وتُظهرين به فضل قومك، وتتعجّلين الغنىٰ فى دنياك، هذه مائة ألف دينار، خذيها وضمّى عبيدالله.» فقالت:

ـ «أخاف ألّا يرضىٰ مسعود.»

فقال الحارث:

ـ «ألبسيه ثوباً من ثيابه، وأدخليه بيتك، وخلّى بيننا وبين مسعود.»

---

١. فى مط: ابن مسعود بن عمرو. بدل: إنّ مسعود بن عمرو

فقبضت المال، وفعلت، ودخل الحارث على مسعود، وأخذ يحدّثه بحديث عبيدالله، فقال:

ـ «إنّه كان يتعوّذ من طارق الشرّ، وإنّك من طوارق الشرّ.»

وقام حتّى دخل على ابنة عمّه، وأخذ برأسها ليضربها، فخرج عبيدالله، وقال:

ـ «والله لقد أجارتنى ابنة عمّك عليك، وهذا ثوبك علىّ، وطعامك فى مذاخرى[1]، وقد التفّ علىّ بيتك.»

وشهد له الحارث. ولم يزالا[2] به حتّى سكن ورضى.

ثمّ ركب مسعود من ليلته، ومعه الحارث، وجماعة من قومه، فطاف فى الأزد ومجالسهم، وقال:

ـ «إن ابن زياد قد فُقِد، ولا نأمن اضطراب الناس، وأن يلطّخوكم به.»

فقد كان أبو زياد استجار بهم ومنعوه، فأصبحوا فى السلاح، فلمّا أصبح الناس، وفقدوا [131] ابن زياد، قالوا:

ـ «أين توجّه؟»

فقالت عجوز من بنى عقيل:

ـ «أين ترونه توجّه؟ اندحس، والله، فى أجمة أبيه.»

فقال الناس:

ـ «صدقتِ، ما هو إلّا فى الأزد.»

ثمّ اجتمع الناس على عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، وهو الذى يلقّب ببّة[3]، على أن يقم لهم، حتّى يجتمع أمر الناس،

---

١. فى الأصل: مداخرى (بالدال المهملة)، فأعجمنا الدال كما فى مط ومذاخر الحيوان أمعاءه. وفى الطبرى: فى بطنى (٧: ٤٤٥)

٢. لم يزالا: كذا فى الأصل وهو الصحيح. وما فى مط: لم يزل إلّا.

٣. ببّة: كما فى الأصل والطبرى (٧: ٤٤٦ـ٤٤٧). جاء فى الطبرى: فقال الفرزدق حين بايعه.

وبايعت أقواماً وفيتُ بعهدهم وببّة قد بايعتهُ غيرَ نادمِ

فتولّى الأمر.

واضطرب الناس بالبصرة، ووقعت الفتنة بين الأزد وتميم، وتأدّى إلى الحرب، فبعث مسعود مع ابن زياد مائة من الأزد حتّى خرجوا به إلى الشام

ذكر ما حُفظ على ابن زياد فى طريقه من الآراء

قال عبيدالله ذات ليلة:

ـ «إنّه قد ثقل علىّ ركوب الإبل، فوطّئوا لى على ذى حافر.»

قال: فألقيت له[1] قطيفة على حمار، فركبه[2]، وإنّ رجليه لتكادان تخدّان فى الأرض.

قال بشّار بن شريح اليشكرى: فإنّه يسير ويحدّثنى، إذ سكت سكتة طويلة، فقلت: والله ما سكت إلّا لشىء فى نفسه. فدنوت منه، فقلت:

ـ «أنائم أنت؟» قال:

ـ «لا.» قلت:

ـ «فما أسكتك؟» قال:

ـ «كنت [132] أحدّث نفسى.»

قال، قلت:

ـ «أفلا أحدّثك ما كنت تحدّث به نفسك؟» قال:

ـ «هات، فوالله ما أراك تصيب، ولا تكيس.» قلت:

ـ «تقول: ليتنى لم أكن قتلتُ حسيناً.» قال:

ـ «وماذا؟» قلت:

---

١. له: فى الأصل لى. فأثبتناها كما فى مط ٢. فركبه: فى الأصل: فركبته فأثبتناها كما فى مط

ـ «تقول: ليتني لم أكن قتلت من قتلت.» قال:

ـ «وماذا؟» قلت:

ـ «تقول[1]: ليتني لم أكن بنيتُ البيضاء.» قال:

ـ «وماذا؟» قلت:

ـ «تقول: ليتني لم أكن استعملت الدهاقين على العرب.» قال:

ـ «وماذا؟» قلت:

ـ «تقول[2]: ليتني كنتُ أسخىَ ممّا كنت.»

فقال لي:

ـ «والله، ما نطقتَ بصواب، ولا سكتَّ عن خطأ:

أما الحسين، فإنّه سار إليّ يريد قتلي، فاخترت أن أقتله على أن يقتلني. وأما البيضاء، فإنّي اشتريتها من عبدالله بن عثمان الثقفي، فأرسل يزيد بألف ألف [١،٠٠٠،٠٠٠] درهم، فأنفقتها عليها، فإن بقيت فلأهلي، وإن هلكت لم آس على ما لم أغرم عليه[3].

وأما استعمال الدهاقين، فإنّ ابن أبي بكرة وزاذا نفرّوخ رفعا عليّ عند معاوية، حتّى ذكرا قشور الأرزّ، وبلغا خراج العراق مائة ألف ألف [١٠٠،٠٠٠،٠٠٠] يضمنانها، فخيّرني معاوية بين الضمان والعزل، فكرهت العزل، فكنت [133] إذا استعملت العرب كسروا الخراج، وإن أقدمت على الرجل منهم أوغرت[4] صدور عشيرته، وإن أغرمت[5] قومه أضررت بهم، وإن تركته ضاع لي حقّ وأنا أعرف

---

١. تقول. سقطت من مط هنا وفي الموضع الآتي وسجد العبارة عند الطبري أيضاً (٧: ٤٥٧).

٢. كذا في الأصل ومط «تقول». وفي الطبري. «وتقول» بزيادة الواو.

٣. والعبارة في الطبري. لم آس عليها ممّا لم أعنّف فيه (٧: ٤٥٨).

٤. أوغرت كذا في الأصل ومط وما في الطبري. «أغرمت» وهو خطأ.

٥. أغرمت: كذا في الأصل والطبري. وفي مط غرمت.

مكانه، فوجدت الدهاقين أعرف بالجباية، وأوفى بالأمانة، وأهون على المطالبة منكم، مع أنّي قد جعلتكم أمناء عليهم.

وأمّا قولك فى السخاء، فما كان لى مال أجود به عليكم، ولو شئت لأخذت بعض مالكم، فخصصت به بعضكم دون بعض، فتقولون: ما أسخاه! ولكن عممتكم به، وكان عندى أنفع لكم.

ولكنّى سأخبرك بما حدّثت به نفسى:

قلت، ليتنى قاتلت أهل البصرة، فإنّهم بايعونى طائعين، وأيم الله، إنّى حرصت على ذلك، ولكن إخوتى أتونى، وقالوا: إن قاتلتهم، وظهروا عليك، لم يُبقّوا منّا أحداً، وإن تركتهم تغيّب الرجل منّا عند أخواله وأصهاره، فرقّ لهم قلبى. وكنت أقول: ليتنى أخرجت أهل السجن، فضربت أعناقهم. وأمـا إذ فـاتتنى هـاتان الخصلتان، فليتنى أقدم الشام ولم يبرموا أمراً» [134]

خلافة مروان بن الحكم

كان لا يريد الخلافة ولكن ابن زياد أطمعه فيها

وقدم عبيدالله بن زياد الشام، وكان قدمها الحصين بن نمير ومن معه[١]، وهمّ مروان بن الحكم أن يسير إلى ابن الزبير فيبايعه، واجتمع الناس على ذلك. فذهب عبيدالله حتّى لقي مروان، وقال:

ـ «استحييتُ لك ممّا تريد، أنت كبير قريش وسيّدها تصنع ما تصنع؟»

فقال:

ـ «ما فات شيء بعد»

واجتمع إليه بنو أُميّة ومواليهم، وتجمّع إليه أهل اليمن، وهو يقول:

ـ «ما فات شيءٌ بعد»

كالمعتذر إليه.

المروانيّون والزبيريّون واحتجاجاتهم

وكان الضحّاك بن قيس بدمشق لمّا قدم عبيدالله بن زياد، وكان يهوىٰ هوى ابن الزبير، والنعمان بن بشير بحمص يبايع لابن الزبير، وزُفر بن الحارث بقنّسرين

---

١ في الأصل ومط: وكان قدمها الحصين بن نمير ومن معه الشام. وكلمة «الشام» زائدة فحذفناها. أنظر الطبري ٧: ٤٦٧.

يبايع لابن الزبير.

وكان حسّان بن مالك بن بحدل الكلبي يرى الأمر لبنى أميّة، ويهوىٰ هواهم، لأنّه كان خال خالد بن يزيد بن معاوية، فهو يحبّ أن يبايع له، وكان بالأردن، فجمع الناس وخطبهم، وقال:

ـ «أيها الناس، ما شهادتكم على ابن الزبير، وعلى قتلىٰ أهل الحرّة؟» قالوا:

ـ «نشهد أنّ ابن الزبير منافق، وأنّ قتلىٰ أهل [135] الحرّة فى النار.» قال:

ـ «فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرّة؟» قالوا:

ـ «نشهد أنّ يزيد مؤمن، وأنّ قتلانا فى الجنّة.» قال:

ـ «وأنا أشهد ـ لئن كان دين يزيد بن معاوية حقاً يومئذٍ ـ إنّه اليوم وشيعته على حقّ، وإن كان ابن الزبير يومئذٍ وشيعته على باطل، إنّه اليوم وشيعته على باطل.» قالوا:

ـ «صدقت، نحن نبايعك ونقاتل معك من خالفك على أن تجنّبنا عبيدالله وخالداً ابنى يزيد، فإنّهما غلامان، ونكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبىّ.»

فكتب حسّان بن مالك إلى الضحّاك بن قيس:

ـ «إنّك تبايع ابن الزبير، وقد عرفت حقوق بنى أميّة عليك.»

وعظم عليه الفرقة، ودعاه إلى الجماعة. وكتب جماعة بنى أميّة بمثل ذلك. فأبى الضحّاك بن قيس، ومن يرى رأيه.

واجتمعت بنو أميّة ومن يرىٰ رأيهم، فبايعوا مروان لسنّه، وذلك فى المحرّم سنة خمس وستين.

وكان مروان لا يحدّث نفسه بذلك، ولا يحلم به، حتّى قدم عليه عبيدالله بن زياد من البصرة، فأطمعه. واتّفق ما حكيناه [136] من أمر حسّان، وجواب أهل الشام له.

وكان الحصين بن نمير لقى مروان، فشرط عليه شروطاً أجابه مروان إليها،

فكان يهوىٰ هواه. فلقي مالك بن هُبيرة الحصين بن المنذر، وقال له:

ـ «هلمّ نبايع هذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن أختنا، فقد عرفت منزلتنا كانت من أبيه وهو غداً يحملنا على رقاب العرب.»

يعني خالد بن يزيد.

فقال حُصين:

ـ «لا، لعمري ما تأتينا العرب بشيخ فنأتيهم[1] بصبيّ.»

فقال مالك:

ـ «هذا، ولمّا نرد تهامة، ولمّا يبلغ الحزام الطُّبيين[2].»

فقال الحصين:

ـ «مهلاً يا با سليمان!»

فقال له مالك:

ـ «إسمع كلامي، والله لئن استخلفت مروان وآل مروان، ليحسدنّك على[3] سوطك، وشراك نعلك، وظلّ شجرة تستظلّ بها. إنّ مروان أبو عشرة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة، فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم، ولكن عليكم بابن أختكم خالد.»

فأبى الناس إلّا شيخاً، فاجتمعوا على مروان، وقالوا:

ـ «مروان خليفتنا، على أن يكون الأمر بعده لخالد بن يزيد.»

فلما اجتمع رأى الناس رضي حسّان بن بَحدَل أيضاً، وتمّ [137] الأمر لمروان، وسار إلى الضحّاك، والتقيا بمرج راهط، فاقتتلا قتالاً عظيماً، وقُتل من أهل الشام مقتلة عظيمة لم يُقتلوا مثلها قطّ، وقُتل الضحّاك.

وخرج نعمان بن بشير، لمّا بلغه مقتل الضحّاك، هارباً من حمص ليلاً، ومعه

---

١. وفي مط: فيأتيهم.

٢. وفي مط. الطبيين، وهو خطأ.

٣. والعبارة من «على سوطك» إلى «كنتم» سقطت من مط.

امرأته وثَقَله، فتحيّر[1] ليلته كلّها، وطلبه قوم، فظُفر به، وحُزّ رأسه، وجيء به إلى مروان.

وأطبق أهل الشام على مروان واستوسقوا[2] له، فجاء[3] إلى مصر، وعليها عبدالرحمان بن جحدر[4] القرشيّ، يدعو إلى ابن الزبير. فقاتله فقتله، وآمن الناس، وبايعه أهلها، فرجع إلى دمشق.

أسماء كتّاب يزيد ووزرائه

كتب ليزيد عبيدالله بن أوس الغسّانى كاتب معاوية. وكتب له على ديوان الخراج سرجون بن منصور، وهو الذى أشار عليه، لمّا بلغه مسير الحسين إلى الكوفة بأن يولّى عبيدالله بن زياد، وقد مرّ ذكره، وكتب إليه عن يزيد:

ـ «أما بعد، فإنّ المحبوب[5] مسبوب يوماً ما، والمسبوب محبوب يوماً ما، وقد انتميت إلى منصب كما قال الأوّل:

رُفعتَ فجاوزتَ السحابَ وفوقَهُ ... فما لكَ إلّا مَرقَبَ الشمسِ مرقَبُ

[138] وقد ابتُلى بالحسين زمانك بين الأزمان، وبلدك بين البلدان، وبُليت به من بين العمّال، فإمّا أن تُعتق[6]، أو تعود عبداً، والسلام»

وقلّد سلمة بن حريد الأزدى من كتّاب فلسطين الخراجَ بمصر، وكان يكتب

---

١ فى مط: لتحيّر ٢ فى مط: استوثقوا
٣ فى مط: فجاؤوا
٤. جحدر كذا فى الأصل. فى مط: جحد. وفى الطبرى (٧: ٤٦٧): جحدم
٥. فى مط: المحبوب مسبوب. (كذلك فى الموضعين الآتيين).
٦. «فإما أن تعتق»: سقطت من مط

لعبدالله بن الزبير، يقوم بجميع أموره، إلى أن قتل. واجتمع الناس على عبدالملك بن مروان، وفيهم عبدالله بن صفوان بن أميّة بن خلف.

وأمّا عبيدالله بن زياد، فكتب له مهران الترجمان، وقام بأمره كلّه، ولم يزل معه إلى أن مات يزيد، فأخرجه أهل البصرة من بلادهم.

وقلّد يزيد بن معاوية سلم بن زياد خراسان، وكان يكتب له اصطفانوس، فأقام بها، إلى أن ظهر ابن الزبير، وتوفّي يزيد. فاستخلف سلم على خراسان عبدالله بن خازم، وانصرف في سنة أربع وستين، وتباطأ في مسيره ليعلم على ما تستقرّ الأمور، فورد البصرة في سنة خمس وستين.

فدعا سلم يوماً بإصطفانوس، وسلّم اثني عشر ألف ألف [١٢،٠٠٠،٠٠٠] دينار، وقال له:

ـ «احتفظ به، فما فيه قيمة درهم[1] ظلم فيه مسلم ولا معاهد.»

فقال [139] اصطفانوس بالفارسيّة:

ـ «فمن أين هذا كلّه؟»

فقال:

ـ «من هدايا العمّال وأهل الكور والدهّاقين.»

وكان أهل خراسان أحبّوا سلماً محبة ما أحبّوها والياً قطّ، وسمّي باسمه أيّام ولايته، أكثر من عشرين ألف مولود، ثمّ ثاروا به حين بلغهم موت يزيد حتّى استحلف عليهم، وخرج، وهلك مروان بن الحكم بعد تسعة أشهر من ولايته، وحمل وليّ عهده ابنه عبدالملك، وبعده سليمان، وكان سبب هلاكه أنّ الناس أشاروا عليه أن يتزوّج أمّ خالد بن يزيد ليغضّ منه، لأنّ الناس كانوا يتشوّفونه[2]، وينتظرون بلوغه.

---

١. فما فيه قيمة درهم، كذا في الأصل. وفي مط: فما فيه دينار واحد.

٢. ما في الأصل: يتشوّقونه (بالقاف). وما في مط: يشتمونه. والمثبت هو الصحيح

ذكر حيلة مروان بن الحكم التي عادت بهلاكه

فتزوّج مروان أُمّ خالد، فدخل يوماً على مروان وعنده جماعة كثيرة، فمشى بين الصفّين، فالتفت مروان إلى من حوله، فقال:

- «إنه ما علمتُ لأحمقُ. تعال يابن الرطبة الإست.»

يقصّر به ليسقطه من عين الناس.

فرجع [140] إلى أُمّه، وبكى بين يديها، وقال:

- «خاطبني بحضرة الناس بكذا.»

فقالت له أُمّه:

- «لا تعرّفنّ أحداً، ولا يعرفنّ هو منك، واسكت فإنّي أكفيكه.»

فدخل عليها مروان، وقال لها:

- «هل قال لكِ خالد فيَّ شيئاً؟»

فأنكرته، وبسطت له وجهها، وقالت:

- «وأيّ شيء يقول خالد فيك؟»

ثمّ مكثت[1] أيّاماً حتّى أنس مروان، فنام عندها، فغطّته بوسادة وأمسكتها عليه حتّى مات[2].

١ مكثت: كذ في الأصل. وما في مط «مكث» وهو خطأ.

٢ كان هلاك مروان في شهر رمضان سنة خمس وستين. تجد القصة في الطبري (٧: ٥٧٧)، وفي ابن الأثير (٤: ١٩١)، وفي المسعودي (٣: ٨٩).

أيّام عبدالملك بن مروان

وكان مروان قبل هلاكه بعث بعثين: أحدهما إلى المدينة، عليهم حبيش بن دلجة، والآخر إلى العراق، عليهم عبيدالله بن زياد.

فأما عبيدالله، فسار حتّى نزل الجزيرة، وأتاه الخبر بها بموت مروان، وخرج إليه الشيعة من الكوفة، وهم الذين تسمّوا بالتوّابين، يطلبون بدم الحسين بن عليّ[1]، وسنذكر من أخبار التوّابين وأخبار أهل المدينة، ما يليق ذكره بهذا الكتاب.

خبر التوّابين

فأما خبر التوابين[2]، فإنّه لما قُتل الحسين بن عليّ، عليهما السلام[3]، اجتمعت الشيعة بالكوفة، ولام بعضها بعضاً، ورأوا أنّهم جنوا جناية عظيمة باستدعائهم [14] الحسين إلى الكوفة، ثمّ تقاعدهم عنه، إلى أن جرى عليه ما

---

١. وزاد في مط، «رضي الله عنهما».

٢. نجد خبر التوابين عند الطبري ٧: ٤٩٧، ٥٣٨؛ وعند ابن الأثير ٤: ١٥٨؛ وعند المسعودي في مروج الذهب ٣: ٩٢.

٣. عليه السلام. لا توجد عبارة التسليم هذه في مط

جرئ، وأنه لا يغسل عنهم هذا العار[1]، ولا يمحو عنهم هذا الإثم، إلّا الخروج والتوبة إلى الله، والطلب بدمه، إلى أن يقتلوا قاتليه أو يُقتلوا قبل ذلك.

فاجتمع الكلّ إلى خمسة من الرؤساء، وهم: سليمان بن صرد، والمسيّب بن نجبة[2]، وعبدالله بن سعد بن نُفيل الأزدي، وعبدالله بن وال التميمي، ورفاعة بن شدّاد البجليّ.

ثمّ اجتمع هؤلاء الخمسة على سليمان بن صرد، وكانت له صحبة من النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فرأسوه[3]، وقالوا:

ـ «لابدّ من رئيس واحد تكون له راية يُحفّ بها، ورأي يُصدر عنه.»

فرضوا بسليمان بن صرد، وخطبهم سليمان خطبة طويلة، قال في آخرها:

ـ «كونوا كتوّابي بني إسرائيل، إذ قال لهم نبيّهم: إنكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم، فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم[4]. وإنّي أرى أنّ الله قد سخط عليكم مما[5] أتيتموه في أمر ابن نبيّكم، فلا يرضيه شيء أو تبيروا[6] قتلة الحسين، فلا تهابوا الموت، فوالله ما هابه أحد إلّا ذلّ.»

وتكلّم كلاماً كثيراً يشبه هذا. [142]

فقال خالد بن سعد:

ـ «أمّا أنا، فوالله، لو أعلم أنّ قتلي نفسي يُخرجني من ذنبي، ويُرضي عنّي ربّي، لقتلتها، ولكن هذا الذي ذكرته من قتل الأنفس إنما أُمر به قوم، فأُشهد الله ومن حضر، أنّ كلّ مال أملكه، سوى سلاحي الذي أُقاتل به، صدقة على المسلمين،

---

١ العار كذا في الأصل وما في مط العمار وهو خطأ

٢ نجبه كذا في الأصل، وما في مط مهمله إلّا في الياء التحتانية.

٣. فرأسوه. كذا في الأصل، وفي مط قرأسورة! وهو تصحيف.

٤. س ٢ البقرة: ٥٤.

٥. مما: كذا في الأصل. وفي مط. بما

٦ تبيروا: كذا في الأصل. سيروا، تهلكوا، تبيدوا وفي مط تثيروا وهو تصحيف

أقوّيهم به على قتال القاسطين.»

وقام جماعة، فتكلّموا بمثل ذلك.

فقال سليمان:

ـ «حسبكم، من أراد من هذا شيئاً، فليأت بماله عبدالله بن وال التيمي، فإذا اجتمع عنده ما يكفي جهّزنا به ذوى الخلّة من أشياعكم.»

وكتب سليمان بن صرد إلى المدائن، وبها جماعة من الشيعة، ورأسهم سعد بن حذيفة بن اليمان، بما اجتمع عليه رأى القوم من إخوانهم، وذكّر بمقتل حُجر وأصحابه، وبما يقاسيه الشيعة من الذلّ، وحضّهم على التوبة، واستقدمهم.

فلما قرأ سعد بن حذيفة الكتاب على الشيعة الذين كانوا بالمدائن، أجابوه بالسمع والطاعة. فأجاب سليمان بن صُرَد، بما وجد عند الشيعة من الحرص، وأنهم جاؤون ينتظرون الداعي، فإذا جاء [143] الصريخ أقبلنا ولم نعرّج، إن شاء الله.

وكتب سليمان إلى أهل البصرة، وإلى من يتشيع بها بمثل ذلك، فجاءه الجواب بمثل ما أجابه أهل المدائن.

ولم يزل الناس في الإستعداد إلى أن هلك يزيد، وقام بالأمر مروان، ومدة ذلك ثلاث سنين وشهران.

وهلك يزيد، وأمير العراق عبيدالله بن زياد، وهو بالبصرة، وخليفته بالكوفة عمرو بن حريث، واجتمعت الشيعة إلى سليمان بن صرد، وقالوا:

ـ «قد مات هذا[1] الطاغية، وهم اليوم مضطربون مشغولون، فقم بنا نثب على عمرو بن الحريث، ثمّ نظهر الطلب بدم الحسين، ونتتبع قتلته فنقتلهم، وندعو الناس إلى أهل البيت المدفوعين عن حقوقهم.»

---

١. هذا الطاغية: كذا في الأصل وقط ولكن كلمة غير واضحة زيدت فوق كلمتي «مات هذا» تشبه أن تكون «أمير»، وباعتبارها تكون العبارة في الأصل: «أمير هذا الطاغية».

ذكر رأى سليمان بن صُرَد فى ذلك

فلمّا أكثر الناس، وأطالوا عليه، قال لهم سليمان:

ـ «رويداً، لا تعجلوا، إنّى قد نظرت فى ما تذكرون، فرأيت أنّ قتلة الحسين هم أشراف الكوفة، وفرسان العرب، وهم المطالبون بدمه، ومتى علموا ما تريدون علموا أنهم المطلوبون [144] فكانوا أشدّ شىء عليكم. وقد نظرت فى من معى منكم، فعلمت أنّهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم، ولم يشفوا نفوسهم، ولم ينكأوا[1] فى عدوّهم، وكانوا لهم جزراً، ولكن بثّوا دعاتكم، فإنّى أرجو أن يكون الناس أسرع استجابة حيث هلك هذا الطاغية.»

قدوم المختار، وما زعم

ففعلوا، وخرجت منهم دعاة يدعون الناس، فاستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد بن معاوية أضعاف من كان استجاب لهم قبل ذلك. فلما كان بعد ذلك، قدم المختار بن أبى عبيد، فزعم أنه من قبل المهدىّ محمد بن الحنفيّة يدعوهم إلى الطلب بدم الحسين. فكانت الشيعة قد انقادت لسليمان بن صرد. فكان المختار، إذا خاطب الشيعة، ودعاهم إلى نفسه، قالوا:

ـ «هذا سليمان بن صرد شيخ الشيعة.»

فيقول المختار:

ـ «هذا ليس لكم بصاحب، إنما يريد أن يخرج فيقتل نفسه، ويقتلكم. ليس له بصر بالحرب، ولا علم بها.»

فلا يُقبل منه.

---

١ لم ينكأوا. كذا فى الأصل. نكأ العدوّ (ينكأ): جرحه، وقتله. وفى مط: ولم ينكوا من قولهم: نكا العدوّ، وفيه (ينكى): أوقع به، هزمه وغلبه

قدوم عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد
من قبل ابن الزبير

وقدم الكوفة عبدالله بن يزيد أميراً على حربها وثغرها، وقدم معه من قبل ابن الزبير إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبدالله [145]، أميراً على خراج الكوفة. فبلغهما أنّ الشيعة خارجة، وأنهم[1] طائفتان: طائفة كثيرة مع سليمان بن صرد، وطائفة يسيرة مع المختار، وأُشير على عبدالله بن يزيد أن يجمع الشرطة والمقاتلة ووجوه الناس وينهض إليهم، وقيل له:

ـ «إذا صرت إلى منزله، دعوته، فإن أجابك حبسته[2]، وإن قاتلك، قاتلته وقد جمعت له وعبأت وهو مغترّ.»

وقيل له:

ـ «إن لم تفعل بذلك، خرج[3] عليك، وقد اشتدّت شوكته، وتفاقم أمره.»

ذكر رأي عبدالله بن يزيد

فنظر عبدالله بن يزيد، فإذا القوم يطلبون غيره بدم الحسين، فكره أن يستحضّهم. فقال لمن أشار عليه بما حكيناه:

ـ «حدّثوني ما يريدون» قال:

ـ «يذكرون أنهم يطلبون بدم الحسين.»

فقال:

ـ «أنا قتلت الحسين؟ لعن الله قاتل الحسين.»

---

١. في الأصل: أنهما، وهو خطأ، وما أثبتناه يوافق مط
٢. في مط: جلسته، وهو خطأ
٣ في الأصل ومط «وخرج» ـ بالواو ـ وحذفناها بمقتضى السياق.

وقال:

ـ «الله بيننا وبين هؤلاء القوم، إن تركونا لم نطلبهم.»

ثمّ خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «فقد بلغني أنّ طائفة من أهل هذا المصر، أرادوا أن يخرجوا علينا. فسألت عن السبب الذى دعاهم إلى ذلك ما هو؟ فقيل [146] لي: إنّهم يطلبون بدم الحسين بن عليّ. فرحم الله هؤلاء القوم، قد ـ والله ـ دُلّت على أماكنهم، وأُمرت بأخذهم، وقيل لي: ابدأ بهم، قبل أن يبدأوك. فأبيت ذلك، وقلت: إن قاتلوني قاتلتهم، وإن تركوني لم أطلبهم. وعلامَ يقاتلونني؟ فوالله ما أنا قتلت حسيناً، ولا أنا ممّن قاتله. ولقد أُصبت بمقتله، رضى الله عنه. هؤلاء القوم آمنون، فليخرجوا، ولينتشروا ظاهرين، ثمّ ليسيروا إلى قاتل الحسين، فقد أقبل إليهم، وأنا ظهير لهم. هذا ابن زياد قاتل الحسين، وقاتل أخياركم، وأماثلكم، قد توجّه إليكم عهد العاهد به، على مسيرة ليلة من منبج[1]، فقتاله والاستعداد له أجزئ وأرشد من أن يجعلوا بأسكم بينكم، فيسفك بعضكم دماء بعض، فيلقاكم العدوّ غداً وقد رققتم[2]، وتلك أمنيّة عدوّكم، فإنّه قد أقبل إليكم. أعدئ خلق الله لكم مَن ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين لا يقلعان عن قتل أهل العفاف والدين، ومَن قتل مَن تبغون دمه قد جاءكم، فاستقبلوه بحدّكم وشوكتكم، واجعلوها به، ولا تجعلوها بأنفسكم، [147] فإنّى لم آلكم نصحاً، جمع الله كلمتنا، وأصلح لنا أئمتنا.»

فخرج أصحاب سليمان بن صرد ظاهرين، يشترون السلاح، ويتجهّزون بما يصلحهم.

وأما النفر الذين مع المختار، فإنهم سكتوا، لأنّ المختار كان يريد ألّا يهيج أمراً

١ منبج كذا في المراصد والطبرى ٧ ٥١١، وما في الأصل: منيح ـ بالحاء المهملة. وما في مط مبيح، وكلاهما تصحيف.

٢ رققتم كذا في الأصل رققتم صحصم وفي مط: وققتم. وهو خطأ

حتّى ينظر: إلى ما يصير أمر سليمان بن صرد. ورجا أن تستجمع له الشيعة، فيكون أقوى على درك ما يطلب.

اجتماع الأمر لسليمان بن صرد

واجتمع لسليمان أمره في سنة خمس وستين، وكان قد واعد أصحابه، وكاتب أهل المدائن وغيرهم لغرّة شهر ربيع الأوّل. فخرج في تلك الليلة إلى المعسكر بالنخيلة، ودار في الناس ووجوه أصحابه، فلم تعجبه عدّة الناس. فبعث حكيم بن منقذ في خيل، وبعث الوليد بن حصين في خيل، وقال:

ـ «اذهبا حتّى تدخلا الكوفة، فناديا: يالثارات الحسين! وابلغا المسجد الأعظم، فناديا بذلك.»

فخرجا. فكأنّ خلق الله دعوا: يالثارات الحسين. وكثر المستجيبون، وكثر البكاء والنحيب. وكان الرجل إذا سمع هذا النداء، فارق أهله وولده، وتركهم يبكون، ووثب إلى سلاحه [148] وودّعهم، ثمّ خرج.

قال:

فلم يصبح حتّى جاءه نحو ممن كان في عسكره حين دخله، ثمّ دعا بديوانه حين أصبح، فوجد من جاء أربعة آلاف رجل من جملة ستّة عشر ألفاً كانوا بايعوه، فقال:

ـ «سبحان الله! أما هؤلاء بمؤمنين؟ أما يخافون الله؟ أما يذكرون ما أعطوا من العهود والمواثيق؟»

وجعل يبعث ثقاته إلى من تخلّف عنه يذكّرهم الله. فخرج إليه نحو من ألف رجل. فحمد الله، وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «أيها الناس، إنه ما ينفعنا المكره، وإنما ينفعنا ذو النيّة. فمن كان يريد حرث

الدنيا، فوالله ما يأتى فيئاً[١]، ولا غنيمة، ما خلا رضوان الله، وما معنا ذهب ولا فضّة، ولا خزّ، ولا حرير، وما هو إلّا سيوفنا فى عواتقنا، ورماحنا فى أكفّنا، وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدوّنا، فمن كان ينوى غير هذا، فلا يصحبنا.»

فأجابه الناس:

ـ «إنما خرجنا لله، وللتوبة إليه من ذنبنا، والطلب بدم ابن بنت رسول الله، وإنما نُقدم على حدّ السيوف، وأطراف الرماح.»

ذكر آراء أُشير على سليمان ورأى رءاه وحده

أما أكثر الناس، فأشاروا على سليمان أن يقصدوا الكوفة، وقالوا:

ـ «إنّا خرجنا [149] نطلب بدم الحسين، وقتلة الحسين كلّهم بالكوفة: عمر بن سعد بن أبى وقّاص، ورؤوس الأرباع، وأشراف القبائل، فأين نذهب وندع الأوتاد. والله، ما نلقى، إن مضينا نحو الشام، وهذه الخيل التى أقبلت، إلّا عبيدالله وحده ممن نطلبه، ووراءكم ألدّهم بالكوفة، مثل عبيدالله.[٢]»

فقال سليمان بن صرد:

ـ «والله، لقد جئتم برأى، فهلمّوا أيها الناس بجميع ما عندكم.»

فلمّا سمع هذا وأمثاله، قال:

ـ «لكن أنا لا أرى لكم ذلك.»

ذكر الرأى الذى رءاه سليمان

قال:

ـ «إنّ الذى قتل صاحبكم هو الذى عبّى إليه الجنود فألزم الناس المسير إليه

١ فيئاً: كذا فى الأصل. وما فى مط: فيها.
٢ مثل عبيدالله: كذ فى الأصل ومط. قس بما فى الطبرى ٥: ٥٤١، ٥٤٢.

كارهين، وهدّدهم.» ثمّ قال:

ـ «لا أمان له عندى دون أن يستسلم، فأُمضى فيه حكمى، هذا الفاسق، ابن الفاسق، ابن مرجانة، عبيدالله بن زياد. فإن يُظهر الله عليه كان مَن بعده أهون شوكة. ورجونا أن يدين لكم مَن وراءكم من أهل مصركم، فينظرون مَن شرك فى دم الحسين، فيقتلونه، وإن قاتلتم الآن أهل مصركم، ما عدم الرجل أن يرىَ رجلاً غداً وقد قتل أخاه، أو أباه، أو حميمه، أو رجلاً [150] لم يكن يريد قتله، فيكثر أعداؤكم، فاستخيروا الله وسيروا.»

فتهيّأ الناس للخروج.

ذكر رأى آخر رءاه أمير الكوفة عبدالله بن يزيد

لمّا بلغ عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة أنّ سليمان خارج بأصحابه نحو عبيدالله بن زياد، رأيا أن يأتياهم، فيعرضا عليهم الإقامة، وأن تكون أيديهم واحدة، فإن أبوا إلّا الشخوص، سألوهم النظر حتّى يجهّزوا معهم جيشاً، فيقاتلوا عدوّهم بكتف وحدّ[1].

فراسلا سليمان ابن صرد وقالا:

ـ «إنّا نريد أن نجيئك لأمر عسى الله أن يجعل لنا ولك فيه صلاحاً.»

فقال سليمان للرسول:

ـ «قل لهما، فليأتيانا.»

وأحسن سليمان تعبئة الناس، وجاء عبدالله بن يزيد، فى أشراف أهل الكوفة، وجاء إبراهيم فى جماعة من أصحابه. وكان عبدالله بن يزيد قال لكلّ رجل معروف علم أنّه شرك فى دم الحسين: لا تصحبنى؛ مخافة أن ينظروا إليه، فيعدوا

---

١ كذ فى لأصل بكتف وحدّ وما فى مط بكتف وجد وهو تصحيف.

عليه.

وكان عمر بن سعد طول تلك الأيام التي كان سليمان فيها معسكراً بالنخيلة، لا يبيت إلّا في قصر الإمارة مع عبدالله بن يزيد مخافة أن يأتيه القوم وهو غافل، فيُقتل.

ولما دخل عبدالله بن يزيد إلى سليمان، حمد الله، وأثنى عليه، [151] ثمّ قال.

ـ «إنّ المسلم أخو المسلم، لا يخونه، ولا يغشّه، وأنتم أهل مصرنا، وأحبّ الناس إلينا، فلا تفجعونا بأنفسكم، ولا تستبدّوا علينا برأيكم، ولا تنقصوا عددنا بخروجكم، وأقيموا معنا حتّى نتيسّر ونتهيّأ، فإذا علمتم أنّ عدوّنا قد شارف بلادنا خرجنا إليهم بجماعتنا، فقاتلناهم.»

وتكلّم إبراهيم بنحو من هذا.

فتكلّم سليمان، وحمد الله، وأثنى عليه، وقال:

ـ «قد علمت أنّكما قد محضتماني النصيحة، واجتهدتما في المشورة، ونحن فقد خرجنا على نيّة، ولن ننقضها، ونسأل الله العزيمة، والتشديد.»

فقالا:

ـ «فأقيموا حتّى نجهّز معكم جيشاً كثيفاً، فتلقوا عدوّكم بكَنَف وجمع وحدّ.»

فقال سليمان:

ـ «تنصرفون ونرى رأينا.»

فعرضا عليه الصبر عليهما، حتّى يجعلا له ولأصحابه خراج جوخى[1] دون الناس.

فأبى سليمان وقال:

---

١. جوخى: نهر عليه كورة في سواد بغداد بالجانب الشرقي منه الراذان، وهو بين خانقين وخوزستان، قالوا: ولم يكن ببغداد مثل كورة جوخى، كان خراجها ثمانين ألف ألف [٨٠،٠٠٠،٠٠٠] درهم، حتّى صُرفت دجلة عنها فخربت (المراصد وياقوت).

ـ «ما خرجنا للدنيا».

وإنما فعلا ذلك، لما داخلهم من إقبال عبيدالله بن زياد نحو العراق.

وأبطأ على سليمان أصحابه من أهل البصرة والمدائن، فخرج من عسكره بالنخيلة، ومرّ نحو الأقساس[1]، وتخلّف عنه ناس كثير.

فقال سليمان:

ـ «لو خرجوا فيكم مازادوكم إلّا خبالاً، لأنّ الله كره [152] انبعاثهم، فثبّطهم»

ثمّ خرج حتّى صبّح قبر الحسين. فلما انتهى الناس إليه، صاحوا صيحة واحدة، وبكوا. فما رُؤى يوم كان أكثر باكياً منه، وجعلوا يدعون الله، ويسألونه أن يتوب عليهم، وأحسن الناس بالمنطق، وزادهم ذلك بصيرة، وشحذ رأيهم، ووطّنوا أنفسهم على الجهاد، وحبّ الشهادة.

كتاب عبدالله بن يزيد إلى سليمان بن صرد وما كان من جوابه

ثمّ ساروا، فلحقهم كتاب من عبدالله بن يزيد، وهم بالقيّارة، مع المُحلّ[2] بن خليفة الطائيّ.

قال المُحلّ:

فلقيته، وأبلغته السلام والكتاب، فاستقدم أصحابه حتّى ظنّ أن قد سبقهم. فوقف، وأشار إلى الناس، فوقفوا. ثمّ قرأ الكتاب، فإذا فيه:

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله بن يزيد إلى سليمان بن صرد ومن معه من المسلمين. سلام عليكم، أما بعد، فإنّ كتابي هذا

---

١ الأقساس: قرية بالكوفة وكورة يقال لها: أقساس مالك (المراصد).

٢ المُحلّ: ما في الأصل ومط غير مضبوط. فضبطناه كما في الطبري ٥: ٥٤٨.

كتاب ناصح، وكم من ناصح مستغشّ، ومن غاشّ مستنصح. إنّه قد بلغني أن قد أقبل من الشام، جموع عظيمة، وأنتم تريدون أن تلقوهم بالعدد اليسير، وإنّه من يُرِدْ أن ينقل الجبال عن مراتبها، تكلّ معاوله، وينزع، وهو مذموم الفعل والعقل. يا قومنا، لا تُطمعوا عدوّكم فى أهل بلادكم، فأنتم خيار كلّكم، ومتى يصبكم عدوّكم، أطمعهم ذلك فى من وراءكم [153] من أهل مصركم. يا قومنا، إنّهم إن يـظهروا عليكم، يرجموكم، ويعيدوكم فى ملّتهم، ولن تفلحوا إذاً أبداً[١]. يا قومنا، إنّ أيدينا وأيديكم واحدة وعدوّنا وعدوّكـم واحـد، ومـتى تجتمع كلمتنا نظهر على عدوّنا، ومتى تـختلف تـهن شـوكتنا. يـا قومنا، لا تستغشّوا نصحى، ولا تخالفوا أمرى، وأقبلوا حـين يُـقرأ عليكم كتابى، أقبل الله بكم إلى طاعته، والسلام.»

فلما قرأ الكتاب[٢]، قال ابن صرد للناس:

ـ «ماذا ترون؟» قالوا:

ـ «ماذا نرى؟ قد أبينا هذا عليهم، ونحن فـى مـصرنا، وأهـلنا، والآن حـين خرجنا، ووطّأنا أنفسنا على الجهاد، نفثأ عزيمتنا؟ ما هذا برأى.»

ثمّ نادوه.

ـ «أخبرنا برأيك!»

قال:

ـ «رأيى أن لاننصرف عمّا جمعنا الله عليه، لأنّا وهؤلاء مختلفون، لأنّـهم لو ظهروا دعونا إلى الجهاد مع ابن الزبير، ونحن لا نرى الجهاد مع ابـن الزبـير إلّا

---

١. س ١٨ الكهف ٢٠

٢. تجد الكتاب عند الطبرى (٧. ٥٤٩) أيضاً وباختلاف طفيف.

ضلالاً، وإن ظهرنا رددنا الأمر إلى أهله، وإن أُصبنا، فعلىٰ نيّتنا، تائبين من ذنوبنا. لأنّ لنا شكلاً، ولابن الزبير شكلاً.»

فانصرف الناس معه حتّى نزلوا هيت[١].

وكتب سليمان جواب الكتاب، ولاطفه، وأثنىٰ عليه، واعتذر إليه، بأنّهم تائبون خرجوا على نيّة الجهاد، وتوجّهوا [154] لأمر لا يقضونه.[٢]

فلما أتى هذا الكتاب إلى عبدالله بن يزيد، قال:

ـ «استمات القوم. أوّل كتاب يرد عليكم يكون بقتلهم.»

بين سليمان بن صرد وزُفر بن الحارث في قرقيسيا

وسار القوم إلى قرقيسيا، وبها زُفر بن الحارث بن كلاب، قد تحصّن بها من القوم، ولم يخرج إليهم. فبعث سليمان إلى المسيّب بن نجبة، فقال له:

ـ «إيت ابن عمّك هذا، فقل له: فليخرج لنا سوقاً، فإنّا لسنا إيّاه نريد، إنّما صمدنا لهؤلاء المحلّين.»

فانتهى المسيّب إلى الحصن، وانتسب، واستأذن. فقيل:

---

١. هيت: سمّيت باسم بانيها، وهي بلدة على الفرات فوق الأنبار، ذات نخل كثير وخيرات واسعة على جهة البرية في غربي الفرات (المراصد).

٢. والجواب كما في الطبري (٧: ٥٥٠):

«بسم الله الرحمن الرحيم. سلام عليك. أما بعد، فقد قرأنا كتابك، وفهمنا ما نويت. فنعم ـ والله ـ الوالي، ونعم الأمير، ونعم أخو العشيرة أنت والله من نأمنه بالغيب، ونستنصحه في المشورة، ونحمده على كلّ حال. إنّا سمعنا الله، عزّ وجلّ، يقول في كتابه: إِنَّ اللهَ اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة (إلى قوله.) وبشّر المؤمنين [س ٩ التوبة: ١١١] إنّ القوم قد استبشروا ببيعتهم التي بايعوا. إنهم قد تابوا من عظيم جرمهم، وقد توجّهوا إلى الله، وتوكّلوا عليه، ورضوا بما قضى الله. ربنا عليك توكّلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير، والسلام عليك.»

ـ «هذا رجل حسن الهيئة يستأذن عليك، ويزعم أنه المسيّب بن نجبة.»
فقال زُفر بن الحارث:
ـ «هذا فارس مضر، وهو بعد رجل ناسك له دين، فأذنوا له.»
وجاء، فأجلسه إلى جانبه، وسائله، وألطفه فى المسألة.
ثمّ خاطبه المسيّب، وقال:
ـ «ممّ تحصّن، إنه والله، ما إياكم نريد، وما قصدنا إلّا هؤلاء الظلمة المحلّين، فأخرج لنا سوقاً، فإنّا لا نقيم بساحتك إلّا يوماً أو بعض يوم.»
فقال له زُفر بن الحارث:
ـ «إنّا لم نغلق أبواب المدينة إلّا لنعلم: إيّانا اعتريتم، أم غيرنا. وما نعجز عن الناس ما لم تدهمنا حيلة، وما نحبّ [155] أنّا بُلينا بقتالكم، وقد بلغنا عنكم صلاح وسيرة حسنة جميلة.»
ثمّ دعا ابنه، وأمر أن يضع لهم سوقاً جامعة، وأمر للمسيّب بفرس وألف درهم. فقال المسيّب:
ـ «أما المال، فلا حاجة لى فيه، ولا له خرجنا. وأما الفرس، فإنّى أقبله، فلعلّى أحتاج إليه إن غمز[1] فرسى تحتى.»
وخرج حتّى أتىٰ أصحابه، وأُخرجت لهم السوق، وبعث إلى المسيّب بعشرين جزوراً، وإلى سليمان بن صرد مثل ذلك. وكان سأل عن وجوه العسكر، فأخرج إلى كلّ واحد منهم بعشر جزائر وعلف كثير، وطعام واسع، وأخرج إلى العسكر عيراً عظيمة، وشعيراً كثيراً.
وقال غلمان زُفر للناس:
ـ «هذه عير، فاجتزروا منها ما أحببتم، وهذا شعير، فاحتملوا ما أردتم، وهذا

۱. فى مط: عمر. وهو خطأ. فى الطبرى (٥: ٥٥٢) إن ظلع فرسى أو غمر. عمرت الدابة: ظلعت، أي مالت من رجلها

دقيق، فتزوّدوا ما أطقتم.»

فأخصب القوم، ولم يحتاجوا إلى كثير شيء من السوق التى أُخرجت لهم.
وبعث إليهم زفر بن الحارث:

ـ «إنّى خارج إليكم، ومشيّعكم، ومشير عليكم برأى عندى، والله موفّقكم.»

ذكر رأى أشار به زُفَر بن الحارث
على سليمان بن صرد وأصحابه

[156] ثمّ إنّ زُفَر خرج إليهم من الغد، وقد خرجوا على تعبئة، فسايرهم، وقال لسليمان:

ـ «إنّه قد بُعث بخمسة من الأمراء، وقد فصلوا من الرقّة الحصين بن نمير، وشرحبيل بن ذى الكلاع، وأدهم بن محرز الباهلى، وربيعة بن المخارق[1] الغنوى، وحملة[2] بن عبدالله الخثعمى، وقد جاؤوكم مثل الشوك والشجر، أتاكم والله عدد كثير، وحدّ حديد، وأيم الله، لقلّ ما رأيت رجالاً أحسن هيئة ولا عدّة، ولا أخلق بكل خير، من رجال أراهم معكم، ولكنّه قد بلغنى أنّه قد أقبلت إليكم عدّة لا تُحصىٰ.»

قال ابن صرد:

ـ «على الله توكّلنا، وعليه فليتوكّل المتوكّلون.[3]»

فقال لهم زُفَر:

ـ «فهل لكم فى أمر أعرضه عليكم؟ لعلّ الله يجعل[4] لنا ولكم فيه خيراً.»

---

١. ما فى الأصل ومط. المخارى. وما فى الطبرى: المخارق.
٢. حملة: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: جبلة.
٣. س ١٢ يوسف ٦٧؛ س ١٤ إبراهيم ١٢ بتصرّف.
٤. فى الأصل ومط. أن يجعل. (بزيادة أن).

قال سليمان:

ـ «وما هو؟»

قال: «نفتح لكم مدينتنا، فتدخلونها، فيكون أمرنا واحداً، وأيديكم مع أيدينا.»

فقالوا:

ـ «لا نفعل ذلك.»

قال زُفَر:

ـ «فتنزلون على باب مدينتنا، ونخرج، ونعسكر إلى جانبكم، فإذا جاءنا هذا العدّو قاتلناه جميعاً.»

فقال سليمان لزُفَر:

ـ «قد أرادنا أهل مدينتنا على مثل ما ذكرت، ثمّ كتبوا إلينا به بعد ما فصلنا، فلم نفعل.» [157]

قال زُفَر:

ـ «فلو ضممتم رأينا إلى رأيهم، وأقمتم معنا، وكاتبتم أهل مصركم، فبادروا إليكم بما عرضوا عليكم لرجونا أن يصل إلينا عدوّنا ونحن مجتمعون بحدّ واحد، وشوكة واحدة، فكانت الدبرة عليهم.»

فقالوا:

ـ «فإنّا لا نفعلّ.»

فقال زُفَر:

ـ «فانظروا الآن ما أُشير به عليكم، فاقبلوه، وخذوا به، فإنّي عدوّ القوم، وأُحبّ أن يجعل الله الدائرة على القوم، وأنا لكم وادّ، أحبّ أن يحوطكم الله بالعافية. إنّ القوم قد فصلوا من الرقّة، فبادروهم إلى عين الوردة، فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة في أيديكم، وما بين مدينتنا وبينكم فأنتم له آمنون. والله، لو أنّ خيولي كرجالي، لأمددتكم، اطووا المنازل الساعة

إلى عين الوردة، فإنّ القوم يسيرون سير العساكر، وأنتم على خيول، والله، لقلّ ما رأيت جماعة خيل أكرم منها. تأهّبوا إليها من يومكم هذا، فإنّي أرجو أن تسبقوهم إليها، وإن بدرتموهم إلى عين الوردة، فلا تقاتلوهم في فضاء[1] تُرامونهم، وتطاعنونهم، فإنّهم أكثر منكم، فلا آمن أن يحيطوا [158] بكم، ولا تقفوا لهم ترامونهم، وتطاعنونهم، فإنّه ليس لكم مثل عددهم، وإن استهدفتم لهم لم يلبثوكم أن يصرعوكم، ولا تصفّوا لهم حين يلقونكم. فإنّي لا أرىٰ معكم رجالاً، ولا أرىٰ جميعكم إلّا فرساناً، والقوم لاقوكم بالرجال والفرسان، فالفرسان تحمي رجالها، والرجال تحمي فرسانها، وأنتم لا رجال لكم تحمي فرسانكم. فالقوهم في المقانب والكتائب. ثمّ بثّوها في ما بين ميمنتهم وميسرتهم، واجعلوا مع كلّ كتيبة كتيبةً إلى جانبها، فإن حُمل على إحدى الكتيبتين، ترجّلت الأُخرى، فنفّست عنها الخيل والرجال، ومتى ما شاءت كتيبة ارتفعت، ومتى ما شاءت كتيبة سفلت، ولو كنتم في صفّ واحد، فزحفت إليكم الرجال، فدفعتم عن الصفّ انتقض، فكانت الهزيمة.»

ثمّ وقف، فودّعهم، فأثنىٰ الناس عليه، ودعوا له، وقالوا له خيراً.

وقال له سليمان:

ـ «نعم المنزول به أنت، أكرمت النزُل[2]، وأحسنت الضيافة، ونصحت في المشورة.»

موقعة عين الوردة

ثمّ إنّ القوم جدّوا في السير، فجعلوا كلّ مرحلتين مرحلة، حتّى انتهوا إلى عين الوردة، وسبقوا القوم إليها، ونزلوا في [159] غربيها، فأقاموا خمساً لا يبرحون،

---

١. فضاء، كذا في الأصل، وما في مط: قضاء، وهو خطأ.

٢. النزُل كذا في الأصل. وفي الطبري ومط: النزول. والنزُل: النازلون.

فاستراحوا فأراحوا خيلهم. ثمّ خطبهم سليمان، فأطال خطبته، وذكر الدنيا، فزهّد فيها، والآخرة فرغّب فيها، ثمّ قال:

ـ «أمّا بعد، فقد أتاكم الله بعدوّكم الذى دأبتم له فى السير آناء الليل والنهار، تريدون فى ما تظهرون التوبة النصوح، ولقاء الله مُعذرين. لقد جاؤوكم، بل أنتم جئتموهم فى دارهم وحيّزهم[1]. فإذا لقيتموهم، فاصدقوهم، واصبروا، ولا يولّينّهم أحد دبره إلّا متحرّفاً لقتال، أو متحيزاً إلى فئة، ولا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً إلّا أن يكون من قتلة إخواننا بالطفّ، فإنّ هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فى أهل هذه الدعوة.»

ثمّ قال سليمان:

ـ «إن قتلت، فأمير الناس المسيّب بن نُجبة، فإن أُصيب، فأمير الناس عبدالله بن سعد بن نُفيل، فإن أُصيب، فأمير الناس عبدالله بن وال، فإن أُصيب، فأميرهم رفاعة بن شدّاد.»[2]

ثمّ بعث المسيّب بن نجبة فى أربعمائة فارس، وقال له:

ـ «سر حتّى تلقى أوّل عسكر من عساكرهم، فشنّ فيهم الغارة، فإن رأيت ما تحبّ، وإلّا فانصرف إلىّ، وإيّاك أن تنزل، أو ينزل أحد من [60] أصحابك.»

فمضى المسيّب، حتّى لقى رجلاً أعرابياً يسوق أحمرة. فقال:

ـ «علىّ بالرجل.»

فأُتى به، فقال:

ـ «كم بيننا وبين أدنى هؤلاء القوم؟»

قال:

ـ «أدنى عسكرهم إليك عسكر ابن ذى الكلاع، وبينه وبين الحصين بن نمير

---

١ كذا فى الأصل والطبرى: وحيّزهم. وفى مط: خيرهم.

٢ أنظر الطبرى (٧: ٥٥٥).

اختلاف. ادّعى حصين أنه على جماعة الناس. وقال ابن ذى الكلاع. ما كنت لتولّى[١] عليّ. وقد تكاتبا في ذلك إلى عبيدالله، [فهما ينتظران أمره][٢] فهذا عسكر ابن ذى الكلاع على رأس ميل.»

قال:

فتركنا الأعرابيّ، ومضينا مسرعين، فوالله ما شعروا بشيء حتّى أشرفنا عليهم وهم غارّون فحملنا إلى جانب عسكرهم، فوالله، ما ثبتوا وانهزموا، وخلّوا لنا معسكرهم، فقتلنا منهم، وجرحنا، وأخذنا من المعسكر ما خفّ علينا، وصاح المسيّب فينا:

ـ «الرجعة، الرجعة، إنكم قد نُصرتم وغنمتم وسلمتم، فانصرفوا.»

فانصرفنا إلى سليمان.

عبيدالله بن زياد يسرّح الحصين بن نمير لدفع سليمن

وأتى الخبر عبيدالله، فسرّح إلينا الحصين بن نمير مسرعاً، حتّى نزل فى اثنى عشر ألفاً، فخرجنا إليه وقد عبّى سليمان ميمنته وميسرته، ووقف فى القلب. فلما دنوا منّا دعونا إلى الجماعة مع عبدالملك بن مروان، وإلى الدخول فى طاعته، ودعوناهم إلى أن يدفعوا إلينا عبيدالله بن زياد [٤٦١] فنقتله ببعض من قتله من إخواننا، وأن يخلعوا عبدالملك بن مروان، وإلى أن نُخرج من بلادنا من آل الزبير، ثمّ نردّ الأمر إلى أهل بيت نبيّنا الذين هم أولىٰ بالأمر. فأبىٰ القوم، وأبينا.

ثمّ حملت ميمنتنا على ميسرتهم فهزمتهم، وحملت الميسرة، وحمل سليمان فى القلب فهزمناهم حتّى اضطررناهم إلى عسكرهم، فكان الظفر لنا حتّى حجز الليل بيننا وبينهم، وقد أحجزناهم فى عسكرهم.

---

١ لتولّى. كذا فى الأصل، وما فى مط: تتولى.

٢. ما بين [ ] أضفناه عن الطبرى ٧ ٥٥٧. كما يوجد عند ابن الأثير ٤ ١٨١

فلما كان من الغد، صبّحهم ابن ذى الكلاع فى ثمانية آلاف، أمدّهم بها عبيدالله بن زياد، وكان عبيدالله أنفذ إليه يشتمه، ويقول:

ـ «عملت عمل الأغمار، وضيّعت مسالحك وعسكرك. سر إلى الحصين بن نمير، حتّى توافيه، فهو أمير للناس.»

فجاءه مدداً، وغاديناهم القتال. فاقتتلنا قتالاً لم ير الشيب والمُرد مثله، وكان فينا قصّاص يقصّون، ويحضّون[1]، ويقولون:

ـ «أبشروا عباد الله، فحقّ لمن ليس بينه وبين لقاء الله، والراحة من أبرام الدنيا، وأذاها، إلّا فراق هذه النفس الأمّارة بالسوء: أن يكون سخيّاً بفراقها، مسروراً بلقاء ربّه.»

فاقتتلنا اليوم الثانى كقتال أمس، ثمّ اقتتلنا اليوم الثالث [162] مثل ذلك، إلى أن كثرنا أهل الشام، وانعطفوا[2] علينا من كلّ جانب.

فلما نظر سليمان إلى ذلك قال:

ـ «عباد الله، من أراد البكور إلى ربّه، والتوبة من ذنبه، والوفاء بعهده، فإلىّ.»

وكسر جفن سيفه، فنزل معه ناس كثير مثل ذلك، ومشى الناس بالسيوف، مصلتين، فقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، وجرحوا فيهم فأكثروا.

مقتل سليمان بن صرد

فلما رأى الحصين بن نمير صبرنا وبأسنا، بعث رجالاً ترمى بالنبل، واكتنفهم الخيل والرجال. فقُتل سليمان، وأخذ الراية المسيّب بن نجبة، فقاتل وأحسن وصبر صبراً لم يُر مثله، وقاتل قتالاً لم يسمع بمثله، وما ظنّ أحد أنّ رجلاً واحداً

١. يحضّون: كذا فى الأصل. وفى مط: يحصون.

٢. انعطفوا: كذا فى مط وفى الطبرى. تعطّفوا. وفى الأصل: انعطّفوا (بهمزة باب «الانفعال» وتشديد باب التفعيل!) وهو خطأ والمثبت يوافق مط

يقدر أن يُبلي ما أبلىٰ. إلى أن قُتل، وأخذ الراية عبدالله بن سعد.

قال:

فبينا نحن نقاتل معه إذ جاء فرسان ثلاثة أنفذهم أهل المدائن علىٰ خيول مقلّمة تطوى المراحل يبشّروننا بخروج أصحابنا من المدائن وخروج المثنى بن محربة في أهل البصرة، والجميع نحو من خمسمائة فارس.

فقال عبدالله بن سعد لمّا قالوا له: أبشر بمجيء إخوانكم:

ـ «ذلك لو جاؤونا ونحن أحياء.»

قال:

فنظروا إلى ما أساء أعينهم. ولم يلبثوا أن قتل عبدالله بن سعد، ونادينا عبدالله بن [163] وال، وكان قد استُلحم في عصابة معه إلى جانبنا. فحمل عليهم رفاعة بن شدّاد، فكشفهم عنه، ثمّ أقبل إلى رايته، فأخذها، ونادىٰ الناس:

ـ «يا عباد الله، من أراد الحياة التي لا وفاة لها، والراحة التي لا نصب بعدها، والسرور الذي لا حزن فيه، فإليّ.»

ثمّ قاتلناهم، وكشفناهم. ثمّ انعطفوا علينا، وكثرونا من كلّ جانب حتّى ردّونا إلى مكاننا الذي كنّا به. (قال: وكنّا بمكان لا يقدرون أن يأتوا فيه، إلّا من وجه واحد) وحملت علينا خيل عظيمة فيها أدهم بن مُحرز عند المساء، فقُتل عبدالله بن وال. فنادينا رفاعة، وقلنا:

ـ «أمسك رايتك.» فقال:

ـ «لا أريدها.» قلنا:

ـ «إنّا لله، مالك؟» قال:

ـ «ارجعوا بنا، فلعلّ [الله][1] يجمعنا ليوم شرّ لهم.»

---

١ الله: تكملة من الطبري ٠٧: ٥٦٥.

فوثب إليه عبدالله بن عوف بن أحمر.

ذكر رأى رءاه ابن أحمر

فقال:

ـ «أهلكتنا، والله، لئن انصرفتَ ليركبُنّ أكتافنا، فلا نبلغ فرسخاً حتّى نهلك من عند آخرنا، فإن نجا منّا ناجٍ أخذه الأعراب وأهل القرى فتقرّبوا به إليهم، فيُقتل صبراً[1]. ننشدك الله أن تفعل. هذه الشمس قد طفلت للمغيب، وهذا الليل قد غشينا [164] هلمّ نقاتلهم على حالنا هذه، فإنّا الآن مجتمعون ممتنعون، فإذا غسق الليل ركبنا خيولنا أوّل الليل، فرمينا بها، فكان ذلك أوّل شأن حتّى نصبح، فنسير على مهل، ويحمل الرجل منّا جريحه، وينتظر صاحبه، ويسير العشرة والعشرون معاً، ويعرف الناس الوجه الذي يأخذون، فيتّبع بعضهم بعضاً. ولو كان ما ذكرت لم تقف أمّ على ولد، ولم يعرف رجل وجه صاحبه، ولم نصبح إلّا ونحن بين مقتول ومأسور.»

فقال له رفاعة:

ـ «نِعْمَ ما رأيت.» وأخذ يُحمَل.

فقال ابن أحمر:

ـ «قاتل معنا ساعة واحدة، رحمك الله، ولا تُلق بيدك إلى التهلكة.»

ومازال يناشده حتّى احتبس عليه، وتحدّث الناس بما عزم عليه رفاعة من الرجوع، وكان لاتزال الجماعة تنادى:

ـ «عباد الله، روحوا إلى ربّكم، والله، ما فى شىء من الدنيا خلف من رضا الله. قد بلغنا أنّ طائفة منكم يريدون الرجوع إلى ما خرجوا منه، وأن يركنوا إلى الدنيا

---

١. يقال «قُتل فلان صبراً» أى: حُبِس على القتل حتّى يُقتل.

التي قليلاً ما يلبثون فيها. ثمّ يحملون، فيقاتلون حتّى يُقتلوا.»[١]

فلما أمسى الناس ورجع أهل الشام إلى معسكرهم، نظر رفاعة إلى كلّ رجل قد عُقِر به[٢]، وإلى [165] كلّ جريح لا يعين على نفسه. فدفعه إلى قومه. ثمّ سار بالناس ليلته كلّها حتّى عبر الخابور، وقطع المعابر كلّها وكان لا يمرّ بمعبر إلّا قطعه. وأصبح الحصين، فوجدهم قد ذهبوا، وكان رفاعة قد خلّف وراءهم أبا الجويريّة في سبعين فارساً يسيرون وراء الناس فإذا سقط رحل حمله، وإذا سقط متاع قبضه حتّى يعرّفه. فلم يزالوا كذلك حتّى مرّوا بقرقيسيا، فبعث إليهم زفر من الطعام والعلف مثل ما كان بعثه في المرة الأُولى، وأرسل إليهم الأطبّاء، وقال لهم:

ـ «أقيموا ما أحببتم، فلكم عندنا الكرامة والمواساة.»

فأقاموا ثلاثاً ثمّ تزوّدوا ما أحبّوا، ورحلوا.

فاستقبلهم مددهم من البصرة، ومن المدائن، فتباكوا، وتناعوا إخوانهم، وانصرف أهل البصرة والمدائن إلى بلدانهم، وقدم الناس الكوفة والمختار محبوس.

ووردت البشارة على عبدالملك بن مروان، فأظهر سروراً عظيماً. وقال للناس:

ـ «لم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع ولا امتناع.»

ذكر ما كان من المختار بعد التوّابين [166]

لما انصرف الناس إلى الكوفة إذ المختار محبوس، فكتب من حبسه إلى رفاعة بن شدّاد:

١ كذا في الأصل وفي مط وآن ركبوا إلى التي قليلاً ما تلبثون فيها ثمّ تحملون، فتقاتلون، حتّى تُقتلوا. أنظر الطبري ٧: ٥٦٧.

٢ كذا في الأصل ومط والطبري. قد عقر به. في الكامل (٤: ١٨٥): قد عقر به فرسه

ـ «أما بعد، فمرحباً بالعُصَب الذين عظّم الله لهم الأجر، ورضى انصرافهم حين قفلوا.[١] إنّ سليمان قد قضى ما عليه، وتوفّاه الله، فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذى به تُنصرون. إنّى أنا الأمين المأمون المأمور، أنا أمير الجيش، وقاتل الجبّارين، والمنتقم من الأعداء، والمقيد من الأوتار[٢]. فأعدّوا، واستعدّوا، واستبشروا، وأبشروا. أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، وإلى الطلب بدماء أهل البيت، والدفع عن الضعفاء وجهاد المحلّين، والسلام عليك[٣].»

وتحدّث الناس بهذا من أمر المختار، فبلغ ذلك عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمّد، فخرجا فى الناس حتّى أتيا المختار، فأخذاه.

وفى هذه الأيّام اشتدّت شوكة الخوارج بالبصرة، وقُتل نافع بن الأزرق.

ذكر السبب فى اشتداد شوكة الخوارج وماكان من أمرهم

لما اشتغل أهل البصرة بالإختلاف الذى كان بين الأزد وربيعة وتميم، بسبب [167] مسعود بن عمرو، وكثرت جموع نافع بن الأزرق، فأقبل حتّى دنا من الجسر، فبعث إليه عبدالله بن الحارث مسلم بن عُبيس بن كُريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس فى أهل البصرة، فخرج إليه، فأخذ يحوزه عن البصرة ويرفعه عن أرضها، حتّى بلغ مكاناً من أرض الأهواز يقال له: دولاب. فتهيّأ الناس بعضهم لبعض وتزاحفوا، فجعل مسلم بن عُبيس على ميمنته الحجاج بن باب الحميرىّ، وعلى ميسرته حارثة بن بدر التميمىّ، وجعل ابن الأزرق على

١. قفلوا: كذا فى الأصل والطبرى ٧: ٥٦٩، وفى مط: تقلوا.
٢. الأوتار: كذا فى الأصل والطبرى. وفى مط: الأوتاد.
٣. عليك: ليست فى الطبرى، وهى موجودة فى الأصل ومط.

ميمنته عبيدة بن هلال اليشكريّ، وعلى ميسرته الزبير بن الماحوز التميميّ، ثمّ التقوا، فاضطربوا، واقتتل الناس قتالاً لم ير قطّ أشدّ منه، فقُتل مسلم بن عبيس أمير أهل البصرة، وقُتل نافع بن الأزرق رأس الخوارج، وأمّر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب، وأمّرت الأزارقة عليهم عبدالله بن الماحوز، ثمّ عادوا، فاقتتلوا أشدّ قتال، فقُتل الحجاج بن باب أمير أهل البصرة، وقُتل عبدالله بن الماحوز أمير الأزارقة. ثمّ إنّ أهل البصرة أمّروا عليهم ربيعة بن الأحرم التميمي، وأمّرت الأزارقة عليهم عبيدالله بن الماحوز، ثمّ عادوا فاقتتلوا حتّى [168] أمسوا وقد كره بعضهم بعضاً وملّوا القتال. فإنّهم لمتواقفون متحاجزون إذ جاءت الخوارج سريّة لهم جامّة لم تكن شهدت القتال، فحملت على الناس، فانهزموا، وقاتل أمير البصرة ربيعة بن الأحرم[1]، فقُتل، وأخذ الراية حارثة بن بدر، فقاتل ساعة وقد ذهب عنه الناس، فقاتل من وراء الناس في حماتهم وأهل الصبر منهم. ثمّ أقبل بالناس حتّى نزل بهم منزلاً بالأهواز، وبلغ ذلك أهل البصرة، فهالهم، وراعهم، وامتنع نومهم.

وبعث ابن الزبير الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة القرشيّ على تلك الحرّة[2]، فقدم، وعزل عبدالله بن الحارث، فأقبلت الخوارج نحو البصرة ليس دونها كبير مانع.

ذكر اتّفاق جيّد

اتّفق لأهل البصرة وهم في تلك الحال

فبينا الناس على حالهم تلك من الخوف والشدّة، إذ قدم المهلّب بن أبي صُفرة

---

١. ربيعة بن الأحرم. كذا في الأصل ومط. في الطبري (٧، ٥٨٢): ربيعة الأجدم (بالدال المعجمة وبدون «بن»).

٢. الحرّة: كذا في الأصل ومط والطبري. وفي الأصل كتب فوق كلمة «الحرّة»: الحرب

من قبل عبدالله بن الزبير معه عهده على خراسان.

فقال الأحنف للحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة والناس عامّة:

ـ «أيها الناس، لا والله، ما لهذا الأمر إلّا المهلّب، فاخرجوا [169] بنا إليه نكلّمه.»

فخرج ومعه أشراف الناس، فكلّموه في أن يتولّى قتال الخوارج، فقال:

ـ «لا أفعل. هذا عهد أميرالمؤمنين معي على خراسان، ولم أكن لأدع وجهي وأقاتل دونكم.»

فدعاه ابن أبي ربيعة، فكلّمه في ذلك، فقال له مثل ما قاله للقوم ولم يجبه.

ذكر رأى صحيح وحيلة
تمّت لأهل البصرة حتّى حارب عنهم المهلّب

ثمّ اجتمع الناس، فأداروا بينهم الرأى، فاتّفقوا مع ابن أبي ربيعة، أن يكتبوا على لسان ابن الزبير:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

ـ «من عبدالله بن الزبير عبدالله أميرالمؤمنين، إلى المهلّب بن أبي صفرة، سلام عليك فإنّى أحمد إليك الله الذى لا إله إلّا هو

أما بعد، فإنّ الحارث بن عبدالله كتب إليّ يذكر الأزارقة المارقة، وأنهم أصابوا جنداً للمسلمين كان عددهم جمّاً، وأشرافهم كثيراً، وذكر أنهم قد أقبلوا نحو البصرة، وقد كنت وجّهتك إلى خراسان، وكتبت لك عليها عهداً، وقد رأيتُ حيث ذُكر أمر هذه المارقة أن تخرج إليهم، وتلى قتالهم، ورجوت أن يكون ميموناً طائرك، مباركاً

على أهل مصرك، والأجر فى ذلك أفضل [170] من المسير إلى خراسان، فسر إليهم راشداً، فقاتل عدوّ الله وعدوّك، ودافع عن حقّك وحقوق أهل مصرك، فإنّه لن يفوتك من سلطاننا خراسانُ، ولا غير خراسان، إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »

فأتى المهلّب بذلك الكتاب فقرأه، فلمّا فهمه، قال:

ـ «فإنّى والله لا أسير إليهم إلّا أن تجعلوا لى ما غلبت عليه، وتعطونى من بيت المال ما أتقوّى [1] به، ومن معى، وأنتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوى الشرف من أحببت.»

فقال جميع أهل البصرة:

ـ «ذلك لك.»

قال: «فاكتبوا على الأخماس بذلك كتاباً.»

ففعلوا، إلّا ما كان من مالك بن مسمع، وطائفة من بكر بن وائل، فاصطفنها [2] عليهم المهلّب.

فقال الأحنف وعبيدالله بن زياد بن ظَبْيان وأشراف أهل البصرة للمهلّب:

ـ «وما عليك أن لا يكتب لك مالك بن مسمع، ولا مَن تابعه من أصحابه إذا أعطاك الذى أردت جميعُ أهل البصرة، وهل يستطيع مالك خلاف جماعة الناس، أو له ذلك؟ إنكمش أيها الرجل، واعزم على أمرك، وسر إلى عدوّك.»

ففعل ذلك المهلّب، وأمّر على الأخماس. [171] فأمّر عبيدالله بن زياد بن ظبيان على خُمس بكر بن وائل، وأمّر الحريش بن هلال السعدى على خُمس بنى تميم.

---

١ أتقوى به ومن معى كذا فى الأصل ومط وفى الطبرى (٧: ٥٨٤): ما أتقوى به من معى.

٢ فاصطفنها كذا فى الأصل والطبرى (٧: ٥٨٤) وفى مط: فاصطفها، وهو خطأ

وجاءت الخوارج حتّى انتهت إلى الجسر الأصغر عليهم عبيدالله بن الماحوز، فخرج إليهم المهلّب فى أشراف الناس وفرسانهم ووجوههم، فحاربهم عن الجسر ودفعهم عنه، فكان أوّل شيء دفعهم عنه البصرة، ولم يكن بقي لهم إلّا أن يدخلوها، فارتفعوا إلى الجسر الأكبر. ثمّ عبّى لهم، فسار فى الخيل والرجال، فلما رأوا أن قد أطلّ عليهم وانتهىٰ إليهم ارتفعوا فوق ذلك مرحلة أُخرى، فلم يزل يحوزهم مرحلة بعد مرحلة، ومنزلة بعد منزلة، حتّى انتهوا إلى منزل من منازل الأهواز يقال له: سُلّى وسُلّبرى[1]، فأقاموا به.

ولما بلغ حارثة بن بدر الغُدانى أنّ المهلّب قد أمّر على قتال الأزارقة، قال لمن اتبعه وبقى معه من الناس:

كـــربوا ودولـــــوا وحيثُ شئتُم فـاذهبوا
قـد أُمّر المُـهلّبُ

فأقبل من كان معه نحو البصرة، فصرفهم الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة إلى المهلّب. ولما نزل المهلّب بالقوم، خندق عليه، ووضع المسالح، وأذكى العيون، وأقام [172] الأحراس، ولم يزل الجند على مصافّهم والناس على راياتهم وأخماسهم، وأبواب الخنادق عليها رجال موكّلون بها، فكانت الخوارج إذا أرادوا بيات المهلّب وجدوا أمراً محكماً وثيقاً شديداً، فرجعوا ولم يقابلهم انسان قطّ كان أشدّ عليهم منه، ولا أغيظ لقلوبهم منه.

فمن ذلك أنهم بعثوا عبيدة بن هلال والزبير بن الماحوز فى خيلين عظيمين

١ سُلّى وسلّيرى كذا فى الأصل وفى مط سلى وسلرى. وفى ياقوت ص (٢٣٢ و ٢٤٤). بِسلّى وسِلّبرىٰ، وعن محمد بن موسى، سُلّى، ومجموع اللفظين موضع واحد من نواحى خورستان قرب جندى سابور.

ليلاً إلى معسكر المهلّب، فجاء الزبير من جانبه الأيمن، وعبيدة من جانبه الأيسر، ثمّ كبّروا وصاحوا بالناس، فوجدوهم على تعبئتهم ومصافّهم حـذرين معدّين فلما ذهبوا ليرجعوا، ناداهم عبيدالله بن زياد بن ظبيان، فقال:

وجـــدتُمونا وُقُراً أَنجاداً لا كُشُفاً خوراً ولا أوغـاداً

فردّوا عليه وتشاتموا. فلما أصبح الناس أخرجـهم المـهلّب عـلى تـعبئتهم، وأخماسهم، ومواقفهم، وخرجت الخوارج على مثل ذلك مـن التـعبئة، إلّا أنّـهم أحسن عدّة، وأكرم خيولاً، وأكثر سلاحاً من أهل البـصرة، وذلك أنّـهم مـخروا الأرض وجرّدوها، وأكلوا ما بين كرمان إلى الأهواز، فجاءوا وعـليهم مـغافر تضرب إلى صدورهم، [173] وعليهم دروع يسحبونها، وسوق من زرد يشدّونها بكلاليب الحديد إلى مناطقهم، والتقى الناس، وقاتلوا كأشدّ القتال، فصبر بعضهم لبعض عامّة النهار.

ثمّ إنّ الخوارج شدّت على النـاس أجـمعها شدّة منكرة، فـأجفل النـاس وانصاعوا منهزمين لا يلوى امرؤ على ولد، حتّى بـلغ البـصرة هـزيمة النـاس، وخافوا السبي، وأسرع المهلّب حتّى سبقهم إلى مكان يـفاع فـي جـانب سـنن المنهزمين، ثمّ نادى الناس:

ـ «إليّ إليّ عباد الله!»

فثاب إليه جماعة من قومه، وثاب إليه سارية بن عمان، حتّى اجتمع إليه نحو من ثلاثة آلاف رجل، فلما نظر إلي من اجتمع، رضى جماعتهم، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمّ قال:

ـ «أما بعد، فإنّ الله يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم فيُهزمون، ويُنزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون، ولعمرى ما بكم الآن من قلّة، إنّى لجـماعتكم لراض،

ولأنتم والله أهل الصبر وفرسان أهل المصر، وما أُحبّ أنّ أحداً ممن انهزم معكم. لو كانوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالاً. عزمت على كلّ امرئ منكم لمّا أخذ عشرة أحجار معه، ثمّ امشوا بنا نحو معسكرهم، فإنهم الآن آمنون [174] وقد خرجت خيلهم فى طلب إخوانكم، فوالله إنّي لأرجو ألّا ترجع خيلهم حتّى تستبيحوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم.»

فقبلوا منه وفعلوا ما أمرهم به، ثمّ أقبل بهم زحفاً، فلا والله ما شعرت الخوارج إلّا بالمهلّب يضاربهم فى جانب عسكرهم. ثمّ استقبلوا عبيدالله بن الماحوز وأصحابه وعليهم السلاح والدروع كاملاً، فيأخذ الرجل من أصحاب المهلّب يستعرض وجه الرجل بالحجارة فيرميه حتّى يثخنه، ثمّ يطعنه برمحه، ويضاربه بسيفه، فلم يقاتلهم إلّا ساعة حتّى قُتل عبيدالله بن الماحوز، وضرب الله وجوه أصحابه، وأخذ المهلّب عسكر القوم وما فيه، وقتل الأزارقة قتلاً ذريعاً، وأقبل من كان فى طلب أهل البصره، منهم راجعاً وقد وضع لهم المهلّب خيلاً ورجالاً فى الطريق تختطفهم وتقتلهم. فانكفأوا راجعين مفلولين مغلوبين، فارتفعوا إلى كرمان وجانب اصبهان. وأقام المهلّب بالأهواز، وانصرف الخوارج على تلك الحال من الفلول وقلّة العدد حتّى جاءتهم [175] مادّة لهم من قبل البحرين. فخرجوا نحو كرمان وإصبهان، وأقام المهلّب، فلم يزل ذلك مكانه حتّى جاء مصعب إلى البصرة، وعزل الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة عنها، وكتب المهلّب بالفتح كتاباً بليغاً.

احتيال المختار وهو فى المحبس

وفى هذه المدة التى جرى ما حكيناه، كان المختار يحتال من محبسه ويراسل الشيعة، حتّى اجتمعوا له، فراسله وجوههم مثل رفاعة بن شدّاد، والمثنى

بن محرمة[1]، وسعد بن حذيفة بن اليمان، ويزيد بن أنس، وأحمر بن شميط[2]، وعبدالله بن شدّاد، وقالوا له:

ـ «نحن لك بحيث يسرّك، فإن شئت أن نأتيك حتّى نخرجك، فعلنا.»

فسرّ المختار باجتماعهم له وقال:

ـ «لا تريدوا هذا، فإنّي خارج في أيّامي هذه.»

قال:

وكان المختار قد بعث غلاماً له يُدعىٰ رزيناً، إلى عبدالله بن عمر يسأله أن يشفع له، فكتب له عبدالله بن عمر كتاباً لطيفاً إلى عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد يقول فيه:

ـ «قد علمتما ما بيني وبين المختار بن أبى عبيد من الصهر، فأقسمت عليكما بحقّ ما بيني وبينكما لما خلّيتما سبيله.»

فلما قرءا كتابه، أرسلا إلى المختار [176] وكفّلاه من قوم، وحلّفاه بالذي لا إله إلّا هو عالم الغيب والشهادة، لا يبغيهما غائلة، ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فإن هو فعل فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة ومماليكه كلّهم ذكرهم وأنثاهم أحرار. فحلف لهم بذلك.

فكان المختار بعد ذلك يقول:

ـ «قاتلهم الله، ما أحمقهم حين يرون أنّي أفي لهم باليمين التي حلّفونيها. أمّا يميني لهم بالله، فإنّه ينبغي لي إذا حلفت على يمين، فرأيت ما هو خير منها، أن أدع ما حلفت عليه، وآتي الذي هو خير، وأكفّر عن يميني، وأمّا هذه البدنة فأهون عليّ من بصقة، وما ثمن ألف بدنة مما يهولني، وأما عتق مواليّ، فوالله، لوددت أنه قد استتبّ لي أمري ثمّ لم أملك مملوكاً أبداً.»

---

١ محرمة كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨. ٥٩٩): والمثنى بن محربة العبدي

٢ شميط (بالشين المعجمة): كذا في الأصل. وفي مط. سميط، بالسين المهملة

ثمّ اختلفت الشيعة إلى المختار، ولم يزل يبايع له ويقوىٰ أمره حتّى عزل ابن الزبير عبدالله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد، وبعث عبدالله بن مطيع على عملهما إلى الكوفة، فقدم عبدالله بن مطيع، [177] وطلب المختار، وبعث إليه من يثق به ليأتيه به، فتمارض المختار، وألقيَ عليه قطيفة وجعل يتقفقف[1]. فأقبل صاحب عبدالله بن مطيع وأخبره بعلّته. فصدّقه، ولَهِيَ عنه.

المختار يدعو الشيعة إلى محمد بن الحنفيّة

وبعث المختار إلى أصحابه، فأخذ يجمعهم في الدور حوله ويواطئ أصحابه على الوثوب بالكوفة في المحرّم ويدعوهم إلى المهديّ محمد بن الحنفيّة، ويزعم أنّه وزيره وخليله والشيعة مجتمعة له.

فتلاقى القوم يوماً، فاجتمع رؤساؤهم في منزل سعر بن أبي سعر الحنفيّ وفيهم عبدالرحمن بن شريح، وكان عظيم الشرف، وسعيد بن منقذ، والأسود بن جراد[2]، وقدامة بن مالك الجشميّ، وقالوا:

ـ «إنّ المختار يريد أن يخرج بنا وقد بايعناه، ولا ندرى: أرسله إلينا محمد بن الحنفيّة أم لا؟ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفيّة، فلنخبره بما قدم علينا وما دعانا إليه، فإن رخّص لنا في اتّباعه اتّبعناه، وإن نهانا عنه اجتنبناه.»

فخرجوا، فلحقوا بابن الحنفيّة وإمامهم عبدالرحمن بن شريح.

قال الأسود بن جراد: فقلنا لابن الحنفيّة: [178]

ـ «إنّ لنا إليك حاجة.»

قال: «أ فسرّ هي، أم علانية؟»

فقلنا: «لا، بل هي سرّ.»

---

١ تقفقف: اصطكّت أسنانه واضطرب حنكاه من البرد وغيره.

٢ جراد. كذا بالأصل. وفي مط: حرار. وما في الطبري (٨: ٥-٦): جرّاد (بالتشديد)

قال: «فرويداً إذاً».
فمكث قليلاً، ثمّ تنحّى عن مجلسه، وانفرد. فدعانا، فقمنا إليه، فبدأ عبدالرحمن بن شريح، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمّ قال:

كلام ابن شريح لابن الحنفيّة

ـ «أما بعد، فإنكم أهل بيت خصّكم الله بالفضيلة، وشرّفكم بالنبوّة، وعظّم حقّكم على هذه الأُمّة، فلا يجهل حقّكم إلّا مغبون الرأي، مبخوس[١] النصيب، وقد أُصبتم بالحسين ـ رحمة الله عليه ـ فخصّتكم مصيبته وقد عمّت المسلمين. وقدم علينا المختار يزعم أنه قد جاءنا من تلقائكم، ودعانا إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، وإلى الطلب بدماء أهل البيت، والدفع عن الضعفاء، فبايعناه على ذلك، ثمّ رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه، فإن أمرتنا باتّباعه اتّبعناه، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه.»

ثمّ تكلّمنا واحداً واحداً وهو يستمع، حتّى إذا فرغ من الإستماع وفرغنا من الكلام، حمد الله وأثنىٰ عليه، وصلّىٰ على النبيّ محمّد ـ صلّىٰ الله عليه ـ [179] ثمّ قال:

جواب ابن الحنفيّة

ـ «أما بعد، فإنكم ذكرتم ما خصّنا الله به من فضله، وإنّ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فله الحمد. أما ما ذكرتم من مصيبتنا

---
١ وفي الطبري (٨: ٦٠٦): مخسوس.

بالحسين، فإنّ ذلك كان فی الذكر الحكيم، وهی ملحمة كتبت عليه، وكرامة أهداها الله له، رفع الله بما كان منها درجـات قـوم عـنده، ووضع بها آخرين، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. وأما ما ذكرتم مـن دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا، فوالله، لوددت أنّ الله انتصر لنا من عدوّنا بمن شاء من خلقه، أقـول قـولی هـذا وأستغفر الله لی ولكم.»

قال: فخرجنا من عنده ونحن نقول: قد أذن لنا، ولو كره لقال: لاتفعلوا!

قال: فجئنا وقوم من الشيعة ينتظرون مقدمنا ممن كـنّا أعـلمناه مـخرجـنا وأطلعناه على ذات أنفسنا ممن كان على رأينا من إخواننا، وقد كان بلغ المختار مخرجنا، فشقّ ذلك عليه، وخشی أن نأتيه بأمر يخذّل الشيعة عـنه، وكـان قـد أرادهم على أن ينهض بهم قبل مقدمنا [180] فلم يتهيّأ له ذلك. فلم يكن إلّا شهراً وزيادة شیء حتّى أقبل القوم على رواحلهم، ودخلوا على المختار قبل دخولهم إلى رحالهم، فقال لهم:

ـ «ما وراءكم؟ قد فُتنتم وارتبتم؟»

فقالوا له:

ـ «قد أُمرنا بنصرتك.»

فقال:

ـ «الله أكبر[1]، أنا أبو إسحاق، اجمعوا لی الشيعة.»

فجُمع له منهم من كان قريباً، فقال:

ـ «يا معشر الشيعة، إنّ نفراً منكم أحبّوا أن يعلموا مصداق ما جئت به، فرحلوا

---

١. الله أكبر: كذا فی الأصل. وما فی مط: الله (بدون أكبر).

إلى إمام الهدى، والنجيب المرتضى، وابن خير من مشى، حاشى النبيّ المصطفى، فسألوه عمّا قدمتُ له عليكم، فنبّأهم أنّي وزيره وظهيره ورسوله وخليله، وأمركم باتّباعي وطاعتي.»

فقام عبدالرحمن بن شريح فقال:

ـ «يا معشر الشيعة، إنّا كنّا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصّة، ولجميع إخواننا عامّة، فقدمنا على المهديّ بن عليّ، فسألناه عن حربنا، وعمّا دعانا إليه المختار منها، فأمرنا بمظاهرته ومؤازرته، فأقبلنا طيّبة أنفسنا، منشرحة صدورنا، قد أذهب الله منها الشكّ والغلّ والريب، واستقامت لنا بصيرتنا [181] في قتال عدوّنا، فليبلغ هذا شاهدكم غائبكم، واستعدّوا، وتأهّبوا.»

ثمّ جلس وقمنا رجلاً رجلاً، فتكلّمنا بنحو من كلامه، فاستجمعت له الشيعة، وحدبت[1] عليه.

ذكر رأي سديد أُشير به على المختار
وماكان من تأتّي المختار له حتّى تمّ له كما أحبّ

قال عامر الشعبي: كنت أنا وأبي أوّل من أجاب المختار، فلمّا تهيّأ أمره ودنا خروجه، قال له أحمر بن شميط، ويزيد بن أنس، وعبدالله بن شدّاد:

ـ «إنّ أشراف أهل الكوفة مجتمعون على قتالك مع ابن مطيع، ونحن نضعف عنهم، فلو جاء معنا إبراهيم بن الأشتر رجونا بإذن الله، القوّة على عدوّنا، فإنّه فتىً بئيس[2] وابن رجل شريف بعيد الصوت، وله عشيرة ذات عزّ وعدد.»

١ حدبت: كذا في الأصل وما في مط: حدمت. حدب عليه: تعطّف وحنا.

٢ بئيس: الكلمة غير واضحة في الأصل، فأثبتناها كما في الطبري (٨: ٦٠٩). وما في مط: فتى عشيرته وفي الكامل: رئيس (حواشي الطبري ٨: ٦٠٩). والبئيس والبئس: الشجاع. من قولهم: بَؤُسَ يبؤس أي: اشتدّ وشجع.

فقال لهم المختار:

ـ «فالقوه وادعوه وأعلموه ما أُمرنا من الطلب بدم الحسين.»

المختار يرسل إلى ابن الأشتر ويدعوه

قال الشعبي: فخرجوا إليه وأنا [فيهم وأبي وتكلّم][1] [182] يزيد بن أنس. فقال له:

ـ «إنّا قد أتيناك في أمر نعرضه عليك وندعوك إليه، فإن قبلته كان خيراً لك، وإن تركته فقد أدّينا إليك النصيحة، ويحب أن تكون عندك مستوراً.»

فقال له إبراهيم بن الأشتر:

ـ «مثلي لا تخاف غائلته وسعايته، ولا التقرّب إلى السلطان باغتياب الناس، وإنّما أولئك، الصغار الأخطار الدقاق هِمماً.»

فقالوا له:

ـ «إنّا ندعوك إلى أمر قد أجمع رأي الملأ من الشيعة، كتاب الله، وسنّة نبيّه، والطلب بدماء أهل البيت، والدفع عن الضعفاء.»

وتكلّم أحمر بن شميط فقال له:

ـ «إنّي ناصح ولحظّك محبّ، وإنّ أباك قد هلك وهو سيد الناس، وفيك منه خلف إن رعيت حقّ الله وقد دعوناك إلى أمر إن أجبتنا إليه عادت لك منزلة أبيك في الناس، وأحييت أمراً قد مات. إنّما يكفي مثلك اليسير حتّى يبلغ الغاية التي لا مذهب وراءها.»

ثمّ أقبل عليه القوم يدعونه ويرغّبونه.

فقال لهم إبراهيم:

---

١ ما بين المعقوفتين مطموس في الأصل، فأثبتناه كما في مط والطبري.

ـ «عاتى أجيبكم إلى الطلب بدم الحسين وأهل بيته على أن تولّونى الأمر.»

فقالوا:

ـ «أنت لذلك أهل [ولكن][1] ليس إلى ذلك سبيل. هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدىّ، [183] وهو الرسول والمأمور بالقتال، وقد أُمرنا بطاعته.»

فسكت عنهم ابن الأشتر ولم يجبهم، وانصرفنا من عنده إلى المختار وأخبرناه، فغبر ثلاثاً.

ثمّ إنّ المختار دعا بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه ـ قال الشعبى ـ وأنا وأبى فيهم، فسار بنا، ومضىٰ أمامنا يقدّ بنا بيوت الكوفة قدّاً لا ندرى أين يريد، حتّى وقف بنا على باب إبراهيم بن الأشتر، فاستأذنّا عليه، فأذن لنا، وأُلقيت لنا وسائد، فجلسنا عليها، وجلس المختار معه على فراشه.

فقال المختار بعد أن حمد الله وأثنىٰ عليه، وصلّىٰ على محمد صلّى الله عليه:

ـ «أما بعد، فإنّ هذا كتاب إليك من المهدىّ محمد بن علىّ أميرالمؤمنين الرضا، وهو اليوم خير أهل الأرض، وابن خير أهل الأرض كلّها قبل اليوم بعد الأنبياء، وهو يسألك أن تنصرنا وتؤازرنا، فإن فعلت اغتبطت، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجّة عليك، وسيغنى الله المهدىّ محمّداً وأولياءه عنك.»

قال الشعبى: وكان المختار قد دفع الكتاب إلىّ حين خرج من منزله، فلمّا قضى كلامه قال لى:

ـ «ادفع الكتاب [184] إليه.»

فدفعته إليه، فدعا بالمصباح، وفضّ خاتمه، ثمّ قرأ فإذا هو:

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد المهدىّ إلى إبراهيم بن الأشتر، سلام عليك، فإنّى أحمد إليك الله الذى لا إله إلّا هو. أما بعد، فإنّى قد بعثت إليكم

---

١ ولكن: مطموسة فى الأصل ومأخوذة من مط

بوريري وأميني ونجيبي الذي ارتضيت لنفسي المختار، وقد أمرته لقتال عدوّي والطلب بدماء أهل بيتي، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك، فإن نصرتني وأجبت دعوتي وساعدت وزيري كانت لك به فضيلة عندي، ولك بذلك أعنّة الخيل، وكلّ جيش غاز، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرتَ عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام، عليّ بالوفاء به، عهد الله وميثاقه، فإن فعلت نلت به عند الله أفضل الكرامة، وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقيله[1]. والسلام.»

فلما قرأ إبراهيم الكتاب، قال:

ـ «قد كتب إليّ محمد بن الحنفيّة وكتبتُ إليه قبل اليوم، فما كان يكتب إليّ إلّا باسمه واسم أبيه.»

قال له المختار:

ـ «إنّ ذلك زمان وهذا زمان.»

قال إبراهيم:

ـ «فمن يعلم أنّ هذا كتاب [185] محمّد بن الحنفيّة إليّ؟»

فقال له يزيد بن أنس وأحمر بن شميط وعبدالله بن كامل وجماعة.»

ـ «نشهد كلّنا أنّ هذا كتاب محمّد بن الحنفيّة.»

إبراهيم بن الأشتر يبايع المختار

قال الشعبي: فشهدوا كلّهم إلّا أنا وأبي. قال: فتأخّر عند ذلك إبراهيم عن صدر الفراش، وأجلس المختار عليه، وقال:

ـ «أبسطْ يدك أُبايعك.»

فبسط المختار يده، فبايعه. قال الشعبي: ثمّ دعا لنا بفاكهة، فأصبنا منها، ودعا

---

١ لا تستقيله: كذا في الأصل. وفي مط: تستقبله.

لنا بشراب من عسل، فشربنا، ثمّ نهضنا وخرج معنا ابن الأشتر، وركب المختار، وركب معه حتّى دخل رحله.

فلما رجع إبراهيم منصرفاً أخذ بيدي، فقال لي:

ـ «انصرف بنا يا شعبيّ.»

قال: فانصرفت معه، ومضى بي حتّى دخل رحله، وقال:

ـ «يا شعبيّ، إنّي قد حفظت أنّك لم تشهد أنت ولا أبوك. أفترىٰ هؤلاء شهدوا على غير حقّ؟»

قال، فقلت:

ـ «قد شهدوا على ما رأيتَ، وهم سادة القرّاء، ومشيخة المصر، وفرسان العرب، ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلّا حقّاً.»

قال:

فوالله، لقد قلت هذه المقالة وأنا لهم متّهم[1] على شهادتهم، غير أنّي يعجبني الخروج وأنا أرىٰ رأي القوم، وأحبّ تمام ذلك الأمر، فلم أطلعه على ما في نفسي من ذلك. [186]

فقال لي إبراهيم بن الأشتر:

ـ «اكتبْ لي أسماءهم، فإنّي ليس كلّهم أعرف.»

ودعا بصحيفة، ودواة، فكتب فيها:

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما شهد عليه السائب بن مالك الأشعري، وزيد بن أنس الأسدي، وأحمر بن شميط الأحمسيّ، ومالك بن عوف النهديّ.. (حتّى أتىٰ على أسماء القوم، ثمّ كتب.)

١. متّهم: كذا في الأصل. وما في مط: متهما.

شهدوا أنّ محمد بن عليّ كتب إلى إبراهيم بن الأشتر يأمره بمؤازرة المختار ومظاهرته على قتال المحلّين، والطلب بدماء أهل البيت، وشهد على هؤلاء النفر الذين شهدوا بهذه الشهادة شراحيل بن عبدالله، وهو أبو عامر الشعبيّ الفقيه، وعبدالرحمن بن عبدالله محمد النخعيّ، وعامر بن شراحيل الشعبي.»

فقلت:

ـ «ما تصنع بذلك رحمك الله.» فقال:

ـ «دعه يكون.»

قال: ودعا إبراهيم عشيرته وإخوانه ومن أطاعه، وأقبل يختلف إلى المختار.

خروج المختار

قال هشام، قال أبو مخنف:

فكان إبراهيم يروح كلّ عشيّة عند المساء إلى المختار، فيمكث عنده حتّى تصوّب النجوم، ثمّ ينصرف. فمكثوا بذلك يدبّرون أمرهم. حتّى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول [187] سنة ستّ وستين، ووطّن على ذلك شيعتهم ومن أجابهم.

فلما كان عند غروب الشمس، قام إبراهيم بن الأشتر، فأذّن، ثمّ استقدم، فصلّى بنا المغرب، ثمّ خرج بنا بعد المغرب حين قلت: أخوك أو الذئب[1]، وهو يريد المختار، فأقبلنا علينا السلاح.

---

١ أخوك أو الذئب كذا في الأصل والطبري (٨: ٦١٣). وما في مط: أخول الذنب. (بإهمال الحرفين الأخيرين)

ما كان من قبل عبدالله بن مطيع

وقد كان أتى إياس بن مضارب عبدالله بن مطيع، فقال له:

ـ «إنّ المختار خارج إحدى الليلتين.»

فخرج إياس في الشرطة، وكان إياس أشار على ابن مطيع، فقال له:

ـ «قد بعثت ابني إلى الكناسة، فابعث في كلّ جبّانة[١] عظيمة بالكوفة رجلاً من أصحابك في جماعة من أهل الطاعة ليهاب المريب الخروج عليك.»

فبعث ابن مطيع عبدالرحمن بن سعيد بن قيس إلى جبّانة السبيع، وقال:

ـ «إكفني قومك، ولا أُوتينّ من قبلك.»

وبعث بجماعة يجرون مجراه إلى الجبابين[٢] ووصّاهم أن يكفيه كلّ رجل قومه، وأن يحكم الوجه الذي وجّهه فيه، وبعث شبث بن ربعي إلى السبخة، وقال:

ـ «إذا سمعت صوت القوم توجّه نحوهم.»

فكان هؤلاء قد خرجوا يوم الإثنين، فنزلوا الجبابين، وخرج إبراهيم بن الأشتر من رحله بعد [188] المغرب يريد إتيان المختار وقد بلغه أنّ الجبابين قد حُشيت رجالاً وأنّ الشرط قد أحاطت بالسوق والقصر.

فقال حميد بن مسلم ـ وكان صديقاً لإبراهيم بن الأشتر يصير كلّ ليلة إلى المختار:

حرجت مع إبراهيم من منزله بعد المغرب ليلة الثلاثاء حتّى مررنا بدار عمرو بن حريث ونحن مع ابن الأشتر كتيبة نحو مائة، علينا الدروع قد كفّرنا عليها بالأقبية ونحن متقلّدو السيوف ليس معنا سلاح غيره، فقلت لإبراهيم:

ـ «خذ بنا في الأزقّة وتجنّب السوق.»

١. الجبانة، ج جبابين. ما استوى من الأرض من ارتفاع، ولا شجر فيه. المقبرة. الصحراء.

٢. في الأصل: الجبّانين (بالنونين) وهو خطأ.

وأنا أرى أنه يأخذ على ناحية بجيلة[1] ويخرج إلى دار المختار، فلا يعلمنا من تكترث له.

وكان إبراهيم فتىً حدثاً شجاعاً فكان لا يكره أن يلقاهم، فقال.

ـ «والله، لأمرّنّ على دار عمرو بن حريث إلى جانب القصر وسط السيوف، فلأرعبنّ عدوّنا ولأرينّهم هواننا علينا.»

قال: فأخذنا على باب الفيل، ثمّ على دار عمرو بن حُريث حتّى إذا جاوزناها لقينا إياس بن مضارب فى الشرطة مظهرين السلاح، فقال لنا:

ـ «من أنتم؟» فقال:

ـ «إبراهيم بن الأشتر.»

فقال له ابن مضارب:

ـ «ما هذا الجمع الذى معك، وما تريد؟ والله إنّ [189] أمرك لمريب، ولقد بلغنى أنك تمرّ كلّ عشيّة هاهنا، وما أنا بتاركك حتّى آتى بك الأمير، فيرى فيك رأيه.»

فقال إبراهيم:

ـ «لا أبا[2] لغيرك. خلّ سبيلنا.» قال:

ـ «كلّا والله، لا أفعل.»

ومع إياس رجل من همدان يقال له: أبو قَطَن كان يصحب أمراء الشرطة، فهم يكرمونه ويؤثرونه ـ وكان صديقاً لابن الأشتر، فقال ابن الأشتر:

ـ «يابا قطن، أدن منّى.»

ومع أبى قَطَن رمح طويل، فدنا أبو قطن منه ومعه الرمح وهو يرى أنّ ابن الأشتر يطلب إليه أن يشفع له إلى ابن مضارب، ليخلّى سبيله. فقال إبراهيم،

---

١ بجيلة. كذا فى الأصل والطبرى ٨: ٦١٥ فى مط: نخيلة

٢ لا أبا لغيرك. كذا فى الأصل والطبرى ٨. ٦١٥. وما فى مط لا أبا لغيرك!

وتناول الرمح من يده:

ـ «إنّ ومحك هذا لطويل.»

ثمّ حمل به إبراهيم بن الأشتر على ابن مضارب، فطعنه فى ثغرة نحره، فصرعه، وقال لرجل من قومه:

ـ «انزل، فاحتزّ رأسه.»

فنزل إليه، فاحتزّ رأسه، وتفرّق أصحابه، ورجعوا إلى ابن مطيع. فبعث ابن مطيع ابنه راشداً مكان أبيه على الشرط، وبعث مكان راشد بن إياس سويد بن عبدالرحمن المنقرىّ تلك الليلة، وأقبل إبراهيم الأشتر إلى المختار ليلة الثلاثاء، فدخل عليه، فقال له إبراهيم:

ـ «إنّا اتّعدنا للخروج ليلة الخميس [190] وقد حدث أمر لابدّ من الخروج الليلة.»

قال المختار:

ـ «وما هو؟» قال:

ـ «عرض لى إياس بن مضارب فى الطريق ليحبسنى بزعمه، فقتلته وهذا رأسه مع أصحابى على الباب.»

فقال المختار:

ـ «فبشّرك الله بخير، فهذا طائر صالح، وهو أوّل الفتح، إن شاء الله.»

ثمّ قال المختار:

ـ «قم يا سعيد بن منقذ، فأشعل النار فى الهرادىّ[1]، ثمّ ارفعها للمسلمين، وقم يا عبدالله بن شدّاد، فناد: يا منصور أمت. وقم أنت يا قدامة بن مالك، فناد: يالثارات الحسين.»

---

١ كذا فى مط والطبرى (٨: ٦١٦٠). الهرادى.

ثمّ استدعى المختار درعه وسلاحه، فأُتي به، فلبسه.

فقال إبراهيم للمختار:

- «إنّ هؤلاء الرؤوس الذين وضعهم ابن مطيع في الجبابين، يمنعون إخواننا أن يأتونا ويضيّقون عليهم. فلو أنّي خرجت بمن معى حتّى آتي قومى فيأتينى كلّ من بايعنى منهم، ثمّ سرت بهم في نواحى الكوفة، ودعوت بشعارنا، فخرج إليّ من أراد الخروج إلينا، ومن قدر على إتياننا من الناس، فمن أتاك من الناس حبسته عندك إلى من معك، ولم تفرّقهم، فإن عوجلت وأُتيت، كان معك من تمنع به، وأنا لو قد فرغت من هذا الأمر عجلت إليك في الخيل والرجال.»

قال له:

- «فاعجل، [191] وإياك أن تسير إلى أميرهم تقاتله، ولا تقاتل أحداً وأنت تستطيع ألّا تقاتل، واحفظ ما وصّيتك به، إلّا أن يبدأك أحد بقتال.»

فخرج إبراهيم بن الأشتر من عنده في الكتيبة التي أقبل فيها حتّى أتى قومه، فاجتمع إليه جُلّ من كان بايعه وأجابه. ثمّ إنّه سار بهم في سكك الكوفة طويلاً وهو يتجنّب السكك التي فيها الأُمراء حتّى انتهى إلى مسجد السّكون. فعجلت إليه خيل لزَحْر[1] بن قيس، فشدّ عليهم إبراهيم وأصحابه، فكشفوهم حتّى انتهوا إلى زَحر بن قيس، فانصرف عنهم وركب بعضهم بعضاً كلّما لقيهم زقاق دخل فيه منهم طائفة، فانصرفوا يسيرون، ثمّ خرج إبراهيم يسير حتّى انتهى إلى جبّانة أُثير، فوقف فيها طويلاً ونادى أصحابه بشعارهم. فبلغ سويد بن عبدالرحمن المنقرى مكانهم في جبانة أُثير، فرجا أن يصيبهم فيحظى بذلك عند ابن مطيع، فلم يشعر ابن الأشتر إلّا وهم معه في الجبّانة.

فلما رأى ذلك ابن الأشتر قال لأصحابه:

---

[1] زَحْر بالحاء المهملة كذا في الأصل والطبرى (٨: ٦٥٢) وما في مط: زجر، بالجيم المعجمة

ـ «يا شرطة الله انزلوا إلى هؤلاء الفسّاق الذين خاضوا في دماء أهل بيت رسول الله، صلّى الله عليه.»

فنزلوا، ثمّ شدّ عليهم إبراهيم [192] فضربهم حتّى أخرجهم إلى الصحراء، وولّوا منهزمين يركب بعضهم بعضاً وهم يتلاومون، فيقول قائل منهم:

ـ «إنّ هذا لأمر[1] يراد، ما يلقون لنا جماعة إلّا هزمونا.»

ولم يزل إبراهيم يهزمهم حتّى أدخلهم الكناسة.

وقال أصحاب إبراهيم لإبراهيم:

ـ «اتّبعهم واغتنم ما قد دخلهم من الرعب، فقد علم الله إلى من تدعو وما تطلب، وإلى ما يدعون وما يطلبون.» قال:

ـ «لا، ولكن سيروا بنا إلى صاحبنا حتّى يؤمن الله بنا وحشته ويكون من أمره على علم، ويعرف هو أيضاً ما كان من غنائنا[2] فيزداد هو وأصحابه قوّة وبصيرة إلى قواهم وبصائرهم، مع أنّي لا آمن أن يكون قد أتي.»

فأقبل إبراهيم في أصحابه، فلما أتى دار المختار وجد الأصوات عالية والقوم يقتتلون وقد جاء شبث بن ربعي من قبل السبخة، فعبّى له المختار والناس يقتتلون، وجاء إبراهيم من قبل القصر، فبلغ حجّاراً وأصحابه أنّ إبراهيم قد جاءهم من ورائهم. فتفرّقوا قبل أن يأتيهم إبراهيم وذهبوا في الأزقّة والسكك، وحملت طائفة من أصحاب المختار على شبث بن ربعيّ وهو [193] يقاتل يزيد بن أنس، فخلّى لهم الطريق حتّى اجتمعوا جميعاً. ثمّ اضطرّ شبث إلى أن ترك لهم السكة

وأقبل شبث حتّى أتى ابن مطيع، فقال له:

---

١. في الأصل ومط: إنّ هذا الأمر، فأثبتنا العبارة كما في الطبري (٨: ٦١٨).

٢. غنائنا (بالغين المعجمة) كذا في الأصل ومط وحواشي الطبري. وما في الطبري: عنائنا، بالعين المهملة.

ـ «إبعث إلى أمراء الجبابين[1] ليأتوك، فاجمع إليك جميع الناس، ثمّ انهد إلى هؤلاء القوم فقاتلهم، وابعث إليهم من تثق به فليكفك قتالهم، فإنّ أمر القوم قد قوى وقد ظهر المختار، واجتمع له أمره.»

وبلغ ذلك المختار من مشوره شبث على ابن مطيع، فخرج فى جماعة من أصحابه حتّى نزل فى ظهر دير هند مما يلى بستان زائدة فى السبخة، وخرج أبو عثمان النهدى، فنادى فى شاكر وهم مجتمعون فى دورهم يخافون أن يظهروا فى الميدان لقرب كعب بن أبى كعب منهم. وكان كعب هذا قد أخذ عليهم بأفواه السكك حين بلغه أنهم يخرجون، وسدّ طرقهم. فلما أتاهم أبو عثمان النهدى فى عصابة من أصحابه، نادى:

ـ «يالثارات الحسين، يا منصور أمت، يا أيها الحىّ المهتدون، ألا إنّ أمين[2] آل محمد قد خرج، فنزل دير هند، وبعثنى داعياً ومبشّراً. فاخرجوا [194] إليه، رحمكم الله.»

فخرج القوم من الدور يتداعون:

ـ «يالثارات الحسين.»

ثمّ ضاربوا كعب بن أبى كعب حتّى خلّى لهم الطريق، فأقبلوا إلى المختار حتّى نزلوا معه فى عسكره، وخرج عبدالله بن قراد فى جماعة من خثعم نحو المائتين، حتّى لحق بالمختار، ونزلوا معه فى عسكره وقد كان عرض لهم كعب بن أبى كعب، فلما عرفهم ورأى أنهم قومه خلّى عنهم ولم يقاتلهم. وخرجت شبام الهم فتوافوا إلى المختار ثلاثة آلاف وثمانمائة من حملة اثنى عشر ألفاً كانوا بايعوه، فاستجمعوا له قبل انفجار الفجر، فأصبح وقد فرغ من تعبئته.

ثمّ إنّ ابن مطيع بعث إلى أهل الجبابين، فأمرهم أن ينضمّوا إلى المسجد، وقال

---

١ فى الأصل: الجبانين. وما أثبتناه يوافق مط والطبرى (٨: ٦١٩).
٢. أمين. كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: أمير.

لراشد بن إياس بن مضارب:

ـ «ناد فى الناس فليأتوا المسجد.»

فنادىٰ المنادى:

ـ «ألا برئت الذمّة من رجل لم يحضر المسجد الليلة.»

فتوافى الناس فى المسجد. فلما اجتمعوا، بعث ابن مطيع شبث بن ربعىّ فى نحو ثلاثة آلاف إلى المختار، وبعث راشد بن إياس فى أربعة آلاف إلى المختار، وبعث راشد بن إياس فى أربعة آلاف من الشرط.

فسرّح المختار إبراهيم بن الأشتر قِبل راشد بن إياس فى تسعمائة مقاتل، ويقال: [195] فى ستمائة فارس وستمائة راجل، وبعث نعيم بن هبيرة أخا مصقلة بن هبيرة فى ثلاثمائة فارس وستمائة راجل نحو شبث، وقال لهما:

ـ «امضيا حتّى تلقيا عدوكما، وإذا لقيتماهم، فانزلا فى الرجال وعجّلا القراع، وابدءاهم بالإقدام، وتستهدفا لهم فإنّهم أكثر منكم، ولا ترجعا إلىّ حتّى تظهرا، أو تُقتلا.»

فتوجّه إبراهيم بن الأشتر إلى راشد وقدّم المختار يزيد بن أنس فى تسعمائة أمامه، وتوجّه نعيم بن هبيرة قبل شَبَث.

فقال سعر بن أبى سعر: لما انتهينا إلى شبث قاتلناه قتالاً شديداً، فجعل نعيم بن هبيرة يضاربهم حتّى أشرقت الشمس، وضربناهم حتّى أدخلناهم البيوت، فسمعت شبث بن ربعىّ ينادى أصحابه:

ـ «يا حماة السوء، بئس فرسان الحقائق أنتم، أ من عبيدكم تهربون؟»

قال: فثابت إليه منهم جماعة، فشدّ علينا وقد تفرّقنا وهُزمنا. فصبر نعيم بن هبيرة فقُتل، ونزل سعر بن أبى سعر فأُسر، [وأُسرت أنا][1] وأُسر خليد مولى

---

١ ما بين [ ] تكملة من الطبرى ٨١: ٦٢٣)

حسّان، وأُسر أبو سعيد الصيقل.

قال: فسمعت أبا سعيد الصيقل هذا يقول: سمعت شبث بن ربعى يقول لخليد:

ـ «من أنت؟» قال:

ـ «خُليد مولى حسّان.»

فقال [196] له شبث:

ـ «يابن المتكاء، تركتَ بيع الصحناء[1] بالكناسة، وكان جزاء من أعتقك أن تعدو[2] عليهم بسيفك تضرب رقابهم، اضربوا عنقه.»

فقتل، ورأى سعراً الحنفيّ، فرفعه، فقال:

ـ «أخو بنى حنيفة؟» فقال:

ـ «نعم.» قال:

ـ «ويحك! ما أردت إلى اتباع هؤلاء السبائية، قبّح الله رأيك؟ دعوا ذا.»

فقلت فى نفسى: قتل المولى وترك العربيّ، إن علم أنى مـولىّ قـتلني، فلما عُرضت عليه، قال:

ـ «من أنت؟» فقلت:

ـ «من بنى تيم الله.» قال:

ـ «أعربيّ أنت أم مولىّ؟» فقلت:

ـ «لا، بل عربيّ، أنا من آل زياد بن أبى حفصة.» فقال:

ـ «ذكرت الشرف المعروف، إلحق بأهلك.»

فأقبلت حتّى انتهيت إلى الحمراء، وكانت لى بصيرة فى قتال القوم، فجئت إلى المختار، وقد وضعت فى نفسى أن آتى أصحابى حتّى أُقتل معهم أو أظفر بظفرهم.

---

١ الصحناء. كذا فى الأصل. وفى مط الصحنا وما فى الطبرى: الصحناة. والصحناء. الصحناة. إدام يُتّخذ من السمك الصغار السلّح.

٢ فى الأصل تعدو. (بالألف). وفى مط تعدو (بالعين المعجمة) وما أثبتناه يطابق الطبرى

قال: فأتيته وقد سبقني إليه سعر الحنفيّ وجماعة قتل نعيم وأقبلت إليه خيل شبث، فدخل من ذلك أصحاب المختار أمر كبير.

قال: فدنوت من المختار، فأخبرته بما كان من أمري، فقال لي:

ـ «اسكتْ، فليس هذا بمكان الحديث.»

وجاء شبث [197] حتّى أحاط بالمختار ويزيد بن أنس، وكان ابن مطيع أنفذ ابن رويم في ألفين من قبل سكّة لحّام،فوقفوا في أفواه تلك السكك، وجعل المختار يزيد بن أنس على خيله، وخرج هو في الرجّالة.

قال: فحملت علينا خيل شبث حملتين فما يزول رجل منّا من مكانه، فقال يزيد بن أنس لنا:

ـ «يا معشر الشيعة، قد كنتم تُقتلون، وتُقطع أيديكم وأرجلكم وتُسمل عيونكم، وتُرفعون على جذوع النخل في حبّ أهل بيت [نبيكم][1] وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوّكم، فما ظنكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم، إذاً والله لا يدعون منكم عيناً تطرف، وليقتلنّكم صبراً، ولترونّ في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خير منه، والله، لا ينجيكم منهم إلّا الصدق والصبر والطعن الصائب في أعينهم، والضرب الدراك على هامهم، فتيسّروا للشدة، وتهيّأوا للحملة، فإذا حرّكت رأسي مرتين فاحملوا.»

فتهيّأنا، وجثونا على الركب، وانتظرنا أمره.

وكان إبراهيم بن الأشتر حين توجه إلى راشد، لقيه في مراد، فإذا معه أربعة آلاف، فقال إبراهيم [198] لأصحابه:

ـ «لا يهولنّكم كثرة هؤلاء، فوالله لربّ رجل خير من عشرة، ولربّ فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين[2].»

---

١. نبيكم: سقطت من الأصل ومط، وأثبتناها كما يقتضيه السياق وكما في الطبري ٨: ٦٢٤.

٢. س ٢ البقرة: ٢٥٠. ولا يخفى أن في الآية «كم من فئة...» بدل «ولربّ فئة».

ثمّ قال:

ـ «يا خزيمة بن نصر، سر إليهم فى الخيل.»

ونزل هو يمشى فى الرجال، واقتتل الناس، فاشتدّ قتالهم، وبصر خزيمة[1] بن نصر العبسيّ براشد بن إياس، فحمل عليه فطعنه فقتله، ثمّ نادى.

ـ «قتلت راشد وربّ الكعبة.»

وانهزم أصحاب راشد، وأقبل إبراهيم بن الأشتر نحو المختار، وبعث إليه من يبشّره بالفتح عليه. فلما جاءهم البشير، كبّروا، واشتدّت أنفسهم، ودخل أصحاب ابن مطيع الفشل، وسرّح ابن مطيع حسّان بن فائد بن بكير العبسيّ فى جيش كثيف، فاعترض إبراهيم ليردّه بالسبخة، فقدّم إبراهيم خزيمة بن نصر إلى حسّان بن فائد فى الخيل، ومشىٰ إبراهيم نحوه فى الرجال، فانهزموا، وتخلّف حسّان بن فائد فى أخريات الناس يحميهم، وحمل عليه خزيمة، فلما رءاه عرفه، فقال له:

ـ «يا حسّان، قد عرفتك، فالنجا.»

فعثر لحسان فرسه، فوقع، فقال:

ـ «لعاً لك[2] [199] أبا عبدالله.»

وابتدره الناس، فأحاطوا به، فضاربهم ساعة بسيفه.

فناداه خزيمة،

ـ «إنّك آمن يابا عبدالله، لا تقتل نفسك.»

وجاء حتّى وقف عليه، ونهنه الناس عنه، ومرّ به إبراهيم.

فقال خزيمة:

---

١ وبصر خزيمة بن نصر العبسيّ فى الأصل ومط وفى حواشى الطبرى. وبصر نصر بن خزيمة، والظاهر أنه سهو فى الكتابة. وما فى الطبرى (٨: ٦٢٥): وبصر خزيمة بن نصر العبسيّ. كما أثبتناه

٢ لعاً. كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٨: ٦٢٦): تعساً لعاً. صوت معناه الدعاء للعاثر بأن يرتفع من عثرته يقال: لعاً لفلان، وفى الدعاء عليه بالتعس يقولون: لا لعاً له.

ـ «هذا ابن عمّي، وقد آمنته.»

فقال إبراهيم:

ـ «أحسنت.»

وأمر خزيمه بفرسه حتّى أُتى به فحمله عليه، وقال:

ـ «الحق بأهلك.»

وأقبل إبراهيم نحو المختار وشبث محيط بالمختار ويزيد بن أنس. فلما رءاه يزيد بن الحارث وهو على أفواه السكك التى تلى السبخة، أقبل نحوه ليصدّه عن شبث وأصحابه، فبعث إبراهيم طائفة من أصحابه مع خزيمة بن نصر، فقال:

ـ «أغن عنّا يزيد بن الحارث.»

وصمد هو فى بقيّة أصحابه نحو شبث بن ربعى، فلما رءاه أصحاب شبث، أخذوا ينكصون وراءهم رويداً رويداً. فلما دنا إبراهيم من شبث وأصحابه حمل عليهم، فانكشفوا حتّى انتهوا إلى أبيات الكوفة، وحمل خزيمة بن نصر على يزيد بن الحارث بن رويم، فهزمه، وازدحم القوم على أفواه السكك فوق البيوت، وأقبل المختار فى جماعة الناس إلى يزيد بن الحارث، فلما انتهى أصحاب المختار إلى [200] أفواه السكك، رمته تلك المرامية بالنبل، فصدّوهم عن دخول الكوفة، ورجع الناس من السبخة منهزمين إلى ابن مطيع وجاء قتل راشد بن إياس، فسقط فى يديه، فقال عمرو بن الحجاج الزبيدى لابن مطيع:

ـ «أيها الرجل لا تُسقط فى خلدك ولا تُلق بيديك[1]، أخرج إلى الناس فاندبهم إلى عدوّك، فإنّ الناس كثير عددهم وكلّهم معك إلّا هؤلاء الطائفة التى خرجت عليك، والله مخزيها وأنا أول منتدب، فاندب معى طائفة ومع غيرى طائفة.»

---

١ لا تسقط فى خلدك ولا تلق بيدك: كذا فى الأصل. وفى مط: ... فى جلدك. وما فى الطبرى (٨، ٦٢٧): ولا يسقط فى خلدك ولا تلق بيدك.

فخرج ابن مطيع، فخطب الناس وحضّهم، وقال فى خطبته:

ـ «أيها الناس، قاتلوا عن حرمكم وعن مصركم، وامنعوا من فيئكم، والله لئن لم تفعلوا ليشاركنّكم فى فيئكم من لا حقّ له فيه، والله لقد بلغنى أنّ فيهم من محرّريكم خمسمائة رجل عليهم أمير منهم، وإنما ذهاب عزّكم وسلطانكم حين يكثرون.»

ثمّ نزل.

وكان يزيد بن الحارث منعهم أن يدخلوا الكوفة، ومضى المختار من السبخة حتّى ظهر إلى الجبّانة، وقال:

ـ «نعم مكان المقاتل هذا.»

فقال له إبراهيم بن الأشتر: [201]

ـ «قد هزمهم الله وفلّهم، وأدخل الرعب قلوبهم وتنزل هاهنا؟ سر بنا، فوالله ما دون القصر أحد يمنع، ليقم هاهنا كل شيخ ضعيف وذى علّة، وضعوا ما كان لكم من ثقل ومتاع بهذا الموضع حتّى نسير إلى عدوّنا.»

ففعلوا. واستخلف المختار عليهم أبا عثمان النهدىّ، وقدّم إبراهيم الأشتر أمامه، وعبّى أصحابه على الحال التي كانوا عليها فى السبخة، وبعث عبدالله بن مطيع عمرو بن الحجاج فى ألفى رجل، فخرج عليهم من السكّة المعروفة بالثوريّين، فبعث المختار إليهم أن:

ـ «اطوه ولا تقم عليه.»

فطواه إبراهيم، ودعا المختار يزيد بن أنس، فأمره أن يصمد لعمرو بن الحجاج، فمضى نحوه، ومضى المختار فى أثر إبراهيم، وأمره أن يدخل الكوفة من قبل الكناسة، فمضى وخرج إليه من سكّة ابن محرز، وأقبل شمر بن ذى الجوشن فى ألفين، فسرّح المختار إليه سعيد بن منقذ الهمدانيّ، فواقعه، وبعث إلى إبراهيم أن:

ـ «إطوه وامض على وجهك.»

فمضى حتّى انتهى إلى سكّة شبث وإذا نوفل بن مساحق [202] في نحو خمسة آلاف رجل وقد أمر ابن مطيع، فنودي في الناس أن:

ـ «الحقوا بابن مساحق.»

واستخلف شبث بن ربعيّ على القصر، وخرج ابن مطيع حتّى وقف بالكناسة. فقال حصيرة بن عبدالله: إنّي لأنظر إلى ابن الأشتر حين أقبل في أصحابه، حتّى إذا دنا منهم، قال لهم:

ـ «إنزلوا.»

فنزلوا. فقال:

ـ «إقرنوا خيولكم بعضها إلى بعض، ثمّ امشوا إليهم مصلتين، ولا يهولنّكم أن يقال: جاءكم شبث بن ربعيّ، وآل عتيبة بن النهاس، وآل الأشعث، وآل فلان وفلان...»

حتّى [سمّى][1] بيوتاً من بيوتات أهل الكوفة، وقال:

ـ «إنّ هؤلاء لو وجد أوّلهم حرّ السيف لرأيتم قد انصفقوا عن ابن مطيع انصفاق المعزىٰ عن الذئب.»

قال حصيرة: فإنّي لأنظر إليه وإلى أصحابه حتّى قرنوا خيولهم وحتّى أخذ بن الأشتر أسفل قبائه، فأدخله في منطقة له حمراء من حواشي البُرد وقد شدّ بها على القباء وقد كفّر بالقباء على الدرع، ثمّ قال لأصحابه:

ـ «شدّوا عليهم فدىً لكم عمّي وخالي.»

قال: فوالله ما لبّثهم [203] أن هزمهم، فركب بعضهم بعضاً على فم السكّة، وازدحموا، وانتهى ابن الأشتر إلى ابن مسحاق، فأخذ بلجام دابّته ورفع عليه

---

١ سمّى: كذ في الطبري (٨: ٦٢٩) وفي الأصل. ستوا وما في مط. ستا والصحيح ما في الطبري.

السيف، فقال له ابن مساحق:

ـ «يابن الأشتر، أنشدك الله، أ تطلبنى بثأر، هل بينى وبينك من حنة[1]؟»

فخلّى سبيله وقال:

ـ «اذكرها».

فكان يذكرها له.

وأقبلوا حتّى دخلوا الكناسة فى آثار القوم حتّى دخلوا المسجد وحصروا ابن مطيع ثلاثاً.

وجاء المختار حتّى نزل جانب السوق، وولّى حصار القصر إبراهيم بن الأشتر، ويزيد بن أنس، وأحمر بن شميط. فلما اشتدّ الحصار على ابن مطيع كلّمه الأشراف، وكان يفرّق فيهم الدقيق من القصر.

فقام إليه شبث بن ربعىّ فقال له:

ـ «أصلحك الله، أنظر لنفسك ومن معك. فوالله ما عندنا غناء عنك ولا عن أنفسهم.»

قال ابن مطيع:

ـ «هاتوا، أشيروا علىّ برأيكم.»

قال شبث:

ـ «الرأى أن تأخذ لنفسك من هذا الرجل أماناً وتخرج ولا تهلك نفسك ومن معك.»

قال ابن مطيع: [204]

ـ «والله إنّى لأكره أن آخذ منه أماناً والأُمور مستقيمة لأميرالمؤمنين بالحجاز كلّه وبالبصرة.»

١ الحِنة الحقد والغضب من قولهم وحَنَ يوحَنُ وحناً وحِنةً. وفى الطبرى (٨: ٦٣٠): إحنة والإحنة: الحقد والغضب من قولهم أحِنَ عليه أحَناً وأحْناً. حقد.

قال:

ـ «فتخرج ولا يشعر بك أحد حتّى تنزل منزلاً بالكوفة عند من تثق به، فلا يعلم بمكانك حتّى تخرج فتلحق بصاحبك.»

فقال لأسماء بن خارجة ولغيره من أشراف الناس:

ـ «ما ترون في ما أشار به عليّ شبث؟»

فقالوا:

ـ «ما نرى الرأى إلّا ما أشار به عليك.»

قال:

ـ «فرويداً حتّى أمسى.»

فلما أمسىٰ جمعهم، وحمد الله، وأثنىٰ علیهم[1] وردّوا عليه مثله، وقال:

ـ «جزاكم الله خيراً. أخذ امرؤ حيث أحبّ.»

ثمّ خلّى عن القصر، وخرج من نحو درب الروميّين حتّى أتى دار أبى موسى، ففتح أصحابه الباب ونادوا:

ـ «يابن الأشتر، آمنون نحن؟»

قال:

ـ «أنتم آمنون.»

فخرجوا، وبايعوا المختار، وجاء المختار حتّى دخل القصر، فبات به وأصبح، فخطب الناس وحضّ على البيعة، وقال:

ـ «أيها الناس، لا والذى جعل السماء سقفاً محفوظاً، والأرض فجاجاً سبلاً[2]، ما بايعتم بعد بيعة علىّ بن أبى طالب وآل علىّ أهدىٰ منها.»

ثمّ نزل، [205] فدخل ودخل الناس وأشرافهم، فبسط يده، وابتدره الناس

---

١. في مط: عليه، بدل: عليهم، وهو خطأ.

٢. س ٢١ الأنبياء: ٣٢ - ٣٣ (بالاقتباس والتلخيص).

فبايعوه، وجعل يقول:

- «تبايعون على كتاب الله، وسنّة نبيّه، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المحلّين، والدفع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا، ومسالمة من سالمنا، والوفاء ببيعتنا، لا نقيلكم، ولا نستقيلكم.»

فإذا قال [الرجل][1]: نعم، بايعه.

وأقبل المختار يمنّي الناس، ويستجرّ مودّتهم ومودّة الأشراف، ويحسن السيرة جهده. وجاء ابن كامل، وكان على شرطته، فقال:

- «إنّ ابن مطيع في دار أبي موسى، وقد عرفت ذلك بالصحّة.»

فلم يجبه بشيء، فأعادها عليه، فلم يجبه. فظنّ ابن كامل أنّ ذلك لا يوافقه، وكان ابن مطيع قبلُ للمختار صديقاً. فلما أمسى بعث إلى ابن مطيع بمائة ألف [١٠٠،٠٠٠] درهم، وقال له:

- «تجهّز بهذه واخرج، فإنّي قد شعرت بمكانك، وظننت أنه لم يمنعك من الخروج إلّا أنه ليس في يدك ما يقويك على الخروج.»

وأصاب المختار في بيت مال الكوفة تسعة آلاف ألف [٩،٠٠٠،٠٠٠] فأعطى أصحابه الذين قاتل [206] بهم حين حصر ابن مطيع في القصر، وهم ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل، خمسمائة كل رجل، وأعطى ستة آلاف من أصحابه أتوه بعدما أحاط بالقصر، وأقاموا معه تلك الأيّام الثلاثة مائتين مائتين، واستقبل الناس بخير، ومنّاهم، وأحسن السيرة وأدنى الأشراف.

المختار يولّي الولايات ويعقد الألوية

ثمّ ولّى الولايات، وعقد الألوية، فأوّل رجل عقد له المختار راية عبدالله بن

---

١ ما بين [ ] ليس موجوداً في الأصل، ولا في مط، وزدناه من الطبري ٨: ٦٣٣.

الحارث أخو الأشتر، عقد له على آذربيجان، وبعث سعد بن حذيفة بن اليمان على حلوان، وكان معه ألفا فارس ورزقه ألف درهم في كلّ شهر، وأمره بقتال الأكراد وإقامة الطرق، وكتب إلى عمّاله على الجبال أن يحملوا أموال كورهم إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بحلوان، وبعث عبدالرحمن بن سعيد بن قيس إلى الموصل وبها محمد بن الأشعث بن قيس من قبل الزبير، فتنحىٰ له عن الموصل، ثمّ شخص إلى المختار مع أشراف قومه وغيرهم، فبايع له ودخل في ما دخل فيه أهل بلده.

ثمّ وثب المختار بمن كان معه بالكوفة من قتلة الحسين، عليه السلام [207] والمتابعين على قتله، فقتل من قدر عليه وهرب بعضهم فلم يقدر عليه.

وكان سبب ذلك أنّ مروان بن الحكم لما استوسقت له الشام بالطاعة، بعث عبيدالله بن زياد إلى العراق، وجعل له ما غلب عليه، وأمره أن ينهب الكوفة إذا ظفر بأهلها ثلاثاً.

وقد كنّا ذكرنا من أمر التوّابين وابن زياد ما كان بعين الوردة.

ثمّ بعد ذلك مرّ بأرض الجزيرة وبها قيس عيلان[1] على طاعة ابن الزبير، فلم يزل عبيدالله مشتغلاً بهم عن العراق نحواً من سنة، ثمّ أقبل إلى الموصل، وكتب عبدالرحمن بن سعيد بن قيس عامل المختار على الموصل إلى المختار:

ـ «أما بعد، فإنّي أُخبرك أيها الأمير، أنّ عبيدالله بن زياد قد دخل أرض الموصل، ووجّه قِبَلي خيله ورجاله، وأنّي قد انحزت إلى تكريت حتّى يأتيني رأيك وأمرك، والسلام.»

فكتب إليه:

ـ «قد أصبتَ، فلا تبرحنّ مكانك حتّى يأتيك أمري.»

---

١ كذا في الأصل والطبرى (٨ . ٦٤٣): قيس عيلان، بالعين المهملة وفى مط قيس غيلان، بالعين المعجمة

ثمّ بعث المختار إلى يزيد بن أنس، فدعاه وقال:

ـ «يا يزيد، إنّ العالم ليس كالجاهل، وإنّي أُخبرك خبر من [208] لم يَكذب ولم يُكذب[1]. أنا صاحب الخيل التى تجرّ جعابها وتضفر أذنابها حتّى تـوردها منابت الزيتون[2]. اخرج إلى الموصل حتّى تنزل أدانيها، فإنّي ممدّك بالرجال.»

فقال يزيد بن أنس:

ـ «سرّح معى ثلاثة آلاف من الفرسان أنتخبهم وخلّنى والفرج الذى توجّهنى له، فإن احتجت إلى الرجال فسأكتب إليك.»

وقال المختار:

ـ «فاخرج وانتخب على اسم الله من أحببت.»

فخرج فانتخب ثلاثة آلاف فارس، وخرج معه المختار، وانصرف وقال له:

ـ «إذا لقيت عدوّك فلا تناظرهم، وإذا أمكنتك الفرصة فلا تؤخّرها، ولكن خبرك[3] عندى كلّ يوم وأنا ممدّك وإن لم تستمدّ. لأنـه أشدّ لعضدك، وأعزّ لجندك، وأرعب لعدوّك.»

فقال له يزيد بن أنس:

ـ «لا تمدّنى إلّا بدعائك، فكفى به مدداً.»

فقال الناس:

ـ «صحبك الله وأدّاك وأيّدك.»

وودّعوه. فقال لهم:

ـ «سلوا الله لى الشهادة. وأيم الله لئن لقيتهم ففاتنى النصر، لا تفوتنى الشهادة

---

١ لم يُكذب كذ فى الأصل. وما فى مط غير مضبوط وفى الطبرى لم يكذّب. أكذبه ـ جمعه عـلى الكذب. كذّبه: نسبه إلى الكذب كما هو معلوم.

٢ وزاد فى الطبرى (٨: ٦٤٣): عائرة عيونها، لاحقة بطونها.

٣ وليكن خبرك كذا فى الأصل والطبرى ٨: ٦٤٤. وفى مط ولكر حيل!!

إن شاء الله.»

وكتب المختار إلى عبدالرحمن بن سعيد بن قيس:

ـ «أما بعد، فخلّ بين يزيد [209] وبين البلاد إن شاء الله، والسلام عليك.»

وخرج يزيد بن أنس، فبات بالمدائن، ثمّ اعترض أرض جوخى[1]، حتّى خرج بهم في الراذانات، وحتّى قطع بهم إلى الموصل ونواحيها، وبلغ مكانه ومنزله عبيدالله بن زياد، وسأل عن عدّتهم، فأخبرته عيونه أنه خرج معه من الكوفة ثلاثة آلاف فارس.

فقال عبيدالله:

ـ «فأنا أبعث إلى كلّ ألف ألفين.»

وبعث إليه ربيعة بن المخارق وعبدالله بن حملة كلّ واحد منهما في ثلاثة آلاف، ثمّ قال:

ـ «أيّكما سبق فهو أمير على صاحبه.»

فسبق ربيعة بن المخارق، ونزل بيزيد بن أنس وهو ببانلي[2]، فخرج إليه يزيد بن أنس وهو مريض مضنىً. فطاف في أصحابه على حمار معه الرجال يمسكونه، فجعل يطوف على الأرباع، ويقف على ربع ربع، ويقول:

ـ «يا شرطة الله، اصبروا، وصابروا عدوّكم تظفروا، وقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً[3]. إن هلكت فأميركم ورقاء بن عازب الأسدي، فإن هلك فأميركم عبدالله بن ضمرة العذري[4]، فإن هلك فأميركم سعر بن أبى سعر

---

١ جوخى: جوخا نهر على كورة واسعة في سواد بغداد، بالجانب الشرقي منه الراذان [الراذانات ـ يا] وهو بين خانقين وخوزستان. صرفت الدجلة عن هذه الكورة حتّى خربت (مع).

٢ ببانلي كذا في الأصل وفي مط. ببانكي (بإهمال الحرف الأول). وفي الطبري ٨، ٦٤٥: بساب تلي (بإهمال الحرف الأول) ومصحّحات في الحاشية.

٣. س ٤ النساء: ٧٦.

٤ العذريّ كذا في الأصل ومط. وما في الطبري: العذري.

الحنفيّ.» [210]

قال: ونحن نرى في وجهه أنّ الموت قد نزل به. ثمّ عبّى ميمنة وميسرة، وجعل ورقاء بن عازب على الخيل، ونزل هو بين الرجال على السرير، ثمّ قال:

ـ «ابرزوا لهم بالعراء، وقدّموني في الرجال، ثمّ إن شئتم فقاتلوا عن أميركم[1]، وإن شئتم ففرّوا عنه.»

قال: فأخرجناه وذلك يوم عرفة سنة ستّ وستين. فأخذنا نمسك أحياناً ظهره، فيقول: اصنعوا كذا، اصنعوا كذا. فيأمر بأمره، ثمّ لا يكون بأسرع من أن يغلبه الوجع، فيوضع هنيهة ويقتتل الناس، فحملت ميمنتنا على ميسرتهم، وميسرتنا على ميمنتهم، وحمل ورقاء بن عازب ومعه الخيل من ميسرتنا، فهزمهم، فلم يرتفع الضحى حتّى هزمناهم وحوينا عسكرهم، وانتهينا إلى ربيعة بن المخارق صاحبهم وقد انهزم عنه أصحابه وهو نازل ينادي:

ـ «يا أولياء الحقّ، يا أهل السمع والطاعة، إليّ إليّ، أنا ابن المخارق.»

فحمل عليه عبدالله بن ورقاء الأسدي، وعبدالله بن ضمرة العذري، فقتلاه.

قال: وأتي يزيد بن أنس بثلاثمائة أسير وهو في السوق، فأخذ يومي بيده [211] أن:

ـ «اضربوا أعناقهم.»

فقتلوا من عند آخرهم، وما أمسى يزيد بن أنس حتّى مات، وكان أوصى بأنّ الأمير بعده ورقاء بن عازب. فصلّى عليه ودفنه.

ذكر رأي رآه ورقاء بن عازب

ثمّ إنّ ورقاء بن عازب دعا رؤوس الأرباع وفرسان أصحابه، فقال لهم:

---

۱. عن أميركم: كذا في مط. وما في الأصل: عن أمركم. فأثبتنا الكلمة كما في مط.

ـ «يا هؤلاء، ماذا ترون في ما أخبرتكم، إنّما أنا رجل منكم»

وكان أعلمهم أنّ عبيدالله أقبل في ثمانين ألفاً من أهل الشام.

فقال ورقاء:

ـ «لست بأفضلكم رأياً، فأشيروا عليّ. هذا الرجل قد جاءكم في جدّه وحدّه، ولا أرى لنا بهم طاقة على هذه الحال، وقد هلك يزيد بن أنس أميرنا، وتفرّقت عنّا طائفة منّا، فلو انصرفنا اليوم من تلقاء أنفسنا قبل أن نلقاهم وقبل أن نبلغهم، فيعلموا إنما ردّنا عنهم هلاك صاحبنا فلايزالوا هائبين لنا ولقتلنا أميرهم، ولأنّا إنما نعتلّ لانصرافنا بموت صاحبنا. فإنّا إن لقيناهم اليوم لم ينفعنا هزيمتنا إيّاهم قبل اليوم إذا هزمونا.»

فقالوا:

ـ «فإنّك والله نعم [212] ما رأيت، إنصرف بنا، رحمك الله.»

فبلغ منصرفهم المختار وأهل الكوفة، ولم يعلموا كيف كان الأمر.

فكان رأى ورقاء الأول صواباً
وتركه إنفاذ الكتب بالبشارة وتعريفه صاحبه الصورة خطأً

فأرجف الناس أن يزيد بن أنس هلك، وأنّ الناس انهزموا وما أشبه ذلك، فقلق المختار، وبعث المختار عيناً له، فعاد إليه بالخبر[1].

فدعا المختار إبراهيم بن الأشتر، فعقد عليه على سبعة آلاف رجل وقال له:

ـ «سر حتّى إذا لقيت جيش ابن أنس فارددهم معك، ثمّ سر بهم حتّى تلقى عدوّك فتناجزهم.»

فخرج إبراهيم وعسكر بحمّام أعين.

١. والعبارة في الطبري (٨: ٦٤٩): فبعث إلى المختار عامله على المدائن عيناً له من أنباط السواد، فأخبره الخبر

ذكر اضطراب الناس على المختار
وطمعهم فيه بعد خروج إبراهيم الأشتر

لما خرج إبراهيم كثر إرجاف الناس بالمختار، وقالوا:

ـ «تأمّر علينا بغير رضىً منّا ولا ولاية من محمّد بن علىّ، وقد أدنىٰ موالينا، فحملهم على رقابنا، وغصبنا عبيدنا، فحرب[١] بذلك أيتامنا وأراملنا.»[٢]

واتّعدوا منزل شبث بن ربعىّ. [213] وكان شبث إسلاميّاً جاهليّاً. وقالوا:

ـ «هو شيخنا.»

فأتوه، فذاكروه هذا الحديث. ولم يكن فى جميع ما عمله المختار شىء[٣] أعظم على الناس من أن جعل للموالى نصيباً من الفىء.

فقال لهم شبث:

ـ «دعونى حتّى ألقاه.»

فلقيه، فلم يدع شيئاً مما أنكره أصحابه إلّا ذاكره به، فكان لا يذكر لهم خصلة إلّا قال المختار له:

ـ «أرضيهم، وآتى كلّ شىء أحبّوا.»

حتّى ذكر الموالى والمماليك، فقال:

ـ «عمدت إلى موالينا وهم فىء أفاءهم الله علينا وهذه البلاد كلّها، فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر من الله والشكر منهم، فلم ترض بذلك، حتّى جعلتهم شركاء فى فيئنا.»

---

١. حرب الرحل (يحرب حرباً): سلبه ماله وتركه بلا شىء.

٢. والعبارة فى الطبرى (٦٤٩٠:٨): فحملهم على الدوابّ، وأعطاهم وأطعمهم فيئنا، ولقد عصتنا عبيدنا، فحرب بذلك أيتامنا وأراملنا

٣ فى الأصل ومط: «شيئاً» (بالنصب) وهو خطأ كما لا يخفى.

فقال المختار:

ـ «إنّا سنتركهم لمواليهم، فهل تجعلون لى على أنفسهم ـ إن أنا فعلت ذلك ـ عهد الله وميثاقه وما أطمئنّ إليه من الأيمان، أن يقاتلوا معى بنى أميّة وابن الزبير؟»

فقال شبث:

ـ «ما أدرى، حتّى أخرج إلى أصحابى فأذاكرهم ذلك.»[١]

فخرج ولم يرجع، وأجمع رأى أشراف الكوفة على قتال المختار.

فركب شبث وشمر بن ذى الجوشن ومحمّد بن الأشعث وغيرهم حتّى دخلوا على كعب بن أبى كعب الخثعميّ، وذكروا [214] ما اجتمع عليه رأيهم من قتال المختار، وقالوا:

ـ «تأمّر علينا بغير رضىً منّا، وزعم أنّ ابن الحنفيّة بعثه إلينا، وقد علمنا أنّه لم يبعثه، وفعل وصنع، وأخذ عبيدنا وموالينا، وأطعمهم فيئنا.»

وسألوه أن يجيبهم إلى ما سألوه من قتاله معهم. فرحّب بهم كعب وأجابهم إلى ما دعوه إليه. ثمّ دخلوا على عبدالرحمن بن مخنف، فدعوه إلى ذلك.

ذكر رأى صحيح لعبد الرحمن

فقال لهم:

ـ «يا هؤلاء، إن أبيتم إلّا أن تخرجوا لم أخذلكم، وإن أطعتم لم تخرجوا.»

فقالوا:

ـ «ولِمَ؟» فقال:

ـ «لأنّى أخاف أن تتفرّقوا، وتختلفوا، وتتخاذلوا، ومع الرجل والله شجعاؤكم[٢]

---

١. أنظر الطبرى (٨: ٦٥٠ ـ ٦٥١).

٢ شجعاؤكم: كذ في الأصل شجعاؤكم = شجعانكم. وفى مط وهامش الأصل: شجعانكم.

وفرسانكم من أنفسكم. أليس معه فلان وفلان؟ ثمّ معه عبيدكم ومواليكم، وكلمة هؤلاء واحدة وهؤلاء أشدّ حنقاً عليكم من عدوّكم، فهو يقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم. وإن انتظرتموه قليلاً كفيتموه بقدوم أهل الشام، أو مجيء أهل البصرة [215] فتكونوا قد كفيتموه بغيركم ولم تجعلوا بأسكم بينكم.»

فقالوا:

ـ «ننشدك الله أن تخالفنا وتُفسد علينا.»

قال:

ـ «فأنا رجل منكم فإذا شئتم فاخرجوا.»

فلقى بعضهم بعضاً، وقالوا:

ـ «ننتظر حتّى يذهب عنه ابن الأشتر.»

فأمهلوا حتّى إذا بلغ إبراهيم ساباط خرجوا إلى جبابينهم بجماعة الرؤساء. فلما بلغ المختار اجتماع الناس عليه مثل شمر بن ذى الجوشن، وشبث بن ربعيّ، وحسان بن فائد، وربيعة بن ثروان، وحجّار بن أبجر، ورؤيم بن الحارث، وعمرو بن الحجاج الزبيدى، وغيرهم ممن ذكرناهم قبل، ومن لم نذكرهم، بعث رسولاً يركض إلى إبراهيم الأشتر وهو بساباط أن:

ـ «لا تضع كتابى من يدك حتّى تُقبل بمن معك.»

وبعث إليهم فى ذلك اليوم:

ـ «أخبرونى ما تريدون فإنّى صانع كلّ ما أحببتم.»

قالوا:

ـ «فإنّا نريد أن تعتزلنا، فإنّك زعمت أنّ ابن الحنفيّة بعثك ولم يبعثك.»

فأرسل إليهم المختار أن:

ـ «ابعثوا إليه من قِبلكم وفداً، وأبعث من قِبلى وفداً، ثمّ انظروا فى ذلك حتّى تتبيّنوه.»

وهو يريد أن يريّثهم[١] بهذه المقالة [216] ليقدم عليه إبراهيم الأشتر وقد أمر أصحابه فكفّوا أيديهم، وأخذ أهل الكوفة عليهم بأفواه السكك، فليس شيء يصل إلى المختار ولا إلى أصحابه من الماء إلّا القليل يجيئهم إذا غفلوا عنه.

ثمّ إنّ شمر بن ذي الجوشن أتى أهل اليمن، فقال لهم:

ـ «إن اجتمعتم في مكان نجعل فيه مجنّبتين ونقاتل من وجه واحد، فأنا صاحبكم، وإلّا فلا، والله لا أقاتل في سكة واحدة ضيّقة ونقاتل من غير وجه.»

وانصرف إلى جماعة قومه في جبّانة بني سلول[٢]، ولما بلغ المختار ذلك، جعل يواصل مكاتبة إبراهيم، فلما بلغ إبراهيم بن الأشتر خبره، نادى من يومه في الناس، وسار بقيّة عشيّته تلك، ثمّ نزل سويعة، فتعشّى هو وأصحابه، وأراحوا دوابّهم شيئاً كلا شيء، ثمّ سار بقيّة ليلته كلّها وصلّى الغداة بسورا، ثمّ سار من يومه وصلّى صلاة العصر على باب الجسر من الغد، ثمّ سار حتّى بات ليلته في المسجد. ولما كان اليوم الثالث من مخرجهم على المختار خرج المختار إلى المنبر فصعده وكان شبث بن ربعيّ بعث إليه ابنه [217] يقول له:

ـ «إنما نحن عشيرتك وكفّ يمينك، والله لا نقاتلك أبداً فثق بذلك منّا، وكان كارهاً لقتاله، ولما حضرت الصلاة واجتمع أهل اليمن كره كلّ رأس أن يتقدّمه صاحبه.»

فقال لهم عبدالرحمن بن مخنف:

ـ «هذا أول الخلاف، قدّموا الرضا فيكم، فإنّ فيكم سيّد قرّاء أهل المصر، فليصلّ بكم رفاعة بن شدّاد.»

ففعلوا، فلم يزل يصلّي بهم حتّى كان يوم الوقعة.

ثمّ إنّ المختار لمّا نزل، عبّى أصحابه، فقال إبراهيم بن الأشتر:

---

١. يريّثهم: كذا في الأصل والطبري ٨: ٦٥٣ وما في مط: يرتبهم.
٢. في مط: بني سلولة.

ـ «إلى أيّ الفريقين أحبّ إليك أن نسير.»

فنظر المختار وكان ذا رأى، فكرِه أن يسير إلى قومه، فلا يبالغ فى قتالهم، فقال:

ـ «سر إلى مُضر بالكُناسة، وكان عليهم شبث بن ربعيّ، وأنا أسير إلى أهل اليمن.»

ففعلا. ثمّ إنّ القوم اقتتلوا كأشدّ قتال اقتتله قوم[1]، وانكشف من أصحاب المختار أحمر بن شميط وعبدالله بن كامل وأصحابهما، فلم يُرع المختار إلّا وقد جاءه الفلّ قد أقبل فقال:

ـ «ماوراءكم؟» فقالوا:

ـ «هزمنا.» قال:

ـ «فما فعل أحمر بن شميط؟» قالوا:

ـ «تركناه قد نزل عند مسجد القَصّاص وقد نزل معه ناس [218] من أصحابه.»

وقال أصحاب ابن كامل:

ـ «ما ندرى ما فعل.»

فصاح بهم أن انصرفوا، ثمّ أقبل معهم قطعة، ثمّ بعث عبدالله بن قُراد الخثعمى وكان على أربعمائة من أصحابه، فقال:

ـ «سر فى أصحابك إلى ابن كامل، فإن يكن هلك، فأنت مكانه، وإن تجده حيّاً، فسر فى مائة من أصحابك كلّهم فارس، وادفع إليهم بقيّة أصحابك، ومرهم بالجدّ معه والمناصحة، ثمّ امض فى المائة حتّى تأتى جبّانة السبيع.»

فمضى، فوجد عبدالله بن كامل واقفاً عند حمّام عمرو بن حريث معه ناس من

---

١ مى مط: اقّتت له حوم!

أصحابه قد صبروا وهو يقاتل القوم. فدفع إليه ثلاثمائة من أصحابه. ثمّ مضى حتّى نزل جبّانة السبيع، وأخذ فى السكك حتّى انتهى إلى مسجد عبدالقيس، فوقف عنده، وقال لأصحابه:

ـ «ما ترون؟»

وهم مائة خيار. قالوا:

ـ «أمرنا لأمرك تبع.» فقال:

ـ «والله إنّى لأُحبّ أن يظهر المختار، والله إنّى لكاره أن يهلك أشراف قومى وعشيرتى اليوم، والله لأن أموت أحبّ إلىّ من أن آتيهم من ورائهم فيهلكون على يدى.»

ثمّ وقف. وبعث المختار مالك بن عمرو النهدى ـ وكان من أشدّ [219] الناس بأساً ـ فى مائتى رجل، وبعث عبدالرحمن بن شريك فى مائتى فارس إلى أحمر بن شميط، وثبت هؤلاء مكانه. فانتهوا إليه وقد علاه القوم وكثروا عليه، فاقتتلوا عند ذلك كأشدّ القتال.

ومضى الأشتر حتّى لقى شبث بن ربعى وخلقاً من مُضر كانوا معه، فقال لهم إبراهيم:

ـ «ويحكم انصرفوا. فوالله ما أُحبّ أن يُصاب أحد من مُضر على يدى. فلا تُهلكوا أنفسكم.»

فأبوا، فقاتلوه، فهزمهم، وجاءت البشرىٰ إلى المختار من قِبل إبراهيم بهزيمة مُضر، فبعث المختار بالبشرىٰ إلى أحمر بن شميط وإلى ابن كامل والناس على أحوالهم كلّ سكّة منهم قد أغنت[1] ما يليها، واجتمعت شبام وقد رأسوا عليهم أبا القلوص، وقد أجمعوا أن يأتوا أهل اليمن من ورائهم، فقال بعضهم لبعض:

---

۱. فى مط: قد اغنت.

ـ «أما والله، لو جعلتم حدّكم هذا على من خالفكم من غيركم، لكان أصوب. فسيروا إلى مُضر وإلى ربيعة فقاتلوهم.»

وشيخهم أبو القلوص ساكت لايتكلّم. فقالوا:

ـ «ما رأيك؟» فقال:

ـ «قال الله عزّ وجلّ: قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار، وليجدوا [220] فيكم غلظة[1]. قوموا!»

فقاموا، فمشى بهم قيس رمحين أو ثلاثة، ثمّ قال:

ـ «اجلسوا.»

فجلسوا. ثمّ مشى بهم الثانية أنفس من ذلك شيئاً، ثمّ الثالثة كذلك، ثمّ قعد، فقالوا له:

ـ «يا با القلوص، والله إنك عندنا لأشجع العرب، فما يحملك على الذى تصنع؟» قال:

ـ «إنّ المجرّب ليس كمن لم يجرّب، إنّى أردت أن ترجع إليكم أنفسكم، وكرهت أن أحملكم على القتال وأنتم على حال دهش.» قالوا:

ـ «أنت أبصر بما صنعت.» فلما خرجوا إلى جبّانة السبيع استقبلهم قوم، فهزموهم وقتلوا رئيسهم ودخلوا الجبّانة فى آثارهم يتنادون:

ـ «يالثارات الحسين.»

فأجابهم ابن شميط:

ـ «يالثارات الحسين.»

وقاتل يومئذ رفاعة بن شدّاد حتّى قُتل، وقُتل خلق من الأشراف واستخرج من دور الوادعيّين خمسمائة أسير. فأُتى بهم المختار مكتّفين، فأخذ رجل من

---

١ س ٩ التوبة: ١٢٣

بني نهد من رؤساء أصحاب المختار يقال له عبدالله بن شريك لا يخلو بعربيّ إلّا خلّى سبيله. فرُفع ذلك إلى المختار، فقال المختار:

ـ «اعرضوهم عليّ، فانظروا كلّ من شهد منهم قتل الحسين فأعلموني به.»

فأخذوا لا يمرّ عليه رجل شهد قتل الحسين إلّا قالوا له:

ـ «هذا ممن شهد [221] قتله.»

فقدّمه، فيضرب عنقه، حتّى قتل منهم قبل أن يخرج مائتين وأربعين قتيلاً، وأخذ أصحابه كلّما رأوا رجلاً قد كانوا تأذّوا به، وكان يماريهم، أو يُضرّ بهم، خلوا به فقتلوه، حتّى قُتل ناس كثير منهم، وما يشعر بهم المختار.

ثمّ أُخبر به المختار من بعد، فدعا بمن بقي من الأُسارىٰ فأعتقهم وأخذ عليهم المواثيق ألّا يجامعوا عليه عدوه ولا يبغوه ولا لأصحابه غائلة، إلّا سراقة بن مرداس البارقيّ، فإنّه أمر به أن يساق معه إلى المسجد، ونادىٰ منادى المختار من أغلق عليه بابه فهو آمن إلّا رجلاً شرك في دم آل محمّد.

وكان يزيد بن الحارث بن رؤيم وحجّار بن أبجر بعثا لهما رسلاً، فقالا لهم:

ـ «كونوا قريباً من أهل اليمن، فإن ظهروا، فلتكن علامتكم كذا وإن ظُهر عليكم فلتكن علامتكم كذا.»[1]

فلما هُزم أهل اليمن أتتهم رسلهم بعلامتهم، فقاما جميعاً فقالا لقومهما:

ـ «انصرفوا إلى بيوتكم.»

فانصرفوا.

فأمّا عمرو بن الحجاج الزبيدي، فإنّه كان ممن شهد قتل الحسين، فركب راحلته، ثمّ ذهب عليها، فأخذ طريق شراف وواقصة، فلم يُر حتّى الساعة، ولا

---

۱. والعبارة في الطبري (۸: ٦٦١ ـ ٦٦٠): فإن رأيتموهم قد ظهروا، فأيّكم سبق إلينا فليقل «صرفان» وإن كانوا هُزموا، فليقل: «جُمزان»

يُدرىٰ [222] أرض لحسته[1]، أم سماء حصبته!

مقتل شمر بن ذى الجوشن

وأما شمر بن ذى الجوشن، فإنّ المختار أنفذ فى طلبه غلاماً يُدعى رزيناً. حدّث مسلم بن عبدالله الكنانى[2]، قال: تبعَنا رزين[3] غلام المختار فلحقنا، وقد خرجنا من الكوفة على خيولنا مضمّرة، فأقبل يتقطّر به فرسه. فلما دنا منه قال لنا شمر:

ـ «اركضوا وتباعدوا، فلعلّ العبد يطمع فيّ.»

قال: فركضنا وأمعنّا، وطمع العبد فى شمر، وأخذ شمر يستطرد له، حتّى إذا انقطع عن أصحابه حمل عليه شمر، فدقّ ظهره، وأُتى المختار فأُخبر بذلك، فقال:

ـ «بؤساً لرزين، أما لو يستشيرنى ما أمرته أن يخرج لأبى السابغة.»

ومضى شمر حتّى نزل ساتيدما، فنزل إلى جانب قرية يقال لها: الكلبانية[4] على شاطئ نهر إلى جانب تلّ، ثمّ أرسل إلى تلك القرية، فأخذ منها علجاً فضربه، ثمّ قال:

ـ «النجا بكتابى إلى مصعب بن الزبير.»

[وكتب عنوانه: للأمير مصعب بن الزبير][5] من شمر بن ذى الجوشن. فمضى العلج حتّى دخل قرية فيها بيوت وفيها أبو عمرة، وكان المختار بعثه فى تلك الأيام إلى تلك القرية لتكون مسلحة فى ما بينه وبين أهل البصرة. فلقى ذلك

---

١ لحسته. كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى: يحسته.

٢ الكنانى. كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: الضبابى.

٣ رزين. كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٨: ٦٦١): زربى.

٤ الكلبانية. كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٨: ٦٦٢): الكلتانية.

٥ ما بين [ ] تكملة من الطبرى.

العلج علجاً من تلك القرية. [223] فأقبل يشكو إليه ما لقي من شمر، فسألوا العلج عن مكانه، فأخبرهم به، فإذا ليس بينهم إلّا ثلاثة فراسخ فساروا إليه.

قال: وكنّا قلنا لشمر تلك الليلة:

ـ «لو أنّك ارتحلت بنا من هذا المكان، فإنّا نتخوّف به.» فقال:

ـ «أكلّ هذا فرقاً من الكذّاب. والله لا أتحوّل منه ثلاثة أيام. ملأ الله قلوبكم رعباً.»

فوالله ما شعرنا إلّا وقد أشرفوا علينا من التلّ، فكبّروا، ثمّ أحاطوا بنا وخرجنا نشتدّ على أرجلنا وتركنا خيلنا، وأعجل شمر عن لبس سلاحه.

قال: فأمر على شمر وإنّه لمؤتزر ببُرد يقاتلهم، وكان أبرص، فكأنّي أنظر إلى بياض ما بين كشحيه وهو يطاعن الأقوام، فما هو إلّا أن أمعنت ساعة إذ سمعت التكبير وقائلاً يقول:

ـ «قتل الله الخبيث.»

سراقة حلف أنه رأى الملائكة

فأما سراقة بن مرادس البارقيّ، فإنّه حلف واجتهد في اليمين أنّه رأى الملائكة معهم تقاتل على خيول بُلق، وقال لهم:

ـ «أنتم أسرتموني؟ ما أسرني إلّا قوم على دوابّ لهم بُلق، عليهم ثياب بيض.»

فقال المختار:

ـ «أولئك الملائكة. اصعد المنبر. فأعلم الناس ذلك.»

فصعد واجتهد في اليمين وأخبرهم بذلك. [224] ثمّ نزل فخلا بـه المختار وقال:

ـ «إنى علمت أنك لم تر الملائكة، وإنما أردت مـا قـد عـرفت: ألّا أقـتلك، فاذهب عنّي حيث أحببت، لا تفسد عليّ أصحابي.»

فخلّىٰ عنه، وذهب حتّى لحق بمصعب بن الزبير، وقال:

ألا أبلغ أبا إسحاق أنّي رأيتُ الخيلَ دُهماً[1] مُصمّتاتِ
أرى عينيّ ما لم ترأياهُ كِلانا عالمٌ بالتُّرّهاتِ

وانجلت وقعة السبيع عن سبعمائة وثمانين قتيلاً وكانت يوم الأربعاء لستّ ليالٍ بقين من ذي الحجّة سنة ستّ وستّين

تجرُّد المختار لقتلى الحسين

وخرج أشراف الناس، فلحقوا بالبصرة، وتجرّد المختار لقتلى الحسين، وقال:

ـ «ما من ديننا ترك قوم قتلوا الحسين أحياءً يمشون في الدنيا آمنين. بئس ناصر آل محمد إذاً أنا في الدنيا، أنا إذاً الكذّاب كما سمّوني. الحمد لله الذي جعلني سيفاً ضربهم به، ورمحاً طعنهم به، وطالب وترهم، والقائم بحقّهم. سمّوهم، ثمّ تتبّعوهم، حتّى تفنوهم. إنّه لا يسوغ لي طعام ولا شراب حتّى أُطهّر الأرض منهم وأُنقّي المصر منهم.» [225]

ودلّ عبدالله بن دبّاس، على نفر ممن قتل الحسين. منهم: عبدالله بن أسيد بن النزال الجهنيّ، ومالك بن النُّسير البدّيّ وحمَل بن مالك المحاربي. فبعث إليهم المختار، فأُخذوا وأُدخلوا عليه عشاءً.

فقال لهم المختار:

ـ «يا أعداء الله وأعداء كتابه وأعداء رسوله وآل رسوله! قتلتم من أُمرتم بالصلاة عليه في الصلاة.» فقالوا:

---

١. دُهماً: كذا في الأصل. وفي الطبري (٨: ٦٦٥): بُلقاً.

ـ «رحمك الله، بُعثنا ونحن كارهون، فامنن علينا، واستبقنا.»

قال المختار:

ـ «فهلّا مننتم على الحسين بن بنت نبيّكم واستبقيتموه وسقيتموه.»

ثمّ قال المختار للبدّيّ:

ـ «أنت صاحب برنسه؟» فقال عبدالله بن كامل:

ـ «نعم، هو هو.»

فقال المختار:

ـ «اقطعوا يد هذا ورجله، ودعوه يضطرب حتّى يموت.»

ففعل به ذلك، وأمر بالآخرين فقُتلا.

ثمّ بعث رجالاً كانوا معه يقال لهم: الدبّابة، إلى دار في الحمراء فيها عبدالرحمن بن أبي خشكارة، وعبدالرحمن بن قيس الخولاني وغيرهما فجئنا بهم حتّى أدخلناهم عليه، فقال لهم:

ـ «يا قتلة الصالحين، يا قتلة سيد شباب أهل الجنّة، ألا ترون الله قد أقاد منكم اليوم؟ لقد جاءكم الورس[1] بيوم نحس.»

وكانوا أصابوا [226] من الورس الذي كان مع الحسين، أخرجوهم إلى السوق، فضربوا رقابهم، ففعل ذلك بهم وكانوا أربعة.

وأخذ السائب بن مالك الأشعريّ ـ وكان في خيل للمختار ـ ثلاثة نفر ممن شهد قتل الحسين، فانتهى بهم إلى المختار، فأمر بهم فقُتلوا في السوق.

وبعث المختار عبدالله بن كامل إلى عثمان بن خالد، وإلى أبي أسماء بسر بن أبي سمط[2]، وكانا ممن شهدا قتل الحسين وفي سلبه، فأحاط عبدالله بن كامل عند العصر بمسجد بني دهمان، ثمّ قال:

---

١ الوَرِس من الثياب: الأحمر. الوَرْس: نبات كالسمسم يُصبغ به.

٢ بسر بن أبي سمط. كذا في الأصل وفي الطبري (٨: ٦٧٠): بشر بن سوط

ـ «عليّ مثل خطايا بني دهمان منذ خُلقوا إلى يوم يبعثون إن لم أُوت بعثمان بن خالد، إن [لم][1] أضرب أعناقكم من عند آخركم.»

فقلنا له: «أمهلنا حتّى نطلبه.»

فخرجوا مع الخيل في طلبه، فوجدوهما جالسين في الجبّانة يريدان أن يخرجا إلى الجزيرة، فأُتي بهما عبدالله بن كامل. فضرب أعناقهم، ثمّ رجع فأخبر المختار خبرهما، فأمره بأن يرجع فيحرقهما بالنار، وقال:

ـ «لا يُدفنا، بل ليحرقا[2] بالنار.»

وبعث أبا عمرة صاحب حرسه حتّى أحاطوا بدار خولي بن يزيد الأصبحيّ وهو صاحب رأس الحسين ـ عليه السلام ـ فاختبئ في مخرجه [227] فخرجت امرأته إليهم، فقالوا لها:

ـ «أين زوجكِ؟» فقالت:

ـ «لا أدري، أين هو..»

وأشارت بيدها إلى المخرج. فدخلوا، فوجدوه وقد وضع على رأسه قوصرة، وأخرجوه.

وكان المختار خرج يسير بالكوفة ومعه ابن كامل، فأخبروه الخبر، وأقبل حتّى قتله إلى جانب أهله، ثمّ دعا بنار فحرّقه.

وكانت امرأته نصبت له العداوة حين جاء برأس الحسين.

وكان عبدالله بن جعدة بن هبيرة أكرم خلق الله على المختار لقرابته بعليّ. فكلّم عمر بن سعد عبدالله بن جعدة، وقال:

ـ «خذ لي من هذا الرجل أماناً.»

فكتب له

---

١ تكملة من الطبري.

٢ في الأصل: لا يدفنا، بل يحرقا. ولام الأمر زدناه. وفي الطبري (٨، ٦٧٠): لا يدفنانّ يحرق

«بسم الله الرحمن الرحيم»

ـ «هذا أمان من المختار بن أبي عبيد لعمر بن سعد بن أبي وقّاص. إنك آمن بأمان الله على نفسك ومالك وأهلك وأهل بيتك وولدك، لا تؤاخَذ بحدث كان منك قديماً ما سمعت وأطعت ولزمت رحلك ومصرك وأهلك، ولم تحدث حدثاً. فمن لقي عمر بن سعد من شرطة الله وشيعة آل محمد ومن غيرهم من الناس، فلا يعرض له إلّا بخير. شهد السائب بن مالك، [228] وأحمر بن شميط، وعبدالله بن شدّاد، وعبدالله بن كامل.»

وجعل المختار على نفسه عهد الله وميثاقه ليفينّ لعمر بن سعد بما أعطاه من الأمان، إلّا أن يحدث حدثاً، وأشهد الله على نفسه وكفى بالله شهيداً.»

فكان أبو جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام يقول:

ـ «أما أمان المختار لعمر بن سعد: إلّا أن يحدث حدثاً، فإنّه كان يريد: إذا دخل الخلا وأحدث.»

فقال المختار ذات يوم وهو يحدّث جلساءه:

ـ «لأقتلنّ رجلاً عظيم القدمين، غائر العينين، مشرف الحاجبين، يسرّ قتله المؤمنين والملائكة المقرّبين.»

فكان الهيثم بن الأسود النخعي عند المختار، فسمع هذه المقالة، فوقع في نفسه أنّ الذي يريده عمر بن سعد بن أبي وقّاص. فلما رجع إلى منزله دعا ابنه العريان، فقال:

ـ «إلق عمر بن سعد الليلة، فخبّره بكذا وكذا وقل له: خذ حذرك.»

قال: فأتاه فاستحلاه، ثمّ حدّثه الحديث.

فقال له عمر بن سعد:

ـ «جزى الله أباك عن الإخاء[1] خيراً، كيف يريد هذا بي بعد الذي أعطاني من

---

١ عن الإخاء خيراً. كذا في الأصل، وفي مط. عن الأحياء خيراً.

العهود والمواثيق.»

ثمّ خرج من ليلته حتّى أتىَ حمّامه.[229] وأخبر مولىً له بما أُريد به، فقال له:

ـ «وأىّ حدث أعظم مما صنعت، إنّك تركت رحلك وأهلك، إرجع إلى رحلك، لاتجعل للرجل عليك سبيلاً.»

فرجع إلى منزله، وأُتي المختار بخبر انطلاقه، فقال:

ـ «كلّا، إنّ لي في عنقه سلسلة ستردّه.»

فلما أصبح المختار بعث أبا عمرة وأمره أن يأتيه به. فجاء حتّى دخل عليه، فقال:

ـ «أجب.»

فقام عمر، فعثر في جبّة[1] له ويضربه أبو عمرة بسيفه فقتله، وجاء برأسه في أسفل قبائه حتّى وضعه بين يدى المختار.

فقال المختار لابنه حفص بن عمر، وهو جالس عنده:

«أتعرف هذا الرأس؟»

فاسترجع، وقال:

ـ «نعم، ولا خير في العيش بعده.»

قال له المختار:

ـ «صدقت، فإنّك لا تعيش بعده. ألحقوا حفصاً بأبى حفص!»

فقُتل، فإذا رأسه مع رأس أبيه.

ثمّ قال المختار:

---

١ تعثر فى جبّة: والكلمة الأخيرغير واضحة فى الأصل ومط فقرأناها فى ضوء ما فى الطبرى.

ـ «هذا بالحسين، وهذا بعليّ بن الحسين ولا سواء. والله لو قتلت بـه ثـلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامل الحسين.»

وبعث المختار برأسيهما إلى محمد بن الحنفيّة، وكتب إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

ـ «للمهديّ محمد بن عليّ [230] من المختار بن أبى عبيد. سلام عليك أيها المهديّ. فإنّى أحمد الله إليك الذى لا إله إلّا هو. أما بعد، فإنّ الله بعثنى نقمة على أعدائكم، فهم بين أسير وطريد وقتيل وشريد، فالحمد لله الذى قتل قـاتليكم، ونصر مؤازريكم، وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه، وقد قتلنا ممن شرك فى دم الحسين وأهل بيته ـ رضى الله عنهم[١] ـ كلّ من قدرنا عليه، ولن يعجز الله من بقى ولست بمنجم عنهم حتّى لا يبلغنى أنّ على أديم الأرض منهم أرماً[٢]، فاكتب إليّ أيها المهديّ برأيك أتّبعه وأكن عليه. والسـلام عـليك أيـها المـهديّ ورحمة الله وبركاته.»

وطلب المختار كلّ من ذكر له من قتلة الحسين وشيعته، وأعـدائـه، فـقتلهم وأحرقهم، ومن هرب ولم يقدر عليه هدم داره.

ثمّ إنّ المختار بلغه أنّ أهل الشام قد أقبلوا نحو العراق، فعرف أنـه يُـبدأ بـه، فخشى أن يأتيه أهل الشام من المغرب، ويأتيه مصعب بن الزبير من قبل البصرة، فأخذ يدارى ابن الزبير ويكايده. وكان عبدالملك بن مروان قد بعث عبدالملك بن الحارث بن الحكم [231] بن أبى العاص إلى وادى القرى.

---

١ كذا فى الأصل رضى الله عنهم. وفى مط. صلوات الله عليهم. وما فى الطبرى (٨ ٦٧٥): رحـمة الله عليهم. وفى هامشه: عليهم السلام.

٢ أرماً كذ فى الأصل ومط. وما فى الطبرى. أرمياً وفى هامشه ادمياً.

ذكر مكيدة للمختار على ابن الزبير لم يتمّ له

كتب المختار إلى ابن الزبير:

ـ «أما بعد، فقد بلغني أنّ عبدالملك بن مروان بعث إليك جيشاً، فإن أحببت أن أمدّك بمدد فعلت.»

فكتب إليه عبدالله بن الزبير:

ـ «أما بعد، فإن كنت على طاعتي فلست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادي وتبايع لي الناس قِبلك، فإذا أتتني بيعتك صدّقتك في مقالتك، وعجّل إليّ بتسريح الجيش، ومُرهم أن يسيروا إلى من بوادي القرى من جند ابن مروان، فيقاتلوهم، والسلام.»

فدعا المختار شرحبيل بن ورس بن همدان، فسرّحه في ثلاثة آلاف أكثرهم الموالي، ليس فيهم من العرب إلّا سبعمائة رجل، فقال:

ـ «سيروا مع شرحبيل وأطيعوه.»

وقال لشرحبيل:

ـ «إذا دخلت المدينة فاكتب إليّ حتّى يأتيك أمري.»

وهو يريد: إذا دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميراً من قِبله، ويأمر ابن ورس أن يمضى إلى مكة حتّى يحاصر ابن الزبير، ويقاتله فخرج يسير قِبل المدينة.

[232]

وخشى ابن الزبير أن يكون المختار إنما يكيده. فبعث من مكة إلى المدينة عباس بن سهل في ألفين، وأمره أن يستنفر الأعراب، وقال له ابن الزبير:

ـ «إن رأيت القوم في طاعتي، فاقبل منهم، وإلّا فكايدهم حتّى تهلكهم »

ففعلوا:

وأقبل عباس بن سهل حتّى لقى ابن ورس وقد عبّى ابن ورس أصحابه ميمنة

وميسرة. فدعا وسلّم عليه، ونزل هو يمشي في الرجّالة وميمنته وميسرته على الخيول.

وجاء عباس مع أصحابه وهم متقطّعون على غير تعبئة، فيجد ابن ورس على الماء قد عبّى أصحابه تعبئة القتال، فدنا منه، فسلّم عليه، ثمّ قال له:

ـ «اخلُ معي.»

فخلا به، فقال:

ـ «رحمك الله، ألست في طاعة ابن الزبير؟»

فقال له ابن ورس:

ـ «بلى.» قال:

ـ «فسر بنا إلى عدوّ الله وعدوّه، الذي بوادي القرى، فإنّ ابن الزبير حدّثني أنّه إنّما أشخصكم صاحبكم إليه.»

قال ابن ورس:

ـ «ما أُمرت بطاعتكم. إنما أُمرت أن آتي المدينة، فإذا تركتها كاتبت صاحبي.»

فقال عباس بن سهل:

ـ «إن كنت في طاعة ابن الزبير، فقد أمرني أن أسير بك وبأصحابك إلى عدوّنا بوادي القرى.»

فقال ابن ورس:

ـ «ما أُمرت بطاعتك وما أنا [233] بمتّبعك دون أن أدخل المدينة، ثمّ أكتب إلى صاحبي، فيأمرني بأمره.»

فلما رأى العباس لجاجه عرف خلافه، وكره أن يُعلمه أنّه فطن له، فقال:

ـ «فرأيك أفضل، اعملْ بما بدا لك، فأمّا أنا فإنّي سائر إلى وادي القرى.»

ذكر مكيدة عباس بن سهل بأصحاب المختار

ثمّ جاء عباس بن سهل، فنزل بالماء، وبعث إلى ابن ورس بجُزُر[1] كانت معه، فأهداها له مع دقيق وغنم مسلّخة، وكان ابن ورس وأصحابه قد هلكوا جوعاً. وبعث عباس إلى كلّ عشرة منهم شاة، فذبحوها واشتغلوا بها، وتركوا تعبئتهم، واختلطوا على الماء.

فلما رأى عباس بن سهل أنهم قد شُغلوا، جمع من أصحابه نحواً من ألف رجل من ذوي البأس والنجدة، ثمّ أقبل نحو فسطاط شرحبيل بن ورس، فلما رءاهم ابن ورس مقبلين إليه، نادىٰ في أصحابه، فلم تتواف إليه مائة رجل، حتّى انتهىٰ إليه عباس وهو يقول:

ـ «يا شرطة الله، إليَّ إليَّ، قاتلوا المحلّين أولياء الشيطان الرجيم، فقد غدروا، وفجروا.»

قال: فوالله ما اقتتلنا إلّا شيئاً [234] ليس بشيء، حتّى قُتل ابن ورس في سبعين من أهل الحفاظ، ورفع ابن سهل راية الأمان لأصحاب ابن ورس، فأتوها إلّا نحواً من ثلاثمائة رجل انصرفوا مع سلمان بن حميد[2] الهمدانيّ.

فلما وقعوا في يد عباس بن سهل أمر بهم فقُتلوا إلّا نحواً من مائة رجل كره ناس ممن دُفعوا إليهم قتلهم، فخلّوا سبيلهم، فرجعوا، فمات أكثرهم في الطريق.

وبلغ المختار أمرهم، فخطب الناس وقال:

ـ «ألا، إنّ الفجّار الأشرار قتلوا الأبرار الأخيار.»

---

١. بجُزُر كذا في الأصل. وما في مط: بحرر (مهملة إلّا في الحرف الأخير). وفي الطبري (٨: ٦٩١). بجزائر والجُزُر والجرائر جماعة الجزور. والجزور ما يصلح لأن يذبح من الإبل.

٢ حُميد كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨. ٦٩١): سلمان بن حِمْير.

ثمّ كتب إلى محمد بن الحنفيّة مع صالح بن مسعود الخثعمي:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

ـ «أما بعد، فإنّي كنت بعثت إليك جنداً ليُذلّوا لك الأعداء، وليحوزوا لك البلاد، فساروا حتّى إذا أظلّوا على طيبة، لقيهم جند الملحد، فخدعوهم بالله، وغرّوهم، فلما اطمأنّوا إليهم وثبوا بهم فقتلوهم، فإن رأيت أن أبعث إلى المدينة من قبلي جنداً كثيفاً وتبعث إليهم من قبلك رسلاً حتّى يعلم أهل المدينة أنّي في طاعتك، وإنما بعثت الجند عن أمرك، فافعل، فإنّك ستجدهم أعرف بحقكم أهل البيت، وأرأف بكم منهم بآل الزبير والملحدين. [235] والسلام.»

فكتب إليه محمد بن الحنفيّة:

ـ «أما بعد، فإنّ كتابك لمّا بلغني قرأته وفهمته، وعرفت تعظيمك لحقّي وما تنوى به من سروري، وإنّ أحبّ الأمور إليّ ما أُطيع الله فيه، فأطع الله ما استطعت في ما أعلنت وأسررت. واعلم أنّي لو أردت القتال لوجدت الناس إليّ سراعاً، والأعوان لي كبيراً، ولكنّي أعتزلهم وأصبر حتّى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين.»

فأقبل صالح بن مسعود إلى ابن الحنفيّة، فودّعه، وسلّم عليه، وهو كان حامل كتاب المختار، فأعطاه جواب الكتاب، وقال:

ـ «قل له: فليتّق الله، وليكفف عن الدماء.»

قال: فقلت له:

ـ «أصلحك الله، أوَ لم تكتبْ إليه بهذا؟»

قال ابن الحنفيّة:

ـ «قد أمرته بطاعة الله، وطاعة الله تجمع الخير كلّه، وتنهى عن الشرّ كلّه.»

فلما قدم كتابه على المختار، أظهر للناس:

ـ «إنّي قد أُمرت بأمر يجمع البرّ واليسر، ويضرح[1] الكفر والغدر.»

---

١ يصرح. كما في لأصل والطبري ٨: ٦٩٣. وفي مط: يصرح وفي حواشي الطبري يطرح ضرح

ذكر رأي رآه ابن الزبير
بعد حبسه محمد بن الحنفيّة ومن معه بزمزم

ثمّ إنّ عبدالله بن الزبير حبس محمد بن الحنفيّة ومن معه من أهل بيته وسبعة عشر [236] رجلاً من أهل الكوفة بزمزم كرهوا البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمّة وهربوا إلى الحرم، وتوعّدهم القتل والإحراق، وأعطى الله عهداً ـ إن لم يُبايعوا أن يُنفذ فيهم ما توعّدهم به، وضرب لهم فى ذلك أجلاً.

فأشار بعض من كان مع ابن الحنفيّة عليه أن يبعث إلى المختار وإلى من كان بالكوفة رسولاً يعلمهم حالهم وحال من معهم وما توعّدهم به ابن الزبير، فوجّه ثلاثة نفر من الكوفة حين نام الحرس على باب زمزم، وكتب معهم إلى المختار وأهل الكوفة يُعلمهم حاله وحال من معه وما توعّدهم به ابن الزبير من القتل والحرق بالنار، ويسألهم ألّا يخذلوه كما خذلوا الحسين وأهل بيته.

فقدموا على المختار، ودفعوا إليه الكتاب. فلما قرأه قال:

ـ «هذا كتاب مهديّكم وصريخ أهل بيت نبيّكم! قد حُظر عليهم كما يُحظر على الغنم، ينتظرون القتل والتحريق بالنار فى آناء الليل وتارات النهار، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزّراً.»

ووجّه أبا عبدالله الجدليّ فى سبعين رجلاً من أهل القوة، ووجّه ظبيان بن عثمان التميمى فى أربعمائة، [237] وأبا المعتمر فى مائة، وهانئ بن قيس فى مائة وعمير بن طارق فى أربعين، ويونس بن عمران فى أربعين، وكتب إلى محمد

→
الشيء: دفعه وأبعده. ضرح القبر: شقّه، حفره.

بن عليّ بتوجيه الجنود إليه، فخرج الناس بعضهم فى أثر بعض.

وجاء أبو عبدالله الجدليّ في سبعين راكباً حتّى نزل ذات عرق ولحقه عقبة في أربعين، ويونس في أربعين، فتمّوا مائة وخمسين فارساً. فسار بهم حتّى دخلوا مسجد الحرام ومعهم الكافركوبات[١] وهم ينادون:

ـ «ياثارات الحسين.»

حتّى انتهوا إلى زمزم وقد أعدّ ابن الزبير الحطب ليُحرقهم وقد كان بقي من الأجل يومان.

فطردوا الحرس، وكسروا أعواد زمزم، ودخلوا على محمد بن الحنفيّة، فقالوا له:

ـ «خلِّ بيننا وبين عدوّ الله ابن الزبير!»

فقال لهم:

ـ «إنّي لا أستحلّ القتال في حرم الله.»

فقال ابن الزبير:

ـ «أتحسبون أنّي مخلٍّ سبيلهم دون أن يبايع وتبايعوا؟»

فقال أبو عبدالله الجدليّ:

ـ «إي وربّ الركن والمقام، لتخلّينّ سبيله أو لنجالدنّك بأسيافنا جلاداً يرتاب منه المبطلون.»

فقال ابن الزبير:

١ «الكافركوبات» كذا في الأصل والطبري ٨. ٦٩٤ في مط: الكافركربات. وفي حواشي الطبري عن الأصول الأخرى: الكافركوبات. والكافركوبات جمع معرّه الكافركوب وهو مركب من لفظتين عربية وفارسية معناه قامع الكافر: آلة حربية.

ـ «ما هؤلاء إلّا أكلة رأس، والله لو أذنت لأصحابى لخُطفت رؤوسهم فى ساعة.»

فقال له قيس بن مالك: [238]

ـ «إن رُمت ذلك، رجوت أن يوصل إليك قبل أن ترى ما تحبّ.»

فكفّ ابن الحنفيّة أصحابه وحذّرهم الفتنة.

ثمّ قدم أبو المعتمر وبقيّة الناس ومعه المال حتّى دخلوا المسجد فكبّروا[1]:

ـ «بالثارات الحسين.»

فلما رءاهم ابن الزبير خافهم، وخرج محمد بن الحنفيّة ومن معه إلى شعب عليّ وهم يسبّون ابن الزبير، ويستأذنون محمد بن الحنفيّة فيه، ويأبى عليهم. واجتمع فى الشعب مع محمد بن عليّ أربعة آلاف رجل، فقسم بينهم ذلك المال.

ذكر ما كان من المختار بعد وقعة السبيع بالكوفة

ثمّ إنّ المختار بعد أن فرغ من قتال من ذكرناهم فى وقعة السبيع، ما ترك إبراهيم بن الأشتر إلّا يومين حتّى أشخصه إلى الشام لحرب عبيدالله بن زياد، وأخرج معه وجوه أصحابه ممن شهد الحروب وجرّبها، وخرج المختار يُشيّعه ويوصيه ومعه الكرسيّ وبليه قوم كالسدنة. وسنذكر خبر الكرسيّ إن شاء الله.

وكان موضع عسكر إبراهيم بموضع حمّام أعين، فلما أراد أن ينصرف عنه [239] قال لابن الأشتر:

ـ «خذ عنى ثلاثاً: خف الله سرّ أمرك وعلانيته، وعجّل السير، وإذا لقيت عدوّك فناجزهم ساعة تلقاهم، وإن لقيتهم ليلاً فاستطعت ألّا تصبح حتّى تناجزهم فافعل، وإن لقيتهم نهاراً فلا تنتظر بهم الليل.» ثمّ قال.

---

١ فكبّروا: يالثارات الحسين. كذا فى الأصل ومط والطبرى.

ـ «هل حفظت ما أوصيتك به؟» قال:

ـ «نعم.» قال:

ـ «صحبك الله.»

ثمّ انصرف.

خبر الكرسيّ

كان طفيل بن جعدة بن هبيرة قد ضاقت يده، وكانت أمّه أمّ هانئ بنت أبي طالب أخت عليّ عليه السلام لأبيه وأمّه، وكان المختار يطالب آل جعدة بكرسيّ عليّ بن أبي طالب، فيقولون:

ـ «لا والله، ماهو عندنا.»

فيقول المختار:

ـ «لا تكونوا حمقى» ـ ويتوعّدهم.

قال طفيل: فاحترت يوماً وأنا على إضاقتي تلك، فرأيت كرسيّاً عند جار لي زيّات قد ركبه الوسخ. فخطر ببالي أن لو قلت للمختار: هذا كرسيّ عليّ بن أبي طالب، لقبله. فأرسلت إلى الزيّات أن:

ـ «ابعث إليّ بكرسيّك.»

فأرسل به إليّ، فأتيت المختار، فقلت له:

ـ «إنّي كنت [240] أكتمك أمر الكرسيّ الذي كنت تلتمسه، وقد بدا لي أن أظهره، لأنّ جعدة بن هبيرة كان يجلس عليه كأنّه يرى أنّ فيه أثرة من علم.»

فقال:

ـ «سبحان الله! فأخّرت هذا إلى اليوم! ابعث به!»

قال: وقد كنت تقدّمت بغسله وقد غُسل، فخرج عود نضار، وقد كان تشرّب الزيت، فخرج أبيض وقد غُشّي. فأمر لي المختار باثني عشر ألفاً، ثمّ دعا:

ـ «الصلاة جامعة.»

وخطب، فقال:

ـ «إنه لم يكن فى الأمم الخالية أمر إلّا هو كائن فى هذه الأمّة مثله، فإنّه كان فى بنى إسرائيل التابوت، فيه بقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، وإنّ هذا فينا مثل التابوت، اكشفوا عنه.»

فكشفوا عنه أثوابه، وقامت السبائيّة، فكبّروا ثلاثاً. فلما خرج المختار مع إبراهيم بن الأشتر لوجه عبيدالله بن زياد، أخرج الكرسىّ على بغل يمسكه عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة. فقُتل أهل الشام مقتلة لم يُقتلوا مثلها، فزادهم ذلك فتنة، فارتفعوا فيه حتّى غلوا، وكان أول من سدنه موسى بن أبى موسى الأشعرى، ثمّ حوشب البرشمى[1]، فكانوا [241] يرون أنّ المختار يتكلّم عنه بوحى، وأشباه هذا[2].

فأما إبراهيم بن الأشتر، فإنّه سار من يومه مسرعاً لا ينثنى، يريد أن يلقىٰ عبيدالله بن زياد وأهل الشام قبل أن يدخلوا أرض العراق، فسبقهم إلى أرض الموصل، وأسرع إليه السير حتّى لقيه بخازر[3] إلى جنب قرية يقال لها: باربيثا[4] بينها وبين الموصل خمسة فراسخ. وأخذ ابن الأشتر لما دنا من ابن زياد لا يسير إلّا على تعبئة ويسير بهم جميعاً لا يفرّقهم إلّا أنه يبعث الطفيل بن لقيط فى الطلائع، وكان شجاعاً بئيساً.

ثمّ أرسل عمير بن الحباب السلمى إلى ابن الأشتر أنّى معك وأُريد لقاءك الليلة.

١ البرشمى كذا فى الأصل ومط (بالشين المعجمة) وما فى الطبرى. البرسمى (بالسين المهملة)

٢ أنظر الطبرى (٨: ٧٠٢ـ٧٠٦).

٣ بخازر كذا فى الأصل والطبرى (٨: ٧٠٧) وفى مط بخازر. وفى حواشى الطبرى بجازر، بحازر، بحازر

٤ باربيثا: كذا فى الأصل والطبرى. وفى مط. باربيثا. فى حواشى الطبرى: باريثا. بباديثا، ومصحّفات أخرى

فأرسل إليه ابن الأشتر أن: القني إذا شئت.

فأتاه عمير ليلاً، فبايعه وأخبره أنه على ميسرة صاحبه، وواعده أن ينهزم بالناس، فقال له ابن الأشتر:

ـ «فإنّي أستشيرك في أمر، فأشر عليّ.» قال:

ـ «نعم.» قال:

ـ «أترى أن أُخندق عليّ وأتلوّم يومين أو ثلاثة؟»

قال عمير بن الحباب:

ـ «لا تفعل، إنّا لله، وهل يريد القوم إلّا هذه، إن طاولوك وماطلوك هو خير لهم [242] هم كثير أضعافكم، وليس يُطيق القليل الكثير في المطاولة، ولكن ناجز القوم، فإنّهم قد مُلئوا منكم رعباً وإنّهم إن شاتوا[1] أصحابك وقاتلوهم يوماً بعد يوم ومرة بعد مرة، أنسوا بهم واجترأوا عليهم.»

قال إبراهيم:

ـ «الآن علمت أنّك لي مناصح، صدقت الرأي وما رأيت. أما إنّ صاحبي، بهذا الرأي أمرني.»

قال عمير:

ـ «فلا تعدونّ رأيه، فإنّ الشيخ قد ضرّسته الحروب، وقاسىٰ منها ما لم تُقاس. ناهض الرجل إذا أصبحت.»

وانصرف عمير، وأذكى ابن الأشتر حرسه تلك الليلة، الليل كلّه، ولم يدخل عينه غمض حتّى إذا كان في السحر الأوّل عبّى أصحابه ميمنة وميسرة، وألحق أمير الميمنة بالميمنة، وأمير الميسرة بالميسرة، وأمير الرجّالة بالرجّالة، وضمّ الخيل وعليها أخوه لأمّه عبدالرحمن بن عبدالله. فكانت وسطاً من الناس، ونزل

---

١ شاتوا: كذا في الأصل والطبري (٨: ٧٠٨)، وما في مط: سامتوا. سامته: وازاه وقابله. شاته: قاربه. «مه» منه.

إبراهيم يمشى[1]، وقال للناس:

ـ «ازحفوا.»

فزحف الناس معه رويداً رويداً حتّى أشرف على تلّ عظيم مشرف على القوم، فجلس عليه، وإذا أولئك لم يتحرّك منهم أحد بعد [243] فدعا ابن الأشتر بفرس له فركبه، ثمّ مرّ بأصحاب الرايات، فكلما مرّ على راية وقف عليها وقال:

ـ «يا أنصار الدين وشيعة الحقّ وشرطة الله! هذا عبيدالله بن مرجانة قاتل الحسين بن علىّ ابن فاطمة بنت رسول الله، صلّى الله عليهم، حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته، وبين الفرات أن يشربوا منه وهم ينظرون إليه، ومنعه أن يأتى ابن عمّه فيصالحه، ومنعه أن ينصرف إلى رحله وأهله، ومنعه الذهاب فى الأرض العريضة، حتّى قتله وقتل أهل بيته. قد جاءكم الله به، وجاءه بكم. والله إنّى لأرجو أنه ما جمع بينكم فى هذا الموطن وبينه، إلّا ليشفى صدوركم، ويسفك دمه على أيديكم.»

وسار فى ما بين الميمنة والميسرة، فرغّبهم فى الجهاد، وحرّضهم على القتال. ثمّ رجع حتّى نزل تحت رايته، وزحف القوم إليه، وقد جعل ابن زياد على ميمنته الحصين بن نمير السكونى[2]، وعلى ميسرته عمير بن الحباب وشرحبيل بن ذى الكلاع على الخيل، وهو يمشى فى الرجال.

فلما تدانى الصفّان حمل الحصين بن النمير فى ميمنة أهل [244] الشام على ميسرة أهل الكوفة وعليها علىّ بن مالك الجشمى، فثبت له هو بنفسه، فقُتل، ثمّ أخذ رايته قرّة بن علىّ، فقُتل أيضاً فى رجال أهل الحفاظ، وانهزمت الميسرة، فأخذ الراية عبدالله بن ورقاء السلولىّ، فاستقبل المنهزمين وقال:

ـ «يا شرطة الله، إلىّ إلىّ.»

---

١. يمشى: كذ فى مط والطبرى. وفى الأصل: يمسى (بالسين المهملة) فأعجمناها

٢. فى مط: الشكوبى.

فأقبل جلّهم إليه، فقال:

ـ «هذا أميركم يقاتل. إلى أين؟ سيروا بنا إليه.»

فأقبل حتّى أتاه، فإذا هو كاشف عن رأسه ينادي:

ـ «إليّ إليّ، أنا ابن الأشتر، إنّ خير فرّاركم كرّاركم، ليس مسيئاً من أعتب.»

فثاب إليه أصحابه. وأرسل إلى صاحب الميمنة:

ـ «احمل على ميسرتهم.»

وهو يرجو أن ينهزم لهم عمير بن الحباب كما زعم.

فحمل عليه سفيان بن يزيد بن المغفّل صاحب الميمنة، فثبت لهم عمير بن الحباب وقاتله قتالاً شديداً. فلمّا رأى إبراهيم ذلك، قال لأصحابه:

ـ «أمّوا هذا السواد الأعظم، فوالله لو قد فضضناه لانجفل من ترون منهم يمنة ويسرة انجفال طير ذُعِر بها فطارت.»

قال ورقاء بن عازب: فمشينا إليهم حتّى إذا دنونا منهم اطّعنّا بالرماح قليلاً، ثمّ صرنا إلى السيوف والعُمد [245] فاضطربنا بها مليّاً. فوالله ما سمعت من وقع الحديد على الحديد إلّا مياجن[1] قصّارى دار الوليد بن عقبة بن أبي معيط. ثمّ انهزموا، فسمعت إبراهيم بن الأشتر يقول لصاحب رايته:

ـ «انغمس برايتك فيهم.» فيقول له:

ـ «جعلت فداك، إنّه ليس متقدّم.» فيقول:

ـ «بلى، فإنّ أصحابك يقاتلون، وإنّ هؤلاء يهربون.»

فإذا شدّ إبراهيم بسيفه، فلا يضرب أحداً إلّا صرعه. وكرد إبراهيم بن الأشتر الرجال بين يديه كأنّهم الحملان، وإذا شدّ شدّ أصحابه معه شدّة رجل واحد.

فلمّا انهزم أهل الشام، قال ابن الأشتر:

---

١ مياجن. لا نقط فيها في الأصل والنقط من الطبري (٨: ٧١٢) وما في مط مـاجر

مقتل ابن زياد بيد ابن الأشتر

ـ «إنّي قد ضربت رجلاً فقتلته ووجدت منه رائحة المسك، ضربة شرّقت يديه وغرّبت رجليه، تحت راية منفردة على شاطئ جازر، وأظنّه طاغيتهم، فالتمسوه.»

فالتمسوه، فإذا هو عبيدالله بن زياد قتيلاً، ضربه قطّه[1].

وحمل شريك بن حرير[2] على الحصين بن نمير السكوني وهو يحسبه ابن زياد، فاعتنق كلّ واحد منهما صاحبه، ونادىٰ شريك:

ـ «اُقتلوني وابن الزانية.»

فقتل ابن نمير.

وكان شريك بن حرير [246] مع عليّ أُصيبت عينه معه، فلما انقضت حرب عليّ لحق ببيت المقدس، فلما جاءه قتل الحسين قال:

ـ «أُعاهد الله، لئن وجدت من يطلب بدم الحسين أُقبل إليه، ولأقتلنّ ابن مرجانة، أو لأموتنّ دونه.»

فلما بلغه خروج المختار يطلب بدم الحسين، جاءه، فوجّهه مع ابن الأشتر.

وقُتل ابن ذي الكلاع، وتبع أصحاب إبراهيم أهل الشام المنهزمين فكان من غرق أكثر ممن قُتل، وأصابوا من عسكرهم كلّ شيء من الغنائم.

ومضى ابن الأشتر إلى الموصل، وبعث عمّاله، فبعث أخاه عبدالرحمن بن عبدالله على نصيبين، فغلب على سنجار ودارا وما والاهما من أرض الجزيرة، وخرج من أهل الكوفة كلّ من كان قاتل المختار وهزمهم، فلحقوا بمصعب بن الزبير بالبصرة وفيهم شبث بن ربعيّ. وكان المختار قال لأصحابه:

---

١ قطّه: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري: قدّه. ولا يخفى الفرق بينهما

٢ حرير كذا في الأصل ومط. وما في الطبري وهامشه جدير، جرير، حدير

ـ «سيأتيكم الفتح من قبل إبراهيم بن الأشتر. قد هزموا أصحاب ابن مرجانة.» وخرج المختار من الكوفة، واستخلف عليها السائب بن مالك الأشعري، وخرج بالناس، فنزل ساباط، وقال للناس:

ـ «أبشروا، فإنّ شرطة الله [247] قد حسّوهم بالسيوف يوماً إلى الليل بنصيبين أو قريباً منها.»

قال: ودخلنا المدائن واجتمعنا إليه، فصعد المنبر، فوالله إنّه ليخطبنا، ويأمر بالجدّ والاجتهاد والثبات على الطاعة والطلب بدماء أهل البيت، إذ جاءته البشرى تترى، يتبع بعضها بعضاً بقتل عبيدالله بن زياد وهزيمة أصحابه، وأخذ عسكره، وقتل أشراف أهل الشام، فقال المختار:

ـ «يا شرطة الله، ألم أبشركم بهذا قبل أن يكون؟» قالوا:

ـ «بلى والله، لقد قلت ذلك.»

قال الشعبيّ: فيقول لي رجل من بعض جيراننا:

ـ «أتؤمن الآن يا شعبيّ؟»

قال، قلت:

ـ «بأيّ شيء أومن؟ بأنّ المختار يعلم الغيب؟ لا أومن بذلك أبداً.» قال:

ـ «أوَ لم يقل لنا أنّهم انهزموا؟» فقلت:

ـ «بلى، ولكن زعم أنّهم هُزموا بنصيبين من أرض الجزيرة، وإنما هو بخازر من أرض الموصل.» فقال:

ـ «والله لاتؤمن حتّى ترى العذاب الأليم.»

ذكر مسير مصعب إلى المختار وحربه

لما قدم شبث[1] على مصعب بن الزبير كان تحته بغلة له قد قُطّع ذنبها [248]

---

١ في مط: شيث

وقُطع طرف أُذنها، وشقّ قباءه وهو يصيح:

ـ «يا غوثاه، يا غوثاه»

فعُرّف مصعب أنّ بالباب رجلاً صفته كذا وكذا، فقال لهم:

ـ «نعم، هذا شبث بن ربعيّ، ولم يكن ليفعل هذا غيره، أدخلوه.»

فأُدخل إليه، وجاءه أشراف الناس من أهل الكوفة، فأخبروه بما أُصيبوا به من وثوب عبيدهم ومواليهم عليهم، وشكوا إليه، وسألوه النصر لهم والمسير إلى المختار معهم. وقدم عليهم محمد بن الأشعث بن القيس، ولم يكن شهد وقعة الكوفة، وإنما كان بقصّ له. فلما بلغه هزيمة الناس، تهيّأ للشخوص، وسأل عنه المختار، فأُخبر بمكانه، فسرّح وراءه قوماً، فلم يلحقوه، ومضى إلى مصعب، فأدناه مصعب وقرّبه وأكرمه لشرفه، وهدم المختار دار ابن الأشعث.

ثمّ قال مصعب لمحمد بن الأشعث لما أكثر عليه الناس:

ـ «إنّي لا أسير حتّى يأتيني المهلّب بن أبي صفرة.»

فكتب مصعب إلى المهلّب وهو عامله على فارس أن:

ـ «أقبل إلينا لتشهد أمرنا وتسير معنا إلى الكوفة.»

فتباطأ عنه المهلّب كراهة للخروج، واعتلّ بشيء من الخراج، [249] فأمر مصعب محمد بن الأشعث بن قيس في بعض ما كان محمد يستحثّه:

ـ «ايتني بالمهلّب.»

فخرج محمد بكتاب مصعب إلى المهلّب، فلما قرأه، قال:

ـ «مثلك يا محمد في شرفك يأتي بريداً؟ أما وجد المصعب بريداً غيرك؟»

قال محمد:

ـ «إنّي، والله، ما أنا ببريد لأحد، غير أنّ نساءنا وأبناءنا وحرمنا غلبنا عليهم عبداننا وموالينا.»

فخرج المهلّب بجموع كثيرة وأموال عظيمة معه في هيئة وعدّة وجموع ليس

بها أحد من أهل البصرة. ولما ورد باب مصعب صادفه وقد أذن للناس، فحجبه الحاجب وهو لا يعرفه، فرفع المهلّب يده وكسر أنفه. فدخل الحاجب إلى المصعب وأنفه يسيل دماً، فقال له:

ـ «ما لك؟» قال:

ـ «ضربني رجل ما أعرفه.»

ودخل المهلّب، فلما رءاه الحاجب، قال:

ـ «هو ذا.»

فقال له مصعب:

ـ «عد إلى مكانك.»

ثمّ عسكر مصعب عند الجسر الأكبر، وقدّم أمامه عبّاد بن الحصين الحبطيّ من بني تميم على مقدّمته، وبعث عمر بن عبدالله بن معمر على ميمنته، وبعث المهلّب على ميسرته، وبعث على الأخماس مالك بن مسمع [250] ومالك بن المنذر، والأحنف بن قيس، وزياد بن عمرو الأزديّ، وقيس بن الهيثم.

وبلغ ذلك المختار، فقام في أصحابه، فحمد الله وأثنى، وقال:

ـ «يا أهل الدين وأعوان الحق وأنصار الضعيف وشيعة آل الرسول! إنّ فرّاركم الذين بغوا عليكم فهزمتموهم، أتوا أشباههم من الفاسقين، فاستغووهم عليكم ليمصح[1] الحقّ ويُنعش الباطل، ويُقتل أولياء الله. والله لو هلكتم ما عُبِدَ الله في الأرض إلّا بالفرى على الله واللعن لأهل بيت نبيّه، صلّى الله عليه. انتدبوا مع أحمر بن شميط.»

فعسكر بحمّام أعين. ودعا المختار رؤوس الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر، فبعثهم مع ابن شميط، لأنّهم فارقوا ابن الأشتر لمّا رأوا من تهاونه بأمر

١ مصح الحقّ: أزاله.

المختار، فبعثهم المختار مع ابن شميط، وبعث معه جيشاً كثيفاً.

وسار أحمر بن شميط حتّى ورد المذار وجاء مصعب حتّى عسكر قريباً منه، ثمّ عبّى كل واحد منهم جنده، وجعل أحمر بن شميط على ميمنته عبدالله بن كامل، وعلى ميسرته عبدالله بن وهب بن نضلة[1]، وعلى الخيل رزين بن عبدالله السلولي، وعلى الرجّالة كثير بن إسماعيل [251] الكنديّ، وجعل أبا عمرة على الموالي وكان مولىً لعرينة.

مكيدة لعبدالله بن وهب على الموالي

فجاء عبدالله بن وهب وكان على الميسرة، إلى ابن شميط وقد أخلاء، فقال له:

ـ «إنّ الموالي والعبيد إلى[2] خور عند المصدوقة، وأنّ منهم رجالاً كثيراً على الخيل وأنت تمشي، فمرهم لينزلوا معك، فإنّ لهم بك أُسوة، وإنّي أتخوّف إن طُردوا ساعة فطُعنوا وضُربوا، أن يطيروا على متونها، ويسلموك، وإنّك إن أرجلتهم لم يجدوا من الصبر بدّاً.»

وإنما غشّ الموالي والعبيد لما كان لقى منهم بالكوفة، فأحبّ ـ إن كانت عليهم الدبرة ـ ألّا يكونوا فرساناً بل رجّالة، فلا ينجو منهم أحد. ولم يتّهمه ابن شميط، وظنّ أنه إنما أراد بذلك نصيحته ليصبروا ويقاتلوا فقال:

ـ «يا معشر الموالي، انزلوا معي، فقاتلوا.»

فنزلوا معه ثمّ مشوا بين يديه وبين يدى رايته.

وجاء مصعب بن الزبير وقد جعل عبّاد بن الحصين على الخيل، وأقبل عبّاد حتّى دنا من ابن شميط وأصحابه فقال:

ـ «إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة [252] رسوله، صلّى الله عليه، وإلى بيعة

---

١ نضلة كذا في الأصل والطبرى ٨: ٧٢١ وما في مط. فضلة.

٢ إلى خور كذا في الأصل وفي مط إلى حور. وما في الطبرى. آل خور

أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير.»

فقال الآخرون:

ـ «إنّا ندعوكم إلى كتاب الله، وسنّة رسوله، صلّى الله عليه، وإلى بيعة الأمير المختار، وإلى أن يجعل الأمر شورى في آل الرسول. فمن زعم من الناس أنّ أحداً ينبغي أن يولّى عليهم برئنا منهم وجاهدناه.»

فانصرف عبّاد إلى مصعب فأخبره فقال له:

ـ «ارجع، فاحمل عليهم.»

فحمل على ابن شميط، فلم يزل منهم أحد. ثمّ انصرف إلى موقفه، وحمل المهلّب على ابن كامل، فجال أصحابه بعضهم في بعض، فنزل ابن كامل، وانصرف عنه المهلّب، ثمّ وقف ساعة، وقال لأصحابه:

ـ «احملوا حملة صادقة، فقد أطمعوكم.»

يعني جولتهم التي جالوها. فحمل عليهم حملة منكرة، فولّوا، وصبر ابن كامل في رجال همدان، فأخذ المهلّب يسمع اتّصال[1] القوم:

ـ «أنا الغلام الشاكريّ، أنا الغلام الشباميّ، أنا الغلام الثوريّ.»

وحمل عمر بن عبدالله بن معمر على عبدالله بن أنس، فقاتل ساعة ثمّ انصرف عنه، وحمل الناس جميعاً على ابن شميط، فقاتل حتّى قتل، وتنادى أصحابه:

ـ «يا معشر بجيلة وخثعم، الصبر الصبر.» [253]

فناداهم المهلّب:

ـ «الفرار الفرار، فهو اليوم أنجىٰ لكم، علامَ تقتلون أنفسكم مع هذه العبدان، أضلّ الله سعيكم.»

ثمّ نظر إلى أصحابه فقال:

---

١ كذا في الأصل ومط وبعض الأصول في هامش الطبري: اتصال. وما في الطبري (٨: ٧٢٢): يسمع شعار القوم، وفي بعض الأصول: انتصال.

- «والله ما أدرى استحرار القتل إلّا فى أصحابى وقومى»

ومالت الخيل على رجّالة ابن شميط فانهزمت وأخذت فى الصحراء، فبعث مصعب بن الزبير عبّاد بن الحصين على الخيل وقال:

- «أيّما أسير أخذته فاضرب عنقه.»

وسرّح محمد بن الأشعث فى خيل عظيمة من خيل أهل الكوفة ممن كان المختار طردهم، فقال:

- «دونكم ثأركم.»

فلم يكن على المنهزمين قوم أشدّ عليهم منهم، كانوا لا يعفون عن أسير إنما هو القتل، فلم ينج من ذلك الجيش إلّا طائفة من أصحاب الخيل، وأما رجالتهم، فأبيدوا.

فتحدّث عبدالرحمن بن أبى عمير الثقفى، قال: والله إنى لجالس عند المختار حين أتاه هزيمة القوم، فأصغى إلىّ برأسه وقال لى:

- «قُتلت والله العبيد قتلة ما سمعت بمثلها قطّ.»

ثمّ قال:

- «وقُتل ابن شميط وابن كامل، وفلان وفلان...»

فسمى قوماً من العرب ورجالاً كان الواحد منهم خيراً من أمّة من الناس »

قال: فقلت:

- «إنّا لله، هذه والله [254] مصيبة.»

فقال لى:

- «ما من الموت بدّ، وما من ميتة أموتها أحبّ إلىّ من مثل ميتة ابن شميط، حبّذا مصارع الكرام.»

قال: فعلمت أنّ الرجل قد حدّث نفسه إن لم يصب حاجته، أن يقاتل حتّى يموت.

وأقبل مصعب حتّى قطع من تلقاء واسط القصب، ولم تكن واسط هذه بُنيت بعد، وأخذ في كسكر، ثمّ حمل الرجال وأثقالهم وضعفاء النّاس في السفن، فأخذوا في نهر يقال له: نهر خرشيذ، ثمّ خرجوا من ذلك النهر إلى الفرات. وكان أهل البصرة يخرجون فيجرّون سفنهم ويقولون[1]:

عوّدنا المُصعبُ جرَّ القَلْسِ والزَّنبريّاتِ الطِّوالِ القُعْسِ

ولمّا بلغ المختار أنهم قد أقبلوا إليه في البرّ والبحر، سار حتّى نزل السيلحين، ونظر إلى مجتمع الأنهار: نهر الحيرة، ونهر السيلحين، ونهر القادسيّة، ونهر يوسف[2]، فسكر الفرات على مجتمع الأنهار، فذهب ماء الفرات كلّه في هذه الأنهار، وبقيت سفن أهل البصرة في الطين.

فلما رأوا ذلك، خرجوا من السفن يمشون، وأقبلت خيلهم تركض حتّى أتوا ذلك السكر، فكسروه. [255]

غلطُ المختار في ذلك

فكان غلطُ المختار في ذلك، أنّه حيث سكر الماء وقطعه عن القوم، وجب أن يخلّف على السكر جيشاً قويّاً، فصمد القوم لما كسروا السكر صمد الكوفة، فلما رأى المختار ذلك أقبل إليهم حتّى نزل حروراء، وحال بينهم وبين الكوفة. وقد كان حصّن قصره والمسجد، وأدخل في قصره عدّة الحصار، واستعمل على الكوفة عبدالله بن شدّاد.

وجاء مصعب في جيشه، وخرج إليه المختار، وقد جعل على ميمنته سليم بن

١. تجد البيت عند الطبري (٨: ٧٢٤).

٢. يوسف. كذ في الأصل ومط وبعض الأصول في هامش الطبري. وما في الطبري (٨ ٧٢٥): بُرسف.

يزيد الكندى، وعلى ميسرته سعيد بن منقذ الهمدانى ثمّ الثورى، وكان على شرطته عبدالله بن قراد الخثعمى، وعلى الخيل عمر بن عبدالله النهدىّ، على الرجال مالك بن عمرو النهدىّ.

وجعل مصعب على ميمنته المهلّب بن أبى صفرة، وعلى ميسرته عمر بن عبدالله بن معمر التيمىّ، وعلى الخيل عبّاد بن الحصين الحبطىّ وعلى الرجال مقاتل بن مسمع الكندىّ، ونزل هو يمشى، وجعل على الكوفة محمد بن الأشعث. فجاء محمد حتّى نزل بين مصعب والمختار مقرباً[1] شياماً، فلما رأى ذلك المختار [256] بعث إلى كلّ خمس من أخماس البصرة رجلاً من أصحابه فى خيل، ووقف فى بقيّة أصحابه، وزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، وحمل سعيد بن منقذ وعبدالرحمن بن شريح على بكر بن وائل، وعبدالقيس، وهم فى الميسرة عليهم عبدالله بن معمر. فقاتلهم ربيعة قتالاً شديداً وصبروا لهم، وأخذ سعيد بن منقذ وعبدالرحمن بن شريح لا يقلعان، إذا حمل أحدهما فانصرف، حمل الآخر، وربما حملا جميعاً.

فبعث مصعب إلى المهلّب:

ـ «ما تنتظر أن تحمل من بإزائك؟ ألا ترى ما يلقى هذان الخمسان اليوم؟ احملْ بأصحابك.»

فقال المهلّب:

ـ «إنّى لعمرى ما كنت لأُجزر الأزد وتميماً خشية أهل الكوفة حتّى أرى فرصتى.»

وبعث المختار إلى عبدالله بن جعدة أن:

ـ «احمل على من يليك.»

---

١ مقرباً، كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨: ٧٢٦): مقرّباً

فحمل عليهم، فكشفهم حتّى انتهوا إلى مصعب. فجثا مصعب على ركبتيه، ولم يكن فزّاراً، فرمى بأسهمه، ونزل الناس، فقاتلوا ساعة، ثمّ تحاجزوا.

فبعث مصعب إلى المهلّب وهو في خُمسين من الأخماس جامّين كثيري العدد والفرسان:

ـ «لا أباً لك ما تنتظر أن تحمل على القوم؟»

فمكث غير بعيد. ثمّ إنه قال [257] لأصحابه:

ـ «قد قاتل القوم منذ اليوم وأنتم وقوف، وقد أحسنوا، وبقي ما عليكم، احملوا واصبروا واستعينوا بالله.»

فحملوا حملة عظيمة، فحطّموا أصحاب المختار حطمة منكرة فكشفوهم. وقال عبدالله بن عمرو النهديّ، وكان من أصحاب صفّين:

ـ «اللّهمّ إنّي على ما كنت عليه ليلة الخميس بصفّين، اللّهمّ إنّي أبرأُ إليك من فعل هؤلاء المنهزمين.»

وجالد بسيفه حتّى قتل.

وأُتي مالك بن عمرو النهدي بفرسه، وكان على الرجّالة، فركبه وانقصف أصحاب المختار انقصافة شديدة كأنّهم أجمة فيها حريق.

فقال مالك حين ركب:

ـ «ما أصنع بالركوب؟ والله لأن أُقتل هاهنا أحبّ إليّ من أن أُقتل في بيتي. أين أهل البصائر؟»

فثاب إليه نحو من خمسين رجلاً.

ذكر ظفر بعد هزيمة

وذلك عند المساء. فكرّ على أصحابه محمد بن الأشعث وكان إلى جانبه، فقُتل محمد بن الأشعث هو وعامّة أصحابه. وانتهى المختار في أصحابه إلى

محمد بن الأشعث قتيلاً ومالك بن عمرو يحسّهم بالسيف، فقال:

ـ «يا معشر الأنصار، كرّوا على الثعالب الروّاغة.» [258]

فحملوا عليهم، وانهزم أصحاب مصعب وطلع القمر.

وأمر المختار منادياً فنادى:

ـ «يا محمّد!»

وكان علامة بينه وبين أصحابه. فحملوا على مصعب، فهزموه وأدخلوه عسكره، ولم يزل المختار وأصحابه يقاتلونهم حتّى أصبحوا وأصبح المختار وليس عنده أحد.

ذكر اتّفاق[1] سيّء بعد الظفر لأجل عجلة وسوء تثبّت

وكان أصحابه قد وغلوا في أصحاب مصعب، فقال له بعض من كان معه:

ـ «أيها الأمير، ما تنتظر؟ قد هُزم أصحابك وما بقي معك أحد. انصرف إلى القصر.»

قال المختار:

ـ «والله ما نزلت وأنا أريد الركوب، فأما إذا انصرف أصحابي فقدّموا فرسي.»

فركب حتّى دخل القصر مهزماً، وانصرف أصحاب المختار حين أصبحوا، فوقفوا مليّاً، فلم يروا المختار. فقالوا:

ـ «قد قتل.»

فهرب منهم طائفة ممن أطاق الهرب، واختفوا في دور الكوفة وتوجّه منهم نحو القصر نحو من ثمانية آلاف لم يجدوا من يقاتل بهم وكانوا في الأصل عشرين ألفاً فلما أتوا القصر وجدوا المختار في القصر، فدخلوا معه.

---

١ ذكر اتفاق سيّء: كذا في الأصل. وما في مط: ذكر رأي سيّء.

وأصبح مصعب فأقبل يسير بمن [259] معه من أهل البصرة ومن خرج إليه من أهل الكوفة، فأخذ بهم نحو السبخة، فمرّ بالمهلّب.

فقال له المهلّب:

«يا له فتحاً ما أهنأه! لو لم يكن محمد بن الأشعث قتل.» قال:

ـ «صدقت، فرحم الله محمّداً.»

ذكر قتل عبيدالله بن عليّ بن أبي طالب

ثمّ قال:

ـ «يا مهلّب!» قال:

ـ «لبّيك أيها الأمير.» قال:

ـ «هل علمت أنّ عبيدالله بن عليّ بن أبي طالب قد قتل؟» قال:

ـ «إنّا لله، وإنّا إليه راجعون.»

قال مصعب:

ـ «أما إنّي كنت أحبّ أن يرى هذا الفتح، ثمّ لا نجعل أنفسنا أحقّ بشيء مما نحن فيه منه. أتدرى من قتله؟ إنّما قتله من يزعم أنه لأبيه شيعة. أما إنهم قتلوه وهم يعرفونه.»

مصعب يحاصر قصر المختار وهو فيه

ثمّ مضى حتّى حاصر المختار، وقطع عنهم الماء والمادّة، وبعث عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث، فنزل الكناسة، وبعث إلى الجبابين ليقطع عن المختار وأصحابه الماء والمادّة، فأصابهم جهد شديد. وكان المختار ربما خرج هو وأصحابه، فقاتلوا قتالاً ضعيفاً، وكان لا تخرج له خيل إلّا رميت بالحجارة من فوق البيوت ويصبّ عليهم الماء القذر، فاجترأ الناس عليهم. فكان أفضل

معايشهم من نسائهم. وذلك أنّ المرأة كانت تخرج من منزلها معها الطعام واللطف[1] والماء قد التحفت [260] عليه، فتخرج كأنّها تريد المسجد الأعظم للصلاة أو تزور قرابة لها، فإذا دنت من القصر فُتح لها، فدخلت على حميمها بطعامه وشرابه ولطفه، وإنّ ذلك لبيلغ مصعباً.

وكان المهلّب ذا حنكة وتجربة، فقال:

ـ «أيها الأمير، اجعل عليهم دروباً حتّى يمكنك أن تمنع ما يأتيهم من جهة أهليهم وتدعهم فى حصنهم حتّى يموتوا فيه.»

وكان القوم إذا اشتدّ عليهم العطش استقوا ماء البئر، وطرحوا فيه العسل ليغيّر طعمه، فأخذ ثلاث نسوة فى الشاميّين أتين أزواجهنّ فى القصر، فبُعث بهنّ إلى مصعب ومعهنّ الطعام والشراب، فردّهنّ مصعب ولم يعرض لهنّ.

فقال المختار يوماً لأصحابه:

ـ «ويحكم إنّ الحصار لايزيدكم إلّا ضعفاً. انزلوا بنا، فلنقاتل حتّى نُقتل كراماً إن قُتلنا، والله ما أنا بيائس إن أنتم صدقتموهم، أن ينصركم الله.»

فضعفوا وعجزوا، فقال لهم المختار:

ـ «أما أنا والله لا أُعطى بيدى، ولا أُحكّمهم فى نفسى.»

ولما رأى عبدالله بن جعدة بن هبيرة ما يريد المختار، تدلّى من القصر، فلحق بأُناس من إخوانه، فاختبأ عندهم. [261]

مقتل المختار وما قاله فى أمره

ثمّ إنّ المختار أزمع الخروج حين رأى من أصحابه الضعف والفشل. فأرسل إلى امرأته أمّ ثابت بنت سمُرة بن جندب، فأرسلت إليه بطيب كثير، فاغتسل

---

١ اللطَف: الرفق، الهديّة. يقال: أهدى إليه لطَفاً. وما أكثر تحفه وألطافه. واللطَف: اليسير من الطعام. ويقال: هؤلاء لَطَف فلان، أى أصحابه وأهله الذين يلطفونه.

وتحنّط، ثمّ وضع ذلك الطيب على رأسه ولحيته، ثمّ خرج في تسعة عشر نفساً فيهم السائب بن مالك الأشعريّ، وكان خليفته على الكوفة إذا خرج. ولما خرج المختار من القصر قال للسائب:

ـ «ماذا ترى؟» قال:

ـ «أنا أرى، أم الله؟» قال:

ـ «بل الله، ويحك أحمق أنت. إنما أنا رجل من العرب لمّا رأيت ابن الزبير انتزئ على الحجاز، ورأيت نجدة انتزئ على اليمامة، ورأيت مروان انتزئ على الشام، لم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد، وكنت كأحدهم، إلّا أنّي قد طلبت بثأر أهل بيت النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم وعليهم، إذ نامت عنه العرب، فقتلت من شرك في دمائهم، وبالغت في ذلك إلى يومي هذا. فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نيّة.»

ـ «قال: إنّا لله، وإنّا إليه راجعون، وما كنت أصنع أن أقاتل على حسبي؟»

فتمثّل المختار عند ذلك بشعر غيلان بن سلمة الثقفيّ[1]: [262]

ولو يراني أبو غيلان إذ حسرت ... عنّي الهموم بأمر ما له طَبَقُ

لقال رُهباً ورُعباً يُجمعان معاً ... غُنمُ الحياة، وهول الموت والشفقُ

إمّا تُسِفُّ على مجدٍ ومكرمةٍ ... أو أُسوة لك في من يُهلك الوَرِقُ

ثمّ خرج في تسعة عشر رجلاً، فقال للناس:

ـ «أتؤمنوني وأخرج إليكم؟» فقالوا:

ـ «لا، إلّا على الحكم.» فقال:

١. الأبيات تجدها عند الطبري أيضاً (٨-٧٣٧).

ـ «لا أحكّمكم فى نفسى أبداً.»
فضارب بسيفه حتّى قتل.

ذكر رأى المختار فى تلك الحال وكان صواباً

كان المختار قال لأصحابه حين أتوا أن يبايعوا على الخروج:
ـ «إذا أنا خرجت فقُتلت لم تزدادوا إلّا ضعفاً وذلّاً، فإن نزلتم على حكمهم وثب أعداؤكم الذين وترتموهم. يقول كلّ رجل منهم لبعضكم: هذا عنده ثأرى، فيُقتل وينظر بعضكم إلى بعض فيرى مصرعه ومصرع أحبّته، فيقولون: يا ليتنا كنّا[1] أطعنا المختار وعملنا برأيه، ولو أنكم خرجتم معى، كنتم إن أخطأتم الظفر، متّم كراماً، وإن هرب هارب منكم فدخل فى عشيرته اشتملت عليه عشيرته، أنتم غداً أذلّ مَن على [263] ظهر الأرض.»
فكان الأمر على ما قال.
ولما كان من الغد، قال لهم بجير بن عبدالله:
ـ «يا قوم، قد كان صاحبكم أمس أشار عليكم بالرأى لو أطعتموه، يا قوم، إنكم إن نزلتم على حكم القوم ذُبحتم كما تُذبح الغنم، اخرُجوا بأسيافكم حتّى تموتوا كراماً إن قتلتم.»
فقالوا:
ـ «قد أمرنا بهذا من كان أطوع عندنا وأنصح لنا منك فعصيناه، أفنحن نطيعك؟»
فأمكنوا القوم من أنفسهم ونزلوا على الحكم. فبعث إليهم مصعبُ عبّاد بن الحصين، فكان يخرج بهم مكتّفين، فأدركتهم الندامة حينئذ، فقتلوا من عند

---

۱. فى الأصل: يا ليتنا إنّا كنّا. فحذفنا «إنّا» لأنها زائدة.

آخرهم.

ذكر كلام لهؤلاء المسلمين واستعطاف حين أحسّوا بالقتل

قال بُجير بن عبدالله المسليّ[١] حين أُتي به مصعب ومعه ناس كثير منهم.

ـ «الحمد لله الذى ابتلانا بالإسار وابتلاك بالعفو، وهما منزلتان، فى إحديهما رضا الله، وفى الأخرىٰ سخطه. من عفا عفا الله عنه وزاده عزّاً، ومن عاقب لم يأمن القصاص، يابن الزبير، نحن أهل قبلتكم وعلى ملتكم ولسنا تركاً ولا ديلماً، خالفنا إخواننا [264] من أهل مصرنا، فإمّا أن نكون أصبنا وأخطأوا، وإمّا أن نكون أخطأنا وأصابوا، فاقتتلنا كما اقتتل أهل الإسلام[٢] بينهم فقد اختلفوا واقتتلوا، ثمّ اصطلحوا واجتمعوا. لقد ملكتم فأسجحوا، وقدرتم فاعفوا.»

فلم يزل بهذا القول ونحوه حتّى رقّ لهم الناس، ورقّ مصعب أيضاً، وأراد أن يخلّي سبيلهم، فقال عبدالرحمان بن محمد بن الأشعث:

ـ «تخلّي سبيلهم يابن الزبير؟ اخترنا، أو اخترهم!»

ووثب محمد بن عبدالرحمان بن سعيد بن قيس، فقال.

ـ «قُتل أبى وخمسمائة من همدان وأشراف العشيرة، ثمّ تخلّى سبيلهم ودماؤنا ترقرق فى أجوافهم، اخترنا أو اخترهم.»

ووثب كلّ قوم وأهل بيت كان أُصيب منهم رجل، فقالوا نحواً من هذا القول. فلما رأى مصعب ذلك، أمر بقتلهم، فنادوه بأجمعهم:

ـ «يابن الزبير، لا تقتلنا، اجعلنا على مقدّمتك إلى أهل الشام غداً، فوالله ما بك ولا بأصحابك عنّا غداً غنىً إذا لقيتم عدوّكم، فإن قُتلنا لم نُقتل حتّى نُرقّهم، وإن ظفرنا بهم كان ذلك لك ولمن معك.»

---

١ المسليّ كذا فى الأصل والطبرى (٨: ٧٤٠) وما فى مط المسلمى.

٢ أهل الإسلام كذا فى الأصل مط، وما فى الطبرى (٨: ٧٤٠): أهل الشام.

فأبى عليهم وتبع رضا أصحابه.

فقال بجير المسليّ:

ـ «إنّ حاجتي إليك ألّا أُقتل مع هؤلاء، إنّي أمرتهم أن يخرجوا [265] بأسيافهم فيقاتلوا حتّى يموتوا كراماً. فعصوني.»

فقدّم ناحية فقُتل.

كلام آخر بنحو آخر من الاستعطاف

ثمّ إنّ مسافر بن سعيد بن نمران قال لمصعب:

ـ «يابن الزبير، ما تقول لله إذا قدمت عليه وقد قتلت أمّة من المسلمين صبراً حكّموك في دمائهم وكان الحقّ في دمائهم ألّا تقتل نفساً مسلمة بغير نفس. فإن كنّا قتلنا عدّة رجال منكم فاقتلوا عدّة من قتلنا منكم وخلّوا سبيل بقيّتنا وفينا رجال كثير لم يشهدوا موطناً من حربنا وحربكم يوماً واحداً كانوا في الجبال والسواد يجبون الخراج ويؤمنون السبل.»

فلم يستمع له. فقال:

ـ «قبح الله قوماً أمرتهم أن يخرجوا ليلاً على حرس سكّة من هذه السكك فنطردهم ثمّ نلحق بعشائرنا، فعصوني حتّى نموت الآن ميتة العبيد. فأنا أسألك ألّا تخلط دمي بدمائهم.»

فقدّم ناحية فقتل. فكان عدد من قتل صبراً ستة آلاف سوى من قتل في المعركة.

توبيخ من عبدالله بن عمر لمصعب على فعله هذا

[266] فلقي مصعب بن الزبير يوماً عبدالله بن عمر، فسلّم عليه. فأعرض عنه ابن عمر، فقال:

ـ «أنا ابن أخيك مصعب.» فقال:

ـ «نعم، أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة فى غداة واحدة. عش ما استطعت!»

فقال مصعب:

ـ «إنهم كانوا كفرة فجرة.»

فقال ابن عمر:

ـ «والله لو قتلت عددهم غنماً من تراث أبيك، لكان ذلك سرفاً.»

كفّ المختار سُمّرت إلى جنب المسجد

ثمّ إنّ مصعباً أمر بكفّ المختار فقطعت، ثمّ سمّرت بمسمار حديد إلى جنب المسجد، فلم يزل على ذلك حتّى قدم الحجاج بن يوسف، فنظر إليها، فقال:

ـ «ما هذه؟» قالوا:

ـ «كفّ المختار.»

فأمر بنزعها.

كتب مصعب إلى ابن الأشتر يدعوه إلى طاعته

وبعث مصعب عمّاله على الجبال والسواد. ثمّ كتب إلى ابن الأشتر يدعوه إلى طاعته ويقول له:

ـ «إن أنت أجبتني ودخلت فى طاعتي، فلك الشام، وأعنّة الخيل، وما غلبت عليه من أرض المغرب ومادام لآل الزبير سلطان.»

وكتب إليه عبدالملك بن مروان من الشام يدعوه إلى طاعته ويقول.

ـ «إن أجبتني ودخلت في طاعتي، فلك العراق.»

فاستشار إبراهيم أصحابه، فاختلفوا عليه، فقال إبراهيم:

ـ «لو لم أكن أصبت عبيدالله بن زياد ورؤساء الشام، لأجبت عبدالملك [267] مع أني لا أختار على أهل مصري مصراً، ولا على عشيرتي عشيرة.»

فكتب إلى مصعب، فأجابه مصعب: أن أقبل، فأقبل إليه، وبعث المهلّب إلى عمله، وهي السنة التي نزل فيها المهلّب على الفرات.

ما جرى على عمرة امرأة المختار

ثمّ إنّ مصعباً بعث إلى عمرة بنت النعمان بن بشير وهي امرأة المختار، فقال لها:

ـ «ما تقولين في المختار؟»

فقالت:

ـ «رحمه الله، كان عبداً من عباد الله الصالحين.»

فرفعها مصعب إلى السجن، وكتب إلى أخيه عبدالله أنها تزعم أنه نبيّ. فكتب إليه أن اقتلها. فأخرجها بعد عتمة، وسلّمها إلى مطر، فضربها ثلاث ضربات بالسيف، فقالت:

ـ «يا أبتاه، يا أهلاه، يا عشيرتاه!»

فسمع بها أبان بن النعمان بن بشير، فلطمه وقال له:

ـ «يابن الزانية، قطعت نفسها قطع الله يمينك.»

ولزمه مطر حتّى رفعه إلى مصعب، فقال:

ـ «إنّ أختي مسلمة.»

وادّعى شهادة بني قفل، فلم يشهد له أحد، فقال مصعب:

ـ «خلّوا سبيله فإنّه رأى أمراً فظيعاً[1].»

---

١. وجاء في الطبري (٨: ٧٤٣): إنّ المصعب بعث إلى أمّ ثابت بنت سمرة بن جندب امرأة المختار، وإلى ←

فقال عمر بن أبي ربيعة:

إنّ من أعجب العجائب عندى ... قتلُ بيضاءَ حُرَّة عُطبولِ[1] [268]
قُتلت هكذا على غير جُرمٍ ... إنّ للّه دَرُّها من قتيلِ
كُتب القتلُ والقتالُ علينا ... وعلى المحصنات جرُّ الذُّيولِ

حصار عبدالله بن خازم رجال بنى تميم بخراسان

وفى هذه السنة كان حصار عبدالله بن خازم مَن كان بخراسان من رجال بنى تميم بسبب مَن قتل منهم ابنه محمّداً. وذلك أنّ بنى تميم تفرّقوا بخراسان أيّام ابن خازم، فأتى قصراً يُعرف بِفَرْتَنا[2] عدّة من فرسان بنى تميم وأنجادهم مثل عثمان بن بشير، وشعبة بن ظهير النهشلى، وورد بن الفلَق، وزهير بن ذؤيب العدوىّ، وجيهان بن مشجعة الضبّىّ، ورقبة بن الحرّ، والحجّاج بن ناشب، فأتاهم ابن خازم فحصرهم، وخندق على نفسه خندقاً حصيناً لئلّا يبيّتوه، فكانوا يخرجون ويقاتلونه ثمّ يرجعون إلى القصر. فخرج ابن خازم يوماً على تعبئة من خندقه فى ستة آلاف، وخرج أهل القصر، فقال عثمان بن بشير:

ـ «لا أظنّ لكم اليوم بهم طاقة. فانصرفوا.»

فقال زهير بن ذؤيب العدوى: امرأته طالق إن رجع حتّى ينقض صفوفهم. وكان إلى جنبهم نهر يدخله الماء فى الشتاء، ولم يكن يومئذ [269] فيه ماء،

←

عمرة بنت النعمان بن بشير وهى امرأة المختار. فقال لهما: «ما تقولان فى المختار؟» فقالت أمّ ثابت: «ما عسينا أن نقول؟ ما نقول فيه إلّا ما تقولون فيه أنتم.» فقالوا لها: «إذهبى.» وأمّا عمرة فقالت «... »

١ العطبول، والعطبل. المرأة الفتيّة الجميلة الممتلئة.

٢ كتب فى هامش الأصل. فرتنا: قرية فى سواد مرو. وجاء فى المراصد: فرناباذ. قرية كبيرة بينها وبين مرو خمسة فراسخ

فاستبطنه زهير، فسار فيه ولم يشعر به أصحاب ابن خازم حتّى حمل عليهم، فحطّم أولهم على آخرهم واستداروا وكرّ راجعاً واتبعوه على جنبتي النهر يصيحون به ولا ينزل إليه أحد حتّى انتهى إلى الموضع الذى انحدر منه، فخرج، وحمل عليهم، فأفرج له القوم حتّى رجع.

فقال ابن خازم لأصحابه:

ـ «إذا خرج إليكم زهير فطاعنتموه فاجعلوا في رماحكم كلاليب، فاعلقوها في أداته ودرعه.»

فالتفت إليه ليحمل عليهم، فعلّقوا رماحهم، فجاء يجرّ[1] أربعة أرماح حتّى دخل القصر، فأرسل ابن خازم إلى زهير:

ـ «أرأيتك إن آمنتك وأعطيتك مائة ألف وجعلت لك باشان[2] طعمة تناصحني؟»

فقال زهير للرسول:

ـ «ويحك! كيف أناصح قوماً قتلوا الأشعث بن ذؤيب؟»

فرجع الرسول فأسقط بها عند موسى بن عبدالله بن خازم. فلما أطال عليهم الحصار، أرسلوا إلى ابن خازم أن:

ـ «خلّنا نخرج فنتفرّق.» فقال:

ـ «لا، إلّا أن تنزلوا على حكمي.» قالوا:

ـ «فإنّا ننزل على حكمك.»

فقال لهم زهير:

ـ «ثكلتكم أمّهاتكم، والله [270] ليقتلنّكم عن آخركم، فإن طبتم بالموت نفساً فموتوا كراماً، أخرجوا بنا جميعاً، فإمّا أن تموتوا جميعاً، وإما أن ينجو بعضكم

---

١. فجاء يجرّ أربعة أرماح: كذا في الأصل. وما في مط: فجاء بأربعة أرماح.

٢. باشان: كذا في الأصل. وما في مط: باسان (مهملة).

ويهلك بعض. وأيم الله، لئن شددتم عليهم شدّة صادقة ليفرجنّ لكم عن مثل طريق البريد، فإن شئتم كنت أمامكم، وإن شئتم كنت خلفكم.»

قال: فأبوا عليه، فقال:

ـ «أما إنى سأريكم.»

ثمّ خرج هو ورقبة بن الحرّ ومع رقبة غلام له تركيّ، وشعبة بن ظهير، فحملوا على القوم، فأفرجوا لهم، فمضوا. فأما رقبة وغلامه وشعبة فمضوا على وجوههم، وأما زهير فرجع إلى أصحابه حتّى دخل القصر، فقال لأصحابه

ـ «قد رأيتم، فأطيعونى.» فقالوا:

ـ «إنّ فينا من يضعف عن هذا ويطمع فى الحياة.» قال.

ـ «أبعدكم الله، لا أكون أجزعكم من الموت.»

ففتحوا القصر، ونزلوا على حكمه، فأرسل إليهم، فقيّدهم، ثمّ حملوا رجلاً رجلاً، فأراد أن يمنّ عليهم، فأبى ابنه موسى وقال:

ـ «والله، لئن عفوت عنهم لأتكئن على سيفى حتّى يخرج من ظهرى.»

فقال له عبدالله:

ـ «أما والله، إنى لأعلم [271] أنّ الغىّ فى ما يأمرنى به.»

فقتلهم جميعاً إلّا ثلاثة: الحجاج بن ناشب ـ كلّمه فيه رجال من بنى تميم كانوا معتزلين من عمرو؛ وحنظلة، وجيهان بن مسجعة، وهو الذى كان ألقى نفسه على ابنه محمد يوم قتل، فقال ابن خازم خلّوا عن هذا البغل الديرج؛ ورجل من بنى سعد، وهو الذى قال يوم لحقوا ابن خازم: انصرفوا عن فارس مضر.

فأما زهير بن ذؤيب، فأرادوا حمله مقيّداً، فأبىٰ وأقبل يحجل[١] فى قيده حتّى جلس بين يديه، فقال له ابن خازم:

---

١ حجل المقيّد: قفز فى مشيه على الرجلين معاً

ـ «كيف شكرك إن أطلقتك وجعلت لك باشان طعمة؟» قال:

ـ «لو لم تصنع بي إلّا حقن دمي لشكرتك.»

فقام ابنه موسى، فقال:

ـ «تقتل الضبع وتترك الذيخ[1]؟ تقتل اللبوءة وتترك الليث؟» قال:

ـ «ويحك! يقتل مثل زهير؟ من لقتال عدوّ المسلمين، من لنساء العرب؟» قال:

ـ «والله لو شركت في دم أخي لقتلتك.»

فقام رجل من بني سُليم إلى ابن خازم، فقال:

ـ «أُذكّرك الله في زهير.»

فقال له موسى:

ـ «إتخذه فحلاً لبناتك!»

فغضب ابن خازم، وأمر بقتله. قال زهير:

ـ «فإنّ لي حاجة. لا تخلط دمي بدماء هؤلاء اللئام، فقد [272] نهيتهم عما صنعوا، وأمرتهم أن يموتوا كراماً، وأن يخرجوا عليكم مصلتين السيوف، والله لو فعلوا لشغلوا بنيّك[2] هذا بنفسه عن طلب الثأر بأخيه.»

وأمر به فنُحّي [ناحية وقتل].

فما أشبه هذا الرأي برأي المختار حتّى كأنّ أحدهما أخذ عن صاحبه، ولعلّ الوقتين كان واحداً، فإنّ الزمان متقارب.

رجوع الأزارقة

وفي هذه الأيام التي شغل فيها الناس بعضهم ببعض، رجعت الأزارقة إلى

١ في هامش الأصل: الذيخ: ولد الذئب من الضبع، والسّمع ولد الضبع من الذئب. ويقال: الذيخ الذئب الجري، ذكر الضّباع الكثير الشعر. والسّمع ولد الذئب من الضبع.

٢. بنيّك: كذا في الأصل. وما في مط: ابنك.

قرب الكوفة، وذلك في سنة ثمان وستين.

وكان عبدالله بن الزبير ردّ أخاه مصعباً على العراق أميراً بعد أن كان عزله بابنه حمزة وظهر من ابنه حمزة خفّة فعزله. فلما ردّ مصعباً، بعث مصعب الحارث بن أبي ربيعة على الكوفة أميراً، وصار هو إلى البصرة، وكانت الأزارقة قد لحقت بفارس وكرمان ونواحي إصبهان بعدما أوقع بهم المهلّب بالأهواز. فلما أشخص المهلّب إلى الموصل كان عمر بن عبيدالله بن معمر على فارس، فانحطّت الأزارقة مع ابن الزبير بن الماحوز على عمر بن عبيدالله. فلقيهم، فقاتلهم قتالاً شديداً، ثمّ ظفر بهم وانهزموا، وتبعهم عمر بن عبيدالله، وكتب بالفتح إلى مصعب، ولحقهم بإصطخر وقد ثبتوا له، فلقيهم وقاتلهم قتالاً شديداً وقتل ابنه. ثمّ إنّه ظفر بهم [273] وقطعوا قنطرة طمستان[1]، وارتفعوا إلى إصبهان وكرمان، فأقاموا بها حتّى اجتبروا[2]، وقووا، واستمدّوا وكثروا.

ثمّ إنهم أقبلوا حتّى مرّوا بفارس، وفيها عمر بن عبيدالله بن معمر، فقطعوا أرضه من غير الوجه الذي كان فيه أخذوا على سابور[3]، ثمّ خرجوا على أرجان، فلما رأى عمر بن عبيدالله أنّ الخوارج قد قطعت أرضه موجّهة إلى البصرة خشي ألّا يحتملها له مصعب، فشمّر في آثارهم مسرعاً حتّى أتى أرجان[4]، فوجدهم حين خرجوا موجّهين إلى الأهواز. وبلغ مصعباً إقبالهم، فخرج، فعسكر بالناس بالجسر الأكبر وقال:

ـ «والله، ما أدري ما الذي أغنى عنّي أن وضعتُ عمر بن عبيدالله بن معمر

---

١. طمستان: في الأصل ومط: طميسان وفي الطبري (٨. ٧٥٤): طمستان وهو الصحيح. وفي ياقوت: طمستان. بلفظ التثنية، كأنه «طم» و «استان» كقولهم. «دهستان» وأمثاله مدينة بفارس

٢ اجتبروا: كذا في الأصل والطبري (٨: ٧٥٤). في حاشية الطبري عن الأصول. احتبروا وفي مط: اجزوا. اجتبر- استغنى بعد الفقر

٣ سابور كذا في مط والطبري. وما في الأصل غير واضح.

٤ أرجان. كذ في الأصل ومط، وما في الطبري (٨: ٧٥٤): أرّجان (بتشديد الراء)

بفارس، وجعلت معه بها جنداً أجرى عليهم أرزاقهم في كلّ شهر، وأوفيهم أعطياتهم في كلّ سنة، وآمر لهم من المعاون كلّ سنة بمثل الأعطيات، فقطع أرضه الخوارج إليّ، وقد أزحت علّته، وقد أمددته بالرجال، وقوّيتهم، والله، لو قاتلهم ثمّ فرّ لكان أعذر له عندي، وإن كان الفارّ غير مقبول العذر، ولا كريم الفعل.»

إقبال الخوارج وعليهم الزبير

وأقبلت الخوارج وعليهم الزبير [274] بن الماحوز حتّى نزلوا الأهواز. فأتتهم عيونهم أنّ عمر بن عبيدالله في أثرهم، وأنّ مصعباً قد خرج من البصرة.

فقام الزبير خطيباً وقال بعد حمد الله:

ـ «أما بعد، فإنّ من سوء الرأي والحين وقوعكم بين هاتين الشوكتين. إنهضوا بنا إلى عدوّنا، فلنلقهم من وجه واحد.»

فسار بهم حتّى قطع بهم الأرض إلى جوخى. ثمّ أخذ على النهروانات، ثمّ لزم شاطئ دجلة حتّى خرج على المدائن، فشنّ بها الغارات، وقتل الولدان والنساء والرجال، وبقر بطون الحبالى وانتهوا إلى ساباط، ففعلوا ذلك، وقتلوا نُباتة[1] بنت أبي يزيد بن عاصم الأزديّ، وكانت من أجمل نساء دهرها، وكانت قرأت القرآن، وهي أفصح امرأة، غشوها[2] بالسيف، قالت:

ـ «ويحكم هل سمعتم بأنّ الرجال كانوا يقتلون النساء؟ ويحكم، هل سمعتم بقتل امرأة؟ ويحكم أتقتلون من لا يبسط إليكم يداً ولا يريد بكم ضرّاً، ولا يملك لنفسه نفعاً؟ أتقتلون مَنْ يُنَشَّأُ في الحِلية وَهُوَ في الخِصامِ غيرُ مبينٍ؟[3]»

فقال رجل منهم:

---

١. بناتة كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨: ٧٥٦): نُباتة

٢. عشوها كذا في مط والطبري. وما في الأصل عشوها عشيه بالسوط ضربه.

٣. س ٤٣ الزخرف: ١٨.

ـ «لو تركتموها!» فقال له آخر:

ـ «أعجبك جمالها [275] يا عدوّ الله! كفرت وافتتنت.»

وانصرف الآخر عنه وتركهم، قال: فظننّا أنه فارقهم، وحملوا عليها فقتلوها.

خروج الحارث بن أبي ربيعة من الكوفة ومعه ابن الأشتر

ثمّ إنّ الناس بالكوفة أتوا الحارث بن أبي ربيعة، فصاحوا إليه وقالوا:

ـ «اخرج، فإنّ هذا عدوّنا قد أظلّ علينا.»

فتقاعد إلى أن أكثروا الصياح فخرج حتّى نزل النخيلة، فأقام بها أياماً.

فوثب إبراهيم بن الأشتر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «أما بعد، فإنّه قد سار إلينا عدوّ ليست له بقيّة، يخيف السبل ويخرّب البلاد، فانهض بنا إليه.»

فأمر بالرحيل، فخرج حتّى نزل دير عبدالرحمان، فأقام فيه حتّى دخل شبث بن ربعيّ، فكلمه بنحو ما كلّمه به ابن الأشتر، فارتحل، ولم يكدّ، فرجز به الناس وكان يلقّب بالقباع:

سارَ بنا القُباعُ سيراً نُكرا يسير يوماً ويُقيم شهرا

فأشخصوه من ذلك المكان. فكلّما نزل بهم منزلاً أقام، يصيح[1] به الناس ويناودونه حول فسطاطه. فلم يبلغ الصراة إلّا في بضعة عشر يوماً وقد انتهى إليها[2] طلائع العدوّ، وأوائل الخيول. فلمّا أتتهم العيون بأن جماعة أهل [276]

---

١. يصيح: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨: ٧٥٩): يضجّ.

٢. إليها: كذا في الأصل وما في مط: إليه.

المصر قد أتوهم[١] قطعوا الجسر بينهم وبين الناس.

فقال إبراهيم بن الأشتر للحارث بن أبي ربيعة:

ـ «اندب معي الناس حتّى أعبر إلى هؤلاء الأكلب فأجيئك برؤوسهم.»

فقال شبث بن ربعيّ، وأسماء بن خارجة، ومحمد بن عمير:

ـ «أصلح الله الأمير، دعهم، فليذهبوا، لا تبدأ بهم.»

وكانوا حسدوا إبراهيم بن الأشتر. فلمّا أتت أيّام اجتمع الناس فقالوا:

ـ «يا أيها الأمير، ما قعودنا بهذا الجسر، فليُعد، ثمّ اعبر بنا إليهم، فإنّ الله سيريك ما تحبّ.»

فأمر بالجسر، فأعيد وعبر الناس إليهم، فطاروا إلى المدائن، فتبعهم المسلمون، فخرجوا، فأتبعهم الحارث بن أبي ربيعة، عبدالرحمان بن مخنف في ستة آلاف ليخرجهم من أرض الكوفة، فإذا وقعوا في أرض البصرة خلّاهم، فاتبعهم حتّى وقعوا في أرض البصرة، ثمّ وقعوا إلى إصبهان، فانصرف عنهم من غير قتال[٢]، ومضوا حتّى نزلوا بعتّاب بن ورقاء بجيّ، وحاصروه. فكان يخرج إليهم فيقاتلهم ولا يطيقهم، وكانت إصبهان يومئذ طعمة لإسماعيل بن طلحة بن مصعب الزبير، فبعث عتّاباً، فصبر لهم عتّاب، فكان يقاتلهم على باب المدينة، ويرمون [277] من السور النشّاب والحجارة. فلمّا طال الحصار ونفدت الأطعمة هلك كراعهم وأصابهم الجهد الجهيد.

ذكر رأي لعتّاب بن ورقاء صحيح

فدعاهم عتّاب بن ورقاء، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

١. أتوهم. في الأصل ومط: أتاهم، وهو خطأ كما لا يخفى.

٢. والعبارة في الطبري (٨: ٧٦١ ـ ٧٦٢): فأتبعهم الحارث بن أبي ربيعة عبدالرحمان بن مخنف في ستة آلاف ليخرجهم من أرض الكوفة، فإذا وقعوا في أرض البصرة خلّاهم، فاتبعهم حتّى إذا خرجوا من أرض الكوفة إلى أصبهان انصرف [فانصرف ـ الحاشية] عنهم ولم يقاتلهم، ولم يكن بينه وبينهم قتال.

ـ «أما بعد، أيها الناس، فإنّه قد أصابكم من الجهد ما ترون. فوالله، إن بقى إلّا أن يموت أحدكم على فراشه، فيجيء أخوه فيدفنه إن استطاع. وبالحريّ أن يضعف عن ذلك، ثمّ يموت هو، فلا يجد من يدفنه ولا يصلّي عليه. فاتقوا الله، فوالله ما أنتم بالقليل الذى تهون شوكتهم، وإنّ فيكم لفرسان أهل المصر وإنكم لصلحاء مَن أنتم منه. اخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم، وبناحياة وقوّة، قبل أن لايستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءته. فقاتل رجل عن نفسه وصبر وصدق، فوالله إنّي لأرجو، إن صدقتموهم، أن يظفركم الله بهم.»

فناداه الناس من كلّ جانب:

ـ «وُفّقت وأصبت، اخرج بنا إليهم.»

فجمع إليه الناس من الليل، وأمر لهم بعشاء كثير، فتعشّى الناس عنده. [278] ثمّ إنه خرج بهم حتّى أصبح على راياتهم، فصبّحهم فى عسكرهم، وهم آمنون أن يُؤتوا فى عسكرهم، فأخلوا لهم حتّى انتهوا إلى الزبير بن الماحوز، فقاتل فى عصابة نزلوا معه حتّى قتل.

وانحازت الأزارقة إلى قطريّ، فبايعوه، فمشوا إلى قطريّ مصلتين للسيوف، فارتحلوا منهزمين، فكان آخر العهد بهم.

ذكر رأى رءاه الأحنف للخوارج وهو يُعَدُّ من سقطاته

يقال: إنّ الخوارج دسّوا إلى الأحنف مَن جلس إليه، وذاكره بهم، فقال:

ـ «إنّ هؤلاء إن ركبوا بنات سحّاج، وقادوا بنات صهّال، ونزلوا اليوم أرضاً وغداً أخرى، فبالحريّ أن يبقوا.»

فلما بلغ ذلك قطريّاً، ذهب وخلّاهم، ومضى نحو كرمان، فأقام بها حتّى اجتمعت إليه جموع كثيرة، وأكل الأرض، واجتبى المال، وقوى، ثمّ أقبل حتّى

أخذ فى أرض إصبهان، ثمّ خرج من شعب ناشط إلى إيذج[١] وأرض الأهواز. والحارث بن أبى ربيعة عامل مصعب على البصرة. فكتب إلى مصعب:

ـ «قد تحدّرت الخوارج إلى الأهواز، وليس لهم إلّا المهلّب.»

فبعث [279] إلى المهلّب، وهو على الجزيرة والموصل وأمره بقتال الخوارج والمسير إليهم، وبعث إلى عمله إبراهيم بن الأشتر. وجاء المهلّب حتّى قدم البصرة، وانتخب الناس وسار بمن أحبّ. ثمّ توجّه نحو الخوارج، وأقبلوا إليه حتّى التقوا بسولاف[٢]، فاقتتلوا بها ثمانية أشهر أشدّ قتال يكون.

ذكر توبيخ للخوارج المهلّب على طريق المكيدة

ثمّ إنه بلغهم أنّ مصعباً قد قتل، ونحن نذكر خبره فى ما بعد، وذلك قبل أن يبلغ المهلّب وأصحابه. فناداهم الخوارج:

ـ «ألا تخبرونا ما قولكم فى مصعب؟» قالوا:

ـ «إمام هدىً.» قالوا:

ـ «هو وليّكم فى الدنيا والآخرة.» قالوا:

ـ «نعم.» قالوا:

ـ «وأنتم أولياؤه أحياءً وأمواتاً.» قالوا:

ـ «نعم.» قالوا:

ـ «فما قولكم فى عبدالملك بن مروان؟» قالوا:

ـ «ذاك ابن اللعين نحن منه برآء إلى الله، هو عندنا أحلّ دماً منكم» قالوا:

ـ «فأنتم منه برآء فى الدنيا والآخرة.» قالوا:

---

١. إيذج: لا نقط فى الأصل ومط. فضبطناه حسب الطبرى (٨- ٧٦٤).

٢. بالضم، ثمّ السكون، وآخره فاء: قرية على غربىّ دجيل من أرض خوزستان قرب مناذر الكبرى (مراصد الاطلاع).

ـ «نعم، كبرائنا منكم.» قالوا:

ـ «وأنتم له أعداء أحياءً وأمواتاً.» قالوا:

ـ «نعم، كعداوتنا لكم.» قالوا:

ـ «فإنّ إمامكم مصعباً قتله عبدالملك، ونراكم ستجعلون غداً عبدالملك [280] إمامكم، وأنتم اليوم تبرّأون منه وتلعنونه.» قالوا:

ـ «كذبتم يا أعداء الله.»

فلما كان من الغد تبيّن لهم قتل مصعب، فبايع المهلّب الناس لعبدالملك بن مروان. فأتتهم الخوارج فقالوا لهم:

ـ «ما تقولون في مصعب؟» قالوا:

ـ «يا أعداء الله، لا نخبركم ما قولنا فيه.» قالوا:

ـ «فقد أخبرتمونا أمس أنه وليّكم في الدنيا والآخرة، وأنكم أولياؤه أحياءً وأمواتاً. فأخبرونا ما قولكم في عبدالملك؟» فقالوا:

ـ «ذاك إمامنا وخليفتنا.»

ولم يجدوا ـ إذ بايعوه ـ من أن يقولوا هذا القول بدّاً. فقالت لهم الأزارقة:

ـ «يا أعداء الله أنتم أمس تبرّأون منه في الدنيا والآخرة، وتلعنونه، وهو اليوم إمامكم وخليفتكم. وقد قتل إمامكم الذى كنتم تولّونه، فأيهما المحقّ، وأيهما المبطل، وأيهما المهتدى، وأيّهما الضالّ؟» فقالوا لهم:

ـ «يا أعداء الله، رضينا بذاك، إذ كان يلى أمورنا، ونرضى بهذا، كما كنّا رضينا بذاك.» قالوا:

ـ «لا والله، ولكنّكم إخوان الشياطين وعبيد الدنيا.» وتشاتموا.

ذكر مسير عبدالملك إلى مصعب

[281] كان لايزال عبدالملك يخرج من دمشق ومصعب من الكوفة. فإذا

تدانيا، هجم الشتاء، فانصرف كلّ واحد إلى مكانه حتّى إذا كان سنة تسع وستين ـ وقد قيل سنة سبعين ـ خرج عبدالملك من دمشق نحو العراق يريد مصعب بن الزبير، فقال له عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق:

ـ «إنّك تخرج إلى العراق وقد كان أبوك وعدني هذا الأمر من بعده، وعلى هذا، جاهدتُ معه وقد كان من بلائي معه ما لم يخفَ عليك، فاجعل لي هذا الأمر من بعدك.»

فلم يجبه إلى شيء من ذلك. فانصرف عمرو إلى دمشق، فغلب عليها. ورجع عبدالملك في أثره وإنّ عمراً اجتمع الناس إليه، فصعد المنبر فخطبهم، وقال بعد حمد الله والثناء عليه:

ـ «أيها الناس إنه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا المنبر، إلّا زعم أنّ له جنّة وناراً يُدخل الجنّة من أطاعه، والنار من عصاه. وإني أُخبركم أنّ الجنة والنار بيد الله، وأنه ليس إليّ من ذلك شيء. غير أنّ لكم عليّ حسن المواساة والعطيّة.»

ثمّ إنّ عبدالملك وعمراً اقتتلا أياماً على باب دمشق [282] وتأدّى الأمر بينهما إلى الموادعة والصلح، وكتبا بينهما كتاباً وآمنه عبدالملك.

فيقال: إنّ عمرو بن سعيد جاء في خيل متقلّداً قوساً، وأقبل حتّى أوطأ فرسه سرادقات عبدالملك، فانقطعت الأطناب وسقط السرادق، ونزل عمرو فجلس وعبدالملك مغضب، فقال لعمرو:

ـ «ياأبا أمية، كأنك تشبّه بتقلّدك هذه القوس بهذا الحيّ من قيس» فقال:

ـ «لا، ولكنّي أتشبّه بمن هو خير منهم: العاص بن أمية.»

ثمّ قام مغضباً والخيل معه حتّى دخل دمشق، ودخل عبدالملك أيضاً دمشق. فبعث إلى عمرو أن.

ـ «أعط الناس أرزاقهم.»

فأرسل إليه عمرو:

ـ «إنّ هذا ليس لك ببلد، فاشخص عنه.»

ذكر استهانة بعدوّ عادت بهلكة

فلما كان بعد أيام، بعث إلى عمرو أن:

ـ «ايتني أخاطبك.»

فلما أتى رسوله عمراً يدعوه، صادف الرسول عبدالله بن يزيد بن معاوية عند عمرو، فقال عبدالله لعمرو:

ـ «يا با أمية، لأنت أحبّ إليّ من سمعي وبصري، وقد أرى هذا الرجل بعث إليك أن تأتيه، وأنا أرىٰ لك ألّا تفعل.» فقال عمرو:

ـ «ولِمَ؟» قال:

ـ «لأنّه يقال: إنّ عظيماً من ولد [283] إسماعيل يغلق أبواب دمشق، ثمّ يخرج منها، فلا يلبث إلّا أن يقتل.» فقال له عمرو:

ـ «والله لو كنت قائماً ما تخوّفت أن لا ينبهني[1] ابن الزرقاء، ولا كان ليجترئ على ذلك منّي.»

رواح عمرو إلى عبدالملك وما جرى عليه

وقال عمرو للرسول:

ـ «أبلغه عنّي السلام وقل له: أنا رائح إليك العشيّة.»

فلما كان العشيّ، لبس عمرو درعاً حصينة بين قباء قوهيّ وقميص، وتقلّد سيفه. فلما نهض متوجّهاً عثر بالبساط، فقال حُميد:

ـ «أما والله لئن أطعتني لم تأته.»

---

۱. أي ينبهني. كذا في الأصل والطبري (۸- ۷۸٦). وما في مط. ينهى وهو خطأ

وقالت له امرأته تلك المقالة، فلم يلتفت ومضى فى مائة رجل من مواليه، وقد بعث عبدالملك إلى بنى مروان، فاجتمعوا عنده. فلما بلغ عبدالملك أنه بالباب، أمر أن يُحبس مَن كان معه، وأذن له. فدخل ولم يزل أصحابه يُحبسون عند كلّ باب حتّى دخل عمرو قعر الدار وليس معه إلّا وصيف له. فرمى عمرو ببصره، فـإذا حوله بنو مروان وفيهم حسّان بن بحدل الكلبي، وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي. فلما رأى جماعتهم أحسّ بالشرّ، فالتفت إلى وصيفه، فقال:

ـ «انطلق ويحك إلى يحيى بن سعيد يعنى أخاه، فقل له يأتني.» [284]

فقال له الوصيف ولم يفهم ما قال له:

ـ «لبّيك.» فقال له:

ـ «أغربْ فى حرق الله وناره.»

وقال عبدالملك لحسّان وقبيصة:

ـ «إذا شئتما، فقوما فالتقيا وعمراً[1] فى الدار.»

فقال عبدالملك لهما كالممازح:

ـ «ليطشنّ عمروا أيّكما أطول؟»

فقال حسّان:

ـ «قبيصة أطول منّى يا أميرالمؤمنين بالإمرة.»

وكان قبيصة على الخاتم، ثمّ التفت عمرو إلى وصيفه، فقال:

ـ «انطلق إلى يحيى، فمره أن يأتينى.» فقال له:

ـ «لبّيك.» ولم يفهم عنه.

فقال له عمرو:

ـ «أغربْ عنّى.»

---

١ ما فى الأصل ومط وفى هامش الطبرى: «وعمرو». فأثبتناه كما فى الطبرى (٨: ٧٨٧): وعمراً

فلما خرج حسّان وقبيصة، أمر بالأبواب فأُغلقت، ودخل عمرو، فرحّب بـه عبدالملك، وقال:

ـ «هاهنا يابا أمية رحمك الله.»

فأجلسه معه على السرير وجعل يحدّثه طويلاً ثمّ قال:

ـ «يا غلام خذ السيف عنه.»

فقال عمرو:

ـ «إنّا لله، يا أميرالمؤمنين.»

فقال عبدالملك:

ـ «أو تطمع أن تجلس معي متقلّداً سيفك!»

فأخذ السيف عنه، ثمّ تحدّثا ما شاء الله، ثمّ قال له عبدالملك:

ـ «يابا أمية!» فقال:

ـ «لبّيك يا أميرالمؤمنين!» فقال:

ـ «إنّك حيث خلعتني آليت بيمين أنى إن ملأت عيني منك وأنا مالك لك، أن أجمعك في جامعة.»

فقال له بنو مروان:

ـ «ثمّ تطلقه [285] يا أميرالمؤمنين؟» قال:

ـ «ثمّ أطلقه. وما عسيت أن أصنع بأبى أميّة.»

فقال بنو مروان:

ـ «أبرّ قسم أميرالمؤمنين.»

قال عمرو:

ـ «فإنّي أبرّ قسم أميرالمؤمنين.»

فأخرج من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه، ثمّ قال:

ـ «يا غلام قم فاجمعه فيها.»

فقام فحمحه فيها، فقال عمرو:

ـ «أذكّرك الله يا أميرالمؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس.» فقال عبدالملك:

ـ «أمكراً يابا أمية وأنت في الحديد! لاها الله، ما كنّا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس ولا نخرجها منك إلّا صعداً[1].»

ثمّ اجتبذه اجتباذة أصاب فمه منها السرير فكسر ثنيّته. فقال عمرو:

ـ «أذكّرك الله يا أميرالمؤمنين، أن يدعوك كسر عظم منّي إلى أن تركب ماهو أعظم منه.»

فقال له عبدالملك:

ـ «والله لو أعلم أنّك تبقّى عليّ أو تفي لي وتصلح قريش لأطلقتك، ولكن ما اجتمع رجلان في بلدة على مثل ما نحن عليه إلّا أخرج أحدهما صاحبه.»

فلما رأى عمرو ما يريد قال:

ـ «أغدراً يابن الزرقاء؟»

وأذّن المؤذّن العصر، فخرج عبدالملك يصلّي بالناس، وأمر عبدالعزيز بن مروان بقتله. فقام إليه عبدالعزيز بالسيف، فقال: [286] له عمرو:

ـ «أذكّرك الله والرحم، دعني يتولّ قتلي من هو أبعد رحماً منك.»

فألقى عبدالعزيز السيف، وجلس وصلّى عبدالملك صلاة خفيفة، ودخل وغُلّقت الأبواب. ورأى الناس عبدالملك حيث خرج وليس معه عمرو، فذكروا ذلك ليحيى بن سعيد، فأقبل في الناس حتّى حلّ بباب عبدالملك ومعه ألف عبد لعمرو وأُناس من أصحابه كثير، فجعل مَن معه يصيحون:

ـ «أسمعنا صوتك يابا أمية!»

---

١ صعداً: كذا في الأصل وفي مط: سعيداً. وهو خطأ.

وأقبل مع يحيى جماعة فكسروا باب المقصورة، وضربوا الناس بالسيوف، فضُرب الوليد بن عبدالملك ضربة على رأسه، واحتمله إبراهيم بن عربيّ صاحب الديوان، فأدخله بيت القراطيس. ولما دخل عبدالملك داره وجد عمراً حيّاً بعد فقال لعبدالعزيز:

ـ «ما منعك من قتله؟» قال:

ـ «إنّه ناشدني الله والرحم، فرققت له.»

فقال عبدالملك:

ـ «أخزى الله أُمّك البوّالة على عقبها[1] فإنّك لم تُشبه غيرها.»

ولم يكونا من أُم واحدة.

ثمّ قال عبدالملك:

ـ «يا غلام ائتني بالحربة.»

فأتاه بها فهزّها، ثمّ طعنه بها [287] فلم تجزْ[2]، ثمّ ثنّى فلم تجزْ. فضرب بيده إلى عضد عمرو، فوجد مسّ الدرع، فضحك، ثمّ قال:

ـ «ودارع أيضاً إن كنت لمُعِدّاً. يا غلام ايتني بالصمصامة.»

فأتاه بسيفه، ثمّ أمر بعمرو، فصرع وجلس على صدره، فذبحه وهو يقول:

يا عمرو إن لا تَدَعْ شَتْمي ومنقصتي أضربْكَ حيثُ تقول الهامةُ اسقوني

وانتفض عبدالملك رِعدة فوضع على سريره.

ودخل يحيى بن سعيد ومن معه على بني مروان، فخرجوا هم ومن معهم من مواليهم، فقاتلوا يحيى وأصحابه. وقام عبدالعزيز، فأخذ المال في البدور، وجعل

---

١. عقبها كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨، ٧٩٠): عقبيها.

٢. فلم تجزّ (في كلا الموضعين): كذا في الأصل. وما في مط: لم تجر. وفي الطبري: لم تجز

يلقيها إلى الناس. فلما نظر الناس إلى الأموال ورأوا رأس عمرو، وكان أُلقى إليهم، تفرّقوا وانتهبوا المال. ثمّ أمر عبدالملك بعد ذلك بتلك الأموال، فجُبيت حتّى عادت كلّها إلى بيت المال.

وفقد عبدالملك ابنه الوليد، فجعل يقول:

ـ «ويحكم أين الوليد؟ وأبيهم لئن كانوا قتلوه لقد أدركوا ثأرهم.»

فأتاه إبراهيم بن عربيّ، وقال:

ـ «هذا الوليد عندى ليس به [288] بأس.»

ثمّ أُتى عبدالملك بيحيى بن سعيد، فأمر بقتله، فقام إليه عبدالعزيز فقال:

ـ «جعلنى الله فداءك يا أميرالمؤمنين. أ تراك قاتلاً بنى أمية فى يوم واحد؟»

فأمر به فحبس. وأتى عبدالملك بجماعة منهم فحبسهم[1]، وكان همّ بقتلهم، فأشير عليه أن يسيّرهم إلى عدوّه، فإن هم قُتلوا، كُفى أمرهم، وإن سلموا رأيت رأيك، ولا يكون قد آثرت على نفسك قوماً هم اليوم معك.

فألحقهم بمصعب. فلما قدموا عليه ودخل إليه يحيى بن سعيد، قال له ابن الزبير:

ـ «أفلتَّ وانحصّ الذنب[2].» فقال:

ـ «والله إنّ الذنب لَبِهُلْبِه[3].»

ذكر سبب العداوة والشحناء
بين عبدالملك وبين عمرو بن سعيد

كان الشرّ بينهما قديماً، لأنّ أبنى سعيد وابنى مروان أعنى: محمد بن سعيد

١ أنظر الطبرى (٨: ٧٩٢).

٢ انحصّ: انقطع. وذلك مثل يُضرب لمن يشرف على الهلكة، ثمّ يفلت منها

٣. الهُلْب: الشعر كلّه. أو: ما غلظ منه وخشن كشعر ذنب الناقة. أو. شعر الذنب وحده.

وعمرو بن سعيد؛ ومعاوية بن مروان، وعبدالملك بن مروان، كانوا وهم غلمان لايزالون يأتون أمّ مروان بن الحكم الكنانيّة يلعبون عندها. فكانت تصنع لهم الطعام، ثمّ تأتيهم به وتضع بين يدى كلّ واحد صحفة على حدة، ثمّ تؤرّش[1] بين معاوية [289] بن مروان وبين محمد بن سعيد وبين عبدالملك بن مروان وعمرو بن سعيد، فيقتتلون، وربما تصارموا الحين لايكلّم بعضهم بعضاً. فكان ذلك دأبها كلّما أتوها حتّى ثبتت الشحناء فى صدورهم على الصبى، ثمّ نشأت تلك العداوة معهما.

فذُكر أنّ خالد بن يزيد بن معاوية قال لعبدالملك ذات يوم:

ـ «عجب منك ومن عمرو بن سعيد كيف أصبت غرّته فقتلته!»

فقال عبدالملك:

أدنيتُه منّى ليسكُنَ ذُعرُهُ فأصولَ صولةَ حازم مستمكنِ

ثمّ إن ولد عمرو بن سعيد دخلوا على عبدالملك بعد الجماعة وهم أربعة: أمية، وسعيد، وإسماعيل، ومحمد. فلما نظر إليهم عبدالملك، قال:

ـ «إنكم أهل بيت لم تزالوا ترون أنّ لكم على جميع قومكم فضلاً لم يجعله الله لكم، وإنّ الذى كان بينى وبين أبيكم لم يكن حديثاً، بل كان قديماً فى أنفس أوّليكم على أوّلينا فى الجاهليّة.»

فأقطع بأميّة بن عمرو وكان أكبرهم سنّاً وأنبلهم وأعقلهم، فلم يتكلّم بشىء. فقام سعيد بن عمرو، وكان الأوسط، فقال: [290]

١ أرّش بينهم: أفسد وأغرى بعضهم ببعض.

ذكر كلام نفع عند سلطان حقود[١]

ـ «يا أميرالمؤمنين، ما تبغى علينا أمراً كان فى الجاهليّة، وقد جاء الله بالإسلام فهدم ذلك، ووعد جنّة، وحذّر ناراً. فأما الذى بينك وبين عمرو، فإنّ عمراً ابن عمّك، وأنت أعلم وما صنعت، وقد وصل عمرو إلى ربّه وكفى بالله حسيباً. ولعمرى لئن أخذتنا بما كان بينك وبينه لبطن الأرض خير لنا من ظهرها.»

فرقّ لهم عبدالملك رقّة شديدة، وقال:

ـ «إنّ أباكم خيّرنى بين أن أقتله أو يقتلنى، فاخترت قتله على قتلى. فأما أنتم فما أرغبنى فيكم، وأوصلنى لقرابتكم، وأرعانى[٢] لحقّكم.»

فأحسن جائزتهم.

مسير عبدالملك إلى العراق لحرب مصعب

ثمّ سار عبدالملك من الشام إلى العراق لحرب مصعب وذلك فى سنة سبعين. وكان قال له خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد:

ـ «إن وجّهتنى إلى البصرة مستخفياً فى مواليّ وأتبعتنى خيلاً يسيرة، رجوت أن أغلب لك عليها.»

فأنفذه عبدالملك، فقدمها فى مواليه، ونزل [291] على عمرو بن أصمع، ولم يتمّ له ما أراد، وعُلم به، فهرب بعد أن أثار فتنة، وقاتل مدّة. وبادر مصعب إلى البصرة، فوجد خالداً قد خرج بمن معه، فأتبعه بخداش بن يزيد، فأدرك مُرّة بن محكان، فأخذه وقتله.

وكتب عبدالملك إلى المروانيّة من أهل العراق، فأجابه كلّهم، وشرط كلّ واحد

---

١. كذا فى الأصل: «فقال:» ثمّ العنوان، ثمّ «يا أميرالمؤمنين».

٢. أرعانى: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: أرجانى. وهو خطأ

ولاية إصبهان، فأنعم بها لهم. منهم: حجّار بن أبجر، وعتّاب بن ورقاء، والغضبان بن القبعثري، وزحر بن قيس، ومحمد بن عمير، وغيرهم.

وسار عبدالملك وعلى مقدمته محمد بن مروان، وعلى ميمنته عبدالله بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد. وسار مصعب وقد خذله أهل الكوفة، وأشار رؤساء أهل الشام على عبدالملك أن يقيم ويقدّم الجيوش، فإن ظفروا، فذاك. وإن لم يظفروا أمدّهم بالجيوش خشية على الناس، وإن أُصيب في لقائه مصعباً لم يكن وراءه ملك.

فقال عبدالملك:

ـ «لايقوم بهذا الأمر إلّا قرشيّ له رأى، ولعلّى أبعث من له شجاعة وليس له رأى، وإنّى أجد فى نفسى [292] أنّى بصير بالحرب، شجاع بالسيف إن أُلجئت إليه، ومصعب فى بيت شجاعة، أبوه شجاع قريش وهو شجاع ولا علم له بالحرب، ومعه من يخالفه، ومعى من ينصح لى.»

فسار عبدالملك حتّى نزل مسكن، وسار مصعب إلى باجُمَيرا[1]، وكتب عبدالملك إلى أهل العراق، فأقبل إبراهيم بن الأشتر بكتاب عبدالملك مختوماً لم يقرأه، فدفعه إلى مصعب، فقال له مصعب:

ـ «ما فيه؟» قال:

ـ «ما قرأته.»

فقرأه، فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فقال لمصعب:

ـ «إنّه والله ما كان أحد آيس منه منّى. ولقد كتب إلى أصحابك كلّهم بمثل ما كتب إليّ. فأطعنى فيهم واضرب أعناقهم.» قال:

ـ «إذاً لا يناصحنا عشائرهم.» قال:

---

١. فى الأصل غير وصح وهى مط: باحمرا. فأثبتنا ما فى الطبرى (٨: ٨٠٥): باجُمَيرا. وفى حاشيته عن الأصول: باحميرا، باحمرا، باحميراء، باحميراه. قال ياقوت: باجُميرى موضع دون تكريت.

ـ «فأوقرهم حديداً وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هنالك، ووكّل بهم من إن غُلبت، ضرب أعناقهم، وإن غَلبت مننت بهم على عشائرهم.» فقال:

ـ «يابا النعمان، أنا لفي شغل عن ذلك، يرحم الله أبا بحر، إن كان ليحذّرني غدر أهل العراق، كأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه.»

وتمثّل مصعب:

وإنّ الأُولى بالطفّ من آل هاشم تأسّوا[1]، فسنُّوا للكرام التـأسّيا

[293] فعلم الناس أنه قد استقتل.

مقتل إبراهيم الأشتر

ولمّا تدانى العسكران تقدّم إبراهيم بن الأشتر، فحمل على محمد بن مروان فأزاله عن موضعه، وهرب، فوجّه عبدالملك عبدالله بن يزيد بن معاوية، والتقى القوم، فقتل إبراهيم بن الأُشتر، وقتل مسلم بن عمرو الباهليّ، وهرب عتّاب بن ورقاء، وكان على الخيل مع مصعب. فقال مصعب لقطن بن عبدالله الحارثيّ:

ـ «أبا عثمان قدّم خيلك.» قال:

ـ «ما أرى ذلك.» قال:

ـ «ولِمَ؟» قال:

ـ «أكره أن تُقتل مذحج في غير شيء.»

فقال لحجّار بن أُسيد:

ـ «قدّم رايتك.» قال:

---

١ كذا في الأصل ومط والطبري (٨: ٨٠٤): تأسّوا ـ التأسّيا

ـ «إلى هذه المفرة؟» قال:

ـ «ما تتأخّر إليه، والله أنتن وألأم.»

وقال لعبدالرحمان بن سعيد بن قيس مثل ذلك. فقال:

ـ «ما أرى أحداً فعل ذلك فأفعله.»

فقال مصعب:

ـ «يا إبراهيم، ولا إبراهيم لي اليوم.»

ولما أُخبر ابن خازم وهو بخراسان مسير مصعب إلى عبدالملك، قال:

ـ «أمعه عمر بن عبيدالله؟» قيل:

ـ «لا، استعمله على فارس.» قال:

ـ «أ معه[1] المهلّب؟» قيل:

ـ «استعمله على الموصل.» قال:

ـ «أ معه عبّاد بن الحصين؟» قيل:

ـ «لا، استخلفه على البصرة.» فقال:

ـ «وأنا بخراسان.» ثمّ تمثّل: [294]

خُذيني، فجُرّيني ضَباعِ[2] وأبشري   بلحم امرئٍ لم يشهدِ اليومَ ناصرُه

وقال مصعب لابنه عيسى بن مصعب:

ـ «يا بنيّ اركب أنت ومن معك إلى عمّك بمكة، فإنّي مقتول.» وأخبره بما صنع أهل العراق.

فقال ابنه:

---

١. وفي مط: أمعه.

٢. ضباع: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨: ٧-٨): جَعارِ

ـ «والله لا أُخبر قريشاً عنك أبداً، ولكن الحق أنت بالبصرة فإنّهم على الجماعة، أو [الحق] [1] بأميرالمؤمنين.»

فقال مصعب [2] :

ـ «لا والله، لا أفرّ، ولكن أُقاتل. فلعمرى ما السيف بعار وما الفرار لي بعادة.»

مقتل مصعب بن الزبير وابنه عيسى بن مصعب

ثمّ أرسل عبدالملك إلى مصعب مع أخيه محمد بن مروان:

ـ «إنّ ابن عمّك يعطيك الأمان.»

فقال مصعب:

ـ «إنّ مثلى لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلّا غالباً أو مغلوباً.»

فلما أبى مصعب قبول الأمان، نادى محمد بن مروان عيسى بن مصعب وقال:

ـ «يابن أخي، لا تقتل نفسك، لك الأمان.»

فقال له مصعب:

ـ «قد آمنك عمّك، فامض إليه.»

قال:

ـ «لا تحدّثُ نساء قريش أنّى أسلمتك [للقتل] [3].»

وتقدّم بين يدى مصعب، فقاتل حتّى قتل، وأُثخن مصعب، ونظر إليه زائدة بن قدامة، فشدّ عليه، فطعنه، وقال:

---

١. ما بين [ ] تكملة من الطبرى.

٢. وما في الطبرى (٨. ٨٠٧): قال مصعب. والله لا تتحدّث قريش أنى هربت بما صنعت ربيعة من خذلانها حتّى أدخل الحرم منهزماً، ولكن أُقاتل. فإن قُتلت فلعمرى ما السيف بعار، وما الفرار لي بعادة ولا خلق ولكن إن أردت أن ترجع فارجع. فرجع فقاتل حتّى قُتل.

٣. ما بين [ ] تكملة من الطبرى.

ـ «يالثارات المختار.»

فصرعه، ونزل إليه عبيدالله بن زياد بن ظبيان، فاحتزّ رأسه، فأتى بـه [295] عبدالملك، فأمر له بألف دينار، فأبىٰ أن يأخذه، وقال:

ـ «إنّي لم أقتله على طاعتك. إنما قتلته على وتر صنعه بي.»

يعني بذلك أخاه، لأنّ مصعباً أُتي بالنابئ بن زياد بن ظبيان ورجل من بـنى نمير قد قطعا الطريق، فقتل النابئ وضرب النميرى بالسياط وتركه.

وحدّث ابن عباس عن أبيه قال: إنّا لوقوف مع عبدالملك وهو يحارب مصعباً إذ دنا منه زياد بن عمرو، فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، إنّ إسماعيل بن طلحة كان لي جار صدق، وقلّ ما أرادنى مصعب بسوء إلّا دفعه عنّي. فإن رأيت أن تؤمنه على دمه.» قال:

ـ «وهو آمن.»

فمضى زياد، وكان ضخماً وعلى ضخم حتّى صاح بين الصفّين:

ـ «أين أبو النحترى[1] إسماعيل بن طلحة؟»

فخرج إليه، فقال:

ـ «إنّي أُريد أن أذكر لك شيئاً.»

فدنا حتّى اختلفت أعناق دوابّهما، وكـان النـاس يـتنطّقون بـالحواشـي[2] المحشوّة. فوضع زياد يده فى منطقة إسماعيل، ثمّ اقتلعه عن سرجه وكان نحيفاً، فقال:

ـ «أنشدك الله يا أبا المغيرة، فإنّ هذا ليس بالوفاء لمصعب.» فقال:

ـ «هذا أحبّ إليّ لك من أن أراك غداً مقتولاً.»

ولما قُتل مصعب [296] وابنه عيسى، قال عبدالملك:

---

١. النحترى: كذا في الأصل. وفى مط: التحرى. وما فى الطبرى (٨-٨٠٨): البختري.

٢. بالحواشي: كذا في الأصل والطبرى. وما فى مط: الجوشن.

ـ «واروه. فقد كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكنّ هذا الملك عقيم.»

وكان عبدالملك ومصعب يتحدّثان إلى حُبَّى، وهما بالمدينة. فلمّا قيل لها: قُتل مصعب، قالت:

ـ «تعس قاتله.» قيل:

ـ «فإنّما قتله عبدالملك.» قالت:

ـ «بأبى القاتل والمقتول.»

وقد رُوى أنّ مقتل مصعب والحرب بينه وبين عبدالملك كان فى سنة اثنتين وسبعين.

ومن المقامات المشهورة

مقام[1] تقدّم فيه رجل بالأدب

لمّا دخل عبدالملك الكوفة، وجاءته القبائل تبايعه، خاطب كلاًّ بما بسطه حتّى تقدّم إليه عَدْوان. قال معبد بن خالد الجدلى: فقدّمنا رجلاً وسيماً جميلاً، وتأخّرتُ ومعبد كان دميماً.

فقال عبدالملك: «مَن؟»

فقال الكاتب: «عَدْوان.»

فقال عبدالملك:

غَـــذِيرُ الحَـــىِّ مِـــن عَـــدْوا نَ كـــانُوا حَـــيَّةَ[2] الأرضِ
بَـــغَى بَـــعضُهُمُ بَـــعْضاً فَلَمْ يَرْعَوا على بَعضٍ [297]

---

١. فى الأصل ومن المقامات المشهورة «ذكر» مقام تقدم فيه رجل بالأدب فحذفنا كلمة «ذكر» وما فى مط: بدون «ذكر».

٢ فى الأصل حيّة. كما فى الطبرى (٨. ٨١٥) وما فى مط: جنة.

ومـــــنهم كـــانت الســــادا تُ والمـــــوفون بـــالقرضِ

ثمّ أقبل على الرجل، فقال:

ـ «إيه.» فقال:

ـ «لا أدرى.» فقلت من خلفه:

ومـــنهم حَكَـــمٌ يــقضى فـــلا يُــنقَضُ مــا يــقضى
ومنهم مَن يــجيز الحَــجْـ ـجَ[1] بـالسُنَّةِ والفــرضِ
وهم مَن ولَـدوا أشـبَوا[2] بِســرّ الحسب المــحضِ

قال: فتركني عبدالملك، ثمّ أقبل على الجميل فقال:

ـ «من يقول هذا؟» قال:

ـ «لا أدرى.» فقلت من خلفه:

ـ «ذو الإصبع.»

ـ «فأقبل على الجميل، فقال:

ـ «لِمَ سُمّى ذا الإصبع؟» فقال:

ـ «لا أدرى.» فقلت من خلفه[3]:

ـ «لأن إصبعه قطعت يوم الكُلاب.[4]»

١. الحجّ: كذا فى الأصل فككنا الإدغام فى إثبات البيت، لكون مفصل المصراعين بين الجيمين.
٢. من ولدوا أشبو: كذا فى الأصل. وما فى الطبرى (٨: ٨١٥): مُذ وُلدوا شبّوا. أشبى الرجل. ولد به ولد ذكى، فهو مشبيّ ومُشْبٍ.
٣. فى مط: من حلقه (بالقاف!) وهو خطأ تكرر فى المواطن الآتية أيضاً.
٤. الضبط من الأصل: الكُلاب.

فقال للجميل:

ـ «وما اسمه؟» فقال:

ـ «لا أدرى.» فقلت من خلفه:

ـ «حُرثان بن الحارث.»

فأقبل على الجميل فقال:

ـ «من أيّكم كان؟» قال:

ـ «لا أدرى.» فقلت من خلفه:

ـ «من بنى تاج»، وهو يقول:

أسعِد بنى تاج وسعيَك بينهم فلا تُتبِعَنْ[1] عينيك مَن كان هالكا

إذا قلتُ معروفاً لأُصلحَ بينهم يقول وُهيبٌ: لا أُصالحُ ذلكا [298]

فأضحى كظَهر العير جُبٌّ سنامُه يُطيف به الولدان أحدَبَ باركا

ثمّ أقبل على الجميل، فقال:

ـ «كم عطاؤك؟» فقال:

ـ «سبعمائة.»

وقال لى:

ـ «فى كم أنت؟» قلت:

ـ «فى ثلاثمائة.»

فأقبل على الكاتبين فقال:

ـ «حُطّا من عطاء هذا أربعمائة، وزيداها فى عطاء هذا.»

---

١ فلا تتبعن. كذا فى الأصل والطبرى، وما فى مط: فلا تبغنى!

فرجعت وأنا في سبعمائة وهو في ثلاثمائة.

ثمّ فرّق عبدالملك عمّاله ولم يف لأحد شرط عليه ولاية إصبهان

وفي هذه السنة، وجّه عبدالملك بن مروان الحجّاج بن يوسف لحرب عبدالله بن الزبير.

توجيه عبدالملك بن مروان الحجّاج بن يوسف لحرب عبدالله بن الزبير

وكان السبب في توجيهه دون غيره أنّ عبدالملك لمّا أراد الرجوع إلى الشام، قام الحجاج بن يوسف، فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، إنّي رأيت في منامي أني أخذت عبدالله بن الزبير فسلخته، فابعثني إليه، وولّني قتاله»

فبعثه في جيش من أهل الشام كثيف. فخرج ولم يعرض للمدينة، وسلك طريق العراق، فنزل بالطائف، وكان يبعث البعوث فيقتتلون هناك. فكلّ ذلك تُهزم خيل ابن الزبير، وترجع خيل الحجّاج بالظفر.

ثمّ كتب الحجّاج إلى عبدالملك [299] يستأذنه في دخول الحرم عليه وحصاره، وأخبره أنّ شوكته قد كلّت وتفرّق عنه أصحابه. فأذن له. وكتب عبدالملك إلى طارق بن عمرو يأمره أن يلحق بمن معه من الجند، بالحجّاج وكان بالبصرة والياً عليها، فسار في خمسة آلاف من أصحابه حتّى لحق بالحجّاج وذلك في شعبان سنة اثنتين وسبعين.

حصر ابن الزبير ومقتله

فلما دخل ذوالقعدة، رحل الحجّاج من الطائف حتّى نزل بئر ميمون، وحصر ابن الزبير، وقدم عليه طارق لهلال ذي الحجّة، ولم يطف بالبيت، ولم يصل إليه،

وكان يلبس السلاح، ولا يقرب النساء ولا الطيب. إلى أن قتل ابن الزبير ولم يحجّ ابن الزبير ولا أصحابه في هذه السنة لأنهم لم يقفوا بعرفة.

وحجّ الحجّاج بالناس في هذه السنة، ثمّ حصر ابن الزبير ثمانية أشهر، ونصب المجانيق على البيت. فلما رمى البيت رعدت السماء وعلا صوت الرعد والبرق صوت الحجارة، فأعظم ذلك أهل الشام وأمسكوا أيديهم. فرفع الحجّاج برقة[1] قبائه فغرزها في منطقته، ورفع الحجر فوضعه في المنجنيق، ثمّ مدّه وقال لأصحابه:

ـ «إرموا!» [300]

ورمى معهم. فلما أصبحوا جاءت صاعقة تتبعها أخرى، فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً. فانكسر أهل الشام، فقال الحجّاج:

ـ «يا قوم، لا تنكروا ذلك، فإنّي ابن تهامة وهذه صواعقها، وهذا الفتح قد حضرنا، فأبشروا، إنّ القوم سيصيبهم مثل ما أصابكم.»

فصعقت من الغد، فأصيب من أصحاب ابن الزبير عدّة. فقال الحجّاج:

ـ «ألا ترون أنهم قد أصيبوا وأنتم على الطاعة وهم على الخلاف؟»

فتفرّق عامّة من كان مع الزبير، وخرجوا إلى الحجّاج في الأمان حتّى بلغ عدّة المستأمنة عشرة آلاف. وكان في من خرج إلى الحجّاج ابنا عبدالله ابن الزبير: حمزة وخُبيب، بعد أن أخذا أماناً لأنفسهما.

فدخل على أمّه أسماء بنت أبي بكر، فقال:

ما قالته لابن الزبير أمّه أسماء بنت أبي بكر

«يا أمّه، قد خذلني الناس حتّى ولدي وأهلي، فلم يبق إلّا اليسير، من ليس

---

١ في الأصل: برقّة (برقة؟). وفي مط: ترقة. وفي الطبري (٨٤٥٠٨): بزكة وفي حواشيه: برقة.

عنده من الدفع إلّا صبر ساعة. والقوم يعطونني من الدنيا، فما رأيك؟» فقالت

ـ «أنت والله يا بنيّ أعلم بنفسك. إن كنت تعلم أنّك على حقّ فامض له، فقد قُتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك تلعّب[1] بها غلمان بني أميّة، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت. أهلكت [301] نفسك، ومن قتل معك. فإن قلت: إنّي كنت على حقّ، فلما وهن أصحابي، ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن.»

فدنا ابن الزبير، فقبّل رأسها، وقال:

ـ «هذا رأيي، ولكنّي أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرة. فانظري يا أمّه، إنّي مقتول من يومي هذا، فلا يشتدّ حزنك، وسلّمي لأمر الله، فإنّ ابنك لم يتعمّد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة، ولم يجُر في حكم، ولم يتعمّد ظلم مسلم ولا معاهد. اللّهمّ، إنّي لا أقول هذا تزكية لنفسي، ولكن تعزية لأمّي لتسلو عنّي.»

فقالت أمّه:

ـ «إنّي لأرجو أن يكون عزائي فيك حسناً. اخرجْ، حتّى أنظر إلى ما يصير أمرك.» قال:

ـ «يا أمّه، لا تدَعي لي الدعاء قبل وبعد.» قالت:

ـ «لا أدَعه أبداً.»

ثمّ قالت:

ـ «اللّهمّ ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكّة وبرّه بأبيه وبي. اللّهمّ إنّي قد أسلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبدالله ثواب الشاكرين الصابرين.»

ثمّ دنا عبدالله فقبّلها، فقالت:

---

١ وفي مط: تلعّب.

ـ «هذا وداع فلا تبعد.»

وكان [302] عليه الدرع. فلمّا عانقها وجدت مسّ الدرع، فقالت:

ـ «ما هذا صنيع[1] من يريد ما تريد.» قال:

ـ «ما لبسته إلّا لأشدّ منكِ.» قالت:

ـ «فإنّه لا يشدّ منّي.»

ـ فنزعها، ثمّ أدرج كمّيه، وأدخل أسفل قميصه وجبّة خزّ عليه في أسفل المنطقة، وهو يقول:

إنّي إذا أعرفُ يومي أصبِرُ إذ بعضُهُم يعرفُ ثُمَّ يُنكِرُ

قال بعضهم. والله لقد رأيت ابن الزبير يخرج وقد كثره الناس، فيحمل فلا يبقى بين يديه أحد، وينهزم الناس، فيقف بالأبطح ما يدنو منه أحد، حتّى ظننت أنّه لا يقتل.

وكان الحجّاج وطارق بن عمرو جميعاً في ناحية الأبطح إلى المروة والبابين، لكلّ طائفة منهم باب. فمرّة يحمل عبدالله بن الزبير في هذه الناحية ومرّة في هذه الناحية ولكأنّه أسد في أجمة. ما يقدم عليه الرجال فيعدو في أثرهم، ثمّ يصيح.

ـ «أبا صفوان، ويل أمّة فتحاً لو كان له رجال.

لو كان قِرني واحداً كُفيتُه.»

فقال أبو صفوان:

---

١ وفي مط صنع

ـ «إي والله وألف.»

فلما كان يوم الثلاثاء، وقد أُخذت علينا الأبواب، أذّن المؤذّن فصلّى بأصحابه، وقرأ نون والقلم[1] [303] حرفاً حرفاً، ثمّ سلّم وقام وحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «إكشفوا وجوهكم حتّى أنظر.»

وعليهم المغافر والعمائم. فكشفوا وجوهم فقال:

ـ «يا آل الزبير، لو طبتم لي نفساً عن أنفسكم كنّا أهل بيت من العرب اصطُلمنا، لم تصبنا ربّانيّة[2]. أما بعد، يا آل الزبير، فلا يرعكم وقع السيوف، فإنّي لم أحضر موطناً قطّ إلّا ارتُثثت[3] فيه بين القتلى، وما أجد من دواء جراحها أشدّ مما أجد من ألم وقعها. صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، لا أعلم امرأً كسر سيفه واستبقى نفسه، فإنّ الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة. غضّوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كلّ امرئ منكم قرنه، ولا يلهينّكم السؤال عني. فلا تقولنّ: أين عبدالله بن الزبير؟ ألا[4] من كان سائلاً فإنّي في الرعيل الأول. إحملوا على بركة الله.»

ثمّ حمل حتّى بلغ الحجون، فرُمي بآجرّة، فأصابت في وجهه، فأُرعش لها، ودمي وجهه. فلما وجد سخونة الدم تسيل على وجهه ولحيته، قال:

فلسنا على الأعقاب تدمى كُـلُومُنا   ولكن على أقدامنا نقطر الدّما [304]

---

١ س ٦٨ القلم ١

٢ ربّانيّة: كذا في الأصل. سقطت من مط من قوله «لو طبتم» إلى «أما بعد» وسقطت كلمة «ربانيّة» أيضاً وفي الطبري (٨: ٨٥٠): ربّاء بتّة. وفي حاشيته: ربانيّة، ربّاء بتّة.

٣ ارتثثت: كذا في الأصل. وفي مط: ارتثت. وفي الطبري: «ارتُثّ فيه من القتلى» بدل «ارتثثت فيه بين القتلى».

٤ في الأصل: إلّا. فأثبتناها: ألا. كما في مط والطبري.

وتمثّل أيضاً[١]:

عن أيّ يوميَّ من الموتِ أفِرّ أيومَ لم يُقدَرْ، أم يومَ قُدِر

وصاحت مولاة لآل الزبير مجنونة:

ـ «وا أمير المؤمنيناه!»

فأشارت لهم إليه، فقُتل.

وجاء الخبر إلى الحجّاج، فسجد وجاء هو وطارق حتّى وقفا عليه، فقال طارق:

ـ «ما ولدت النساء أذكر من هذا.»

فقال الحجّاج:

ـ «أتمدح من يخالف طاعة أميرالمؤمنين؟» قال:

ـ «نعم، هو أعذر لنا، ولولا هذا ما كان لنا عذر. إنّا لمحاصروه وهو في غير خندق ولا حصن ولا منعة منذ سبعة أشهر، ينتصف منّا بل يفضل علينا في كلّ ما التقينا.»

فبلغ كلاهما عبدالملك، فصوّب طارقاً.

ثمّ دخل الحجّاج مكّة، فبايع من بها من قريش، وبعث برأس ابن الزبير وجماعة من أهله إلى المدينة، فنُصبت بها، ثمّ ذهب بها إلى عبدالملك بن مروان.

وبعث عبدالملك إلى عبدالله بن خازم، وهو بخراسان يقاتل بحير بن ورقاء الصريمي يدعوه إلى طاعته ويقول له:

---

١ المتمثّل بالبيت الآتي لم يرد في الطبري ٨: ٨٥١، حيث تجد البيت السابق فيه.

ـ «إنّ خراسان لك طعمة سبع سنين، فبايع لي.» [305]

وكان عبدالملك بعث إليه برأس ابن الزبير، فغسله وحنّطه وكفّنه وبعث به إلى أهله بالمدينة. وحلف لا يُعطى عبدالملك طاعة أبداً.

فقال ابن خازم للرسول:

ـ «لولا أنّ الرسل لا تقتل، لأمرت بضرب رقبتك. ولكن كُلْ كتابه.» وأكله.

مقتل ابن خازم في مرو

وكتب عبدالملك إلى بكير بن وَسّاح[1] أحد بنى عوف بن سعد، وكان خليفة ابن خازم على مرو بعهده على خراسان، ووعده ومنّاه. فخلع بكير عبدالله بن الزبير ودعا إلى عبدالملك بن مروان. فأجابه أهل مرو. وبلغ ابن خازم، فخاف أن يأتيه بكير بأهل مرو، فيجتمع عليه أهل مرو، وأهل أبرشهر الذين مع بحير. فأقبل إلى مرو أن يأتي ابنه بالترمذ، فاتبعه بحير فلحقه بقرية يقال لها: شاه مزغند، بينها وبين مرو ثلاثة فراسخ. فقاتله ابن خازم، فقتل عبدالله بن خازم، وكان الذى ولى قتله وكيع بن عميرة القريعى، اعتون عليه بحير بن ورقاء وعمار بن عبدالعزيز الجشمي ووكيع، فطعنوه وصرعوه، فقعد وكيع على صدره فقتله.

فقال بعض الولاة لوكيع:

ـ «كيف قتلت ابن خازم؟» قال:

ـ «غلبته بفضل القنا. لمّا صرع قعدت على صدره، فحاول [306] القيام، فلم يقدر عليه، وقلت: يالثارات دويلة.»

ودويلة أخ لوكيع من أُمّه، قُتل في تلك الأيام.

قال: فتنخّم في وجهي، وقال:

١ وساج كذا في الأصل. وفي مط وساح. وما في الطبرى (٨ ٨٥٤): وشاح. وفي حواشيه عن الأصول: وساج

ـ «لعنك الله، تقتل كبش مضر بأخيك: علج لا يساوى كفّا من نوى ـ أو قال: ـ من تراب؟»

قال: فما رأيت أحداً أكثر ريقاً منه على تلك الحال عند الموت، لقد ملأ وجهى منه فذكر ابن هبيرة يوماً هذا الحديث، فقال:

ـ «هذه والله البسالة.»

وبعث بحير ساعة قُتل ابن خازم رجلاً من بنى غُدانة إلى عبدالملك بقتل ابن خازم، ولم يبعث بالرأس، وأقبل بكير بن وساج فى أهل مرو حين قُتل ابن خازم، فأراد أخذ رأس ابن خازم. فمنعه بحير، فضربه بُكير بعمود، وأخذ الرأس، وقيّد بحيراً وحبسه. وبعث بُكير بالرأس إلى عبدالملك، وكتب إليه يخبره أنه هو الذى قتله.

ولاية المهلّب حرب الأزارقة من قبل عبدالملك

وفى هذه السنة[1] وجّه عبدالملك أخاه بشر بن مروان من الكوفة إلى البصرة والياً عليها. ثمّ كتب إليه:

ـ «أمّا بعد، فابعث المهلّب فى أهل مصره إلى الأزارقة لينتخب من أهل مصره ووجوههم وفرسانهم أُولى الفضل والتجربة منهم، فإنّه أعرف بهم، وخلّه ورأيه فى الحرب، [307] فإنّى أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين، وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً، وابعث عليهم رجلاً معروفاً حسيباً شريفاً يُعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب، ثمّ أنهض إليهم أهل المصرين، فليتبعوهم أىّ وجه ما توجّهوا حتّى يبيرهم الله ويستأصلهم، والسلام عليك.»

فدعا بشر المهلّب، فأقرأه الكتاب، وأمره أن ينتخب من شاء. فبعث بجديع بن

---

١ سنة أربع وسبعين

قبيصة وهو خال ابنه يزيد، فأمره أن يأتي الديوان، فينتخب الناس. فشقّ على بشر أنّ إمرة المهلّب جاءت من قبل عبدالملك فلا يستطيع أن يبعث غيره. فأوغرت صدره عليه حتّى كأنّ له إليه ذنباً. ودعا بشر بن مروان عبدالرحمان بن مخنف، فبعثه على أهل الكوفة، وأمره أن ينتخب فرسان الناس ووجوههم وأولى الفضل منهم والنجدة.

قال عبدالرحمان بن مخنف، قال لي بشر:

ـ «إنّك قد عرفت منزلتك منّي وأثرتك عندي، وقد ولّيتك هذا الجيش للذي[1] عرفت من جرائتك[2] وغنائك وشرفك وبأسك، فكن عند أحسن ظنّي بك، انظر هذا الكذّاب[3] ـ يعني المهلّب ووقع فيه وسبّه[4] ـ (كذا) فاستبدّ عليه بالأمر، [308] ولا تقبلنّ له مشورة ولا رأياً.»

وتنقّصه وقصّر به.

قال عبدالرحمان: فترك أن يوصيني بالجند وقتال العدوّ والنظر لأهل الإسلام، وأقبل يغريني بابن عمّي حتّى كأنّي سفيه من السفهاء، أو ممّن يُستصبىٰ ويُستجهل. ما رأيت شيخاً في مثل سنّي ومنزلتي طمع منه في مثل ما طمع فيه هذا الغلام منّي. شبّ عمرو عن الطوق.

قال: ولما رءاني لستُ بالنشيط إلى جوابه قال:

ـ «ما لك؟» قلتُ:

ـ «أصلحك الله، وهل يسعني إلّا أن أنقاد لأمرك في كلّ ما أحببتُ أو كرهتُ؟»

---

١ للذي. كذا في الأصل وهو الصحيح. وما في مط: الذي.

٢ جرأتك. كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨: ٨٥٦): جرئك.

٣ أنظر هذا الكذّاب كذا في الأصل. وفي مط: أنظر هذا الكتاب! وهو خطأ. وما في الطبري أنظر هذا الكذا كذا يقع في المهلّب!

٤. سبّه كذا في الأصل. وفي مط: شيعته. سبه - ذعره. عابه. شتمه.

قال:

ـ «إمض راشداً.»

فودّعتُه وخرجت من عنده.

وخرج المهلّب حتّى نزل رامهرمز، فلقى الخوارج، فخندق عليه، وأقبل عبدالرحمان بن مخنف بأهل الكوفة، فنزل قريباً من المهلّب على ميل، أو ميل ونصف، حيث يتراءى العسكران برامهرمز، فلم يلبث الناس إلّا عشراً حتّى أتاهم نعى بشر، وتُوفّى بالبصرة، وارفضّ الناس من أصحاب المهلّب وأصحاب عبدالرحمان بن مخنف، وهم رؤساء أهل البصرة والكوفة، وبقيا في قلّة. وكان بشر استخلف خالد بن عبدالله بن أسيد، وكان خليفته على الكوفة عمرو بن حُريث، وكان ممن انصرف من أهل الكوفة: زحر بن قيس، [309] وإسحاق بن محمد بن الأشعث، ومحمد بن عبدالرحمان بن سعد بن قيس. فبعث عبدالرحمان ابنه جعفراً فى آثارهم، فردّ إسحاق ومحمداً، وفاته زحر بن قيس، فحبسهما يومين، ثم أخذ عليهما ألّا يفارقاه. فما لبثا إلّا يوماً حتّى انصرما ولحقا بزحر بن قيس بالأهواز، فاجتمع بها ناس كثير ممن يريد البصرة، فبلغ ذلك خالد بن عبدالله، فكتب إلى الناس كتاباً، وبعث رسلاً تضرب وجوه الناس وتردّهم. فقدم مولىً له، فقرئ الكتاب على الناس وقد جمعوا له، وكان فيه حضّ على الجهاد وتوبيخ للرؤساء، وتهديد لعامّة الناس، ويقول في آخره:

ـ «أيها الناس، اعلموا على من اجترأتم ومن عصيتم. إنه عبدالملك بن مروان أميرالمؤمنين الذى ما فيه غميزة، ولا عنده رخصة على من خالفه وعصىٰ أمره، وإنما سوطه سيفه، فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، فإنّى لم آلكم نصيحة. اذهبوا إلى مكتبكم[1] وطاعة خليفتكم، ولا ترجعوا عاصين مخالفين، فأقسم بالله لا

---

١. مكتبكم. الكلمة تكررت فى موضعين. فى الموضع الأول غموض فأثبتناها كما هى فى الموضع الثانى ←

أثقف عاصياً بعد كتابي هذا إلّا قتلته والسلام.»

فلم يلتفت الناس إلى ما فى الكتاب، وأقبل رؤساء [310] الكوفة حتّى نزلوا إلى جانب الكوفة فى قرية لآل الأشعث، وكتبوا إلى عمرو بن حُريث:

ـ «أما بعد، فإنّ الناس لما بلغهم وفاة الأمير رحمه الله، تفرّقوا فلم يبق معنا أحد، فأقبلنا إلى الأمير، وإلى مصرنا، وأحببنا ألّا ندخل الكوفة إلّا بإذن الأمير وعلمه، والسلام.»

فكتب إليهم:

ـ «أما بعد، فإنّكم تركتم مكتبكم وأقبلتم عاصين مخالفين. فليس لكم عندنا أمان ولا إذن.»

فلما أتاهم كتابه انتظروا حتّى إذا كان الليل دخلوا إلى رحالهم، فلم يزالوا مقيمين حتّى قدم الحجّاج بن يوسف.

سبب عزل بكير بن وساج عن خراسان

وفى هذه الأيام عزل عبدالملك بكير بن وساج عن خراسان، وولّاها أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد. وكان سبب ذلك أنّ تميماً اختلفت بخراسان، فصار منهم قوم يتعصّبون لبحير ويطلبون بكيراً، وصار منهم يعذرون بكيراً ويتعصّبون له. فخاف أهل خراسان أن تعود الحرب وتفسد البلاد ويقهرهم عدوّهم من المشركين. فكتبوا إلى عبدالملك أنّ خراسان لا تصلح بعد الفتنة إلّا على رجل من قريش لا يحسدونه.

فوجّه عبدالملك أمية بن [311] عبدالله، وكان يحبّه ويقول:

←

وكما فى الطبرى (٨: ٨٥٨، ٨٥٩) وفى حواشى الطبرى. أمكتكم (فى كلا الموضعين) فى مط مكتتكم؟ والموضع الثانى محذوف فى مط

ـ «هو لِدَتى[١].»

وكان بحير كما كتبنا فى ما تقدّم من خبره، فى حبس بكير لما كان منه فى رأس ابن خازم حين قتله. فلم يزل محبوساً عنده حتّى استعمل عبدالملك أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد. فلما بلغ ذلك بُكيراً أرسل إلى بَحير ليصالحه، فأبىٰ عليه وقال:

ـ «ظنّ بكير أنّ خراسان تبقىٰ له فى الجماعة.»

فمشى بينهم السفراء، فأبىٰ بحير.

ذكر رأى صواب أُشير به على بحير فقبله

ثمّ دخل عليه ضرار بن حصن الضبّى، فقال:

ـ «إنّى لا أراك مائقاً، يُرسل إليك ابن عمّك يعتذر إليك وأنت أسير فى يده فلا تقبل منه؟ لو قتلك ما حَبَقت[٢] فيه عنز. ما أنت بموفّق، اقبل الصلح، واخرج وأنت على أمرك.»

فقبل مشورته وصالح بكيراً.

قال. فأرسل إليه بكير بأربعين ألفاً، وأخذ على بحير ألّا يقاتله. فلما بلغ بحيراً أنّ أمية قارب أبرشهر، قال لرجل من عجم مرو:

ـ «دُلّنى على طريق قريب لألقى الأمير قبل قدومه ولك كذا وكذا.»

وأجزل له العطيّة. وكان عالماً بالطريق. فخرج إلى أرض [312] سرخس فى ليلة، ثمّ مضىٰ به إلى نيسابور.

فوافى أمية حتّى قدم أبرشهر، فلقيه، فأخبره عن خراسان وما يُصلح أهلها

---

١. لِدَتى: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٨: ٨٦١): هو نتيجتى أى لدتى

٢. حَبَقت: فى الأصل حيقت، ولم نجد لها معنى. وفى مط: حنقت. وما أثبتناه يؤيّده الطبرى (٨: ٨٦١). حَبَق: ضرطت. وأكثر استعماله فى الإبل والغنم.

ويحسن طاعتهم ويحفّ على الموالي مؤونتهم، ورفع على بكير أموالاً قد أصابها، وحذّره غدره، وسار معه حتّى قدم مرو. وكان أمية سيّداً كريماً. فلم يعرض لبكير ولا لعمّاله، وعرض عليه أن يولّيه شرطته، فأبى بكير، فولّاها بحيراً. وقد كان لام بكيراً رجال من قومه وقالوا[1]:

ـ «أبيت أن تلى حتّى ولّاها بحيراً، وقد عرفت ما كان بينكما.» قال:

ـ «كنت أمس والى خراسان تُحمل الحراب بين يدىّ وأصير اليوم على الشرطة أحمل الحربة !»

وقال أمية لبكير:

ـ «إختر ما شئت من عمل خراسان.» قال:

ـ «طخارستان.» قال:

ـ «هى لك.»

قال: فتجهّز بكير، وأنفق مالاً كثيراً، فقال بحير لأميّة:

ـ «إن أتى بكير طخارستان خلعك.»

فلم يزل يحذّره حتّى حذره، وأمره بالمقام.

ذكر تولية[2] عبدالملك الحجّاج بن يوسف العراق
وسيرة الحجّاج

ولمّا توفّى بشر بن مروان، كاتب عبدالملك الحجّاج بن يوسف وهو بالمدينة [313] وولّاه العراق. فأقبل فى اثنى عشر راكباً على النجائب، حتّى دخل الكوفة حين انتشر النهار. فجاءه، وكان بشر بعث المهلّب إلى الحروريّة، وانصرف كثير من الناس عنه بعد وفاته. وقد كتبنا أمره فى ما تقدّم. فبدأ الحجّاج بالمسجد،

١. في الأصل وط: قال. فصحّحناها كما في الطبري ٨: ٨٦٢.
٢. ما في الأصل: ولاية وهو سهو.

فدخله، ثمّ صعد المنبر وهو متلثّم بعمامة حمراء خزّ، فقال.

ـ «عليّ بالناس.»

فحسبوه وأصحابه خارجة. فهمّوا به. حتّى إذا اجتمع إليه الناس قام فكشف عن وجهه، ثمّ قال:

«أنا ابنُ جَلا وطلّاعُ الثّنايا   متى أضعِ العِمامةَ تعرفُونى

أما والله، إنّي لأحمل الشرّ محمله[١]، وأحذوه بنعله[٢] وأجزيه بمثله، وإنّى لأرى رؤوساً قد أينعت، وحان قطافها، وإنّى لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللّحى. قد شمّرت عن ساقها تشميراً.

هذا أوانُ الشدِّ، فاشتدّى زِيَمْ   قد لفّها الليلُ بسوّاقٍ حُطَمْ[٣]

ليس براعى إبلٍ ولا غَنَمْ   ولا بجزّارٍ[٤] على ظهر وَضَمْ

قد لفّها الليلُ بعَصْلَبىّ   مهاجر ليس بأعرابىّ

إنّي والله، يا أهل العراق ما أُغمَز تغماز [314] التين، ولا يُقعقَع لى بالشّنان، ولقد فُررت عن ذكاء وفُتّشت[٥] عن تجربة، وجريت من[٦] الغاية. إنّ أميرالمؤمنين نثل كنانته، ثمّ عجم عيدانها، فوجدني أمرّها عوداً [وأصلبها

---

١ محمله: كذا فى الأصل والطبرى (٨. ٨٦٤). وفى مط: حمله. وهو خطأ.

٢ بنعله كذ فى الأصل والطبرى، وهو الصحيح. وما فى مط. بمثله.

٣. الحطِم- كذا ضبطت فى الأصل وضبطها الطبرى. «حُطَمْ»

٤. بجزّار النقطة التحتانية واحدة فى الأصل. بجزّار؟ بجزّار؟ وما فى الطبرى. بجزّار

٥. فتّشت عن تجربة. نقط الشين أثبتناها بقرينة ما فى مط. فما فى مط. عشيت.

٦ جريت من الغاية: كذ فى الأصل. وفى الطبرى: جريت إلى الغاية. والعبارة ساقطة من الطبرى.

مكسراً) فرماكم بى «فإنّكم طال ما أوضعتم فى الفتن وسننتم سنن الغىّ والله لألحونّكم لحو العود، ولأعصبنّكم عصب السلَمة، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل. إنّى والله لا أعد إلّا وفيت، ولا أخلق إلّا فريت، فإيّاى وهذه الجماعات وقيلاً وقالاً وما يقول وفيم أنتم وذاك. والله لتستقيمنّ على سبل الحقّ، أو لأدعنّ لكلّ رجل منكم شغلاً فى جسده. من وجدناه بعد ثالثة من بعث المهلّب سفكت دمه وأنهبت ماله.»

ثمّ دخل منزله ولم يزد على ذلك.

ويقال: إنّه لمّا طال سكوته تناول محمد بن عمير حصىً ليحصبه بها، وقال:

ـ «قاتله الله، ما أعياه وآدمه[1]»

فلما تكلّم الحجّاج جعل الحصى ينتشر من يده ولا يعقل به.

ثمّ دعا الحجّاج بالعرفاء، وقال:

ـ «الحقوا بالمهلّب وائتونى بالبراءات بموافاتهم، ولا تغلقنّ أبواب الجسر ليلاً ونهاراً، فقد بلغنى رفضكم المهلّب وإقبالكم إلى [315] مصركم عصاة مخالفين. وإنّى لأقسم لكم بالله ما أجد أحداً بعد ثلاثة إلّا ضربت عنقه.»[2]

فلما كان اليوم الثالث سمع تكبيراً فى السوق، فخرج حتّى جلس على المنبر، فقال:

ـ «يا أهل العراق وأهل الشقاق ومساوئ الأخلاق، إنّى سمعت تكبيراً لا يراد به الله فى الترغيب، ولكنّه تكبير يراد به الترهيب. وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف. يا بنى اللكيعة وعبيد العصا[3] وأبناء الأيامى، إن لا تربع رجل على ظلعه ولا يحسن حقن دمه ويبصر موضع قدمه، فأُقسم بالله لأُوشك أن أُوقع بكم وقعة

١ آدمه كذا فى الأصل، وهى ساقطة من مط. الأُدمة: السمرة. وفى الطبرى: أدّمه.

٢ تجد الخطبة وتفسير ألفاظها عند الطبرى ٨: ٨٦٤.

٣ العصا كذا فى الأصل والطبرى (٨: ٨٦٨). وفى مط: الحصى!

تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها.»

فقام إليه عمير بن ضابئ التميمي ليتكلم بعذره[1] فقال:

ـ «أسمعت كلامنا بالأمس؟» قال:

ـ «نعم.» قال:

ـ «ألست الذى غزا أميرالمؤمنين عثمان؟» قال:

ـ «بلى.» قال:

ـ «فما حملك على ذلك؟» قال:

ـ «حبس أبى وكان شيخاً كبيراً.» قال:

ـ «أو ليس الذى يقول:

همممتُ ولم أفعل وكِدتُ وليتنى ... تركتُ على عثمان تبكى حلائلُه

إنّى لأحسب فى قتلك صلاح المصرين. قم إليه يا حرسيّ فاضرب عنقه.»

فقام إليه [316] الحرسيّ، فأخرجه وضرب عنقه، وأنهب ماله، وأمر منادياً فنادى:

ـ «ألا إنّ عميراً أتى بعد ثالثة وقد كان سمع النداء، فأمرنا بقتله. ألا إنّ ذمّة الله بريئة ممن بات الليلة من جند المهلّب.»

فخرج الناس، فازدحموا على الجسر، فعبر فى تلك الليلة أربعة آلاف مذحج. وخرج العرفاء إلى المهلّب، وهو برامهرمز، فأخذوا كتبه بالموافاة.

وقال المهلّب لأصحابه:

ـ «قدم العراق أمير ذَكَرٌ، اليوم قوتل العدوّ.»

---

١. بعذره: كذا فى الأصل. وفى مط: يقدره.

قال عمرو بن سعيد: فوالله إنّي لأسير بين الكوفة والحيرة إذ سمعت زجراً[١] مضرياً، فعدلت إليه وقلت:

ـ «ما الخبر؟» قالوا:

ـ «قدم علينا رجل من شرّ أحياء العرب، من هذا الحيّ، من ثمود، أسقف الساقين، أشرح[٢] الجاعرتين، أخفش العينين. فقدّم سيد الحيّ عمير بن ضابئ فضرب عنقه.»

ولقى ابن الزبير إبراهيم بن عامر، فسأله عن الخبر، فقال وذلك فى السوق:

أقــول لإبــراهــيم لـمّا لقـيته	أرى الأمر أضحى[٣] مُنصباً متشعّبا
تجهّز وأسرع فالحق الجيش، لا أرى	سوى الجيش، إلّا فى المهالك مذهبا
تـخيّر فـإمّا أن تـزور ابـن ضـابئ	عُـميراً وإمّا أن تزور المهلّبا [317]
هـما خُـطّتا خـسفٍ نجاؤك منهما	ركـوبك حَـوليّاً مـن الثلج أشهبا
فـأمسىٰ ولو كـانت خـراسان دُونه	رَءاهـا مكـان السوق، أو هى أقربا

ثمّ أسرع الحجّاج إلى البصرة

ولما قتل الحجّاج عمير بن ضابئ، خرج من فوره حتّى قدم البصرة، فقام فيهم بخطبة، مثل التى[٤] قام بها فى أهل الكوفة، وتوعّدهم مثل وعيده إيّاهم. فأُتى برجل من بنى يشكر، وقيل له:

ـ «هذا عاص.» فقال:

---

١ فى الطبرى: رجزاً وفى مط: زجراً.
٢ أشرح كذا فى الأصل. وفى مط: أشرع. وما فى الطبرى (٨: ٨٧١): ممسوح الجاعرتين.
٣ أضحى: سقطت من الأصل. فأثبتناها كما فى مط. وما فى الطبرى: أمسى
٤ فى الأصل ومط والطبرى (٨: ٨٧٣): الذى. وفى حاشية الطبرى: التى. وهو الصحيح

ـ «إنّ لي فتقاً، وقد رءاه بشر فعذرني. وهذا عطائي مردود في بيت المال.»

فلم يقبل منه، وقدّمه فضرب عنقه. ففزع أهل البصرة، فخرجوا حتّى تداكّوا على العارض برامهرمز، فقال المهلّب:

ـ «جاء الناس أمرٌ ذَكَرٌ.»

ذكر وثوب الناس بالحجّاج

خرج الحجّاج بالناس حتّى نزل رستقباذ، ومعه وجوه أهل البصرة، وكان بينه وبين المهلّب ثمانية عشر فرسخاً. فقام في الناس، فقال:

ـ «إنّ ابن الزبير زادكم في أعطياتكم زيادة فاسق منافق ولست أُجيزها.»

فقام إليه عبدالله بن الجارود العبدى، فقال:

ـ «ولكنّها زيادة أميرالمؤمنين عبدالملك، وقد [318] أنبتها لنا.»

فكذّبه وتوعّده، فخرج ابن الجارود على الحجّاج، وبايعه وجوه الناس. فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقُتل عبدالله بن الجارود وجماعة ممن ثار معه، وبعث الحجّاج برأسه ورؤوس عدّة من أصحابه إلى المهلّب، ونصب برامهرمز ثمانية عشر رأساً من وجوه الناس. فساء ذلك الخوارج، وكانوا رجوا أن يكون من الناس فرقة واختلاف. وانصرف الحجّاج إلى البصرة، وكتب إلى المهلّب وإلى عبدالرحمان بن مخنف:

ـ «أما بعد، إذا أتاكم كتابي هذا، فناهضوا الخوارج. والسلام.»

فناهض المهلّب وعبدالرحمان الأزارقة، فأجلوهم عن رامهرمز من غير قتال شديد، ولكنّهم زحفوا إليهم حتّى أزالوهم، وخرج القوم كأنّهم على حاميه، حتّى نزلوا بكازرون.

ذكر توان لعبدالرحمان حتّى قُتل وقُتل معه خلق

وسار المهلّب وعبدالرحمان حتّى نزلوا بهم، فخندق المهلّب ولم يخندق عبدالرحمان، فقال المهلّب لعبدالرحمان:

ـ «إن رأيت أن تخندق عليك فعلت.» فقال أصحاب عبدالرحمان:

ـ «خندقُنا سيوفنا.»

فلما كان الليل زحف الخوارج إلى المهلّب [319] ليبيّتوه، فوجدوه قد أخذ حذره، فمالوا نحو عبدالرحمان، فوجدوه لم يخندق. فنهض عبدالرحمان وقاتلهم وانهزم عنه أصحابه، ونزل في جماعة من أهل الحفاظ والصبر، فقاتلوا حتّى قتل عبدالرحمان وقتلوا كلّهم حوله.

فلما أصبح المهلّب جاء حتّى دفنه وصلّى عليه، وكتب بمصابه إلى الحجّاج، فكتب الحجّاج بذلك إلى عبدالملك ونعىٰ عبدالرحمان وذمّ أهل الكوفة. وبعث الحجّاج على عسكر عبدالرحمان بن مخنف، عتّاب بن ورقاء، وأمره إذ ضمّتها الحرب أن يسمع للمهلّب ويطيع. فساءه ذلك ولم يجد بدّاً من طاعة الحجّاج، ولم يقدر على مراجعته. فجاء حتّى أقام في ذلك العسكر، وقاتل الخوارج، وأمره إلى المهلّب، وهو في ذلك يعني أموره ولا يكاد يستشير المهلّب في شيء. فلما رأى المهلّب ذلك اصطنع رجالاً من أهل الكوفة فيهم بسطام بن مصقلة، فأغراهم بعتّاب.

فلما كان ذات يوم، أتىٰ عتّاب المهلّب يسأله أن يرزق أصحابه. فأجلسه المهلّب معه على مجلسه، فسأله عتّاب سؤالاً فيه تجهّم وغلظة وتراددا الكلام حتّى قال [320] له المهلّب:

ـ «يابن اللخناء.»

وذهب ليرفع القضيب عليه، فوثب إليه ابنه المغيرة، فقبض على القضيب وقال:

ـ «أصلح الله الأمير، شيخ من أشياخ العرب وشريف من أشرافهم. إن سمعت

منه ما تكره فاحتمله.»

فقبله وقام عتّاب، فاستقبله بسطام بن مصقلة يشتمه ويقع فيه. فلما رأى عتّاب ذلك كتب إلى الحجّاج يشكو إليه المهلّب ويخبره أنه أغرى به سفهاء أهل البصرة ويسأله أن يضمّه إليه، ووافق ذلك حاجة من الحجّاج إليه في ما لقى من شبيب، وما لقيه أيضاً أشراف الكوفة منه. وسنذكر من خبره ما يليق بهذا الكتاب إن شاء الله. فبعث إليه الحجّاج أن:

ـ «اقدمْ واترك أمر ذلك الجيش إلى المهلّب.»

فبعث المهلّب ابنه حبيباً، وأقام المهلّب يقاتلهم سنة.

ذكر ما كان من شبيب بن يزيد
وما لقى الحجّاج وأشراف الكوفة منه

كان ابتداء أمر شبيب صحبته لرجل يعرف بصالح بن مسرّح، وكان صالح يرى رأى الصفريّة وكان ناسكاً مصفرّ الوجه صاحب عبادة، وله أصحاب يقريهم القرآن ويفقّههم [321] ويقصّ عليهم، ويقدم الكوفة فيقيم بها الشهر أو الشهرين، وكان بأرض الموصل والجزيرة، وله قصص محفوظ[1] وكلام مستحسن، وكان إذا فرغ من التحميد والصلاة على محمد ذكر أبا بكر فأثنى عليه، وثنّى بعمر، وذكر عثمان وما كان من أحداثه، ثمّ عليّاً وتحكيمه الرجال في أمر الله، ويتبرّأ من عثمان وعليّ، ثمّ يدعو إلى مجاهدة أئمّة الضلال ويقول:

ـ «تيسّروا يا إخوانى للخروج من دار الفناء، إلى دار البقاء، واللحاق بإخواننا المؤمنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة، ولا تجرعوا من القتل في الله، فإنّ القتل أيسر من الموت، والموت نازل بكم عندما تُرجَم[2] الظنون، فيفرّق بينكم وبين آبائكم

---

١ قصص محفوظ، كما في الأصل. وما في مط. قصص محفوظة
٢ الرجم أن يتكلّم بالظن ومنه قولهم: «رجمًا بالغيب»، أو «رجماً بالغيب».

وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم، وإن اشتدّ لذلك جزعكم. ألا، فبيعوا أنفسكم طائعين وأموالكم، تدخلوا الجنّة.»

وأشياء ذلك من الكلام. وكان في من يحضره من أهل الكوفة سويد والبطين. فقال يوماً لأصحابه:

ـ «ما تنتظرون؟ ما يزداد أئمّة الجور إلّا عتوّاً وعلوّاً وتباعداً من الحقّ، وجرأة على الربّ. فراسلوا إخوانكم حتّى يأتوكم وننظر ما نحن صانعون وأيّ وقت إن خرجنا [322] نحن خارجون.»

فبينا هو كذلك، إذ أتاه المحلّل [1] بن وائل بكتاب شبيب وقد كتب إلى صالح:

ـ «أمّا بعد، فقد كنت دعوتني إلى أمر استجبت له. فإن كان ذلك، فإنّك شيخ المسلمين، ولم نعدل بك منّا أحداً. وإن أردت تأخير ذلك، أعلمتني، فإنّ الآجال غادية ورائحة، ولا آمن أن تخترمني المنيّة ولمّا أجاهد الظالمين. جعلنا الله وإيّاك ممّن يريد الله بعمله، والسلام عليك.»

فأجابه صالح بجواب جميل يقول فيه:

ـ «إنّه لم يمنعني من الخروج مع ما أنا فيه من الإستعداد إلّا انتظارك، فاقدم علينا ثمّ اخرج بنا، فإنّك ممن لا تُقضى الأمور دونه، والسلام.»

فلما ورد كتابه على شبيب دعا نفراً من أصحابه فجمعهم إليه، منهم: أخوه مصاد بن يزيد والمحلّل بن وائل، والصقر بن حاتم، وإبراهيم بن حجر، وجماعة مثلهم. ثمّ خرج حتّى قدم على صالح بن مسرّح، وهو بدارا من أرض الموصل. فبثّ صالح رسله، وواعدهم الخروج في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وسبعين. فاجتمع بعضهم إلى بعض، واجتمعوا عنده في تلك الليلة.

فتحدّث فروة بن لقيط قال: إنّي لمعهم تلك الليلة وكان رأيي استعراض الناس

١ المحلل: ضبط هذا الإسم مضطرب في الأصل، فتارة بالحاء المهملة وأخرى بالجيم المعجمة فأثبتناه بالحاء المهملة كما في الطبري ومط

[323] لما رأيت من المنكر والفساد فى الأرض. فقمت إليه، فقلت.

ـ «يا أميرالمؤمنين، كيف ترى السيرة في هؤلاء الظلمة؟ أتقتلهم قبل الدعاء، أم ندعوهم قبل القتال؟ فإنّي أخبرك برأيي فيهم قبل أن تخبرني برأيك فيهم. إنّا نخرج على قوم طاغين باغين، قد تركوا أمر الله، أو راضين بذلك. فأرىٰ أن تضع[1] فيهم السيف.» فقال:

ـ «لا، بل ندعوهم، فلعمري، لا يجيبك إلّا من يرى رأيك، وليقاتلنّك من يزرى عليك، والدعاء أقطع لحجّتهم، وأبلغ في الحجة لك عليهم.»

قال: فقلت له:

ـ «فكيف ترىٰ في من قاتلنا فظفرنا به، وما تقول في دمائهم وأموالهم؟» فقال:

ـ «إن قاتلنا وغنمنا فلنا، وإن تجاوزنا وعفونا، فموسّع علينا ولنا.»

فأحسن لنا القول.

ثمّ قال صالح لأصحابه ليلته:

ـ «إتّقوا الله عباد الله، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلّا أن يكونوا يريدونكم، فإنّكم خرجتم غضباً لله حيث انتُهكت محارمه، وعُصى في الأرض، وسُفكت الدماء بغير حقّها، وأُخذت الأموال غصباً. فلا تعيبوا على قوم أعمالاً ثمّ تعملوا بها. وهذه دوابّ لمحمد بن مروان فى هذا الرستاق، فابدأوا بها، فاحملوا رجلكم وتقوّوا بها على عدوّكم.» [324]

ففعلوا ذلك وتحصّن منهم أهل دارا، وبلغ خبرهم محمد بن مروان، وهو يومئذٍ أمير الجزيرة، فاستخفّ بأمرهم، وبعث إليهم عديّ بن عميرة فى خمسمائة، وكان صالح فى مائة وعشرة، فقال عديّ:

ـ «أصلح الله الأمير، تبعثنى إلى رأس الخوارج ومعه رجال سمّوا لى، وإنّ

---

١. تضع كذا فى الأصل وهو الصحيح. وما فى مط: تصنع وهو خطأ.

الرجل منهم خير من مائة فارس فى خمسمائة.» فقال له:

ـ «فإنّى أزيدك خمسمائة، فسر إليهم فى ألف فارس»

فسار من حرّان فى ألف رجل وكأنما يساق إلى الموت. وكان عـديّ رجـلاً بتنسّك. فلما نزل ذوغان نزل بالناس وأنفذ إلى صالح بن مسرّح رجلاً دسّه إليه. فقال له:

ـ «إنّ عديّاً بعثنى إليك يسألك أن تخرج من هذا البلد وتأوى بلداً آخر وتقاتل أهله، فإنّ عديّاً للقائك كاره.»

فقال صالح:

ـ «ارجع إليه، فقل له: إن كنت ترى رأينا فأرنا من ذلك ما نعرف، ثمّ نحن مدلجون عنك، وإن كنت على رأى الجبابرة وأئمّة السوء، رأينا رأينا. فإمّا بدأنا بك، وإمّا رحلنا إلى غيرك.»

فانصرف إليه الرسول، فأبلغه. فقال عديّ:

ـ «ارجع إليه فقل له: إنّى والله لا أرى رأيك، ولكنّى أكره قتالك وقتال غيرك من المسلمين، فقاتل غيرى.» [325]

ذكر مكيدة صالح على عديّ

فقال صالح لأصحابه: اركبوا. فركبوا. وحبس الرجل عنده حتّى خرجوا، ثمّ تركه ومضى بأصحابه حتّى أتى عديّاً فى سوق ذوغان وهو قائم يصلّى الضحى، فلم يشعر إلّا والخيل طالعة عليهم. فلما دنا صالح منهم رءاهم على غير تعبئة، وقد تنادوا، وبعضهم يجول فى بعض. فأمر شبيباً، فحمل عليهم فى كتيبة، ثمّ أمر سويداً، فحمل فى كتيبة، وكانت هزيمتهم. وأُتى عديّ بدابّته فركبها، ومضى على وجهه، واحتوى صالح على عسكره وما فيه. وذهب فلّ عديّ حتّى

لحقوا بمحمد بن مروان. فغضب، ثمّ دعا خالد بن جزء[1] السلمى، فبعثه فى ألف وخمسمائة، ودعا الحارث بن جعونة فبعثه فى ألف وخمسمائة، وقال لهما:

ـ «أخرجا إلى هذه الخارجة القليلة الخبيثة وعجّلا. فأيكما سبق فهو الأمير على صاحبه.»

فخرجا، وأغذّا السير، وجعلا يسألان عن صالح، فقيل لهما[2]:

ـ «توجّه نحو آمد.»

فاتّبعاه حتّى انتهيا إليه بآمد، فنزلا ليلاً وخندقا وهما يتساندان كلّ واحد منهما على حدته. فوجّه صالح شبيباً إلى الحارث بن جعونة فى شطر أصحابه، وتوجّه هو [326] نحو خالد السلمى، فاقتتلوا أشدّ قتال اقتتله قوم، حتّى حجز بينهم الليل وقد انتصف بعضهم من بعض.

فتحدّث بعض أصحاب صالح قال: كنّا إذا حملنا عليهم استقبلتنا رجّالتهم بالرماح، ونضحتنا[3] رماتهم بالنبل وخيلهم تطاردنا فى خلال ذلك، فانصرفنا عند الليل وقد كرهناهم وكرهونا. فلمّا رجعنا وصلّينا وتروّحنا وأكلنا من الكسر دعانا صالح وقال:

ـ «يا أخلّائى مأذا ترون؟»

فقال شبيب:

ـ «أنا أرى إن قاتلنا هؤلاء وهم معتصمون بخندقهم لم تنل منهم طائلاً. والرأى أن نرحل عنهم.»

فقال صالح:

١ جزء: كذا فى الأصل والطبرى (٨: ٨٨٩)، وما فى مط: حز.

٢ فى الأصل: له. وفى مط: إنّه.

٣. نضحتنا: غير واضحة فى الأصل ومط. فأثبتناها كما فى الطبرى (٨: ٨٨٩). نضح القوم ونضحهم بالنبل: رماهم فرّقهم.

ـ «أنا أرى ذلك.»

فخرجوا من تحت ليلتهم حتّى قطعوا أرض الجزيرة وأرض الموصل، ومضوا حتّى قطعوا الدسكرة. فلما بلغ ذلك الحجّاج سرّح إليهم الحارث بن عميرة فى ثلاثة آلاف. فسار، وخرج صالح نحو جلولا وخانقين، واتّبعه الحارث حتّى انتهى إلى قرية يقال لها: الريح[١] وصالح يومئذٍ فى تسعين رجلاً. فعبّى الحارث بن عميرة أصحابه ميمنة وميسرة، وجعل صالح أصحابه كراديس ثلاثة، فهو فى كردوس وشبيب فى [327] ميمنته فى كردوس، وسويد بن سُليم[٢] فى كردوس من ميسرته، وفى كلّ كردوس منهم ثلاثون رجلاً. فلما شدّ عليهم الحارث بن عميرة انكشف سويد بن سُليم وثبت صالح، فقتل، وضارب شبيب حتّى صُرع عن فرسه، فوقع فى رجاله، فجاء حتّى انتهى إلى موقف صالح، فوجده قتيلاً، فنادى:

ـ «يا معشر المسلمين.»

فلاذوا به، وقال لأصحابه:

ـ «ليجعل كلّ رجل منكم ظهره إلى ظهر صاحبه، وليطاعن عدوّه إذا أقدم عليه حتّى ندخل هذا الحصن ونرى من رأينا.»

ففعلوا ذلك حتّى دخلوا الحصن وهم سبعون رجلاً مع شبيب، وأحاط بهم الحارث بن عميرة ممسياً، وقال لأصحابه:

ـ «أحرقوا الباب. فإذا صار جمراً فدعوه، فإنّهم لا يقدرون على خروجهم حتّى نصبّحهم[٣] فنقتلهم.»

ففعلوا ذلك بالباب، ثمّ انصرفوا إلى معسكرهم. فقال شبيب لأصحابه:

١ الريح كذا فى الأصل ومط وفى الطبرى (٨: ٨٩٠) المديج. وفى حواشيه. المديح، المدبح.
٢. فى الطبرى. سليم. وما فى مط. مسلم وما فى الأصل مضطرب حيث ضبط على وجهين. سُليم وسَلم فوحدنا الضبط كما فى الطبرى. ٣. فى الأصل: نصبّحهم فنقتلهم

ـ «ما تنتظرون يا هؤلاء؟ فوالله، لئن صبّحوكم إنه لهلاككم.» فقالوا:

ـ «مُرنا بأمرك.» فقال لهم:

ـ «بايعوني إن شئتم، أو من شئتم منكم، ثمّ اخرجوا بنا حتّى نشدّ عليهم في عسكرهم [328] فإنّهم آمنون منكم، فإنّي أرجو أن ينصركم الله.» قالوا:

ـ «فابسط يدك.»

فبايعوه. فلما جاؤوا إلى الباب وجدوه جمراً. فأتوا باللبود، فبلّوها بالماء، ثمّ ألقوها عليه، وخرجوا، ولم يشعر الحارث بن عميرة إلّا وشبيب وأصحابه يضربونهم بالسيوف في جوف عسكرهم. فضارب الحارث حتّى صُرع، واحتمله أصحابه وانهزموا وخلّوا لهم العسكر وما فيه، ومضوا حتّى نزلوا المدائن. وكان ذلك الجيش أول جيش هزمه شبيب.

فأما صالح بن مسرّح فإنّه أُصيب من سنة كما حكينا من أمره، ثمّ ارتفع في أداني أرض الموصل، ثمّ ارتفع نحو آذربيجان يجبى الخراج.

وكان سفيان بن أبي العالية قد أمر أن يدخل في خيل معه طبرستان، فأمر بالقفول، فصالح صاحب طبرستان، وأقبل في نحو من ألف، وورد عليه كتاب الحجّاج:

ـ «أما بعد، فأقم بالدسكرة في من معك حتّى يأتيك جيش الحارث بن عميرة من ذي الشغار، وهو الذي قتل صالح بن مسرّح، ثمّ سر إلى شبيب حتّى تناجزه.»

ففعل سفيان ذلك ونزل الدسكرة، ونودي في جيش الحارث بن عميرة بالكوفة [329] والمدائن:

ـ «برئت الذمّة من رجل من جيش الحارث بن عميرة لم يواف ابن العالية بالدسكرة.»

قال: فخرجوا حتّى أتوه، وارتحل سفيان في طلب شبيب، ثمّ ارتفع عنهم كأنه

يكره لقاءهم وقد أكمن لهم مصاداً في خمسين رجلاً في هزم من الأرض. فلمّا رأوه جمع أصحابه، ثمّ مضىٰ في سفح من الجبل مشرقاً. فقالوا:

ـ «هرب عدوّ الله.» واتّبعوه.

ذكر رأي رءاه عديّ بن عميرة في تلك الحال فلم يقبل حتّى هلك الجيش

فقال لهم عديّ بن عميرة الشيباني:

ـ «أيها الناس، لا تعجلوا عليهم حتّى تضرب في الأرض فنستبرئها، فإن يكونوا كمنوا كمناً حذرناه، وإلّا كان طلبهم[1] بأيدينا، لن يفوتنا.»

فلم يسمع منه الناس، وأسرعوا في آثارهم. فلما رأى شبيب أنهم قد تجاوزوا الكمين خرجوا إليهم. فحمل شبيب من أمامهم، وصاح بهم الكمين من ورائهم. فلم يقاتل أحد وكانت الهزيمة وثبت ابن أبي العالية في نحو مائتي رجل، فقاتلهم قتالاً شديداً حتّى انتصف من شبيب، فقال سويد بن [330-331][2] سليم:

ـ «أ منكم من يعرف أمير القوم ابن أبي العالية؟»

فقال شبيب:

ـ «أنا من أعرف الناس به. أما ترى صاحب الفرس الذي دونه المرامية، فإنه هو. فإن كنت تريده فأمهله قليلاً.»

ثمّ قال:

ـ «يا قعنب، اخرج في عشرين، ثمّ أتهم[3] من ورائهم.»

فخرج قعنب في عشرين، فارتفع عليهم. فلما رأوه يريد أن يأتيهم من ورائهم

١ طلبهم: كذا في الأصل وما في مط طلبهم.

٢ طمر المرقم من رقم 329 إلى رقم 331 فأثبتنا الرقمين لصفحة واحدة، حتّى لا تتغيّر أرقام الصفحات.

٣ ثتهم: أثبتناها كما هي مط والطبري (٨: ٨٩٨). وما في الأصل آتهم. وهو خطأ.

جعلوا ينقصون ويتسلّلون. وحمل سويد بن سُليم على سفيان بن أبى العالية، فطاعنه، فلم يصنع رمحاهما شيئاً، ثمّ اضطربا بسيفيهما، ثمّ اعتنق كلّ أحد منهما، فوقعا إلى الأرض يعتركان، ثمّ تحاجزا[1]، وحمل عليهم شبيب، فانكشف من كان معه. ونزل غلام لسفيان، يقال له غزوان [نزل][2] عن برذونه، وقال لسفيان:

ـ «اركبْ يا مولاى.»

فركب سفيان وأحاط به أصحاب شبيب، فقاتل دونه غزوان حتّى قتل، وكانت معه رايته. وأقبل سفيان بن أبى العالية منهزماً حتّى انتهى إلى بابل مهرود، فنزل بها، وكتب إلى الحجّاج، وكان الحجّاج أمر سَورة بن أبجر أن يلحق بسفيان، فكاتب سورة سفيان وقال: انتظرنى. فلم يفعل، وعجّل نحو الخوارج. فلما عرف الحجّاج خبر سفيان، وقرأ كتابه، قال للناس:

ـ «من صنع كما صنع هذا وأبلىٰ [332] كما أبلىٰ، فقد أحسن.»

ثمّ كتب إليه يعذره ويقول له:

ـ «إذا خفّ عليك الوجع، فأقبل مأجوراً إلى أهلك.»

وكتب إلى سَورة:

ـ «أما بعد، يابن أُمّ سورة، فما كنت خليقاً أن تجترئ على ترك عهدى وخذلان جندى، فإذا أتاك كتابى فابعث رجلاً ممن معك صليباً[3] إلى المدائن، فلينتخب من الخيل التى بها خمسمائة رجل، ثمّ ليقدم بهم عليك، ثمّ سر بهم حتّى تلقىٰ[4] هذه المارقة، وأخبرنى فى أمرك، وكِد عدوّك، فإنّ أفضل أمر الحرب المكيدة. والسلام.»

---

١ تحاجزا: كذا فى مط وفى الطبرى. تحاجزوا. وما فى الأصل غامض، ويشبه أن يكون. تحاجرا

٢ نزل: سقطت من الأصل ومط. فأثبتناها نقلاً عن الطبرى.

٣ صليباً: كذا فى الأصل والطبرى (٨: ٨٩٨) وما فى مط: صلباً. والصليب: الخالص النسب. يقال. هو عربى صليب. أى. خالص النسب.

٤. فى الأصل: تلقى. وما أثبتناه يؤيّده مط

فلما أتى سورة كتاب الحجّاج، بعث عديّ بن عميرة إلى المدائن وكان بها ألف فارس، فانتخب منهم خمسمائة رجل، ثمّ رحل بهم حتّى قدم على سورة ببابل مهروذ. فخرج في طلب شبيب، وخرج شبيب يجول في جوخي، وسورة في طلبه. فجاء شبيب إلى المدائن وتحصّن منه أهلها وهي أبنية المدائن الأولى، فدخل المدائن وأصاب دوابّ من دوابّ الجند، وقتل من ظهر له، ولم يدخلوا البيوت، فأُتي فقيل:

ـ «هذا سورة بن أبجر قد أقبل إليك.»

فخرج في أصحابه حتّى انتهى إلى النهروان، فنزل به، وتوضّأ هو وأصحابه، ثمّ أتوا [333] مصارع إخوانهم الذين قتلهم عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، فاستغفروا لإخوانهم، وتبرّأوا من عليّ وأصحابه، وبكوا فأطالوا البكاء، ثمّ عبروا جسر النهروان، فنزلوا من جانبه الشرقي. وجاء سورة حتّى نزل بقطراثا[1]، وجاءته عيونه، فخبّرته بمنزل شبيب بالنهروان.

ذكر سوء رأى سورة في الإقدام حتّى هُزم وفلّ

فدعا سورة رؤساء أصحابه، فقال لهم:

ـ «إنّهم قلّ ما يلقون مصحرين أو على ظهيرة إلّا انتصفوا، وقد حُدّثت أنّهم لا يزيدون على مائة رجل، وقد رأيت أن أنتخبكم وأسير في ثلاثمائة رجل منكم من أقويائكم وشجعانكم فأبيّتهم، فإنّهم آمنون لبياتكم. فإنّي والله أرجو أن يصرعهم الله مصرع إخوانهم بالنهروان من قبل.» فقالوا:

ـ «إصنع ما أحببت.»

فاستعمل على عسكره حازم بن قدامة، وانتخب ثلاثمائة من شجعاء أصحابه،

---

١ قطراثا كذا في الأصل والطبري (٨ ٩٠٠) في مط: قطراثا. وفي حواشي الطبري: قطراب، قطرابا، قطران

ثمّ أقبل بهم حتّى عرب من النهروان، وبات وقد أذكى الحرس[1] ثمّ بيّتهم. فلما دنا أصحاب سورة منهم نذروا بهم. فاستووا على خيولهم، وتعبّؤا بتعبئتهم. فلما انتهى إليهم سورة وأصحابه أصابوهم قد حذروا. فحمل عليهم سورة، ثمّ [334] صاح شبيب بأصحابه، فحمل عليهم حتّى تركوا العرصة، وحمل شبيب وجعل يضرب ويقول:

مَـن يَـنِكِ العَـيْرَ يَـنِكْ نَـيّاكـا [جَنْدَلتانِ اصطكّتا اصطكاكا][2]

ورجع سورة إلى أصحابه مفلولاً قد هُزم فرسانه وأهل القوّة من أصحابه. فضحك بهم وأقبل نحو المدائن، وتبعهم شبيب حتّى انتهىٰ سورة إلى بيوت المدائن، ودُفع شبيب إليهم وقد دخل الناس. وخرج ابن أبى العُصَيفر[3]، وهو أمير على المدائن، فرماهم الناس بالنبل ومن فوق البيوت بالحجارة، ثمّ سار إلى تكريت. فبينا ذلك الجند بالمدائن إذ أرجف الناس بينهم فقالوا:

ـ «هذا شبيب قد أقبل يريد أن يبيّت أهل المدائن.»

فارتحل عامّة الجند، فلحقوا بالكوفة، وإنّ شبيباً لبتكريت. ولما أتى الحجّاج خبره قال:

ـ «قبّح الله سورة، ضيّع العسكر، وخرج يبيّت الخوارج. والله لأسوءنّه.»

ثمّ دعا الحجّاج الجزل وهو عثمان بن سعيد، فقال له:

ـ «تيسّر للخروج إلى هذه المارقة، فإذا لقيتهم، فلا تعجل عجلة الخرق النزق، ولا تحجم إحجام الوانى الفرق. هل فهمت؟» قال:

١ الحرس كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط الحرث وهو خطأ
٢. المصراع تكملة من الطبرى (٨: ٩٠١).
٣ أبى العُصَيفر كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: أبى العصيفى وهو خطأ

ـ «نعم، أصلح الله الأمير، قد فهمت[1] ما قال.» [335] قال:

ـ «فاخرج، فعسكر بدير عبدالرحمان حتّى يخرج إليك الناس.» فقال:

ـ «أصلح الله الأمير، لا تبعثنّ معى أحداً من الجند المفلول[2] المهزوم، فإنّ الرعب قد دخل قلوبهم، وقد خشيت أن لا ينفعك والمسلمين منهم أحد.» قال

ـ «ذلك لك ولا أراك إلّا وقد أحسنت الرأى ووُفّقت.»

ثمّ دعا أصحاب الدواوين، فقال:

ـ «إضربوا على الناس بالبعث، فأخرجوا أربعة آلاف من الناس وعجّلوا.»

فجمعت العرفاء، وأجلس أصحاب الدواوين، وضربوا البعث [وأخرجوا أربعة ا][3] آلاف. فأمرهم بالمسكر، ثمّ نودى فيهم بالرحيل. ثمّ ارتحلوا ونادى منادى الحجّاج أن:

ـ «برئت الذمّة من رجل أصبناه من بعث الجزل متخلّفاً.»

فمضى الجزل بهم حتّى أتى المدائن، فأقام بها ثلاثاً، ثمّ خرج وبعث إليه ابن أبى عصيفر بفرس وبرذون وألفى درهم، ووُضع للناس من الجزر والعلف ما كفاهم ثلاثة أيام، وأصاب الناس من ذلك ما شاؤوا.

ثمّ إنّ الجزل خرج بالناس فى أثر شبيب، فطلبه فى أرض جوخى. فجعل شبيب يريه الهيبة، فيخرج من رستاق إلى رستاق، ومن طسّوج إلى طسوج يريد بذلك أن يفرّق [336] الجزل أصحابه، ويتعجّل إليه فيلقاه فى عدد يسير على غير تعبئة.

فجعل الجزل إلّا على تعبئة، ولا ينزل إلّا خندق على أصحابه. فلما طال ذلك على شبيب دعا يوماً أصحابه، وهم مائة وستون رجلاً، فجعل على كلّ أربعين

١. سقط من مط، من قوله: «قد فهمت» إلى قوله: «لا تبعثنّ».
٢. المفلول: كذا فى الأصل، وفى مط: المغلول! وهو خطأ.
٣. انمحاء فى الأصل. فأثبتنا ما بين [ ] كما فى مط

منهم رجلاً، فهو في أربعين، ومصاد أخوه في أربعين، وسويد بن سُليم في أربعين، والمحلّل[١] بن وائل في أربعين، وقد أتته عيونه أنّ الجزل بن سعيد قد نزل بئر سعيد، فقال لأخيه وللأمراء الذين ذكرناهم:

ـ «إنّي أُريد أن أُبيّت الليلة هذا العسكر، فانتهم أنت يا مصاد من قبل حلوان، وسآتيهم أنا من أمامهم من قبل الكوفة، وائتهم أنت يا محلّل من قبل المغرب، وليلج[٢] كلّ امرئ منكم على الجانب الذي يحمل عليه، ولا تقلعوا عنهم حتّى يأتيكم أمري.»

قال فروة بن لقيط: وكنت أنا في الأربعين الذين كانوا معه، فقال لجماعتنا:

ـ «تيسّروا، وليسر كلّ امرئ منكم مع أميره، ولينظر ما يأمر به أميره فليتّبعه.»

فلمّا قضمت دوابّنا، وذلك أوّل ما هدأت العيون، خرجنا حتّى انتهينا إلى دير الخرّارة[٣]، فإذا للقوم مسلحة عليهم عياض بن أبي لينة [337] فما هو إلّا أن رءاهم مصادٌ أخو شبيب حتّى حمل عليهم في أربعين رجلاً، وكان أمام شبيب، أراد أن يرتفع عليهم حتّى يأتيهم من ورائهم كما أمره، فلما لقي هؤلاء قاتلهم، فصبروا ساعة، وقاتلوهم. ثمّ إنّا دُفعنا إليهم جميعاً فهزمناهم، وأخذوا الطريق الأعظم، وليس بينهم وبين عسكرهم بدير يزدجرد إلّا نحو ميل. فقال لنا شبيب:

ـ «اركبوا معاشر المسلمين أكتافهم[٤] حتّى تدخلوا معهم عسكرهم إن استطعتم.»

فأتبعناهم ملظّين بهم، ملحّين عليهم، ما نرفّه عنهم وهم منهزمون، ما لهم همّة

---

١ وفي الأصل يأتي هذا الإسم بالجيم. وما في الطبري (٨: ٢-٩): المحلل، بالمهملة.

٢ وليُلجّ، كذا في الأصل. وما في مط والطبري (٨: ٤-٩): وليلج.

٣ الخرّارة، كذا في الأصل والطبري (٨ ٤-٩) وفي مط- الحرارة وفي حواشي الطبري. الجرارة. الجرارة

٤. أكتافهم. نقطة الحرف الثالث زالت في الأصل. فأثبتناها كما في مط. وما في الطبري (٨. ٥ ٩). أكنافهم. ويبدو أنّ الصحيح هو ما في مط بدليل قوله في الأسطر الآتية «وأحطب بعسكرهم».

إلّا عسكرهم. ومنهم أصحابهم أن يدخلوا عليهم ورشقوهم بالنبل، وكانت لهم عيون قد أتتهم فأخبرتهم بمكاننا. وكان الجزل قد خندق عليه وتحرّز، ووضع هذه المسلحة الذين لقيناهم، ووضع مسلحة أخرى ممّا يلي حلوان. فلمّا اجتمعت المسالح، ورشقوهم أصحابهم بالنبل، ومنعونا من خندقهم، نظر شبيب أنه لا يصل إليهم، فقال لأصحابه:

ـ «سيروا ودعوهم.»

فلما سار عنهم أخذ الطريق حلوان حتّى كان منهم على سبعة أميال، قال لأصحابه:

ـ «انزلوا، فأقضموا دوابّكم [338] وقيلوا وتروّحوا، وصلّوا ركعتين، ثمّ اركبوا.»

ففعلوا. ثمّ أقبل بهم راجعاً إلى عسكر أهل الكوفة، وقال:

ـ «سيروا على تعبئتكم التى عبّأتكم عليها أول الليل، وأطيفوا بعسكرهم كما أمرتكم.»

فأقبلنا معه، وقد أدخل أهل العسكر مسالحهم إليهم، وقد أمنوا، فما شعروا حتّى سمعوا وقع حوافر خيولنا، فانتهينا إليهم قبل الصبح، وأحطنا بعسكرهم، ثمّ صحنا بهم من كلّ ناحية، فإذا هم يقاتلوننا ويرموننا بالنبل من كلّ جانب، فقال شبيب لأخيه مصاد:

ـ «خلّ لهم سبيل الكوفة.»

وكان يقاتلهم من ذلك الوجه. فلما راسله أخوه شبيب بهذا، أقبل إليه، وجعلنا نقاتلهم من الوجوه الثلاثة، فلم نقدر أن نستغلّ منهم أحداً. فسرنا، فتركناهم، وخرج الجزل مع الصبح يتبعهم ويطلبهم، وجعل لا يسير إلّا على تعبئة، ولا ينزل إلّا على خندق، وكان شبيب يدعه ويضرب فى أرض جوخىٰ وغيرها يكسر الحجّاج، فطال ذلك على الحجّاج.

ذكر عجلة للحجّاج وسوء رأى له حتّى أهلك ذلك العسكر [339]

فكتب الحجّاج إلى الجزل كتاباً قُرِئ على الناس، نسخته:

ـ «أما بعد، فإنّى قد بعثتك فى فرسان أهل المصر ووجوه النـاس، وأمرتك باتّباع هذه المارقة وأن لا تقلع عنها حتّى تقتلها أو تفنيها. فوجدت التعريس[1] فى القرى والتخييم فى الخنادق أهون عليك من المضيّ لمناهضتهم ومناجزتهم.»

فشقّ ذلك على الجزل.

قال: فأرجفنا بأميرنا وقلنا: يعزل. فما لبثنا أن بعث الحجّاج على ذلك الجيش سعيد بن المجالد وعهد إليه أنه، إذا لقى المارقة، أن يزحف إليهم ولا يناظرهم ولا يطاولهم ولا يصنع صنيع الجزل. وكان الجزل يومئذ قد انتهى فى طلب شبيب إلى النهروان وقد لزم عسكره وخندق عليه.

وجاء سعيد حتّى دخل عسكر أهل الكوفة أميراً. فقام فيهم خطيباً. فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «يا أهل الكوفة، إنكم قد عجزتم ووهنتم وأغضبتم عليكم أميركم. أنتم فى طلب هذه الأعاريب العُقف[2] منذ شهرين، قد أخربوا بلادكم وكسروا خراجكم وأنتم حذرون فى جوف هذه الخنادق ولا تزايلونها إلّا أن يبلغكم أنهم قد ارتحلوا عنكم [340] ونزلوا بلداً سوى بلدكم. أخرجوا على اسم الله إليهم.»

فخرج وأخرج الناس معه، وجمع إليه خيول أهل العسكر، فقال له الجزل:

ـ «ما تريد أن تصنع؟» قال:

---

١ التعريس كذا فى مط والطبرى ٩٠٧٠٨ وما فى الأصل قريب إلى كونه التعريش (بالشين المعجمة) عرّس المسافرون: نزلوا آخر الليل للراحة. عرّش علان بنى عريشاً والعريش: السقف أو ما يُستظلّ به

٢ العقف: كذ فى الأصل ومط وفى الطبرى: العجف. وفى حواشيه: العقف.

ـ «أريد أن أقدم على شبيب فى هذه الخيل.» فقال له الجزل.

ـ «أقم أنت فى جماعة الناس فارسهم وراجلهم ودعنى أصحر له، ولا تفرّق أصحابك، فإنّ ذلك شرّ لهم وخير لك.» فقال له:

ـ «قف أنت فى الصفّ.» فقال:

ـ «يا سعيد بن مجالد، ليس لى ما صنعت رأى، أنا برىء من رأيك هذا. سمع الله ومن حضر من المسلمين.» فقال:

ـ «هو رأى إن أصبت فالله وفّقنى، وإن يكن غير صواب فأنتم منه برآء.»

قال: فوقف الجزل فى صفّ أهل الكوفة، وقد أخرجهم من الخندق، وجعل على ميمنتهم عياض بن أبى لينة الكندى، وعلى ميسرتهم عبدالرحمان بن عوف أبا حميد الراسبى[١]. ووقف الجزل فى جماعتهم واستقدم سعيد بن مجالد، فخرج وأخرج الناس معه وقد أخذ شبيب إلى براز الروز، فنزل قطيطا[٢]، وأمر دهقانها أن يشترى لهم ما يصلحهم ويتخذ لهم غداء.

ففعل. فدخل مدينة قطيطا، وأمر بالباب فأغلق، فلم يفرغ [341] [من الغداء][٣] حتّى أتاه سعيد بن مجالد فى أهل العسكر. فصعد الدهقان ثمّ نزل قد تغيّر لونه، فقال:

ـ «ما لك؟» قال:

ـ «قد والله جاءك جمع عظيم.» فقال:

ـ «بلغ شواؤك؟» قال:

ـ «لا.» قال:

ـ «دعه.»

---

١ الراسبى: كذا فى الأصل ومط وما فى الطبرى (٨: ٩٠٨): الرواسى.

٢ قطيطا: كذا فى الأصل ومط وما فى الطبرى (٨: ٩٠٩): قطيطيا.

٣. ما بين [ ] تكملة من الطبرى (٨: ٩٠٩).

قال: ثمّ أشرف إشرافة أُخرى، فقال:

ـ «قد أحاطوا بالجوسق.» قال:

ـ «هات شواءك.»

فجعل يأكل غير مكترث لهم. فقال لمّا فرغ:

ـ «قوموا إلى الصلاة.»

وقام وتوضّأ وصلّى بأصحابه الأُولى، ولبس درعه وتقلّد سيفه وأخذ عمود حديد، ثمّ قال:

ـ «أسرجوا لي البغلة.» فقال أخوه مصاد:

ـ «أفي هذا اليوم تسرج بغلة؟» قال:

ـ «نعم، أسرجوها.»

فركبها، ثمّ قال:

ـ «يا فلان أنت على الميمنة، وأنت يا فلان على الميسرة.» وقال لمصاد:

ـ «أنت على القلب.»

وأمر الدهقان، ففتح الباب في وجوههم، فخرج إليهم وهو يحكّم، فجعل سعيد وأصحابه يرجعون القهقرىٰ حتّى صار بينهم وبين الدير ميل، وجعل سعيد يصيح:

ـ «يا معشر همدان، أنا ابن ذي مرّان، إليّ إليّ.»

ونزع سرابانة[1] كانت عليه. فنظر شبيب إلى مصاد فقال له:

ـ «استعرضهم استعراضاً. فإنّهم قد تقطّعوا. فإنّي حامل على أميرهم، وأثكلنيك الله إن لم أثكل ولده.»

ففعل مصاد ما أمره به [342] وحمل هو على سعيد بن مجالد، فعلاه بالعمود، فسقط ميّتاً وانهزم أصحابه، وما قتل منهم يومئذ إلّا قتيل واحد. وانكشف

---

١ سرابانة. كذا في الأصل وما في مط: سربانة. وفي الطبري (٨: ٩١٠): وأخذ قلنسوته ووضعها على قربوس سرجه

أصحاب سعيد بن مجالد حتّى انتهوا إلى الجزل، فناداهم الجزل:

ـ «أيها الناس، إليّ إليّ.»

وناداهم عياض بن أبي لينة:

ـ «أيها الناس، إن يكن أميركم هذا القادم هلك، فهذا أميركم الميمون النقيبة[١]. أقبلوا إليه.»

فأقبلوا إليه. فمنهم من أقبل إليه، ومنهم من ركب رأسه منهزماً. وقاتل الجزل قتالاً شديداً حتّى صرع، وقاتل عنه خالد بن نهيك وعياض بن أبي لينة حتّى استنقذاه وهو مرتثّ، وأقبل الناس منهزمين حتّى دخلوا الكوفة، وأتي بالجزل حتّى دخل المدائن، وكتب إلى الحجّاج بن يوسف:

ـ «أما بعد، فإنّي أخبر الأمير، أصلحه الله، أنّي خرجت من الجند الذي وجّهني فيه إلى عدوّه، وقد كنت حفظت عهد الأمير إليّ فيهم ورأيه. فكنت أخرج إليهم إذا رأيت الفرصة، وأحبس الناس عنهم إذا خشيت الورطة، فلم أزل كذلك وقد أرادني العدوّ بكلّ ريدة، فلم يُصب منّي غرّة حتّى قدم عليّ سعيد بن مجالد رحمه الله، فأمرته بالتؤدة، ونهيته عن المجلة، وأمرته ألّا يقاتلهم إلّا في جماعة الناس عامّة [343] فعصاني وتعجّل إليهم في الخيل، وكنت أشهدت الله عليه وأهل المصرين، أنّي[٢] بريء من رأيه الذي رأى، وأنّي لا أهوىٰ ما صنع. فمضى، تجاوز الله عنه، ودُفع الناس إليّ، فنزلت ودعوتهم إليّ، ورفعت لهم رايتي، وقاتلت حتّى صرعت فحملني أصحابي من بين القتلىٰ، فما أفقت إلّا وأنا في أيديهم على رأس ميل من المعركة، فأنا اليوم بالمدائن في جراحات قد يموت الإنسان من دونها، ويعافى من مثلها. فليسأل الأمير، أصلحه الله، عن نصيحتي له ولجنده، وعن مكايدتي عدوّه، وعن موقفي يوم البأس. فإنّه يستبين له عند ذلك

---

١. الميمون النقيبة: كذا في الأصل والطبري (٨: ٩١٠). وما في مط: الميمون النقيبة !

٢. في الأصل: وأنّي (بزيادة الواو) والواو ليست في الطبري (٨: ٩١٣).

أنّي قد صدقته ونصحت له. والسلام.»

فكتب إليه الحجّاج:

ـ «أما بعد، فقد أتاني كتابك وقرأته وفهمت كلّ ما ذكرته فيه من أمر سعيد وأمر نفسك وقد صدّقتك في نصيحتك لأميرك، وحيطتك على أهل مصرك، وشدّتك على عدوّك وقد رضيت عجلة سعيد وتؤدتك. فأمّا عجلته فإنّها أفضت به إلى الجنة وأما تؤدتك فإنها مالم تدع الفرصة إذا أمكنتك، حزم، وقد أحسنت وأصبت وأجرت، وأنت عندى من أهل السمع، والطاعة والنصيحة، وقد أشخصت إليك حيّان[1] بن أعسر [344] ليداويك ويعالج جراحتك، وبعثت إليك بألفى درهم، فأنفقها في حاجتك وما ينوبك. والسلام.»

وبعث عبدالله بن أبى عصيفر إلى الجزل بألف درهم، وكان يعوده ويتعاهده باللُّطف والهديّة.

وأقبل شبيب حتّى قطع دجلة عند الكرخ، وبعث إلى سوق بغداد، وكان ذلك يوم سوقهم، فأمنهم، وكان بلغه أنهم يخافونه، وهو وأصحابه يريدون أن يشتروا من السوق دوابّ وثياباً وأشياء ليس لهم منها بدّ. ثمّ أخذ بهم نحو الكوفة، فساروا، وبلغ الحجّاج مكانه بحمّام [أعين][2] فبعث إلى سويد بن عبدالرحمان السعدى، فجهّزه في ألفى فارس نقاوة وقال له:

ـ «أخرجْ إلى شبيب، فالقه واجعل ميمنة وميسرة، ثمّ انزل إليهم في الرجال، فإن استطرد لك فدعه ولا تتّبعه.»

فخرج، فعسكر بالناس بالسبخة، وبلغه أنّ شبيباً قد أقبل فسار نحوه وكأنما يساقون إلى الموت. وأمر الحجّاج عثمان بن قطن فعسكر بالناس في السبخة، ونادىٰ:

---

١ حيّان بن أعسر كذا في الأصل حيان اعسرا وما في الطبري: حيّان بن أبجر.

٢ بحمّام [أعين] الأصل غير واضح. وما أثبتناه بين [ ] من مط

ـ «ألا، برئت الذمّة من رجل من هذا الجند بات الليلة بالكوفة ولم يخرج إلى عثمان بن قَطَن بالسبخة.»

فبينا سويد بن عبدالرحمان يسير في الألفين الذين معه وهو يحثّهم [345] ويحرّضهم، إذ قيل له:

ـ «قد غشيك شبيب.»

فنزل، ونزل معه جُلّ أصحابه، وقدّم رايته، فأُخبر أنّ شبيباً لمّا أُخبر بمكانك، تركك، ووجد مخاضة فعبر الفرات يريد الكوفة من غير الوجه الذي أنت به. ثمّ قيل لهم:

ـ «أما تراهم؟»

فنادى في أصحابه، فركبوا في آثارهم وإنّ شبيباً أتى دار الرزق، فنزلها، فقيل له:

ـ «إنّ أهل الكوفة بأجمعهم معسكرون.»

فلمّا بلغ مكان شبيب، ماج بعضهم في بعض، وجالوا وهمّوا بدخول الكوفة حتّى قيل لهم:

ـ «هذا سويد بن عبدالرحمان في آثارهم قد لحقهم وهو يقاتلهم في الخيل.»

ومضى شبيب حتّى أخذ على شاطئ الفرات، ثمّ أخذ على الأنبار، ثمّ دخل دقوقا، ثمّ ارتفع إلى أداني آذربيجان. فتركه الحجّاج، وخرج إلى البصرة، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة. فما شعر الناس بشيء حتّى جاء كتاب مادرواسب دهقان بابل مهروذ إلى عروة بن المغيرة بن شعبة أنّ تاجراً من تجّار أهل بلادي أتاني يذكر أنّ شبيباً يريد أن يدخل الكوفة في أول هذا الشهر المستقبل، وأحببت إعلامك لترىٰ رأيك ثمّ لم ألبث أن جاءني جائيان [346] من

جيراني. فحدّثاني أنه قد نزل خانيار[1].

فأخذ عروة كتابه، فأدرجه وسرّح به إلى الحجّاج بالبصرة. فلما قرأه الحجّاج أقبل جادّاً إلى الكوفة، وأقبل شبيب حتّى انتهى إلى قرية يقال لها: حزى، على شاطئ دجلة، فعبر منها، وقال لأصحابه:

ـ «يا هؤلاء، إنّ الحجّاج ليس بالكوفة وليس دون الكوفة شيء إن شاء الله، فسيروا بنا.»

فخرج يبادر الحجّاج إلى الكوفة.

وكتب عروة إلى الحجّاج:

ـ «إنّ شبيباً أقبل مسرعاً يريد الكوفة، فالعجل العجل.»

فطوى الحجّاج المنازل، واستبقا إلى الكوفة: فنزلها الحجّاج صلاة العصر، ونزل شبيب السبخة صلاة المغرب والعشاء الآخرة، ثمّ أصاب هو وأصحابه من الطعام شيئاً يسيراً، ثمّ ركبوا خيولهم. فدخل الكوفة، وجاء شبيب حتّى انتهى إلى السوق، ثمّ شدّ حتّى ضرب باب القصر بعموده.

قال: فحدّثني جماعة أنهم رأوا ضربة شبيب باب القصر، ثمّ أقبل حتّى وقف عند المصطبة[2] وقال:

وكــأنّ حـافرها بكـلّ خميلةٍ   فرقٌ[3] يكيلُ بـه شـحيحٌ مُـعدِمُ

ثمّ اقتحم أصحابه المسجد، وكان لا يفارقه قوم يصلّون فيه، فقتل جماعة. ومرّ بدار [347] حوشب وهو على الشرط، فوقفوا على بابه وقالوا:

۱. وفي الطبري: خانيجار، بدل. خانيار

۲ المصطبة: سِندان الحدّاد. المِصطَبة والمِصطبّة: مكان ممهّد قليل الإرتفاع عن الأرض يُجلس عليه.

۳ فرق كذا في الأصل ومط وما في الطبري (۸ ـ ۹۱۷) كيل. وفي بعض الأصول: قرو

ـ «إنّ الأمير يدعو حوشباً.»

فأخرج ميمونٌ غلامَه برذونَ حوشبٍ فكأنّه أنكرهم وأراد أن يدخل إلى صاحبه، فقالوا له:

ـ «كما أنت حتّى يخرج صاحبك.»

فسمع حوشب الكلام، فأنكر القوم، فلما رأى جماعتهم أنكرهم وذهب لينصرف فعجّلوا نحوه، ودخل وأغلق الباب وقتلوا غلامه ميموناً وأخذوا برذونه ومضوا، حتّى مرّوا بالجحّاف بن بسيط الشيباني من رهط حوشب، فقال له سويد:

ـ «انزل إلينا.» فقال:

ـ «ما تصنع بنزولي؟» قال سويد:

ـ «إنزل أقضك ثمن البكرة التي كنت ابتعتُها منك بالبادية.»

فقال له الجحّاف:

ـ «بئس ساعة القضاء هذه الساعة، وبئس المكان لقضاء الدّين، أما ذكرت أداء أمانتك إلّا والليل مظلم وأنت على متن فرسك! قبّح الله ديناً لا يصلح ولا يتمّ إلّا بقتل وسفك لدماء أهل القبلة.»

ثمّ مرّوا بمسجد بني ذهل، فلقوا ذهل بن الحارث، وكان يصلّي في مسجد قومه فيطيل الصلاة، فصادفوه منصرفاً إلى منزله، فقتلوه. ثمّ خرجوا متوجّهين نحو الرحمة، وأمر الحجّاج فنودي:

ـ «يا خيل الله اركبي وأبشري.»

وهو فوق القصر [348] وهناك مصباح مع غلام له قائم. فكان أول من جاء من الناس عثمان بن قطن ومعه مواليه وناس من أهله، فقال:

ـ «أعلموا الأمير مكاني، أنا عثمان بن قطن، ليأمرني بأمره.»

فناداه ذلك الغلام:

ـ «قف مكانك حتّى يأتيك أمر الأمير.»

وجاء الناس من كلّ جانب، وبات عثمان فی من اجتمع إليه من النـاس حتّى أصبح.

وكان عبدالملك بن مروان قد بعث محمد بن موسى بن طلحة على سجستان، وكتب له عليها عهده، وكتب إلى الحجّاج:

ـ «إذا قدم عليك محمد بن موسى بن طلحة مجهّز معه ألفى رجل، وعـجّل سراحه إلى سجستان.»

فلما قدم محمد بن موسى الكوفة جعل يتحبّس ويتجهّز. فقال له نصحاؤه:

ـ «تعجّل أيها الرجل إلى عملك، فإنّك لا تدرى ما يحدث.»

فأقام على حاله وحدث من أمر شبيب ما حدث.

حيلة الحجّاج على محمد بن موسى حتّى حارب الخوارج وقتل

فقيل للحجّاج:

ـ «إن سار هذا إلى سجستان مع نجدته وصهره لعبدالملك فلجأ إليه مـمن تطلب أحد، منعك[ا] منه؟» قال:

ـ «فما الحيلة؟» قالوا:

ـ «تأتيه فتسلّم عليه وتذكر نجدته وبأسه وأنّ شبيباً فى طريقه وقد أعياك، وأنّك ترجو أن يريح الله منه على [349] يديه، فيكون له ذكر ذلك[1] وشهرته.»

فكتب إليه الحجّاج:

ـ «إنّك عامل على كلّ بلد مررت به، وهذا شبيب فى طريقك تجاهد ومن معه ولك ذكره وصيته، ثمّ تمضى إلى عملك.» فاستجاب له.

---

١ ذلك: كذا فى الأصل وفى مط: لك، وهو خطأ.

ثمّ إنّ الحجّاج بعث بشر[1] بن غالب الأسديّ في ألفي رجل وزيادة بن قدامة في ألفين، وأبا الضريس مولى تميم في ألف من الموالي، وأعين صاحب حمّام أعين مولى بشر بن مروان في ألف، وجماعة غيرهم. واجتمع تلك الأمراء في أسفل الفرات. فترك شبيب الوجه الذي فيه جماعة أولئك القوّاد، وأخذ نحو القادسيّة. فوجّه الحجّاج زحر بن قيس في جريدة خيل نُقاوة ألف وثمانمائة فارس، وقال له:

ـ «اتّبع شبيباً حتّى تواقعه حيث ما أدركته ما لم يعطف عليك وينزل فيقيم لك فلا تبرح حتّى تواقعه.»

فخرج زحر حتّى انتهى إلى السيلحين، وبلغ شبيباً مسيره إليه، فأقبل نحوه فالتقيا، فجعل زحر على ميمنته عبدالله بن كناز[2] الهوديّ، وكان شجاعاً وعلى ميسرته عديّ بن عميرة الكنديّ، وجمع شبيب خيله كلّها كبكبة واحدة، ثمّ اعترض بها الصفّ يوجف وجيفاً حتّى انتهى إلى زحر بن قيس. فنزل زحر فقاتل [350] حتّى صرع وانهزم أصحابه. فظنّ القوم أنّهم قتلوه. فلمّا كان في السحر وأصابه البرد قام يمشي حتّى دخل قرية فبات فيها وحُمل منها إلى الكوفة وبوجهه أربع[3] عشرة ضربة. فمكث أياماً ثمّ أتى الحجّاج وعلى وجهه القُطن، فأجلسه معه على السرير.

وقال أصحاب شبيب لشبيب، وهم يظنّون أنّهم قتلوا زحراً:

ـ «قد هزمنا لهم جنداً، وقتلنا أميراً من أمرائهم عظيماً. إنصرف بنا الآن وافرين[4].» فقال لهم:

١ بشر بن غالب: كذا في الأصل والطبري (٨: ٩٢٣). وما في مط: بشير بن غالب.

٢. كذا في الأصل: كناز. وما في مط: كنان.

٣ في الأصل: أربعة (بالتأنيث) فصححنا العدد كما في مط.

٤ وافرين: في الأصل: عوص. وما أثبتناه يؤيده الطبري (٨: ٩٢٢) ومط. وفي بعض الأصول: وافرين

ـ «إنّ قتلنا هذا الرجل وهزمنا هذا الجند قد أرعبت هذه الأُمراء، فاقصدوا بنا قصدهم، فوالله لئن نحن قتلناهم، ما دون قتل الحجّاج وأخذ الكوفة شيء.»

فقالوا:

ـ «نحن طوع أمرك، فرأيك.»

قال: فانقضّ[1] بهم جواداً حتّى أتى نجران الكوفة بناحية عين التمر، ثمّ استخبر عن القوم فعُرّف اجتماعهم بروذآباد فى أسفل الفرات على رأس أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة، وبلغ الحجّاج مسير شبيب إليهم، فبعث إليهم يقول لهم:

ـ «إن جمعكم قتال، فأميركم زايدة بن قدامة.»

قال عبدالرحمن: فانتهى إلينا شبيب وفينا سبعة أمراء، على جماعتهم زايدة بن قدامة، وقد عبّى [351] كلّ أمير أصحابه على حدة وهو واقف فى أصحابه. فأشرف على الناس شبيب وهو على فرس له كميت أغرّ، فنظر إلى تعبئتهم، ثمّ رجع إلى أصحابه، فأقبل فى ثلاث كتائب يوجفون، حتّى إذا دنا من الناس مضت كتيبة فيها سويد بن سليم، فيقف فى ميمنتنا، وفيها زياد بن عمرو العتكيّ، ومضت كتيبة فيها مصاد أخو شبيب، فوقفت بإزاء ميسرتنا، وفيها بشر بن غالب الأسدي، وجاء شبيب فى كتيبة حتّى وقف مقابل القلب.

قال: فخرج زايدة بن قدامة يسير فى الناس بين الميمنة والميسرة يحرّض الناس ويقول:

ـ «عباد الله، إنكم الطيّبون الكثيرون، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون. اصبروا، جعلت لكم الفداء لكرّتين أو ثلاث، ثمّ هو النصر، ليس دونه شيء إلّا ترونهم. والله ما يكونون مائتى رجل، إنما هم أكلة رأس، وهم السرّاق المرّاق، إنّما

---

١. فانقضّ بهم جواداً: كذا فى الأصل والطبرى، وما فى مط: فانقض بهم جاداً! وفى بعض الأصول: فما مضوا لهم.

جاوَزوكم ليهريقوا دماءكم ويأخذوا فيئكم[1]، فلا يكونوا على أخذه أقوىٰ منكم على منعه، وهم قليل وأنتم كثير، وهم أهل فرقة وأنتم أهل جماعة، وغضّوا الأبصار واستقبلوهم بالأسنّة، ولا تحملوا عليهم حتّى آمركم.»

ثمّ انصرف إلى موقفه. [352]

وحمل سويد بن سليم على زياد بن عمرو، فانكشف صفّهم، وثبت زياد في جماعة، ثمّ ارتفع عنهم سويد قليلاً، ثمّ كرّ عليهم ثانية.

قال فروة بن لقيط: إطّعنّا ساعة وصبروا لنا حتّى ظننت أنهم لن يزولوا. وقاتل زياد بن عمرو قتالاً شديداً. فلقد رأيت سويد بن سليم يومئذ وإنّه لأشدّ العرب قتالاً وأشجعهم وما يعرض[2] لهم. قال: ثمّ ارتفعنا عنهم، فإذا هم يتقوّضون، فقال لنا أصحابنا:

ـ «ألا تراهم يتقوّضون؟ إحملوا عليهم.»

فرأسلنا شبيب:

ـ «خلّوهم حتّى يخفّوا.»

فتركوهم قليلاً، ثمّ حمل عليهم الثالثة، فانهزموا. فنظرت إلى زياد بن عمرو وإنّه ليضرب بالسيوف، وما من سيف يضرب به إلّا نبا عنه، ولقد اعتوره أكثر من عشرين سيفاً وهو مجفّف، فما ضرّه شيء منها. ثمّ إنّه والله انهزم. ثمّ انتهينا إلى محمد بن موسى بن طلحة عند المغرب، فقاتلنا قتالاً شديداً وصبرنا. ثمّ إنّ مصاداً حمل على بشر بن غالب في الميسرة، فصبر وأبلىٰ وكرم، ونزل معه رجال من أهل الصبر نحو خمسين، فضاربوا بأسيافهم حتّى قتلوا. فلما قتلوا انهزم أصحابه.

---

١. فيئكم. كذا في الأصل والطبري (٨: ٩٢٣). وما في مط.: فيكم.

٢. ما يعرض لهم. كذا في الأصل. وفي مط.: وما تعرض لهم. والعبارة في الطبري (٨: ٩٣٤): وإنّه لأشجع العرب وأشدّه قتالاً وما يعرض له.

قال: وشددنا على أبي الضريس فهزمناه حتّى انتهى إلى موقف أعين. [353]
ثمّ شددنا عليه وعلى أعين فهزمناهم حتّى انتهوا إلى زايدة بن قدامة. فلما انتهوا إليه، نزل ونادىٰ:

ـ «يا أهل الإسلام، الأرض الأرض، إليَّ إليَّ. لا يكونوا على كفرهم أصبر منكم على إيمانكم.»

فقاتل عامة الليل إلى السحر.

ثمّ إنّ شبيباً شدّ عليه في جماعة من أصحابه، فقتله ورِبْضةً[1] حوله من أهل الحفاظ.

وقال شبيب لأصحابه:

ـ «إرفعوا السيف عن الناس وادعوهم إلى البيعة.»

فدعوهم عند الفجر إلى البيعة. قال عبدالرحمن بن جندب: فكنت ممن قُدّم فبايعته وهو واقف على فرس وخيله واقفة دونه. فكلّ من جاء ليبايعه نُزع سيفه عن عاتقه وأخذ سلاحه، ثمّ يُدنىٰ من شبيب فيسلّم عليه بأميرالمؤمنين، ثمّ يبايع. فإنّا لكذلك، إذ أضاء الفجر. ومحمد بن موسى بن طلحة في أقصى العسكر مع أصحابه قد صبروا. وأمر مؤذنه فأذّن. فلما سمع الأذان قال:

ـ «ما هذا؟» قالوا:

ـ «هذا محمد بن موسى بن طلحة، لم يبرح.» قال:

ـ «ظننت أنّ حمقه وخيلاءه سيحمله على هذا. نحّوا هؤلاء عنّا، وانزلوا بنا فلنصلّ.»

---

١ والعبارة في الطبري (٨: ٩٢٥): فقتله وأصحابه وتركهم ربضة [وربضة ـ الهامش. حوله من أهل الحفاظ. وفي مط: وقتلوه وربضة حوله من أهل الحفاظ. والضبط في الأصل: «وربضّة» فضبطنا حسب الطبري: «ربْضة». الربضة: مقتل كلّ قوم قتلوا في موقعة واحدة. والربضة: الجثة. الجماعة من الغنم والناس.

فنزل، وأذّن هو، ثمّ استقدم، فصلّىٰ بأصحابه، فقرأ: ويلٌ لِكُلِّ [354] هُمَزَةٍ[1]، و. أرأيتَ الذي يُكذِّبُ بالدِّين[2]. ثمّ سلّم وركبوا.

فأرسل شبيب إلى محمد:

ـ «إنك امرؤ مخدوع، قد اتقى بك الحجّاج وأنت جار لي، ولك حقّ. فانطلق لما أُمرت به ولك الله ألّا أُريبك.»

فأبى إلّا محاربته. فأعاد إليه الرسول، فأبىٰ إلّا قتاله. فقال له شبيب:

ـ «كأنّي بأصحابك لو التقت حلقتا البطان، لأسلموك، فصُرعت مصرع أصحابك فأطعني وانطلق لشأنك، فإنّي أنفس بك عن القتل.»

فأبى ودعا إلى البراز، فبرز له البطين، ثمّ قعنب، ثمّ سويد، فأبىٰ إلّا شبيباً. فقالوا لشبيب:

ـ «قد رغب عنّا إليك.» قال:

ـ «فما ظنّكم؟ هم الأشراف.»

فبرز له شبيب، وقال:

ـ «أُنشدك الله في دمك، فإنّ لك جواراً.»

فأبىٰ. فحمل عليه بعموده الحديد، وكان فيه اثنى عشر رطلاً. فهشم بيضة عليه ورأسه، ثمّ نزل إليه فكفنه ودفنه. وابتاع ما غنموا له من عسكره، فبعث به إلى أهله واعتذر إلى أصحابه، قال:

ـ «هو جاري بالكوفة، ولي أن أهب ما غنمت لأهل الردّة.» فقال له أصحابه:

ـ «مادون الكوفة أحد يمنعها.»

فنظر، فإذا أصحابه قد جُرحوا. فقال لهم:

ـ «ما عليكم أكثر مما فعلتم.» [355]

---

١. س ١٠٤ الهُمزة: ١ ٢. س ١٠٧ الماعون: ١.

وخرج بهم إلى نفّر، ثمّ خرج بهم إلى بغداد نحو خانيجار، فأقام بها. ولما بلغ الحجّاج أنّ شبيباً قد أخذ نحو نفّر، ظنّ أنّه يريد المدائن وهي باب الكوفة، ومن أخذ المدائن كان ما في يديه من أرض الكوفة أكثر. فهال ذلك الحجّاج، وبعث إلى عثمان بن قطن، وسرّحه إلى المدائن وولّاه منبرها والصلاة ومعونة جوخى كلها وخراج الإسنان. فخرج مسرعاً حتّى نزل المدائن، وعزل الحجّاج ابن أبي عصيفر، وكان بها الجزل مقيماً يداوي جراحاته. وكان ابن أبي عصيفر يعوده ويكرمه ويلطفه. فلما قدم عثمان بن قطن لم يكن يتعاهده ولا يلطفه بشيء. فكان الجزل يقول:

ـ «اللّهمّ زد ابن أبي عصيفر جوداً، وزد عثمان بن قطن ضيقاً وبخلاً.»

ثمّ إنّ الحجّاج دعا عبدالرحمان بن محمد بن الأشعث، فقال له:

ـ «انتخب الناس.»

وأخرج من قومه ستمائة من كندة، ومن سائر الناس ستة آلاف، واستحثّه الحجّاج، فعسكر بدير عبدالرحمان. فلما أراد الحجّاج إشخاصهم كتب إليهم كتاباً قُرئ عليهم. [356]

ـ «أما بعد، فقد اعتدتم[1] عادة الأذلّاء وولّيتم الدبُر[2] يوم الزحف دأب الكافرين. وإنّي قد صفحت عنكم مرّة بعد مرّة، وتارة بعد أخرى. وإنّي أقسم لكم بالله قسماً صادقاً، لئن عدتم لذلك لأُوقعنّ بكم إيقاعاً أكون به أشدّ عليكم من هذا العدوّ الذي تهربون منه في بطون الأودية والشعاب، وتستترون منه بأثناء الأنهار وألواذ الجبال. فخاف من كان له معقول على نفسه، ولم يجعل عليها سبيلاً، وقد أعذر من أنذر، والسلام.»

وارتحل عبدالرحمان في الناس حتّى مرّ بالمدائن، فنزل بها يوماً حتّى تشترى

---

١ اعتدتم: كذا في الأصل وما في مط: تعدتم.   ٢ الدبُر: كذا في الأصل وما في مط: الدبور.

به أصحابه حوائجهم، ثمّ نادى في الناس بالرحيل، فارتحلوا ثمّ أقبل حتّى دخل على عثمان بن قطن، ثمّ أتى الجزل، فسأله عن[1] جراحته. وحدّثه ساعة. فقال له الجزل:

ـ «يابن عمّ، إنّك تسير إلى فرسان العرب، وأبناء الحرب، وأحلاس الخيل[2] والله لكأنّما خلقوا من ضلوعها، ثمّ بُنوا على ظهورها، ثمّ هم أُسْد الأجم[3] الفارس منهم أشدّ من مائة، إن لم يُبدأ به بدأ، وإن هجهج أقدم. وإنّي قد قاتلتهم وبلوتهم، [357] فإذا أصحرت لهم انتصفوا منّي وكان لهم الفضل عليّ وإذا خندقت عليّ أو قاتلتهم في مضيق نلت منهم ما أحبّ، وكان لي عليهم، فلا تلقهم وأنت تستطيع، إلّا في تعبئة أو خندق.»

ثمّ ودّعه، وقال له الجزل:

ـ «هذه فرسي الفسيفساء، خذها فإنّها لا تُجارى.»

فأخذها. ثمّ خرج بالناس نحو شبيب. فلمّا دنا منه ارتفع عنه شبيب إلى دقوقا وشهرزور. فخرج عبدالرحمان في طلبه حتّى إذا كان على التخوم، أقام، وقال:

ـ «إنّما هو في أرض الموصل. فليقاتلوا عن بلادهم أو ليدَعوا[4]»

فكتب إليه الحجّاج:

ـ «أمّا بعد، فاطلب شبيباً واسلك في أثره أين سلك، حتّى تدركه فتقتله، أو تنفيه. فإنّما السلطان سلطان أميرالمؤمنين، والجند جنده. والسلام.»

---

١ في الأصل: فسأله به من جراحته وفي مط والطبري: فسأله عن جراحته، فأثبتنا العبارة كما في الأخيرين.

٢ أحلاس الخيل: كذا في الأصل والطبري (٨: ٩٣١). وما في مط: احلاس الحبل!

٣ الأجم: كذا في الأصل والطبري. وما في مط: الآجام.

٤ ليدعوا: كذا في الأصل ومط. وفي الطبري (٨: ٩٣١): ليدعوه. وفي بعض الأصول: ليدعوا.

فخرج عبدالرحمان حتّى قرأ الكتاب في طلب شبيب. فكان شبيب يدعه حتّى إذا دنا منه يبيّته فيجده قد خندق، وحذر، فيمضي ويدعه، فيتبعه عبدالرحمان. فإذا بلغه أنه قد تحمّل، وأنه يسير، أقبل في الخيل. فإذا انتهى إليه، وجده قد صفّ الخيل والرجّالة المرامية، [358] فلا تصيب له غرة ولا غفلة، فيمضي ويدعه. ولما رأى شبيب أنه لا يصيب غرته، ولا يصل إليه، جعل يخرج، كلّما دنا منه عبدالرحمان حتّى ينزل على مسيرة عشرين فرسخاً منه، ثمّ يقيم في أرض غليظة خشنة، فيجيء عبدالرحمان في خيله وثقله، حتّى إذا دنا من شبيب ارتحل عنه شبيب، فسار خمسة عشر فرسخاً أو عشرين فرسخاً، فنزل منزلاً غليظاً خشناً، ثمّ يقيم حتّى يدنو عبدالرحمان. فكان شبيب قد عذّب ذلك العسكر، وشقّ عليهم، وأحفىٰ دوابّهم، ولقوا منه كلّ بلاء. فلم يزل عبدالرحمان يتبعه حتّى مرّ به على خانقين، ثمّ جلولاء، ثمّ تامرّا[1]، ثمّ أقبل إلى البتّ ونزل بها، وعلى تخوم الموصل، ليس بينها وبين سواد الكوفة إلّا نهر حَولايا. وجاء عبدالرحمان حتّى نزل شرقيّ حَولايا وهو في راذان الأعلى من أرض جوخىٰ، ونزل في عواقير[2] من النهر، ونزلها عبدالرحمان حيث نزلها وهي تعجبه، يرىٰ أنها مثل الخندق والحصن، وأرسل إلى عبدالرحمان:

ـ «هذه الأيام أيّام عيد لنا ولكم. فإن رأيتم أن توادعونا حتّى تمضي هذه الأيام فعلتم.»

فأجابه عبدالرحمان [359] إلى ذلك ولم يكن شيء أحبّ إلى عبدالرحمان من المطاولة والموادعة

---

١. تامرّا: كذا في الأصل ومط والطبري (٨: ٩٣٢) وفي بعض الأصول: سامرّا. تامرّا: نهر كبير تحت بغداد شرقيّها، مخرجه من جبال شهرزور مما يجاورها ويسب إليه طسوج من طساسيج بغداد (مراصد الاطلاع).

٢. عواقير: كذا في الأصل. وفي مط: عواقير. وما في الطبري: عواقيل.

فكتب عثمان بن قطن إلى الحجّاج:

ـ «أما بعد، فإنّي أُخبر الأمير، أصلحه الله، أنّ عبدالرحمان بن محمد بن الأشعث قد حفر جوخىٰ كلّها خندقاً واحداً، وخلّى شبيباً، وكسر خراجها، فهو يأكل أهلها. والسلام.»

وكتب إليه الحجّاج:

ـ «قد فهمت ما ذكرت، وقد ـ لعمري ـ فعل عبدالرحمان غير مرضيّ، فسر إلى الناس، فأنت أميرهم، وعاجل المارقة حتّى تلقاهم.»

وبعث الحجّاج إلى المدائن مطرّف بن المغيرة بن شعبة، وخرج عثمان حتّى قدم على عبدالرحمان ومن معه وهم معسكرون على نهر حولايا قريباً من البتّ وذلك يوم التروية عشائاً. فنادى الناس وهو على بغله:

ـ «أيها الناس، أخرجوا إلى عدوّكم.»

فوثب إليه الناس فقالوا:

ـ «نُنشدك الله، هذا المساء قد غشينا، والناس لم يوطّنوا أنفسهم على القتال، فبت الليلة، ثمّ اخرج على تعبئة.»

فجعل يقول:

ـ «لأُناجزنّهم، فلتكوننّ الفرصة لي أو لهم.»

فأتاه عبدالرحمان، فأخذ بعنان بغلته وناشده الله لما نزل، وقال له عقيل بن شدّاد السلولي:

ـ «إنّ الذي تريد من مناجزتهم الساعة، أنت فاعله غداً وهو خير لك وللناس. [360] إنّ هذه ساعة ريح[1] وغبرة وقد أمسيت، فانزل، ثمّ ابكر بنا غدوة.»

فنزل، فسفت عليه الريح، وشقّ عليه الغبار، ودعا صاحب الخراج العلوج،

---

١ في مط: ريح.

فبنوا له قبّة وبات فيه ثمّ أصبح وخرج بالناس، فاستقبلهم ريح شديدة وغبرة. فصاح الناس إليهم وقالوا:

ـ «ننشدك الله أن تخرج بنا في هذا اليوم، فإنّ الريح علينا.»

فأقام ذلك اليوم، وكان شبيب يخرج إليهم. فلما رءاهم لم يخرجوا إليه أقام فلما كان من الغد خرج عثمان يعبّئ الناس على أرباعهم، وسألهم:

ـ «من كان على ميمنتكم وميسرتكم؟» قالوا:

ـ «كان خالد بن نهيك بن قيس الكندى على ميسرتنا، وعقيل بن شدّاد السلولى كان على ميمنتنا.» فقال لهما.

ـ «قفا مواقفكما التي كنتما بها، فقد ولّيتكما المجنّبتين، فاثبتا ولا تفرّا، فوالله لا أزول حتّى تزول نخيل راذان عن أصولها.» فقالا:

ـ «فنحن والله الذي لا إله إلّا هو، لا نفرّ حتّى نظفر أو نقتل.» فقال لهما:

ـ «جزاكما الله خيراً.»

ثمّ أقام حتّى صلّى بالناس الغداة، ثمّ خرج بالخيل، ونزل يمشي في الرجال.

وخرج شبيب وهو يومئذ في مائة [361] وأحد وثمانين رجلاً. فقطع إليهم النهر، وكان هو في ميمنة أصحابه، وجعل على ميسرته سويد بن سُليم، وجعل في القلب مصاداً أخاه. وزحفوا. وكان عثمان بن قطن يقول فيكثر:

ـ «لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل، وإذاً لا تمتّعون إلّا قليلاً[1].»

ثمّ قال شبيب لأصحابه:

ـ «إنّي حامل على ميسرتهم مما يلي النهر، فإذا هزمتها فليحمل صاحب ميسرتي على ميمنتهم، ولا يبرح صاحب القلب حتّى يأتيه أمري.»

---

١ س ٣٣ الأحزاب: ١٦.

وحمل[1] فى ميمنه أصحابه مما يلى النهر على ميسرة عثمان بن قطن، فانهزموا، ونزل عقيل بن شدّاد مع طائفة من أهل الحفاظ، فقاتل حتّى قتل، وقتلوا معه. ودخل شبيب عسكرهم، وحمل سويد بن سُليم فى ميسرة شبيب على ميمنة عثمان بن قطن، فهزمها وعليها خالد بن نهيك الكندى. فنزل خالد فقاتل قتالاً شديداً، وحمل عليه شبيب من ورائه، فلم ينثن حتّى علاه بالسيف فقتله. ومشى عثمان بن قطن، وقد نزلت معه العرفاء وأشراف الناس والفرسان نحو القلب، وفيه أخو شبيب فى نحو من ستين رجلاً. فلما دنا منهم عثمان بن قطن شدّ عليهم فى الأشراف وأهل الصبر، فضربوهم حتّى فرّقوا بينهم. [362] وحمل شبيب من ورائهم بالخيل، فما شعروا إلّا والرماح فى أكتافهم يكبّهم لوجوههم. وعطف عليهم سويد بن سليم أيضاً فى خيله، ورجع مصاد وأصحابه، وقاتل عثمان بن قطن، فأحسن القتال. ثمّ إنهم شدّوا عليه، فأحاطوا به، وحمل عليه مصاد أخو شبيب، فضربه ضربة بالسيف استدار لها، وقال:

ـ «وكان أمر الله قدراً مقدوراً[2].»

ثمّ إنّهم قتلوه، وقتل معه العرفاء ووجوه الناس، فقتل من كندة يومئذ مائة وعشرون رجلاً، وقتل من سائر الناس نحو من ألف، ووقع عبدالرحمان بن محمد بن الأشعث، فعرفه ابن أبى سبرة، فنزل وناوله الرمح وقال له: إركب، فركب وارتدف ابن أبى سبرة وقال له عبدالرحمان:

ـ «ناد فى الناس: الحقوا بدير ابن أبى مريم.»

فنادى. ثمّ انطلقا ذاهبين، وأمر شبيب أصحابه، فرفعوا عن الناس السيف ودعاهم إلى البيعة، فأتاه من بقى من الرجال، فبايعوه. وبات عبدالرحمان بدير

---

١ وحمل كذا فى الأصل. والكلمة سقطت من مط.

٢. س ٣٣ الأحزاب: ٣٨.

النعار[1]، فأتاه فارسان. فخلا أحدهما بعبدالرحمان طويلاً يناجيه، وقام الآخر قريباً منهما، ثمّ مضى مع صاحبه، فكان الناس يتحدّثون أنّ ذاك كان شبيباً وأنه كان كاتبه. [363] ثمّ خرج عبدالرحمان آخر الليل، فسار حتّى أتى دير ابن أبي مريم، فإذا هو بأصحاب الخيل قد وضع لهم ابن أبي سبرة صُبَر[2] الشعير والقتّ كأنّها القصور ونحر لهم من الجزر ما شاؤوا، واجتمع الناس إلى عبدالرحمان فقالوا له:

ـ «إن علم شبيب بمكانك أتاك وكنت له غنيمة. قد تفرّق عنك الناس وقتل خيارهم، فالحق أيها الرجل بالكوفة.»

فخرج، وخرج معه الناس، وجاء حتّى اختبأ[3] من الحجّاج، إلى أن أخذ له الأمان بعد ذلك.

ثمّ إنّ شبيباً اشتدّ عليه الحرّ وعلى أصحابه، فأتى ماه بهراذان[4]، فتصيّف بها ثلاثة أشهر. وأتاه ناس ممن كان يطلب الدنيا كثير، ولحق به ناس ممن كان يطلبهم الحجّاج بمال وتباعات. فمنهم رجل يقال له: الحرّ بن عبدالله بن عوف، كان قتل دهقانين من أهل دَرقيط[5] كانا ضيفين عليه، ولحق بشبيب حتّى شهد معه مواطنه، حتّى قتل شبيب. وله مقام عند الحجّاج وكلام سلم به من القتل يجب أن نثبته. وهو أنّ الحجّاج، لمّا آمن بعد قتل شبيب كلّ من خرج إليه من أصحاب المال، خرج إليه الحرّ فى من خرج. فجاء أهل الدهقانين يستعدون عليه

---

١ النعار: كذا في الأصل ومط. وفي الطبري (٨: ٩٣٩): النعار. وفي حواشي الطبري: البقار، النعار، النعار وصور أخرى مهملة.

٢ صُبَر: جمع مفرده الصُبرة: الكومة من الطعام. يقال: اشترى الطعام صُبرة أي: جزافاً بلا كيل أو وزن.

٣ اختبأ: كذا في الأصل. وفي مط: اختبا. وما في الطبري: اختفى، اختبأ، اختبى.

٤ ماه بهراذان: ما في الأصل مهمل في الأول والثالث فضبطناه حسب الطبري (٨: ٩٤١) وفي حواشي الطبري عن الأصول والمخطوطات: نهراذان، بهزاذان، بهرادان.

٥ دَرقيط: نهر دَرقيط، كورة ببغداد من جهة الكوفة (ياقوت)

الحجّاج. فأُتي به. [364]

كلام للحرّ، لمّا أُتي به ليقتل، سلم به

فقال له الحجّاج:

ـ «يا عدوّ الله قتلت رجلين من أهل الخراج؟» فقال له:

ـ «قد كان ـ أصلحك الله ـ منّي ما هو أعظم من هذا.» قال:

ـ «وما هو؟» قال:

ـ «خروجي من الطاعة وفراقي الجماعة. ثمّ إنّك آمنت كلّ من خرج إليك وهذا أماني وكتابك لي.»

فقال له الحجّاج:

ـ «قد لعمري فعلتُ أولىٰ لك.»

وخلّى سبيله.

رجعنا إلى حديث شبيب. ثمّ إنّه لمّا انفسخ الحرّ عن شبيب خرج من ماه في نحو من ثمانمائة رجل. فأقبل نحو المدائن وعليها مطرف بن المغيرة بن شعبه. فجاء حتّى نزل قناطر حذيفة بن اليمان. فكتب ماذرواسب، وهو عظيم بابل مهروذ، إلى الحجّاج يخبره خبر شبيب. فقام الحجّاج في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «أيها الناس، لتقاتلنّ عن بلادكم وعن فيئكم[1] أو لأبعثنّ إلى قوم هم أطوع وأسمع وأصبر على البلاء منكم، فيقاتلون عدوّكم ويأكلون فيئكم.»

فقام إليه الناس من كلّ جانب يقولون:

ـ «نحن نقاتلهم ونُعتِب الأمير؛ فليندبنا إليهم. فإنّا حيث سرّه.»

---

١ فيئكم: كذا في الأصل. وما في مط: فيكم.

وقام إليه زهرة [365] بن حويّة. وهو يومئذ شيخ كبير، لا يستتمّ قائماً حتّى يؤخذ بيده، فقال:

ـ «أصلح الله الأمير. إنّك إنما تبعث الناس متقطّعين، فاستنفر الناس إليهم كافّة، وابعث عليهم رجلاً متيناً شجاعاً، محرباً مجرّباً ممن يرى الفرار هضماً وعاراً، والصبر مجداً وكرماً.»

فقال له الحجّاج:

ـ «فأنت ذاك. فاخرج!» فقال له:

ـ «أصلح الله الأمير. إنما يصلح الناس في هذا رجل يحمل الرمح والدرع، ويهزّ السيف ويثبت على متن الفرس، وأنا لا أطيق من هذا شيئاً. قد ضعفت وضعف بصري، ولكن أجري[1] في الناس مع أمير، فإنّي إنما أثبت على الرحالة، فأكون مع الأمير في عسكره، وأشير عليه برأي.»

فقال له الحجّاج:

ـ «جزاك الله عن الإسلام والطاعة في أوّل الإسلام وآخره خيراً. فقد نصحت وصدقت. أنا مخرج الناس كافّة، ألا، فسيروا أيها الناس.»

فانصرف الناس وجعلوا يتبسّرون[2] ولا يدرون من أميرهم.

ذكر رأي سديد للحجّاج

وكتب الحجّاج إلى عبدالملك بن مروان:

ـ «أما بعد، فإنّي أخبر أميرالمؤمنين، أكرمه الله، [366] أنّ شبيباً قد شارف المدائن، وإنّما يريد الكوفة، وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة، في كلّها تقتل أمراؤهم وتفلّ جنودهم. فإن رأى أميرالمؤمنين أن يبعث إليّ أهل الشام

---

١ أجري: كذا في الأصل وما في مط: أجرى. ٢. كذا في الأصل: يتبسّرون وفي مط: يسيرون

فيقاتلوا عدوّهم ويأكلوا بلادهم، فليفعل.»

فلما أتى عبدالملك كتابه، بعث إليه سفيان بن الأبرد في أربعة آلاف، وبعث إليه حبيب بن عبدالرحمان بن مذحج في ألفين، فسرّحهم حين أتاه كتاب الحجّاج، وكان بعث الحجّاج إلى عتّاب بن ورقاء ليأتيه، وكان على خيل الكوفة مع المهلّب وهم الجيش الذى كان بشر بن مروان بعث عليهم عبدالرحمان بن مخنف إلى قطرى، وقد أخبرنا في ما مضى بمقتل عبدالرحمان بن مخنف. فبعث الحجّاج عتّاب بن ورقاء على ذلك الجيش الذى أصيب فيهم عبدالرحمان، وكان جرى لعتّاب مع المهلّب كلام تأدّى إلى وحشة.

فلما أن جاء في هذا الوقت كتاب الحجّاج إلى عتّاب بن ورقاء بأن يأتيه، سُرّ بذلك، ودعا الحجّاج أشراف الكوفة، فيهم: زهرة بن حويّة، وقبيصة بن والق، فقال:

ـ «من ترون أن أبعث على هذا الجيش؟» فقالوا:

ـ «رأيك أيها الأمير [367] أفضل.»

ـ «فإنّى قد بعثت إلى عتّاب بن ورقاء، وهو قادم[1] عليكم الليلة، فيكون هو الذى يسير في الناس.»

قال زهرة بن حوّية:

ـ «أصلح الله الأمير، رميتهم بحجرهم، لا والله، ما يرجع إليك حتّى يظفر أو يقتل.»

ذكر رأى جيّد رءاه قبيصة بن والق

فقال قبيصة بن والق:

---

١. قادم: كذا في الأصل. وفي مط: مادر. وهو خطأ.

ـ «إنّى أُشير عليك برأى اجتهدته نصيحة لأميرالمؤمنين، وللأمير ولعامة المسلمين. إنّا قد تحدّثنا وتحدّث الناس. إنّ جيشاً فصل إليك من أهل الشام، وإنّ أهل الكوفة قد هزموا، وهان عليهم الفرار والعار من الهزيمة، فقلوبهم كأنّما هى فى قوم آخرين. فإن رأيت أن تبعث إلى جيشك الذى أُمددت به من أهل الشام فيأخذوا حذرهم، ولا يلبثوا إلّا وهم يرون أنهم مبيّتون، فعلت. فإنّك تحارب حُوّلاً قُلّباً، ظعّاناً رُحّالاً، وقد جهّزت إليه أهل الكوفة، ولست واثقاً بهم كلّ الثقة، وإنّما إخوانهم هؤلاء القوم الذين بعثوا إليك من الشام. إنّ شبيباً، بينا هو فى أرض، إذ هو فى أرض أخرى، ولا آمن أن يأتيهم [368] وهم غارّون[1]. وإن يهلكوا نهلك وتهلك العراق.» فقال:

ـ «لله أنت! ما أحسن ما رأيت لى، وما أحسن ما أشرت به علىّ.»

فبعث إلى من أقبل إليه من الشام، فأتاهم كتاب الحجّاج وقد نزلوا هيت، فقرأوه، فإذا فيه:

ـ «أما بعد، فإذا حاذيتم هيت فدعوا طريق الفرات والأنبار وخذوا على عين التمر حتّى تقدموا الكوفة إن شاء الله.»

فأقبل القوم سراعاً، وقدم عتّاب بن ورقاء فى الليلة التى قال الحجّاج إنه قادم. فأمره الحجّاج، فخرج بالناس وعسكر بحمّام أعين، وأقبل شبيب حتّى انتهى إلى كلواذى، فقطع منها دجلة. ثمّ أقبل حتّى نزل مدينة بهُرسير، وصار بينه وبين مطرّف بن المغيرة بن شعبة جسر دجلة، فقطع مطرّف الجسر. وبعث إلى شبيب أن ابعث رجالاً من وجوه أصحابك

١ غارّون: كذا فى الأصل والطبرى (٨: ٩٤٤)، وفى مط: غارون.

مكيدة للمطرّف بن المغيرة كاد بها شبيباً حتّى حبسه عن وجهه

وأظهر مطرّف أنّه يريد أن يدارسهم القرآن وينظر فى ما يدعو إليه، فإن وجده حقّاً تبعه. فبعث إليه شبيب رجالاً فيهم قعنب وسويد والمحلّل، ووصّاهم [369] شبيب ألّا يدخلوا السفينة حتّى يرجع رسوله من عند مطرّف، وبعث إلى مطرّف أن:

ـ «ابعث إليّ من أصحابك بعدّة أصحابى يكونوا رُهناً فى يدى حتّى ترد على أصحابى.»

فقال مطرّف لرسوله:

ـ «إلقه وقل له: كيف آمنك على أصحابى إذا بعثت بهم الآن وأنت لا تأمننى على أصحابك.»

فأبلغه الرسول، فقال شبيب:

ـ «إنّك قد علمت أنّا لا نستحلّ الغدر فى ديننا، وأنتم تستحلّونه وتفعلونه.»

فبعث إليه مطرّف جماعة من وجوه أصحابه. فلما صاروا فى يد شبيب، سرّح إليه أصحابه. فأتوا مطرّفاً، فمكثوا أربعة أيّام يتناظرون[1]، ثمّ لم يتّفقوا على شىء. فلما تبيّن لشبيب أن مطرّفاً غير تابعه[2]، تعبّى للمسير، وجمع أصحابه وقال لهم:

ـ «إنّ هذا الثقفىّ قطعنى عن رأيى منذ أربعة أيام. وذاك أنّى هممت أن أخرج فى جريدة من الخيل حتّى ألقى هذا الجيش المقبل من الشام، رجاء أن أصادف غرّتهم قبل أن يحذروا، وكنت ألقاهم منقطّعين عن المصر ليس عليهم أمير كالحجّاج يستندون إليه، ولا مصر كالكوفة يعتصمون به، وقد جاءتنى عيون أنّ

---

١. يتناظرون: كذا فى الأصل. وما فى مط: يتناظرون.
٢. غير تابعه: هكذا قرأناها، وليست واضحة تماماً فى الأصل وما فى مط: غير تابعه!

أوائلهم قد دخلوا [370] عين التمر، فهم الآن قد شارفوا الكوفة[١]. وجاءتني أيضاً عيوني من نحو عتّاب أنّه قد نزل بجماعة أهل الكوفة والبصرة. فما أقرب ما بيننا وبينهم. فتيسّروا بنا للمسير إلى عتّاب بن ورقاء.»

وكان عتّاب يومئذ قد أخرج معه جماعة أهل الكوفة مقاتلتهم وشبّانهم، فوافى معه أربعون ألفاً من المقاتلة، وعشرة آلاف من الشباب. فكانوا خمسين ألفاً، وهدّدهم الحجّاج إن هربوا كمادة أهل الكوفة، وتوعّدهم.

وعرض شبيب أصحابه في المدائن، فكانوا ألف رجل، فخطبهم، وحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «يا معشر المسلمين، إنّ الله عزّوجلّ قد كان ينصركم وأنتم مائة ومائتان، وأنتم اليوم مئون ومئون. ألا، إنّي مصلّ الظهر ثمّ سائر بكم إن شاء الله.»

فصلّى، ثمّ نودي في الناس، فأخذوا يتخلّفون ويتأخّرون

قال فروة بن لَقيط: فلما جاز بنا ساباط، ونزلنا معه قصّ علينا، وذكّرنا بأيام الله وزهّدنا في الدنيا، ورغّبنا في الآخرة. ثمّ أذّن مؤذّنه، فصلّى بنا العصر، ثمّ أقبل حتّى أشرف بنا على عتّاب بن ورقاء. فلما رءاهم نزل من ساعته، وأمر مؤذّنه فأذّن، ثمّ تقدّم، فصلّى بهم المغرب، وخرج [371] عتّاب بالناس كلّهم، فعبّأهم، وكان قدخندق أول أيّام نزل. وكان يظهر أنه يريد أن يسير إلى شبيب بالمدائن. فلما صفّ عتّاب الناس بعث على ميمنته محمد بن عبدالرحمان بن سعيد بن قيس، وقال له:

ـ «يابن أخي، إنّك شريف، فاصبر وصابر.» فقال له:

ـ «أمّا أنا فوالله لأقاتلنّ ما ثبت معي إنسان.»

وقال لقبيصة بن والق:

---

١. سقط من مط. ص قوله. «وقد جاءتني» إلى قوله «قد شارفوا الكوفة».

ـ «إكفني الميسرة.» فقال:

ـ «أنا شيخ كبير. غايتي أن أثبت تحت رايتي..»

وكان يومئذ على ثلث بني تغلب.

. «.. أما تراني لا أستطيع القيام، إلّا أن أُقام؟ وأخي نُعيم بن عُـليم وهـو ذو جَزء[1] وغناء.»

فبعثه على ميسرته، وبعث حنظلة بن الحارث، ابن عمّ عتّاب وشيخ أهل بيته على الرجّالة، وبعث معه ثلاثة صفوف فيه الرجّالة معهم السـيوف، وصفّ هـم أصحاب الرماح، وصفّ فيه المرامية. ثمّ سار بين الميمنة والميسرة، ويمرّ بأهل راية راية، فيحثّهم على الصبر ويقصّ عليهم. وقال في ما حفظ من كلامه:

ـ «إنّ أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء. وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين. ألا ترون أنه يقول. إصبروا، إنّ الله مع الصابرين[2]»؟ وليس [372] الله لأحد أمقت منه لأهل البغي. ألا ترون أنّ عدوّكم هذا يستعرض المسـلمين بسيفه. لا يرون ذلك إلّا قربة لهم عند الله، فهم شرار أهل الأرض وكلاب أهـل النار. أين القصّاص؟»

قال ذلك مراراً، فلم يجبه أحد منّا. فلما رأى ذلك، قال:

ـ «أين من يروي شعر عنترة؟»

قال: فلا والله ما ردّ عليه أحد كلمة. فقال:

ـ «إنّا لله، كأنّي بكم قد فررتم عن عتّاب، وتركتموه تسفى في إسته الريح.»

ثمّ أقبل حتّى جلس في القلب معه زهرة بن حويّة جالس وعبدالرحمان بن محمد بن الأشعث.

وأقبل شبيب وهو في ستمائة وقد تخلّف عنه من الناس أربعمائة، فقال:

---

١ ذو جَزء. كذا في لأصل وما في مط ذو حزا والجَزء. الكفاية وفي الطبري (٨ ٩٥٠): ذا حزم وعزم وغناء.

٢. س ٨ الأنفال: ٤٦

ـ «ما تخلّف عنّى إلاّ من لا أُحبّ أن أراه فينا.»

فبعث سويد بن سُليم فى مائتين إلى الميسرة، وبعث المجلّل بن وائل فى مائتين إلى القلب. ومضى هو فى مائتين إلى الميمنة، وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة حين أضاء القمر فناداهم:

ـ «لمن هذه الرايات؟» قالوا:

ـ «رايات ربيعة.»

فقال شبيب:

ـ «رايات طال ما نصرت الحقّ، وطال ما نصرت الباطل، لها فى كلّ نصيب. أنا أبو المدلّه، أثبتوا إن شئتم.»

ثمّ حمل عليهم وهم على مسنّاة [373] أمام الخندق، ففضّهم، وثبت أصحاب رايات قبيصة بن والق. فجاء شبيب حتّى وقف عليه، وقال لأصحابه:

ـ «مثل هذا ما قال الله عزّوجلّ: واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناهُ آياتِنا، فانسلخَ منها فأتبعَهُ الشيطانُ، فكانَ مِن الغاوين[1].»

ثمّ حمل على الميسرة وفيها عتّاب بن ورقاء، وحمل سويد بن سُليم على الميمنة، وعليها محمد بن عبدالرحمان، فقاتل فى الميمنة فى رجال تميم وهمدان، فأحسن القتال. فمازالوا كذلك حتّى أتوا، فقيل لهم:

ـ «قتل عتّاب بن ورقاء.»

قال: فانفضّوا، ولم يزل عتّاب جالساً على طنفسة فى القلب هو وزهرة بن حويّة[2] إذ غشيهم[3] شبيب، فانفضّ عنه الناس وتركوه، فقال عتّاب:

ـ «يا زهرة، هذا يوم كثر فيه العدد وقلّ فيه الغناء. لهفى على خمسمائة فارس معى من وجوه الناس من نحو رجال تميم. ألا صابر لعدوّه! ألا مواس بنفسه؟»

١. س ٧/الأعراف: ١٧٥.
٢. فى مط: جويه (بالجيم).
٣. فى مط: غشيهم.

فمضى الناس على وجوههم. فلمّا دنا منه شبيب وثب في عصابة قليلة صبرت معه، فقال له بعضهم:

ـ «أصلحك الله، إنّ عبدالرحمان [374] بن محمّد قد هرب عنك وانصفق معه ناس كثير.»

فقال:

ـ «قد فرّ قبل اليوم، وما رأيت ذلك الفتى يبالي ما صنع.»

ثمّ قاتلهم ساعة وهو يقول:

ـ «ما رأيت كاليوم قطّ موطناً لم أُبل بمثله أقلّ ناصراً ولا أكثر هارباً خاذلاً.»

فرءاه رجل من بني تغلب من أصحاب شبيب، وكان أصاب دماً في قومه، ولحق بشبيب، فقال لشبيب:

ـ «والله، إنّي لأظنّ هذا المتكلّم عتّاب بن ورقاء.»

فحمل عليه وطعنه، فوقع ووطئت الخيل زهرة بن حويّة. فأخذ يذبّ بسيفه وهو شيخ كبير لا يستطيع أن ينهض، فجاءه الفضل بن عامر الشيباني، فقتله، وانتهى إليه شبيب، فوجده صريعاً، فعرفه وقال:

ـ «من قتل هذا؟» فقال الفضل:

ـ «أنا قتلته.» فقال شبيب:

ـ «هذا زهرة بن حويّة. أما والله، لئن كنت قتلت على ضلالة لربّ يوم من أيّام المسلمين قد حسن فيه بلاؤك، وعظم فيه غناؤك، ولربّ خيل للمشركين هزمتها وسريّة له ذعرتها، ومدينة لهم فتحتها، ثمّ كان في علم الله أن تقتل ناصراً للظالمين.»

وقتل وجوه العرب في المعركة، واستمكن شبيب من أهل العسكر، فقال:

ـ «إرفعوا عنهم السيف!» [375]

ودعا إلى البيعة، فبايعه الناس من ساعتهم، وأخذ شبيب يبايعهم ويقول:

ـ «إلى ساعة يهربون.»[١]

فلما كان في الليل هربوا، واحتوى شبيب على ما في العسكر وبعث إلى أخيه وهو بالمدائن، فأتاه وأقام شبيب ببيت قرّة يومين وقد دخل سفيان بن الأبرد وحبيب بن عبدالرحمان من مذحج في من معها، فشدّوا ظهر الحجّاج، واستغنى بهم عن أهل الكوفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «أما بعد، يا أهل الكوفة، فلا أعزّ الله من أراد بكم العزّ، ولا نصر من أراد منكم النصر، أخرجوا عنّا، فلا تشهدوا معنا قتال عدوّنا، إلحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى، ولا يقاتلن معنا إلّا من كان عاملاً لنا ومن لم يشهد قتال عتّاب بن ورقاء.»

ثمّ إنّ شبيباً خرج يريد الكوفة، فانتهى إلى سورا، فقال لأصحابه:

ـ «أيّكم يأتيني برأس عامل سورا؟»

فانتدب إليه بطين وقعنب وسويد ورجلان من أصحابه، وساروا مغذّين، حتّى انتهوا إلى دار الخوارج والعمّال في سَرّجه[٢]، وكادوا الناس بأن قالوا:

ـ «أجيبوا الأمير!» فقال الناس:

ـ «أيّ الأمراء» فقالوا:

ـ «أمير قد خرج [376] من قبل الحجّاج يريد هذا الفاسق شبيباً.»

فاغترّ بذلك العامل منهم. فلما قربوا شهروا السيوف وحكّموا حين وصلوا إليه، فضربوا عنقه، وقبضوا ما وجدوا من مال، ولحقوا بشبيب. فلما رأى شبيب المال، قال:

ـ «أتيتمونا بفتنة المسلمين؟ هلمّ الحربة يا غلام!»

فخرّت بها البدور، وأمر أن تُنخس الدوابّ التي كانت عليها. فمرّت والمال

---

١ إلى ساعة يهربون: كذا في الأصل وما في مط: إلى ساعة تهربون.

٢ سَرّجه: كذ في الأصل وما في مط: سمرجه (بتخفيف الميم والحاء المهملة).

يتناثر من بدوره حتّى وردت الصراة، فقال:
ـ «إن كان بقى شيء فاقذفوه في الماء.»

ذكر دخول شبيب الكوفة دخْلته الثانية

وإنّ أبا سفيان بن الأبرد أتى الحجّاج فقال:
ـ «ابعثني إليه حتّى أستقبله قبل أن يأتيك.» فقال:
ـ «ما أُحبّ أن تفترق حتّى ألقاه في جماعتكم الكوفة في ظهورنا والحصن في أيدينا.»

وأقبل شبيب حتّى نزل موضع حمّام أعين، ودعا الحجّاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثقفي، فوجّهه في ناس من الشرط لم يكونوا شهدوا يوم عتّاب، ونحو من مائتي رجل من أهل الشام، فخرج في ألف رجل، فنزل زرارة[1]. وبلغ ذلك شبيباً فتعجّل إليه. فلما انتهى إليه، حمل عليه فقتله وانهزم أصحابه [377] وجاءوا حتّى دخلوا المدينة، وأقبل شبيب حتّى قطع ودنا من الكوفة، فبعث البطين في عشرة فوارس يرتاد له منزلاً على شاطئ الفرات في دار الرزق. فوجّه الحجّاج حوشب بن يزيد في جمع من أهل الكوفة، فأخذوا بأفواه السكك، فقاتلهم البطين، فلم يقو عليهم. فبعث إلى شبيب، فأمدّه بفوارس، فعقروا فرس حَوشب وهزموه، ونجا ومضى البطين إلى دار الرزق في أصحابه وعسكر على شاطئ الفرات. فلم يوجّه إليه الحجّاج أحداً. فمضى شبيب حتّى نزل السبخة وأقام ثلاثاً لا يوجّه إليه الحجّاج أحداً، فابتنى مسجداً في أقصى السبخة عند الإيوان، وكانت امرأته غزالة نذرت أن تصلّي في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيها البقرة وآل عمران. فجاء شبيب مع امرأته حتّى وفت

---

١ زرارة: كذا في مط وطبري ٨: ٩٥٧. وما في الأصل غير واضح تماماً.

بنذرها فى المسجد.

وأُشير على الحجّاج أن يخرج بنفسه، فقال الحجّاج لقتيبة بن مسلم:

ـ «اخرجْ، فإنّي خارج، وارتد لى معسكراً.»

فخرج ثمّ رجع إليه فقال:

ـ «وجدت المدىٰ [1] سهلاً، فسر على اسم الله والطائر الميمون.»

فخرج بأصحابه، فأتىٰ على مكان فيه بعض القذر والكناسات [378] فقال:

ـ «ألقوا لى هاهنا.» فقيل له:

ـ «إنّ الموضع قذر.» فقال:

ـ «ما تدعونني إليه أقذر الأرض، تحته طيّبة والسماء فوقه طيّبة.»

وأخرج الحجّاج مولىً له يقال له أبو الورد عليه تجفاف [2]، وأخرج مجفّفة كثيرة وغلماناً له وقالوا:

ـ «هذا الحجّاج!»

فحمل عليه شبيب فقتله، ثمّ قال:

ـ «إن كان الحجّاج، فقد أرحتكم منه.»

ثمّ إنّ الحجّاج أخرج إليه طهمان فى مثل ذلك من العدّة والعدد والهيئة، فحمل عليه شبيب، فقتله، وقال:

ـ «إن كان هذا الحجّاج فقد أرحتكم منه.» [3]

ثمّ إنّ الحجّاج دلف إليه بنفسه وعلى ميمنته مطر بن ناجية وعلى ميسرته خالد بن عتّاب بن ورقاء وهو فى زهاء أربعة آلاف. فقيل له:

ـ «أيها الأمير، لا تعرّفه موضعك.»

---

١. المدى. كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨: ٩٦٦): المأتى.

٢. التجفاف (بكسر التاء وفتحها): آلة للحرب يُكتَنّ بها كالدرع، للفرس، والإنسان.

٣. سقط من مط من قوله: «ثمّ إنّ الحجّاج أخرج إليه طهمان» إلى قوله: «فقد أرحتكم منه».

فتنكّر وأخفى مكانه وغفّل له مولىً له. فنظر إليه شبيب وظنّه الحجّاج، فحمل عليه وضربه بعمود فقتله. فقتل له أعين صاحب حمّام أعين بالكوفة. فقتله. فقال الحجّاج:

ـ «عليّ بالبغلة!»

فأتي ببغل محجّل، فقيل له:

ـ «أصلح الله الأمير، إنّ الأعاجم تتطيّر أن تركب في مثل هذا اليوم مثل هذا البغل.» فقال:

ـ «أدنوه منّي، فإنّ اليوم يوم أغرّ محجّل. [379] فركبه ودنا، ثمّ طُرحت له عباءة فنزل وجلس، ودعا بكرسيّ له، ثمّ نادى:

ـ «يا أهل الشام، يا أهل السمع والطاعة، لا يغلبنّ باطل هؤلاء الأرجاس حقّكم. غضّوا الأبصار، واجثوا على الركب، واستقبلوا القوم بأطراف الأسنّة.»

فجثوا على الركب وكأنّهم حرّة سوداء. فأقبل إليه شبيب حتّى إذا دنا منهم عبّى أصحابه ثلاثة كراديس: كتيبة معه وكتيبة مع سويد بن سليم وكتيبة مع المحلّل[1] بن وائل.

فقال لسويد:

ـ «احمل عليهم في خيلك.»

فحمل عليهم فثبتوا له حتّى إذا غشى أطراف الأسنّة وثبوا في وجهه ووجوه[2] أصحابه، فطعنوهم قدماً، حتّى انصرف، وصاح الحجّاج

ـ «يا أهل السمع والطاعة، هكذا فافعلوا! قدّم كرسيّ يا غلام.»

وأمر شبيب المحلّل بن وائل، فحمل عليهم، ففعلوا به مثل ما فعل بسويد.

---

١ وفي الأصل يأتي هذا الإسم بالجيم تارة وبالحاء المهملة تارة أخرى. وفي الطبري: المحلل بن وائل (بالحاء المهملة).

٢ سقط من مط من قوله «ووجوه أصحابه» إلى قوله «وثبوا في وجهه».

فناداهم الحجّاج:

ـ «يا أهل السمع والطاعة، هكذا فافعلوا! قدّم كرسيّ.»

ثمّ إنّ شبيباً حمل عليهم في كتيبته، فثبتوا له حتّى إذا غشى أطراف الأسنّة وثبوا في وجهه، فقاتلهم طويلاً. ثمّ إنّ أهل الشام طاعنوه قُدماً، حتّى ألحقوه بأصحابه. [380] فلما رأى صبرهم نادى:

ـ «يا سويد احمل في خيلك على هذه السكّة ـ يعني سكّة لحّام بن حرير[1] ـ لعلّك تزيل أهلها، فتأتي الحجّاج من ورائه ونحمل نحن من أمامه.»

فانفرد سويد بن سليم، فحمل على أهل تلك السكّة، فرُمي من فوق البيوت وأفواه السكك. فانصرف وقد كان جعل الحجّاج عروة بن المغيرة بن شعبة في نحو من ثلاثمائة رجل من أهل الشام ردءًا له ولأصحابه، لئلّا يؤتى من ورائه.

ثمّ إنّ شبيباً قال لأصحابه:

ـ «يا أهل الإسلام، إنّما شرينا لله، ومن شرى لله لم يكن عليه ما أصابه من أذىً وألم. الصبر الصبر، شدّة كشدّاتكم في مواطنكم الكريمة.»

ثمّ جمع أصحابه وقال:

ـ «الأرض الأرض، دبّوا تحت تراسكم حتّى إذا كانت أسنّتهم فوقها فأدلفوها[2] صُعداً، ثمّ ادخلوا تحتها لتستقبلوا أقدامهم وهي الهزيمة بإذن الله.»

فأقبلوا يدبّون إليهم.

رأى جيّد رءاه خالد بن عتّاب

فقال خالد بن عتّاب بن ورقاء للحجّاج:

ـ «إئذن لي في قتالهم، فإنّي موتور وأنا ممّن لا يتّهم في نصيحة» قال:

---

١ حرير: كذا في الأصل. وفي مط: حرسه! وما في الطبري: جرير.

٢ فأدلفوها: كذا في الأصل. وما في مط: فازلقوها. وفي الطبري (٨: ٩٦٥٥): فأزلفوها

ـ «فقد أذنت لك.» قال:

ـ «فإنّي آتيهم من ورائهم حتّى أُغير على عسكرهم.» [381] فقال له.

ـ «افعل ما بدا لك.»

فخرج معه بعصابة من أهل الكوفة مع مواليه وشاكريّته[1] حتّى دخل عسكرهم من ورائهم، فقتل مصاداً أخا شبيب، وقتل غزالة امرأته، وحرق في عسكره. وأتى ذلك الخبر الحجّاج وشبيباً والتفتوا فرأوا النار في بيوتهم. فأمّا الحجّاج وأصحابه فكبّروا، وأمّا شبيب فوثب هو وكلّ راجل معه على خيولهم. وقال الحجّاج لأصحابه:

ـ «شدّوا عليهم، فقد أتاهم ما أرعبهم قلوبهم[2].»

فشدّوا عليهم فهزموهم. وتخلّف شبيب في حامية الناس حتّى خرج من الجسر، وتبعه خيل الحجّاج.

قال: فجعل يخفق[3] برأسه. قال أصغر الخارجي: كنت معه لمّا انهزم فقلت:

ـ «يا أمير المؤمنين، التفت فانظر مَن خلفك.»

قال: فالتفت غير مكترث، وجعل يخفق برأسه. قال: فدنوا منّا فقلت:

ـ «يا أمير المؤمنين، قد دنوا منك.»

قال: فالتفت ـ والله ـ غير مكترث وجعل يخفق برأسه. فبينا هو كذلك إذ بعث الحجّاج إلى خيليه:

---

١ شاكريّته: كذا في الأصل والطبري (٨: ٩٦٥). وما في مط: شاكريه. والشاكرية: جماعة الشاكريّين. والشاكريّ = الشاكر، معرّب چاكر (Chakar (kcr) (تركي؟ ـ فارسي) بمعنى الخادم والعبد (فم). قال في متن اللغة: الشكارة (مولّد أو دخيل) معناها: الشيء القليل، وغُلّبت على بقعة الأرض الصغيرة تزرع للأجير. وهي عند العامة أرض تزرع للأجير من أصل أجرته وكأنّها مأخوذة من الشاكريّ.

٢ قلوبهم: غير موجودة في مط.

٣ يخفق: وفي الأصل يحفق (بالحاء المهملة في المواضع الثلاثة) فأثبتناها كما في مط والطبري ٨: ٩٦١ يخفق برأسه: يحرّكه وهو ناعس.

ـ «دعوه في حرق الله.»

قال: فتركوه ورجعوا.

ومضى شبيب ومن معه حتّى قطعوا جسر المدائن، فدخلوا ديراً هنالك وخالد يقفوهم، فحصرهم في الدير، فخرجوا عليه، فهزموه نحواً [382] من فرسخين فألقى خالد نفسه بفرسه، فمرّ به ولواؤه في يده.

قال شبيب:

ـ «قاتله الله فارساً وفرسه. هذا أشدّ الناس، وفرسه أقوى فرس في الأرض.»

فقيل له:

ـ «هذا خالد بن عتّاب.» فقال:

ـ «مُعرَق[1] له في الشجاعة، والله، لو علمت لأقحمت خلفه ولو دخل النار.»

وإنّ الحجّاج دخل الكوفة حين انهزم شبيب، ثمّ صعد المنبر، فقال:

ـ «والله ما قوتل شبيب قطّ قبلها [مثلها][2]. ولّى هارباً، وترك امرأته يُكسّر في إستها القصب.»

ثمّ دعا حبيب بن عبدالرحمان الحكمي، فبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل الشام. وقال له الحجّاج:

ـ «إحذر بياته، وحيث ما لقيته[3] فنازله، فإن الله قد فلّ حدّه وقصم نابه.»

فخرج حبيب في أثر شبيب حتّى نزل الأنبار.

وبعث الحجّاج إلى المدائن أن:

ـ «دسّوا إلى أصحاب شبيب: أنّ من جاءنا منكم فهو آمن.»

فكان كلّ من ليست له بصيرة ممّن هدّه القتال يجيء فيؤمّن. وقبل ذلك ماكان

---

١ مُعرَق: كذا في الأصل ومط والطبري (٨: ٩٦٨). وفي حواشيه: معرّق، مُعرف.

٢. مثلها: سقطت من الأصل ومط. مزدناها كما في الطبري ٨: ٩٦٩.

٣. لقيته: كذا في الأصل والطبري. وما في مط: لقيته.

الحجّاج نادىٰ فيهم يوم هربوا أنّ:

ـ «من جاء منكم فهو آمن.»

فتفرّق عنه ناس كثير من أصحابه.

وبلغ شبيباً مُزَّل[1] حبيب بن عبدالرحمان [383] الأنبار، فـأقبل بـأصحابه حتّى دنا من عسكرهم ونزل، فصلّى بهم المغرب.

قال أبو زيد السكسكي: أنا والله في أهل الشام ليلة جاء شبيب، فبيّتنا. قال: فلما أمسينا، جمعنا حبيب بن عبدالله، فجعلنا أرباعاً وعلى كلّ ربع أمير، وقـال لكلّ ربع منّا:

ـ «ليجزئ كلّ ربع جانبه. فإن قتل هذا الربع فلا يعنهُم[2] هذا الربع الآخـر. فإنّه بلغني أنّ الخوارج منّا قريب، فوطّنوا أنفسكم على أنكم مبيّتون ومقاتلون.»

فمازلنا على تعبئتنا حتّى جاءنا شبيب، فبيّتنا، فشدّ على ربع منّا، فضاربهم طويلاً. فمازالت قدم إنسان منهم، ثمّ تركهم وأقبل إلى الربع الآخـر، فـقاتلهم طويلاً، فلم يظفر بشيء. قال: ثمّ أطاف بنا يحمل علينا حتّى ذهب ثلاثة أرباع الليل، وألزّ بنا حتّى قلنا: لا يفارقنا. ثمّ نازلنا راجلاً طويلاً، فسقطت والله بيننا وبينهم الأيدي والأرجل، وفقئت الأعين، وكثر القتلى. قتلنا منهم نحواً من ثلاثين، وقتلوا منّا نحواً من مائة، والله لو كانوا يزيدون على مائة رجل لأهلكونا، وأيم الله على ذلك ما فارقونا حتّى مللناهم وملّونا، وكرهناهم وكرهونا. ولقـد رأيت الرجل ما يضرب الرجل منهم [384] فما يضرّه شيئاً من الإعياء والضعف. ولقد رأيت الرجل منّا يقاتل جالساً ينفح[3] بسيفه، ما يستطيع أن يقوم مـن الإعـياء.

---

١. مُزَّل. الضبط من الأصل.

٢. فلا يعنهم. كذا في الأصل. وما في مط. فلا يعنهم. وهو خطأ. وفي الطبرى (٨: ٩٦٩) فلا يعنهم. وفي تعاليقه: فلا يعنهم، فلا يعنهم، فلا يعنهم.

٣. ينفح. مهملة في الأصل. فأثبتناها حسب الطبرى (٨: ٩٧٠).

فلما يئسوا ركب شبيب وقال لمن كان نزل معه:

ـ «اركبوا!»

وتوجّه منصرفاً عنّا.

قال فروة بن لقيط ـ وكان شهد معه مواطنه كلّها ـ قال لنا ليلتئذٍ، وقد رأى بنا كآبة ظاهرة، وجراحة شديدة:

ـ «ما أشدّ هذا الذى بنا، لو كنّا إنّما نطلب الدنيا، وما أيسر هذا فى طاعة الله وثوابه.»

فقال أصحابه:

ـ «صدقت يا أمير المؤمنين.»

قال: فما أنسى منه إقباله على سويد بن سليم، ولا مقالته له:

ـ «يا سويداً قتلت أمس منهم رجلين[1]: أحدهما أشجع الناس والآخر أجبن الناس. خرجت عشيّة أمس طليعة لكم، فلقيت منهم ثلاثة نفر دخلوا قرية يشترون منها حوائجهم، فاشترى أحدهم حاجته، ثمّ خرج قبل أصحابه، وخرجت معه، فقال لى:

ـ «كأنّك لم تشتر علفاً.» فقلت:

ـ «إنّ لى رفقاء قد كفونى ذلك.»

فقلت له:

ـ «أين ترى عدوّنا هذا؟» فقال:

ـ «بلغنى أنّه نزل قريباً منّا، وأيم الله، لوددت أنّى قد لقيت شبيبهم هذا.» قلت:

ـ «فتحبّ ذاك؟» قال:

ـ «نعم.» قلت:

---

١. قس بما فى الطبرى (٨: ٩٧١)

ـ «فخذ حذرك، فأنا والله شبيب.»

وانتضيت سيفي، فخرّ والله ميّتاً. [385] فقلت له:

ـ «إرتفع ويحك!»

وذهبت أنظر، فإذا هو قد مات. فانصرفت راجعاً، فاستقبل الآخر راجعاً من القرية، فقال:

ـ «أين تذهب هذه الساعة، وإنّما يرجع الناس إلى عسكرهم.»

فلم أكلّمه، ومضيت يقرّب[1] بي فرسي، واتّبعني حتّى لحقني، فعطفت عليه، وقلت له:

ـ «ما لك؟» قال:

ـ «أنت والله من عدوّنا.» فقلت:

ـ «أجل والله.» فقال:

ـ «إذاً لا تبرح والله حتّى أقتلك أو تقتلني.»

وحملت عليه، فحمل عليّ، فاضطربنا بسيفنا ساعة. فوالله ما فضلتُه في شدّة نفس ولا إقدام، إلّا أنّ سيفي كان أقطع من سيفه فقتلته.

ذكر مكيدة لشبيب

بلغ شبيباً أنّ جند الشام الذين مع حبيب حملوا معهم حجراً وحلفوا ألّا يفرّون من شبيب حتّى يفرّ هذا الحجر. فلما سمع شبيب ذلك أراد أن يكيدهم. فدعا بأربعة أفراس وربط في أذنابها ترسه في ذنب كلّ فرس ترسين، ثمّ ندب معه ثمانية نفر من أصحابه ومعه غلام له يقال له: حيّان، كان بئيساً[2] شجاعاً، وأمره أن يحمل معه إداوة من ماء، ثمّ سار حتّى يأتي ناحية من العسكر، فأمر أصحابه

---

١. قرّب الفرس: عدا تقريباً، وهو ضرب من العدو دون الإسراع.

٢. وفي مط: رئيساً.

[386] أن يكونوا فى نواحى العسكر، وأن يجعلوا مع كلّ رجلين فرساً، ثمّ يُمسّوها الحديد حتّى يجد حرّه ويخلّوها فى العسكر، وواعدهم تلعة قريبة من العسكر، فقال:

ـ «من نجا منكم فإنّ موعده هذه التلعة.»

وكره أصحابه الإقدام على ما أمرهم به. فنزل حيث رأى ذلك منهم حتّى صنع بالخيل مثل الذى أمرهم به. ثمّ وغلت فى العسكر، ودخل هو يتلوها محكّماً، فضرب الناس بعضهم ببعض وماجوا.

فقام حبيب بن عبدالرحمان فنادى:

ـ «أيها الناس إنّ هذه مكيدة، فالزموا الأرض حتّى يبين[1] لكم الأمر.»

ففعلوا، وبقى شبيب فى عسكرهم، فلزم الأرض حيث رءاهم قد سكنوا، وقد أصابته ضربة عمود أوهنه. فلما هدأ الناس، ورجعوا إلى أبنيتهم خرج فى غمارهم حتّى أتى التلعة، فإذا هو بحيّان، فقال:

ـ «أفرغ على رأسى من الماء يا حيّان.»

فلما مدّ رأسه ليصبّ عليه من الماء، همّ حيّان بضرب عنقه وقال لنفسه:

ـ «لاأجد مكرمة لى ولا ذكراً أرفع من قتل هذا فى هذه الخلوة، وهو أمانى عند الحجّاج.»

فأخذته الرعدة حيث همّ بما همّ به. فلما أبطأ بحلّ الإداوة، قال:

ـ «ما يبطئك بحلّها.»

وتناول السكين [387] من موزجه[2]، فخرقها به، ثمّ ناوله إيّاها، فأفرغ عليه من الماء.

قال حيّان: منعنى والله الجبن وما أخذنى من الرعدة أن أضرب عنقه بعدما

---

١. وفى مط: يتبيّن.

٢. الموزج: الخفّ، معرّب موزه.

هممت به، وما كنت أعهد نفسي جباناً.

ثمّ خلا[1] شبيب بأصحابه وعسكره.

ذكر هلاك شبيب في هذه السنة باتّفاق سيّء

ثمّ إنّ الحجّاج أخرج الناس إلى شبيب، وقسم فيهم أموالاً عظيمة، وأعطى الجرحى خاصّة، وكلّ ذي جَزْء وبلاء، وأمر سفيان بن الأبرد أن يسير بهم. فبلغ ذلك حبيب بن عبدالرحمان، فشقّ عليه، وقال:

ـ «تبعث سفيان إلى رجل قد فللته وقتلت فرسانه!»

وكان شبيب قد أقام بكرمان حتّى جبروا واستراش هو وأصحابه. ومضى سفيان بعد شهرين واستقبله شبيب بجسر دجيل الأهواز، فعبر شبيب إلى سفيان، فوجد سفيان قد نزل في الرجال، وبعث مصاص بن صيفي على الخيل، وبعث على ميمنته بشر بن حسّان الفهري، وعلى ميسرته عمر بن هبيرة الفزاري. وأقبل شبيب في ثلاثة كراديس: هو في كتيبة، وسويد في كتيبة، وقعنب [388] في كتيبة، وخلّف المحلّل في عسكره. فلما حمل سويد وهو في ميمنته، على ميسرة سفيان، وقعنب وهو في ميسرته، على ميمنة سفيان، وحمل هو على سفيان، اضطربوا مليّاً حتّى رجعت الخوارج إلى المكان الذي كانوا فيه.

قال يزيد السكسكي: والله لقد كرّ علينا هو وأصحابه أكثر من ثلاثين كرّة كلّ ذلك لا نزول من صفّنا.

فقال لنا سفيان:

ـ «لا تفرّقوا، ولكن ليزحف الرجال إليهم زحفاً.»

ففعلنا ومازلنا نطاعنهم حتّى اضطررناهم إلى الجسر. فلما انتهى شبيب إلى

---

١. خلا: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨: ٩٧٩): لحق.

الجسر، نزل ونزل معه نحو من مائة رجل، فقاتلناهم إلى المساء أشدّ قتال يكون لقوم قطّ. فما هو إلّا أن نزلوا أوقعوا لنا من الطعن والضرب شيئاً ما رأينا مثله قطّ، ولا ظنّناه يكون. فلما رأى سفيان أنه لا يقدر عليهم ولم يأمن ظفرهم، دعا الرماة فقال:

ـ «ارشُقوهم بالنبل.»

وذلك عند المساء، وكان التقاؤهم نصف النهار. فرماهم أصحاب النبل، وقد كان صفّهم سفيان بن الأبرد على حدة وعليهم أمير. فلما رشقوهم شدّوا عليهم. فلما شدّوا على رماتنا شددنا عليهم فشغلناهم عنهم. فلما رأوا ذلك ركب شبيب وأصحابه، ثمّ كرّوا على أصحاب النبل كرّة صرعوا [389] منهم أكثر من ثلاثين رجلاً. ثمّ عطف علينا يطاعننا حتّى اختلط الظلام. ثمّ انصرف عنّا.

فقال سفيان بن الأبرد لأصحابه:

ـ «أيها الناس، دعوهم، لا تتبعوهم حتّى نصبّحهم.»

قال: فكففنا عنهم وليس شيء أحبّ إلينا من أن ينصرفوا عنّا.

قال فروة بن لقيط: فما هو إلّا أن انتهينا إلى الجسر، فقال:

ـ «اعبروا معاشر المسلمين، فإذا أصبحوا باكرناهم إن شاء الله.»

فعبرنا أمامه وتخلّف في آخرنا. فأقبل [على][1] فرس وكانت بين يديه فرس أنثى ماذيانة، فنزا فرسه عليها وهو على الجسر، فاضطربت الماذيانة، وزلّ حافر فرس شبيب عن حرف[2] السفينة، فسقط في الماء. فلما سقط قال.

ـ «ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.»[3]

واغتمس في الماء. ثمّ ارتفع فقال:

---

١ على: كذا في مط والطبري (٨: ٩٧٤) وما في الأصل: في. فصحّحناه.

٢ حرف: كذا في الأصل والطبري. وما في مط: جوف.

٣ س ٨ الأنفال: ٤٢، ٤٤.

ـ «ذلك تقدير العزيز العليم.»[1]

فهذا حديث أكثر الناس. وقد قال غيره من أصحاب شبيب إنه كان معه رجال كثير ممّن أصاب من عشائرهم وساداتهم. فلما تخلّف في أُخريات الناس من أصحابه، قال بعضهم لبعض:

ـ «هل لكم أن نقطع به الجسر فندرك ثأرنا الساعة؟»

فقطعوا الجسر، فمالت [390] به السفن، ففزع الفرس ونفر ووقع في الماء فغرق. والحديث الأول أشهر.

فتحدّث جماعة من أصحاب سفيان، قالوا: لما سمعنا صوت القوم: «غرق أميرالمؤمنين» عبرنا إلى عسكرهم، فإذا ليس فيه صافر ولا آثر. فنزلنا فيه فإذا أكثر عسكر خلق الله خيراً. فطلبنا شبيباً حتّى استخرجناه وعليه الدرع فسمعت الناس يزعمون أنه شُقّ عن بطنه وأُخرج قلبه. فكان مجتمعاً صُلباً كأنّه صخرة وأنّه كان يُضرب به الأرض فيثب قامة الإنسان.

فيُحكىٰ أن أُمّ شبيب كانت لا تصدّق أحداً نعاه إليها. وكان قيل مراراً: «قُتل» فلا تقبل. فلما قيل: إنّه غرق، قبلت وبكت. فقيل لها في ذلك، فقالت:

ـ «إنّي رأيت في المنام حين ولدته أنه خرج من قُبُلي شهاب نار، فعلمت أنّه لا يطفئه إلّا الماء.»

ذكر ماكان من المهلّب والأزارقة

كان المهلّب مقيماً بسابور يقاتل قطرياً في الأزارقة بعدما صرف الحجّاج عتّاب بن ورقاء عن عسكره نحواً من سنة. ثمّ إنّه زاحفهم يوم البستان [391] فقاتلهم قتالاً شديداً، وكانت كرمان في أيدي الخوارج، وفارس في يد المهلّب

---

١ س ٦ الأنعام، ٩٦، س ٣٦ يس: ٣٨، س ٤١ فصّلت: ١٢

وكان لا يأتيه من فارس مادّة، فضاق الأمر عليه. فحازهم المهلّب حتّى خرجوا إلى كرمان، وتبعهم المهلّب حتّى نزل بجيرفت وقاتلهم أكثر من سنة قتالاً شديداً حتّى حازهم عن فارس كلّها. فلما صارت فارس كلّها فى يد المهلّب، بعث الحجّاج عليها عمّاله وأخذها من المهلّب.

فبلغ ذلك عبدالملك فكتب إلى الحجّاج:

ـ «أمّا بعد، فدع بيد المهلّب خراج فارس وحيالها، فإنّه لابدّ للجيش من قوّة، ولا لصاحب الجيش من معونة، ودع له كورة فسّا ودارابجرد، وكورة إصطخر.»

فتركها للمهلّب. فبعث المهلّب عليهما عمّاله وكانتا قوّة له، وأقام المهلّب على قتال الأزارقة.

ذكر اختلاف كلمة الخوارج إلى أن هلكوا بأجمعهم

فلم يزالوا يقتتلون إلى أن بعث قطرىّ عاملاً له على ناحية كرمان يقال له المقعطر، فقتل رجلاً كان ذا بأس من الخوارج، فوثبت الخوارج [392] إلى قطرىّ، فذكروا ذلك له وقالوا له:

ـ «أمكنّا من المقعطر نقتله بصاحبنا.» فقال لهم:

ـ «ما أرى أن أفعل. رجل تأوّل فأخطأ فى التأويل. ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوى الفضل والسابقة فيكم.» قالوا:

ـ «بلى!» فقال لهم:

ـ «لا».

فوقع الاختلاف بينهم. فولّوا عبدربّ الكبير[1] وخلعوا قطريّاً، وبقى مع القطرىّ عصابة نحو من ربعهم. وبلغ ذلك الحجّاج فكتب إلى المهلّب:

١ـ كذا فى الأصل والطبرى (٨: ١٠٠٦): عبدربّ الكبير، وما فى مط: عبد ربّ الكبير!

ـ «أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه اختلاف الخوارج بينها. فإذا أتاك كتابي فناهضهم على حال اختلافهم وافتراقهم، قبل أن يجتمعوا فتكون مؤونتهم عليك أشدّ. والسلام.»

فكتب إليه:

ـ «أمّا بعد، فقد بلغني كتاب الأمير وكلّ ما فيه قد فهمت، ولست أرىٰ أن أقاتلهم مادام بعضهم يقتل بعضاً، وينقص بعضهم عدد بعض، فإن تمّوا على ذلك فهو الذي نريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلّا وقد رقّق بعضهم بعضاً، فأُناهضهم على بقيّة ذلك وهم أوهى ما كانوا شوكة إن شاء الله.»

فكفّ عنه الحجّاج وتركهم المهلّب، فقاتلوه قتالاً [393] شديداً. ثمّ إنّه فلّهم وقتلهم، فلم ينج منهم إلّا قليل وسباهم، لأنّهم كانوا يسبون المسلمين.

ذكر سبب هلاكهم

كان سبب ذلك ما ذكرنا من تشتّتهم بالإختلاف. ولما وهن أمر قطريّ توجّه مريداً طبرستان وبلغ أمره الحجّاج، فوجّه سفيان بن الأبرد مع جيش عظيم من أهل الشام. فأقبل سفيان حتّى أتى الريّ، ثمّ اتبعهم. وكتب الحجّاج إلى إسحاق بن محمد بن الأشعث، وهو بطبرستان على جيش لأهل الكوفة أن:

ـ «إسمع وأطع لسفيان.»

فأقبل إلى سفيان، وسار معه في طلب قطريّ حتّى لحقوه في شعب من شعاب طبرستان. فقاتلوه، فتفرّق عنه أصحابه، ووقع عن دابّته في أسفل الشعب، فتدهدأ حتّى خرّ إلى أسفله، وأتاه علج من أهل البلد. فقال له قطري:

ـ «إسقني ماءً.»

وقد اشتدّ عطشه. فقال العلج له:

ـ «أعطني شيئاً حتّى أسقيك.» فقال:

ـ «ويحك! ما معى والله إلّا ما ترى من سلاحى، وأنا مؤتيكه إذا أتيتنى بماء.»
قال:
ـ «لا، بل أعطنيه الآن» قال:
ـ «لا، ولكن ائتنى بماء قبل.»

فانطلق العلج حتّى أشرف [394] على قطرىّ، ثمّ حدّر عليه حجراً عظيماً من فوقه، دهدأه عليه، فأصاب إحدى وَرِكيه، فأوهنه، وصاح بالناس، فأقبلوا نحوه، والعلج حينئذ لايعرف قطريّاً، غير أنه يظنّ[1] أنه من أشرافهم لحسن هيئته وكمال سلاحه، فدفع إليه نفر من أهل الكوفة، فقتلوه، وادّعىٰ قتله جماعة.

وفى هذه المدّة التى جرىٰ فيها ما جرىٰ من أمر الأزارقة
كان قتال أمية بن عبدالله بُكير بن وساج بخراسان
ذكر السبب فى ذلك

حقدٌ حقده عتّاب اللّقوة[2]، وكان فى صحبة بُكير. وكنّا ذكرنا أمر بكير مع أميّة، وأنّ أميّة لمّا ولى خراسان سامح بكيراً، ولم يقبل فيه سعاية، ولا حاسب له عاملاً، ولكنّه ولّاه طخارستان بعد أن عرض عليه شرطته فأباها. فتجهّز بكير للخروج إليها، وأنفق نفقة كثيرة. ثمّ وشا به بحير بن ورقاء وقال لأميّة:
ـ «إنّه إن عبر النهر خلع الخليفة ودعا إلى نفسه.»
فراسله أميّة:
ـ «أقم، لعلّى أغزو، فتكون معى.»
فغضب بكير وقال:

---

١. يظنّ: كذا فى الأصل، وما فى مط: نظر، وهو تصحيف.
٢. عتّاب اللّقوة: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٨: ١٠٢٢): عتّاب اللّقوة الغُدانى.

ـ «كأنّه يريد أن يضارّني[1].» [395]

وكان عتّاب اللّقوة استدان وأنفق نفقة كثيرة ليخرج مع بكير. فلما أقام بكير أخذه غرماؤه فحُبس حتّى أدّى عنه بُكير.

ثمّ إنّ أُميّة أجمع بعد مدّة على الغزو ليغزو بخارىٰ، ثمّ يأتي موسى بن خازم بالترمذ. فتجهّز الناس معه واستخلف ابنه زياداً على خراسان وسار معه بكير.

فقال له بحير:

ـ «إنّي لا آمن إن استخلف أحداً أن يتخلّف عنّي الناس، فقل لبُكير، فليكن في الساقة وليحشر الناس.»

فأمره به، فكان على الساقة، حتّى أتى النهر.

وقال أُميّة لبُكير:

ـ «إقطع يا بكير.»

فقال عتّاب اللّقوة:

ـ «أصلح الله الأمير، اعبر أنت، ثمّ يعبر الناس بعدك.»

فعبر، ثمّ عبر الناس. فقال أُميّة لبكير:

ـ «قد خفت ألّا يضبط ابني عمله وهو غلام حدث. فارجع إلى مرو، فاكفنيها فقد ولّيتكها، فزيّن ابني وقم بأمره.»

فانتخب بُكير فرساناً من فرسان خراسان قد كان عرفهم ووثق بهم، وعبر، ومضى أُميّة إلى بخارىٰ. فقال عتّاب اللّقوة لبكير لمّا عبر وقد مضى أُميّة:

ـ «أنّا قتلنا أنفسنا وعشائرنا حتّى ضبطنا خراسان [396] ثمّ طلبنا أميراً من قريش يجمع أمرنا، فجاء يلعب بنا، يحوّلنا من سجن إلى سجن.» قال:

ـ «فما ترى؟» قال:

---

١ يضارّني. كذا في الأصل والطبري (٨: ١٠٢٢). وما في مط: نضارني! ضارّه: خالفه

ـ «أحرق هذه السفن، وامض إلى مرو، فاخلع أميّة وتقيم بمرو وتأكلها إلى يوم ما.»

فقال بكير:

ـ «إنّي أخاف أن يهلك هؤلاء الفرسان الذين معي.» فقال:

ـ «أ يُخاف عدم الرجال؟ أنا آتيك من أهل مرو بما شئت، إن هلك هؤلاء الذين معك.» قال:

ـ «يهلك المسلمون.» قال:

ـ «إنّما يكفيك مناد ينادي: «من أسلم رفعنا عنه الخراج، فيأتيك خمسون ألفاً من المسلمين أسمع من هؤلاء وأطوع منهم.» قال:

ـ «فيهلك أميّة ومن معه.» قال:

ـ «ولِم يهلك والناس معه لهم عدّة وعدد ونجدة وسلاح كامل ليقاتلوا عن أنفسهم حتّى يبلغوا الصين.»

فلم يزل عتّاب بهذا وأشباهه حتّى [حرق][1] بكير السفن ورجع إلى مرو، فأخذ ابن أميّة فحبسه، ودعا الناس إلى خلع أميّة، فأجابوه. وبلغ أميّة فصالح أهل بخارى على شيء يسير، وبادر بالرجوع، وأمر باتخاذ السفن فاتُّخذت، وقال لمن معه من وجوه تميم:

ـ «ألا تعجبون من بكير؟ [397] إنّي قدمت خراسان، فحُذّرته، ورُفع عليه وشُكي منه، وذكروا أموالاً أصابها، فأعرضت عن ذلك كلّه ولم أفتّشه عن شيء، ولا أحداً من عمّاله، ثمّ عرضت عليه شرطتي، فأبى، فأعفيته، ثمّ ولّيته، فحذّرته، وأمرته بالمقام، وما كان ذلك إلّا نظراً له، ثمّ رددته إلى مرو، وولّيته الأمر، فكفر ذلك، وكافأني بما ترون.»

---

١ في الأصل ومط: قطع. وما أثبتناه فمن الطبري (٨: ٢٤-١).

فقال له قوم:

ـ «تعرفون أمره أيها الأمير، لم يكن هذا من شأنه. إنّما أشار عليه بإحراق السفن عتّاب اللقوة.»

ثمّ إنّ أميّة لمّا تهيأت له السفن عقد وعبر، وأقبل إلى مرو، وترك موسى بن عبدالله بن خازم.

فقال شمّاس بن دثار، وكان غزا مع أميّة:

ـ «أيها الأمير، قدّمني فإنّي أكفيه إن شاء الله.»

فقدّمه أميّة في ثمانمائة فارس. وسار إليه بكير فقال:

ـ «أما كان في تميم أحد يحاربني غيرك؟»

ولامه. فأرسل إليه شمّاس:

ـ «أنت ألأم وأسوأ صنيعاً منّي، لم تف لأميّة ولم تشكر صنيعه بك.»

قال: فبيّته بكير، ففرّق جمعه وقال:

ـ «لا تقتلوا منهم أحداً وخذوا سلاحهم.»

فكانوا إذا أخذوا رجلاً سلبوه وخلّوا عنه. فتفرّقوا. وقدّم أميّة كِشماهَن ورجع إليه شمّاس بن دثار. ثمّ أقبل [398] أميّة في الناس، فقاتله بُكير مدّة، ثمّ انحاز بكير يوماً، فدخل الحائط، فنزل السوق ونزل أميّة باشان[1]، وكانوا يلتقون في ميدان يزيد. فانكشفوا يوماً، فحماهم بُكير، ثمّ التقوا يوماً آخر في الميدان، فضرب رجل من تميم على رجله، فجعل يسحبها وهُرَيم يحميه فقال الرجل.

ـ «اللّهمّ أيّدنا بالملائكة.»

فقال له هُرَيم:

ـ «أيها الرجل، قاتل عن نفسك، فإنّ الملائكة في شغل عنك.»

---

١. باشان. كذا في الأصل. وفي مط: باتسان وهو خطأ وفي الطبري (٨، ١٠٢٦): بـاسان (بالسين المهملة). باشان (بالشين المعجمة): من قرى هراة (يا).

فتحامل، ثمّ أعاد قوله مراراً:

ـ «اللّهمّ أيّدنا بالملائكة.» فقال لهم هُريم:

ـ «لتكفّنّ عنّي، أو لأدعنّك والملائكة.»

فسكت، وحماء حتّى ألحقه بالناس. فكانوا كذلك مدة يتقاتلون، وكان أصحاب بكير يغدون متفضّلين، في ثياب مصبّغة، وملاحف وأزر صفر وحمر، فيجلسون على نواحي المدينة يتحدّثون وينادي مناد:

ـ «من رمىٰ بسهم، رمينا إليه برأس رجل من أهله وولده.»

فلا يرميهم أحد. وأشفق بكير وخاف، إن طال الحصار، أن يخذله الناس. فطلب الصلح، وأحبّ أصحاب أميّة ذلك، لمكان عيالاتهم بالمدينة، وكان يحبّ أميّة العافية، فصالحه على أن يقضي عنه أربعمائة ألف، ويصل إليه أصحابه ويولّيه أيّ كورة خراسان شاء، ولا يسمع [399] قول بحير فيه، وإن راب منه ريب فهو آمن أربعين يوماً حتّى يخرج من مرو.

وقال: وأخذ الأمان لبكير، وكتب إليه أميّة كتاباً، ودخل أميّة المدينة، ووفىٰ لبكير، وعاد إلى ما كان له من الإكرام وحسن الأدب. فأرسل إلى عتّاب اللّقوة فقال:

ـ «أنت صاحب المشورة؟» قال:

ـ «نعم، أصلح الله الأمير.» قال:

ـ «ولِمَ؟» قال:

ـ «خفّ ما كان في يدي، وكثر ديني، وأعديت على غرمائي.» قال:

ـ «ويحك! فضرّبت بين المسلمين، وأحرقت السفن والمسلمون في بلاد العدوّ، وما خفت الله.» قال:

ـ «قد كان ذاك وأستغفر الله.» قال:

ـ «كم كان دينك؟» قال:

ـ «عشرون ألفاً.» قال:

ـ «تكفّ عنّي وعن المسلمين غشّك وأقضى دينك.» قال:

ـ «نعم، جعلني الله فداءك.»

فضحك أميّة وقال:

ـ «ظنّي بك غير ما تقول، وأرجو أن تفي.»

فأدّى عنه عشرين ألفاً.

ـ «وكان أميّة سهلاً ليّناً سخيّاً لم يعط أحد بخراسان ما أعطاه، وكان مع ذلك ثقيلاً على الناس لزهو كان فيه شديد. وكان يقول:

ـ «ما أكتفي بخراسان وسجستان لمطبخي!»

وعزل أميّة بحيراً عن شرطته، وكتب إلى عبدالملك بما كان من بكير وصفحه عنه، وعزله بحيراً طلب مرضاته. [400]

عاقبة أمر بُكير

وأخذ أميّة الناس بالخراج واشتدّ عليهم فيه. فجلس يوماً بكير في المسجد وعنده ناس من بني تميم، فذكر شدّة أميّة على الناس، فذمّوه وقالوا:

ـ «سلّط علينا الدهاقين في الجباية.»

وكان بُكير وضرار بن حصن وعبدالعزيز بن حارثة في ناحية من المسجد. فنقل بَحير ذلك إلى أميّة. فكذّبه. فادّعىٰ شهادة هـؤلاء وشـهادة مـزاحـم بـن المحشر[1]. فدعا أميّة مزاحماً، فسأله، فقال:

ـ «إنّما كان يمزح.»

فأعرض عنه ثمّ إنّ بَحيراً أتاه، فقال:

١ المحشر: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨ ١٠٢٩): المجشر (بالجيم المعجمة وتشديد الشين).

ـ «أصلحك الله، إنّ بكيراً دعاني إلى خلعك، وقال: لولا مكانك لقتلت هذا القرشيّ وأكلت خراسان.»

فقال أميّة:

ـ «ما أُصدّق بهذا وقد فعل وفعلتُ ما فعلتُ.»

فأتاه بصرار بن حصن وعبدالعزيز بن حارثة، فشهدا أنّ بُكيراً قال لهما: لو أطعتماني قتلت هذا القرشيّ المخنّث، ودعانا إلى الفتك بك.»

فقال أميّة.

ـ «أنتم أعلم وما شهدتم، وما أظنّ هذا به. وإنّ تركه ـ وقد شهدتم بما شهدتم به ـ عجز.»

فقال له:

ـ «إنّ عتّاباً يحمله على ذلك.»

فقال لحاجبه وصاحب حرسه، وكان يومئذٍ عطاء بن أبي السائب:

ـ «إذا دخل بكير وبدل[1] وشمردل ابنا أخيه فنهضتُ [401] فخذوهم.»

وجلس أميّة للناس وجاء بكير وابنا أخيه. فلما جلسوا قام أميّة عن سريره، فدخل وخرج الناس، فلما همّ بكير بالخروج حبسوه وابنى أخيه فدعا أميّة ببكير وقال:

ـ «أنت القائل كذا وكذا؟» فقال:

ـ «تثبّت أصلحك الله ولا تسمع قول ابن المحلوقة.»

فحبسه وأخذ جاريته، وكانت تسمّى: العارمة[2]، فحبسها معه، وحبس الأحنف بن عبدالله العنبري. فلما كان من الغد، أخرج بكيراً، فشهد بحير وضرار وعبدالعزيز أنّه دعاهم إلى خلعه والفتك به. فقال:

---

١ بدل كذا في الأصل والطبرى. وما في مط: بدا وهو خطأ

٢ العارمة كذا في الأصل والطبرى (٨ـ ١٠٣٠). وما في مط: العارصة

ـ «أصلحك الله، فإنّ هؤلاء أعدائي.»

فقال أميّة لبَحير:

ـ «أتقتله؟» قال:

ـ «نعم.»

فقام إليه، ونهض أميّة. فقال بُكير:

ـ «يا بحير، إنّك تفرّق أمر بنى سعد إن قتلتني، فدع هذا القرشيّ يلي منّي ما يريد.»

فقال بَحير:

ـ «لا والله، يابن الإصبهانيّة! لا تصلح بنو سعد ما دمنا حيّين.» فقال:

ـ «فشأنك يابن المحلوقة.»

وقتل أميّة ابن أخي بكير، ووهب جاريته العارمة لبحير.

ثمّ وجّه أميّة رجلاً من خزاعة إلى موسى بن عبدالله بن خازم، فقتله عمرو بن خالد بن حصن الكلابي غيلة، فتفرّق جيشه، واستأمن طائفة منهم إلى موسى ورجع بعضهم إلى أميّة. [402]

وعزل عبدالملك بن مروان أميّة عن خراسان وولّاها المهلّب من قبل الحجّاج، وسنذكر سببه.

وأخذ الأبناء تحضّ على قتل بحير في الشعر وفى غير الشعر، فتعاقد جماعة منهم على الفتك ببحير. فخرج فتىً منهم يقال له الشمردل من البادية حتّى قدم خراسان فنظر إلى بحير واقفاً، فشدّ عليه، فطعنه، فصرعه وظنّ أنّه قتله. فتنادى الناس:

ـ «خارجيّ»

فراكضهم، فعثر فرسه وندر عنه فقتل. فكان بحير بعد ذلك يتحرّز من الغيلة، إلى أن خرج صعصعة بن حرب العوفيّ من البادية وقد باع غنيمات له واشترى

حماراً، ومضى إلى سجستان فجاور قرابة لبحير هناك ولاطفه وقال:
ـ «أنا رجل من بنى حنيفة من أهل اليمامة.»
فلم يزل يأتيهم ويجالسهم حتّى أنسوا به.

ذكر حيلة صعصعة على بَحير حتّى اغتاله وقتله

ثمّ إنه قال لهم:
ـ «إنّ لى بخراسان ميراثاً قد غُلبت عليه. وبلغنى أنّ بَحيراً هو عظيم القدر بخراسان، فاكتبوا لى إليه كتاباً يعيننى على طلب حقّى.»

فكتبوا إليه وخرج حتّى قدم مرو والمهلّب غاز[1]. فلقى قوماً من بنى عوف، فأفشى إليهم سرّه، فأقبل [403] إليه مولىً لبكير، فقبّل رأسه، وكان صقيلاً. فقال له صعصعة:
ـ «اتّخذ لى خنجراً.»

ففعل، وأحماه وغمسه فى لبن أتان مراراً، ثمّ شخص من مرو وقطع النهر حتّى أتى عسكر المهلّب. فلقى بحيراً بالكتاب، وقال له:
ـ «إنّى رجل من بنى حنيفة، كنت من أصحاب ابن أبى بكرة، وقد ذهب مالى بسجستان، ولى ميراث بمرو، فقدمت لأبيعه وأرجع إلى اليمامة.»

فأمر له بنفقة وأنزله معه. وقال له:
ـ «استعن بى على ما أحببت.» قال:
ـ «أقيم عندك حتّى يقفل الناس.»

فأقام شهراً أو نحواً من شهر يحضر معه باب المهلّب ومجلسه حتّى عُرف به. وكان بحير مع تحرّزه وخوفه الفتك قد أنس بصعصعة هذا لأجل الكتاب الذى

---

١. والعبارة فى مط: حتّى قدم ووجد المهلّب غازياً

صحبه من عند أصحابه، وظنّه رجلاً من بكر بن وائل، فأمنه[1]. فجاء يوماً وبَحير جالس في مجلس المهلّب، عليه قميص ورداء في نعلين. فقعد خلفه، ثمّ دنا منه فأكبّ عليه كأنّه يكلّمه. فوجأه بخنجره في خاصرته فغيّبه في جوفه وخضخضه. فقال الناس:

ـ «خارجيّ!»

وقال صعصعة:

ـ «يالثارات بكير! أنا ثائر ببكير.»

فأخذه صاحب شرطة المهلّب في الطريق، فأُتي به المهلّب، فقال المهلّب:

ـ «بؤساً لك. ما أدركت بثأرك وقتلت نفسك وما على بحير بأس.» فقال:

ـ «والله قد طعنته [404] طعنة لو قسمت بين الناس لماتوا. ولقد وجدت ريح بطنه في يدى.»

فحبسه. ودخل عليه السجن قوم من الأبناء فقبّلوا رأسه. ومات بحير من غد. فقيل لصعصعة:

ـ «مات بحير.» فقال:

ـ «إصنعوا ما بدا لكم الآن. أ ليس قد حلّت نذور نساء بني عوف وأدركت ثأرى؟ أما والله لقد أمكننى منه خالياً غير مرّة، فكرهت أن أقتله سرّاً.»

فقال المهلّب:

ـ «ما رأيت رجلاً أسخى نفساً بالموت صبراً من هذا.»

وقتله.

وقال المهلّب:

ـ «إنّا لله وإنّا إليه راجعون. غزوة أُصيب فيها بحير فغضبت عوف بن كعب

---

١ ما في الأصل: آمنه. وهو سهو فأثبتناه كما في مط، والطبري (٨: ١٠٥٠): أمنه

والأبناء.»

وقال:

ـ «علامَ قتل صاحبنا؟ وإنّما طلب بثأره.»

فنازعتهم مقاعس والبطون حتّى خاف الناس أن يعظم البأس، إلى أن نلطّف أهل الحجىٰ والرأي وقالوا:

ـ «احملوا دم صعصعة واجعلوا دم بحير بواءًا[1] ببكير.»

فودّوا صعصعة.

ذكر خروج عبدالرحمان بن الأشعث على الحجّاج وسبب خلعه لعبدالملك واجتماع الناس عليه

ولمّا فرغ الحجّاج من شبيب، قدم عليه المهلّب وقد فرغ من الأزارقة. فأجلسه معه، ودعا بأصحاب البلاد من أصحاب المهلّب، فحباهم ووصلهم، وكاتب عبدالملك بن مروان [405] بالفتح، وكتب عبدالملك إلى الحجّاج بولاية خراسان وسجستان مع العراق، وعزل أميّة عن خراسان. فبعث الحجّاج المهلّب إلى خراسان من قبله، وبعث عبيدالله بن أبي بكرة إلى سجستان، وذلك في سنة ثماني وسبعين، فمكث ابن بكرة بقيّة سنته، ثمّ غزا رُتبيل، وقد كان مصالحاً، وكانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجاً، وربما امتنع. فبعث الحجّاج إلى عبيدالله بن أبي بكرة أن ناجزه بمن معك من المسلمين من أهل الكوفة والبصرة، وكان على أهل الكوفة شريح بن هانئ، وكان من أصحاب عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكان عبيدالله على أهل البصرة، وهو أمير الجماعة.

فمضى عبيدالله حتّى وغل في بلاد رُتبيل، فأصاب من الأموال والغنم ما شاء،

---

[1] بواءًا: كذا في الأصل والطبري (٨: ١٠٥١)، وهي غير موجودة في مط. البواء: السواء والكفء. يقال: دم فلان بواء لدم فلان.

وهدم قلاعاً وحصوناً، وغلب على أرض من أرضيهم كثيرة. وأصحاب رتبيل من الترك. فلما أمعنوا في بلادهم ودنوا من مدينتهم وصاروا منها على ثمانية عشر فرسخاً أخذوا على المسلمين بالعقاب والشعاب، فسُقط في أيدي المسلمين، وظنّوا أن قد هلكوا.

فراسل ابن أبي بكرة رتبيل على أن يصالحه على سبعمائة ألف. فلقيه [406] شريح فقال له:

ـ «إنّك لا تصالح على شيء إلّا حسبه السلطان عنكم واحتسبه في أعطياتكم.» فقال الناس:

ـ «لو مُنعنا العطاء ما حيينا، كان أهون علينا من هلاكنا.»

فقال له شريح:

ـ «والله لقد بلغت سنّاً وقد هلكت لداتي[1]، وما يأتي عليّ ساعة فأظنّها تمضي حتّى أموت، ولئن فاتتني الشهادة وأنا أطلبها منذ زمان ما أخالني أدركها. يا أهل الإسلام، تعاونوا على عدوّكم.»

فقال له ابن أبي بكرة:

ـ «إنّك شيخ وقد خرفت.»

فقال له شريح:

ـ «إنّما حسبك أن يقال: بستان أبي بكرة، وحمّام أبي بكرة. يا أهل الإسلام من أراد الشهادة فإليّ.»

فاتّبعه ناس من المتطوّعين كثير وفرسان البأس وأهل الحفاظ، فقاتلوا حتّى أُصيبوا. وقتل شريح ونجا ابن أبكرة في من نجا من المسلمين.

وبلغ ذلك الحجّاج، فأخذه ما تقدّم وتأخّر وبلغ منه كلّ مبلغ، فكتب إلى

---

١ كذ في الأصل، وما في مط لداتي. وفي الطبري (٨، ١٠٣٧): لذّاتي لداتي. أترابي، أي الذين وُلدوا معي. ولكلا الصيغتين وجه من الصحة

عبدالملك:

ـ «أمّا بعد، فإنّ جند أميرالمؤمنين الذين كانوا بسجستان أصيبوا، فلم ينج إلّا القليل منهم، وقد اجترأ العدوّ على الإسلام، وأردت أن أوجّه إليهم جنداً كثيفاً من أهل المصرين، وأحببت أن أستطلع رأى أميرالمؤمنين فى ذلك. فإن رأى ذلك أمصيته، وإن لم يرد ذلك [407] فأميرالمؤمنين أعلى بجنده عيناً، مع أنّى أتخوّف أنّه إن لم يأت رُتبيل ومن معه جند كثيف عاجلاً، أن يستولوا على ذلك الفرج كلّه.»

فكتب إليه عبدالملك:

ـ «أمّا بعد، فقد أتانى كتابك تذكر فيه مصاب المسلمين بسجستان، وأولئك قوم كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم[1] وعلى الله ثوابهم. وأما رأيى فى توجيه الجنود، فإنّى أرى إمضاء عزمك. فرأيك راشداً موفّقاً.»

فأخذ الحجّاج فى جهاز عشرين ألفاً من أهل البصرة وعشرين ألفاً من أهل الكوفة، وجدّ فى ذلك وشمّر وأعطى الناس أعطياتهم، وأخذهم بالخيول الروابع والسلاح الكامل، وأخذ فى عرض الناس. فلا يرى رجلاً تذكر فيه شجاعة إلّا أحسن معونته. ولمّا استتمّ له الأمر بعث عليهم عبدالرحمان بن محمد بن الأشعث، فقدم ابن الأشعث سجستان بمن معه فى سنة ثمانين، وكان عبيدالله[2] بن أبى بكرة قد مات قبل قدوم عبدالرحمان.

ويقال: إنّ الحجّاج أنفق على ذلك العسكر، سوى الأعطيات والأرزاق، ألفى ألف [٢،٠٠٠،٠٠٠] درهم. وكان يُدعى ذلك الجيش جيش الطواويس، لحسن هيآتهم. [408]

فندب عبدالرحمان الناس وعسكر بهم فى ظاهر سجستان، ونادىٰ مناديه:

١. س ٣ آل عمران: ١٥٤: [illegible]

٢. عبيدالله: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: عبدالله.

ـ «أيّ رجل تخلّف فقد أحلّ بنفسه العقوبة»

فخرج الناس كلّهم إلى معسكرهم ووضعت[١] لهم [الأسواق][٢] وأخذوا فى الجهاد والتهيّؤ للحرب.

فبلغ ذلك رتبيل، فكتب إلى عبدالرحمان يعتذر إليه مصاب المسلمين ويخبره أنّه كان لذلك كارهاً وأنهم ألجأوه إلى قتالهم ويسأله الصفح ويعرض عليه الخراج، فلم يجبه ولم يقبل منه. وسار عبدالرحمان فى الجنود حتّى دخل أوّل بلاده، وأخذ رتبيل يضمّ إليه جنده ويدع له الأرض رستاقاً رستاقاً وحصناً حصناً. وكان ابن الأشعث كلّما حوى بلداً بعث إليه عاملاً وبعث معه أعواناً ووضع البُرد بين كلّ بلد وبلد، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب، ووضع المسالح بكلّ مكان مخوف حتّى إذا حاز من أرضه شيئاً عظيماً وملأ يده من البقر والغنم والغنائم العظيمة، حبس الناس عن الوغول فى أرض رُتبيل، وقال:

ـ «نكتفى بما أصبنا العام من بلادهم حتّى نجبيها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها، ثمّ نتعاطى فى العام المقبل ماوراءها، ثمّ لانزال ننتقصهم حتّى [409] نقاتلهم آخر ذاك على كنوزهم وذراريّهم وممتنع حصونهم، ثمّ لا نزايل بلادهم حتّى يهلكهم الله.»

ثمّ كتب إلى الحجّاج بما فتح من بلاد العدوّ وبما صنع للمسلمين وبهذا الرأى الذى رءاه لهم.

ذكر رأى خطأ للحجّاج أفسد به أولئك الجند وعبدالرحمان حتّى ألجأهم إلى مخالفته وخلعه

وكتب الحجّاج جواب كتابه:

---

١. ووضعت. كذا فى مط والطبرى (٨: ١٠٤٥). وما فى الأصل غامض ويشبه أن يكون: ورصعت، وليس له معنى.

٢. الأسواق. سقطت من الأصل ومط. فأثبتناها كما فى الطبرى.

ـ «أما بعد، فإنّ كتابك أتاني وفهمته وهو كتاب امرئ يحبّ الهدنة ويستريح إلى الموادعة. قد صانع عدوّاً ذليلاً أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم عظيماً، ولعمرك يابن أمّ عبدالرحمان، إنّك حيث تكفّ عن ذلك العدوّ بجندي وحدّي، لسخيّ النفس عمّن أصيب من المسلمين، وإنّي لم أعـذر رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأي مكيدة، ولكنّي رأيتك أنّه لم يحملك عليه إلّا ضعفك والتياث[1] رأيك. فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم، وقتل مقاتليهم، وسبي ذراريّهم.»

ثمّ أردفه كتاباً آخر قال فيه: [410]

ـ «أمّا بعد، فأمُر من قِبلك من المسلمين فليحرثوا[2] وليقيموا، فإنّها دارهم، حتّى يفتح الله عليهم.»

ثمّ أردفه كتاباً آخر فيه:

ـ «أمّا بعد، فامض لما أمرتك من الوغول في أرضهم، وإلّا فإنّ إسحاق بن محمد أمير الناس، فخلّه وما وليّته.» ـ يعني أخاه.

فلما قرأ كتابه، قال:

ـ «أنا أحمل ثقل إسحاق.»

ثمّ دعا الناس وجمعهم فحمد الله وأثنى عليه وقال:

ـ «أيها الناس، قد عرفتم نصحي لكم ومحبتي لصلاحكم والكـلّ مـا يـعود عليكم نفعه. وقد كان من رأيي لكم في ما بينكم وبين عدوّكم، رأي استشرت فيه ذوي أحلامكم وأولي التجربة في الحرب منكم، فرضوه لكم رأياً، ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً. فكتبت بذلك إلى أميركم الحجّاج وهذا جوابه، يعجّزني ويضعّفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدوّ، وهي البلاد التي هلك

---

١ التياث كذا في الأصل والطبري ٨. ١٠٥٣ وما في مط السيات. وهو خطأ.

٢ فليحرثوا في الأصل غموض وفي مط اهمال كامل وما أثبتناه من الطبري.

فيها إخوانكم بالأمس، وإنّما أنا رجل منكم، أمضي إذا مضيتم، وآبىٰ إذا أبيتم»

فثار إليه الناس من كلّ جانب.

ـ «لا بل نأبىٰ على عدوّ الله ولا نستمع له ولا نطيع.»

وتكلّم وجوه الناس، فكان أولهم وائلة الكناني، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

ـ «إنّ الحجّاج ما يرى لكم إلّا ما يقول القائل الأوّل إذ قال [411] لأخيه: إحمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. إنّ الحجّاج والله ما يبالى أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللّهوب واللّصوب، فإن ظفرتم وغنمتم، أكل البلاد وحاز الأموال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوّكم كنتم الأعداء البُغضاء الذين لا يبالى عنتهم[1]، ولا يبقي عليهم. اخلعوا عدوّ الله الحجّاج وبايعوا الأمير عبدالرحمان، فإنّى أُشهدكم أنّى أوّل خالع له.»

فنادى الناس من كلّ جانب:

ـ «فعلنا فعلنا وخلعنا عدوّ الله.»

وقام عبدالمؤمن بن شبث بن ربعيّ ثانياً، وكان على شرطته، فقال:

ـ «عباد الله، إنّكم إن أطعتم الحجّاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم، وجمّركم تجمير فرعون، فإنّه بلغني أنّه أوّل من جمّر البعوث، ولم تعاينوا والله الأحبّة في ما أرىٰ، أو يموت أكثركم، فبايعوا أميركم، وانصرفوا إلى عدوّ الله فانفوه عن بلادكم.»

فوثب الناس إلى عبدالرحمان ليبايعوه فقال:

ـ «أتبايعوننى على خلع الحجّاج عدوّ الله وعلى النصرة لى والجهاد معى حتّى ننفيه من العراق؟»

---

١. عنتهم: كذا في الأصل. في مط: عيشهم. وهو خطأ. وما في الطبري (٨: ١٠٥٤): عنتهم.

فبايعه الناس على ذلك، ولم يذكر عبدالملك إذ ذاك بشيء. ثمّ استخلف على بُست عياض بن همدان، وعلى زَرَنج عبدالله [412] بن عامر التميمي، وبعث إلى رُتبيل، فصالحه على أنّ ابن الأشعث إن ظهر فلا خراج عليه أبداً مابقي، وإن هزم فأراده، ألجأه عنده وآواه.

خروج عبدالرحمان نحو العراق

وخرج عبدالرحمان نحو العراق وبعث على مقدّمته عطيّة بن عمرو العنبري، وبعث الحجّاج إليه الخيل، فجعل لا يلقى خيلاً إلّا هزمها، حتّى دخل فارس واجتمع الناس بعضهم إلى بعض وقالوا:

ـ «إنّا إذا خلعنا الحجّاج فقد خلعنا عبدالملك.»

فاجتمعوا إلى عبدالرحمان، وكان أوّل من خلع عبدالملك تيحان بن أبجر قام فقال:

ـ «أيها الناس إنّي قد خلعت أبا ذبّان كخلعي قميصي.»

فخلعه الناس ووثبوا إلى عبدالرحمان فبايعوه وكانت بيعته:

ـ «تبايعوني على كتاب الله، وسنّة نبيّه، وخلع أئمة الضلالة، وجهاد المحلّين.»

فإذا قالوا: نعم، بايع.

فلمّا بلغ الحجّاج ذلك، كتب إلى عبدالملك يخبره، ويسأله أن يعجّل بعثة الجنود إليه. وجاء حتّى نزل البصرة، وكان المهلّب بخراسان حين بلغه شقاق عبدالرحمان، فكتب إليه:

ـ «أما بعد، فإنّك يابن محمّد قد وضعت رجلك في غرز[1] طويل الغيّ. الله الله، في نفسك لا تهلكها، وفي دماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرّقها،

---

۱ الغرز: ركاب الرحل من جلد.

[413] والبيعة فلا تنكثها. فإن قلت: إنّي أخاف الناس على نفسي، فالله أحقّ أن تخافه عليها من الناس. والسلام.»

رأى سديد رءاه المهلّب للحجّاج فعصاه

وكتب المهلّب إلى الحجّاج:

ـ «أما بعد. فإنّ أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر من عل ليس يردّه شيء حتّى ينتهي إلى قراره. إنّ لأهل العراق شرّة في أول مخرجهم وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم. فليس شيء يردّهم حتّى يسقطوا إلى أهليهم ويشمّوا أولادهم. فافرج[1] لهم، ثمّ واقعهم فإنّ الله ناصرك عليهم إن شاء الله.»

فلمّا قرأ كتابه قال:

ـ «فعل الله به وصنع. لا والله، مالي نظر، ولكنّ ابن عمّه نصح.»

وتجهّز الحجّاج للقاء عبدالرحمان، وترك رأي المهلّب. وكان فرسان أهل الشام يسقطون إلى الحجّاج مائة مائة وخمسين خمسين[2] وعشرة عشرة، وأقلّ على البُرد من قبل عبدالملك وهو في كلّ يوم يساقط إلى عبدالملك كتبه ورسله يخبر أنّ ابن الأشعث أيّ كورة نزل، ومن أيّ كورة رحل، [414] وأيّ الناس إليه أسرع. وكان بكرمان أربعة آلاف من فرسان لأهل البصرة وأهل الكوفة فلمّا مرّ بهم عبدالرحمان انجفلوا معه.

وسار الحجّاج بأهل الشام حتّى نزل قريباً من تستر، وقدّم بين يديه مطهّر بن حُييّ[3]. وكان لعبدالرحمان مسلحة عليها عبدالله بن أبان الحارثيّ في ثلاثمائة فارس. فلما انتهى إليهم مطهّر أقدم عليه فهزمته مسلحة عبدالرحمان، وأتت

---

١ فافرج لهم كذا في الأصل. وفي مط وما في الطبري (٨: ١٠٥٩): ثمّ واقعهم عندها
٢. ما في الأصل ومط خمسون خمسون فصحّحناه.
٣ حُييّ كذا في الأصل. وفي مط حيّ وما في الطبري (٨: ١٠٦١): حرّ وفي تعاليقه حي، حى

الحجّاج الهزيمة وهو يخطب. صعد إليه رجل فأخبره بهزيمة الناس، فقال:

ـ «أيها الناس، ارتحلوا إلى البصرة، إلى معسكر ومقتل وطعام ومادّة، فإنّ هذا المكان الذي نحن فيه لا يحتمل الجند.»

ثمّ انصرف راجعاً وتبعه خيول أهل العراق. فكلّ من أدركوه قتلوه وكلّ ما أصابوا من ثقل حووه. ومضى الحجّاج لا يلوى على شيء حتّى نزل الزاوية، وبعث إلى طعام التجار بالكلّاء[1]، فأخذه وحمله إليه، وخلّى البصرة لأهل العراق، وكان عامله عليها الحكم[2] بن أيّوب بن الحكم بن عقيل الثقفي. وجاء أهل العراق حتّى دخلوا البصرة. وكان الحجّاج حين صُدم تلك الصدمة وأقبل راجعاً، دعا بكتاب [415] المهلّب وقرأه وقال:

ـ «لله أبوه، أيّ صاحب حرب هو! لقد أشار علينا بالرأى وكلّنا لم نقبل.»

وكان مع الحجّاج يوم انهزم من المال مائة وخمسون ألف ألف [١٥٠،٠٠٠،٠٠٠] ففرّقها في قوّاده، وضمّنهم إياها. ولمّا بلغ أهل البصرة هزيمة الحجّاج أراد عبدالله بن عامر بن مسمع أن يقطع الجسر فرشاه الحكم بن أيوب مائة ألف درهم. فكفّ عنه. ودخل الحجّاج البصرة، فأرسل إلى ابن عامر، فانتزع المائة الألف منه.

ولمّا دخل البصرة عبدالرحمان بن محمد بن الأشعث بايعه أهلها، كلّهم قرّاؤها وكهولها، على خلع الحجّاج، وخلع عبدالملك جميع أهلها من القرّاء والشيوخ. وخندق الحجّاج عليه وخندق عبدالرحمان على البصرة، واقتتلوا في المحرم سنة اثنين وثمانين. فكانت خيل العراق تهزم أبداً خيل الشام حتّى إذا كان في آخر المحرّم هزم أهل العراق على عادتهم أهل الشام فنكصت ميمنتهم

١. الكلّاء: اسم محلّة مشهورة وسوق بالبصرة أيضاً سمّيت بذلك (معجم البلدان). أُنظر الطبري (٨: ١٠٦١).

٢. الحكم (في كلا الموضعين): كذا في مط والطبري. ما في الأصل: الحلم (باللّام).

وميسرتهم، واضطربت رماحهم، وتقوّضت صفوفهم. فلما رأى ذلك الحجّاج جثا على ركبتيه وانتضىٰ نحواً من شبر من سيفه وقال:

ـ «لله درّ مصعب، ما كان أكرمه حين نُزل به!»

قال: [416] فعلمنا أنّه لا يفرّ.

قال أبو الزبير الهمداني: فغمزت أبي بعيني ليأذن لي فأضرب الحجّاج بسيفي. فغمزني غمزة شديدة، فسكتّ[1]، وحانت منّي التفاتة، فإذا سفيان بن الأبرد قد حمل عليهم فهزمهم من قبل الميمنة، فقلت:

ـ «أبشر أيّها الأمير، فإنّ الله قد هزم العدوّ.» فقال لي:

ـ «قم فانظر.»

قال: فقمت فنظرت فقلت له:

ـ «قد هزمهم الله.» فقال:

ـ «قم يا زياد فانظر.»

فقام فنظر فقال:

ـ «الحقّ ـ أصلحك الله ـ يقيناً، قد هُزموا.»[2]

فخرّ ساجداً.

قال: فلمّا رجعت شتمني أبي وقال:

ـ «أردت أن تهلكني وأهل بيتي.»

قال: فانهزم الناس، وأقبل عبدالرحمان إلى الكوفة، وتبعه أهل القوّة من أصحاب الخيل من أهل البصرة.

ولمّا مضى عبدالرحمان إلى الكوفة وثب أهل البصرة إلى عبدالرحمان بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، فبايعوه، فقاتل بهم خمس ليال أشدّ

---

١. فسكتّ. كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨: ١٠٦٤) فسكتّ. وهو أنسب.

٢. العبارة توافق ما في الطبري (٨: ١٠٦٤).

قتال رماه الناس. ثمّ انصرف فلحق بابن الأشعث. وقتل الحريش بن هلال وجماعة من الأشراف والوجوه.

قال أبو الزبير: كنت قد أصابتني جراحة وخرج أهل الكوفة يستقبلون ابن الأشعث حين أقبل، فاستقبلوه عنده قنطرة [417] زُبارا[1]. فقال لي:

ـ «إن رأيت أن تعدل عن الطريق فلا يرى الناس جراحتك فإنّي لا أُحبّ أن يستقبلهم الجرحى.»

ففعلتُ، ودخل الناس، فلمّا دخل الكوفة مال إليه الناس كلّهم ودخلوا إليه فبايعوه، وسقط إليه أهل البصرة وتقوّضت إليه المسالح والثغور، وجاءه في من جاءه من أهل البصرة عبدالرحمان بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب. وكنّا ذكرنا أنّه قاتل الحجّاج بالبصرة بعد خروج ابن الأشعث. فبلغ ذلك عبدالملك بن مروان، فقال:

ـ «قاتل الله عدىّ[2] الرحمان، قد مرّ وقاتل غلام من غلمان قريش بعده ثلاثاً.»

وأقبل الحجّاج من البصرة، فسار في البرّ حتّى مرّ بالقادسيّة والعذيب، وبعث إليه عبدالرحمان بن الأشعث عبدالرحمان بن العباس في خيل عظيمة من خيل البصرة، فمنعوه من نزول القادسيّة. ثمّ سايره حتّى ارتفعوا على وادي السباع، ثمّ تسايرا حتّى نزل الحجّاج دير قرّة، ونزل عبدالرحمان دير الجماجم. ثمّ جاء ابن الأشعث فنزل دير الجماجم. فكان الحجّاج بعد ذلك يقول:

ـ «ما[3] كان عبدالرحمان يزجر الطير، حيث رءاني نزلت دير قرّة ونزل دير

---

١ زبارا: كذا في الأصل. وفي مط: زمارا. قال ياقوت: زبارا موضع أظنّه من نواحي الكوفة، ذكر في قتال القرامطة أيّام المقتدر.

٢. عدىّ: كذا في الأصل والطبري. وما في مط: عبدى.

٣ ما كان: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨: ١٠٧٢): أما كان.

الجماجم.»

واجتمع القرّاء من أهل [418] المصرين وأهل الثغور والمسالح وجماعة أهل الكوفة والبصرة على حرب الحجّاج والذى جمعهم على حربه بغضهم له وإجماعهم على عدوانه وظلمه، وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ممّن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم مواليهم. وجاءت الحجّاج أمداده من قبل عبدالملك. فكان الحجّاج مخندقاً فى عسكره والناس يخرجون فى كلّ يوم فيقتتلون، فلايزال أحدهما يدنى خندقه نحو صاحبه، فإذا رءاه الآخر أدنى خندقه أيضاً من صاحبه واشتدّ القتال.

ذكر وقعة دير الجماجم

لمّا بلغ أهل الشام ورؤوس قريش قبل عبدالملك مخالفة أهل العراق الحجّاج اجتمعوا إليه، وقالوا[1]:

ـ «إن كان إنّما يُرضى أهل العراق أن تنزع عنهم الحجّاج فإنّ نزع الحجّاج أهون من حرب أهل العراق فانزعه عنهم تخلص[2] لك طاعتهم وتحقن به دماءنا ودماءهم.»

بعث عبدالملك ابنه عبدالله بن عبدالملك وأخاه محمد بن مروان فى خيل إلى أرض العراق، وأمرهما أن يعرضا على أهلها نزع الحجّاج عنهم وأن يُجرى عليهم أعطياتهم [419] كما يُجرى على أهل الشام وأن ينزل ابن محمد بن الأشعث أىّ بلد شاء من العراق يكون عليه والياً ما كان حيّاً وكان عبدالملك والياً. فإن هم قبلوا ذلك فاعزل عنهم الحجّاج ومحمد بن مروان أمير العراق، وإن أبوا أن يقبلوا فالحجّاج أمير جماعة أهل الشام وولىّ القتال، ومحمد بن مروان وعبدالله بن

---

١. فى الأصل: قال وهو خطأ وما فى مط والطبرى (٨: ١٠٧٢): قالوا كما أثبتناه.

٢. فى الأصل ومط: وتخلص (بزيادة الواو) محذفناها كما فى الطبرى.

عبدالملك في طاعته.

فلم يأت الحجّاج قطّ أمر كان أشدّ عليه ولا أغيظ له ولا أوجع لقلبه من هذا الأمر مخافة أن يقبلوا فيعزل عنهم. فكتب إلى عبدالملك:

ـ «يا أميرالمؤمنين، والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي عنهم لا يلبثون إلّا قليلاً حتّى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلّا جرأة عليك. ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفّان؟ فلما سألهم: ما الذى تريدون؟ قالوا: نزع سعيد بن العاص. فلما نزعه، لم تتمّ لهم السنة حتّى ساروا إليه، فقتلوه. إنّ الحديد بالحديد يقرع. وخار الله لك في ما ارتأيت والسلام.»

فأبى عبدالملك إلّا عرض هذه الخصال على أهل العراق طلباً للمعافية من الحرب. فلما اجتمعا مع الحجّاج خرج عبدالله بن عبدالملك [420] فنادى أهل العراق وقال:

ـ «أنا عبدالله بن أميرالمؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا.»

وذكر الخصال التي ذكرناها.

وقال محمد بن مروان:

ـ «أنا رسول أميرالمؤمنين إليكم وهو يعرض عليكم كذا وكذا.»

وذكر هذه الخصال. فقالوا:

ـ «نرجع العشيّة وننظر.»

فرجعوا واجتمعوا عند ابن الأشعث، فلم يبق قائد ولا رأس ولا فارس إلّا أتاه.

ذكر رأي رءاه عبدالرحمان عند هذه الحال

لمّا اجتمع هؤلاء كلّهم عند ابن الأشعث حمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «أمّا بعد، أعطيتم اليوم أمراً انتهازكم إيّاه اليوم فرصة، ولا آمن أن يكون على

ذي[1] الرأي غداً حسرة. وإنّكم اليوم على النصف، وإن كانوا اعتدّوا عليكم بالزاوية فأنتم تعتدّون عليهم بيوم تستر. فاقبلوا ما عُرض عليكم وأنتم أعزّاء أقوياء، والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون. فلا والله لازلتم عليهم جُرآءَ وعندهم أعزّاءَ أبداً، إن قبلتم.»

فوثب إليه الناس من كلّ جانب، فقالوا:

ـ «إنّ الله قد أهلكهم، فأصبحوا في الأزْل والضنك والمجاعة والقلّة والذلّة، ونحن ذوو العدد [421] الكثير والسعر الرفيع[2] والمادة القريبة. لا والله، لا نقبل.»

فأعادوا خلعه ثانياً. وكان اجتماعهم على خلعه بالجماجم، أجمعَ من خلعهم إيّاه بفارس.

فرجع محمد بن مروان وعبدالله بن عبدالملك إلى الحجّاج، فقالا:

ـ «شأنك بعسكرك وجندك، فقد أُمرنا أن نسمع لك ونطيع.»

فقال الحجّاج:

ـ «قد قلت لكما أنّه لا يراد بهذا الخلاف غيركما.»

ثمّ قال:

ـ «إنّما أُقاتل لكما وسلطاني سلطانكما.»

فكانوا إذا لقياه سلّما عليه بالإمرة، وكان أيضاً يسلّم عليهما بالإمرة، وخلّياه والحرب، فتولاّها وبرزوا للقتال.

فجعل الحجّاج على ميمنته عبدالرحمان بن سليم الكلبي، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي، وعلى خيله سفيان بن الأبرد الكلبي، وعلى رجاله

---

١ ذي الرأي: كما في الأصل ومط والطبري. وفي بعض الأصول: ذا الرأي.

٢ السعر الرفيع: كما في الأصل. وما في الطبري (٨: ١٠٧٥): السعر الرفيع (بالعين المعجمة). وما في مط الشعر الرفيع والرفيع الهني، الرغيد الواسع. وما في الأصل أنسب. وأما ببن الأثير فيه: الشعر الرخيص (٤: ٤٧١).

عبدالرحمان بن حبيب الحكمي. وجعل ابن الأشعث على ميمنته الحجّاج بن جارية الخثعمي، وعلى ميسرته الأبرد بن قرّة التميمي، وعلى خيله عبدالرحمان بن العباس بن عامر الشعبي، وسعيد بن جبير، وأبو البختري الطائيّ، وعبدالرحمان بن أبي ليلى. فكانوا يتزاحفون كلّ يوم ويقتتلون. [422] فأما أهل الكوفة والبصرة فتأتيهم موادّهم من السواد فهم في ما شاءوا من خصب. وأما أهل الشام ففي ضيق شديد قد غلب عليهم الأسعار وقلّ عندهم الطعام وفقدوا اللحم وكانوا كأنّهم في حصارهم[1] وهم على ذلك يغادون أهل العراق ويراوحون فيقتتلون أشدّ القتال. وكان الحجّاج يدني خندقه مرّة وهؤلاء أخرى.

فعبّى ذات يوم الحجّاج أصحابه وزحف فيها. وخرج ابن الأشعث في سبعة صفوف بعضها في أثر بعض وعبّى الحجّاج لكتيبة القرّاء التي فيها جبلة بن زحر ثلاث كتائب وعليهم الجرّاح بن عبدالله الحكمي، فأقبلوا نحوهم.

فتحدّث أبو يزيد السكسكي قال: أنا والله في الخيل التي عُبّئت لجبلة بن زحر كلّ كتيبة تحمل حملة، فوالله ما استفضضناهم ولا شيئاً منهم[2].

وقال أبو الزبير الهمداني: كنت في خيل جبلة بن زحر. فلمّا حمل علينا أهل الشام مرّة بعد مرّة نادانا عبدالرحمان بن أبي ليلى الفقيه، فقال:

ـ «يا معشر القرّاء، إنّ الفرار ليس بأحد من الناس أقبح منه بكم. إنّي سمعت عليّاً ـ رفع الله درجته في الصالحين والشهداء [423] والصدّيقين ـ يقول يوم لقينا أهل الشام: أيها المؤمنون، إنّه من رأى عدواناً يُعمل به ومنكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ. ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه. ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا[3] وكلمة الظالمين السفلىٰ فذلك الذي

---

١. في حصارهم: كذ في الأصل والطبري ٨: ١٠٧٦. وما في مط.: في عصارهم!

٢. منهم: كذا في الأصل. وما في مط.: منها. والعبارة في الطبري (١٠٧٧): وما استنقصنا منهم شيئاً

٣. اقتباس من: س ٩ التوبة: ٤٠

أصاب سبيل الهدىٰ ونُوّر قلبه باليقين. فقاتلوا المحلّين المبتدعين الذين قد جهلوا الحقّ فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه.»

وتكلّم أبو البخترى بنحو من هذا الكلام وحضّ على قتالهم، وكذلك الشعبيّ، وسعيد بن جبير.

وقال جبلة:

ـ «إذا حملتم عليهم فاحملوا حملة صادقة لا تردّوا فيها وجوهكم حتّى تخالطوا صفّهم.»

قال: فحملنا حملة بجدّ منّا فى قتالهم وقوّة منّا عليهم. فضربنا الكتائب الثلاث حتّى تكسّرت بعضها فى بعض وتفرّقت. ثمّ مضينا حتّى واقعنا[1] صفّهم فضاربناهم حتّى أزلناهم عنه. ثمّ انصرفنا، فمررنا بجبلة صريعاً لا ندرى كيف قتل.

قال: فهدّنا ذلك وجئنا فوقفنا موقفنا الذى كنّا به وإنّ قرّاءنا لمتوافرون ونحن نتناعى جبلة بن زحر، كأنّما فقد [424] كلّ واحد منّا أباه أو أخاه، بل هو فى ذلك الموطن كان أشدّ علينا فقداً.

فقال لنا أبو البخترىّ:

ـ «لا يستبيننّ عليكم قتل جبلة بن زحر، فإنّما كان كرجل منكم أتته منيّته ليومها، وكلّكم ذائق ما ذاق، ومدعوّ فمجيب.»

قال: فنظرت فى وجوه القرّاء، فإذا الكآبة على وجوههم بيّنة، وإذا ألسنتهم منقطعة، وإذا الفشل قد ظهر فيهم. فسرّ أهل الشام ما رأوا فينا، ثمّ نادونا:

ـ «يا أعداء [الله،][2] قد هلكتم والله، وقتل الله طاغيتكم.»

وقدم علينا، ونحن على تلك الحال، بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيبانى،

---

١. واقعنا: كذا فى الأصل بشيء من الغموض. وما فى مط. أيضاً واقعنا

٢. ما بين [ ] تكملة من مط

فشجّع الناس مقدمه وقالوا:

ـ «هذا يقوم مقام جبلة.»

فسمع هذا الكلام من بعضهم أبو البختري، فقال:

ـ «قُبحتم[١]، إن كلّما قتل رجل واحد ظننتم أن قد أُحيط بكم، فإن قُتل الآن مصقلة ألقيتم بأيديكم[٢] وقلتم: لم يبق أحد نقاتل معه. ما أخلقكم أن يحفف رجاؤنا فيكم.»

وكان قدم بسطام من الريّ.

قال أبو المخارق: قاتلناهم مائة يوم أعدّها عدّاً لا يزيد يوماً ولا ينقص يوماً وما كنّا قطّ [425] أجرأ عليهم ولا هم أهون علينا منهم في ذلك اليوم، وذلك أنّا قاتلناهم عامة يومنا أحسن القتال فاتلناهم قطّ ونحن آمنون من الهزيمة عالون القوم، إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلبي في الخيل من ميمنة أصحابه حتّى دنا من الأبرد بن قرّة التميمي وعلى ميسرة عبدالرحمان بن محمد. فوالله ما قاتله كبير قتال حتّى انهزم. فأنكرها الناس منه، وكان شجاعاً، ولم يكن الفرار له بعادة. فظن[٣] الناس أنّه كان أومن وصُولح على أن ينهزم بالناس. فلما فعلوا تقوّضت الصفوف من نحوه، وركب الناس رؤوسهم وأخذوا في كلّ وجه.

فصعد عبدالرحمان بن محمد المنبر، وأخذ ينادي الناس:

ـ «إليّ إليّ أنا ابن محمد»

فأتاه عبدالله بن رزام الحارثي، فوقف تحت منبره في خيل له، وجاءه عبدالله

---

١ قبحتم. الضبط من الأصل كما في الطبري (٨: ١٠٨٨). قبحتم [عن الخير]: أي نُحّيتم عنه.

٢ ألقيتم بأيديكم. كذا في الأصل ومط. وفي الطبري: ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة كما جاء في التنزيل ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة (س ٢ البقرة: ١٩٥).

٣. فظن الناس كذا في الأصل ومط ولم نجدها في الطبري ولا ابن الأثير ويبدو أنها تصحيف من «فطن» مع أنّ «فطن» أيضاً وجهاً أقوى، لولا وحدة الفاء، لأنّ السياق يتطلّب أن تتكرر الفاء «فظن».

بن ذؤاب السلمى فى خيل له، فوقف قريباً منه وثبت حتّى دنا منه أهل الشام، فأخذت نبالهم تحوزه. فقال:

ـ «يابن رزام، إحمل على هذه الرجّالة.»

فحمل عليهم حتّى أمعنوا. ثمّ جاءت خيل أُخرىٰ ورجّالة، فقال

ـ «احمل عليهم يابن ذؤاب.»

فحمل عليهم [426] حتّى أمعنوا وثبت لا يبرح. ودخل أهل الشام العسكر، فصمد إليه عبدالله بن يزيد بن المغفّل الأزدى، فقال:

ـ «انزل، فإنّى أخاف عليك إن لم تنزل أن تؤسر، ولعلّك إن انصرفت اليوم أن تجمع لهم جميعاً فى غد يهلكهم الله.»

وكانت بنت عبدالله بن يزيد تحت عبدالرحمان بن محمد. فنزل وخلّى أهل العراق العسكر وانهزموا لا يلوون. ومضى عبدالرحمان مع أناس من أهل بيته.

فقال الحجّاج:

ـ «أتركوهم، فليبتدروا[١] ولا تتبعوهم.»

ونادىٰ المنادى:

ـ «من رجع فهو آمن.»

ورجع محمد بن مروان وعبدالله بن عبدالملك إلى الشام بعد الوقعة، وخلّيا العراق والحجّاج.

دخول الحجّاج الكوفة وجلوسه للناس

وجاء الحجّاج حتّى دخل الكوفة وجلس للناس. فكان لا يبايعه أحد من أهل العراق إلّا قال:

١ فليبتدروا: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨: ١٠٩٦): فليبدّدوا.

ـ «أتشهد أنّك قد كفرت؟»

فإذا قال: «نعم،» بايعه، وإلّا قتله.

فجاء رجل من خثعم، وكان معتزلاً للناس جميعاً من وراء الفرات، فسأله عن حاله فقال:

ـ «مازلت معتزلاً وراء هذه النطفة منتظراً أمر الناس حتّى ظهرت، فأتيت لأبايعك مع الناس.» فقال:

ـ «أمتربّص؟ [427] أتشهد أنّك كافر؟»

ـ «بئس الرجل أنا إذاً! إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثمّ أشهد على نفسي بالكفر.» قال:

ـ «إذاً أقتلك.» قال:

ـ «فإن قتلتني، والله ما بقي من عمري إلّا كظمئ حمار[1]، وإنّي لأنتظر الموت صباح مساء.» قال:

ـ «إضربوا عنقه.»

فلما ضربوا عنقه لم يبق أحد حوله من الحرس إلّا رحمه ورثى له من القتل.

قتله كميل بن زياد النخعي وما دار بينهما من كلام

ودعا بكميل بن زياد النخعي، وكان ركيناً في الحرب حليماً صاحب نجدة وحفاظ من أصحاب عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال:

ـ «أنت المقتصّ من أميرالمؤمنين عثمان؟ قد كنت أحبّ أن أجد عليك سبيلاً.» فقال:

ـ «والله ما أدرى على أيّنا أنت أشدّ غضباً: عليه حين أقاد من نفسه، أم عليّ

١ قال في متن اللغة، ظمء الحياة، ما بين سقوط الولد إلى حين موته، ويكنى بظمء الحمار عن قصر المدة لأنه أقل الحيوان صبراً على العطش.

حين عفوت عنه؟»

فراجعه الحجّاج. فقال:

ـ «أيها الرجل) لا تصرف عليّ أنيابك، ولا تهدّم عليّ تهدّم الكثيب، ولا تكشر كشران الذئب. والله ما بقي من عمري إلّا مثل ظمئ الحمار، فإنّه يشرب غدوة، ويموت عشيّة ويشرب عشيّة ويموت غدوة. إقض ما أنت قاض، فإنّ الموعد الله، وغداً الحساب.»

فقال الحجّاج:

ـ «فإنّ [428] الحجّة عليك.» قال:

ـ «إن كان القضاء إليك.» قال:

ـ «اقتلوه!»

فقُتل رحمه الله.

وأُتي برجل آخر من بعده طلبه الحجّاج. فقال الحجّاج:

ـ «إنّي أرى وجه رجل ما أظنّه يشهد على نفسه بالكفر.» قال:

ـ «أخادعي أنت عن نفسي؟ بلى أنا أكفر أهل الأرض، وأكفر من فرعون ذي الأوتاد.»

فضحك الحجّاج وخلّى سبيله.

وتوفّى فى هذه السنة المهلّب منصرفه من كِشّ[1] يريد مرو وأصابته الشوصة فدعا حبيباً ومن حضر من ولده فوصّاهم.

---

١ في الأصل وحواشي الطبري (٨: ٨٠ـ١٠٧٨): كس. من دون ضبط. وفي ياقوت بكسر الكاف وتشديد الشين وفي مط كسر وهو تصحيف. وفي الطبري وابن الأثير (٤: ٤٧٣): كَشّ. اسم لمدينة بماوراءالنهر يقال لها اليوم: «شهر سبز» أي. المدينة الخضراء (قم. مد). قال البلاذري: كِشّ هي الصغد، تُكسر فيه الكاف وتفتح. وربما صحّفه بعضهم فقاله: كشّ. قال ابن ماكولا - لمّا عبرت نهر جيحون وحضرت بخارى وسمرقند وجدت جميعهم يقولون: كِسّ. قال المقدسي: «كِسّ تعريب كشّ» (نقلاً عن معجم البلدان بالتلخيص).

وصيّة المهلّب إلى ولده حين حضرته الوفاة

قال:

ـ «عليكم بتقوى الله، وصلة الرحم. اجمعوا أمركم ولا تختلفوا تبازّوا لتجتمع أموركم. إنّ بني الأمّ يختلفون وكيف ببني العلّات[1]. وعليكم بالطاعة والجماعة، ولتكن أعمالكم أفضل من أقوالكم، فإنّي أحبّ الرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه. واتّقوا الجواب[2] وزلّة اللسان، فإنّ الرجل تزلّ قدمه فينتعش من زلّته، ويزلّ لسانه فيهلك. وآثروا الجود على البخل [429] وأحبّوا العرب، واصطنعوا العرف. فإنّ الرجل تعده العدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده! عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة، فإنّها أنفع من الشجاعة، وإذا كان [اللقاء][3]، ونزل القضاء. فإن أخذ رجل بالحزم وظهر على العدوّ، قيل: [أتى] الأمر[4] من وجهه ثمّ ظفر. وإن لم يظفر بعد الأناة، قيل: ما فرّط ولا ضيّع، ولكنّ القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعلّم السنن وآداب الصالحين. وإيّاكم والخفّة وكثرة الكلام في مجالسكم. إعرفوا حقّ من يغشاكم، فكفى بغدوّ الرجل ورواحه إليكم تذكرة له. وقد استخلفت عليكم يزيد.»

فقال المفضّل:

ـ «لو لم تقدّمه يزيد لقدّمناه.»

ومات المهلّب وصلّى عليه حبيب، ثمّ سار بالجند إلى مرو. فكتب يزيد إلى

---

١. العلّات (بفتح العين المهملة وهي مكسورة في الطبري) جمع مفرده: العلّة وهي الضرّة. يقال: بنو علّات أي بنو أمّهات شتى من رجل واحد. وعكسها: أولاد الأخياف. ويقال: هم إخوة أخياف، أي بنو أخياف، أي أمّهم واحدة والآباء شتى.

٢. واتقوا الجواب. كذا في الأصل ومط والطبري (٨: ١٠٨٣).

٣. في الأصل ومط: القضاء. وهو سهو. وفي الطبري (٨: ١٠٨٣): اللقاء.

٤. في الأصل ومط: أتاه الأمرُ. وفي الطبري (٨: ١٠٨٣): أتى الأمرَ

عبدالملك بوفاة أبيه واستخلافه إيّاه، فـأقرّه الحـجّاج. وذلك فـي سـنة أثـنتين وثمانين.

ذكر وقعة الحجّاج وابن الأشعث بَمسْكِن

لمّا انهزم ابن الأشعث من دير الجماجم، وتفرّق أصحابه حصل خـلق مـنهم بالمدائن [430] مع محمد بن أبي وقّاص وجماعة مع عبيدالله بن عبدالرحمان بن أبي سمرة بن جندب. وخرج الحجّاج في آثارهم، فبدأ بالمدائن. فلمّا بلغ محمد بن سعد عبوره خرج مع أصحابه حتّى لحق بابن الأشعث. وخرج إليه عبيدالله بن عبدالرحمان أيضاً، واجتمع إليه الناس من كلّ أوب[١] حتّى عسكروا معه عـلى دجيل بَمسْكِن، وأتاه فلّ الكوفة، وتلاوم الناس على الفرار، وبايع أكثرهم بسطام بن مصلقة على الموت، وخندق عبدالرحمان على أصحابه، وبثق[٢] الماء مـن جانب، فوجّه القتال من وجه واحد.

وقدم عليه خالد بن جرير بن عبدالله القسري من خراسان في ناس كانوا معه من بعث الكوفة، فاقتتلوا خمس عشرة ليلة من شعبان أشدّ قتال حتّى قتل زياد بن غنيم من أصحاب الحجّاج وكان على مسالحه، فهدّه ذلك وهدّ أصحابه. وعبّى أصحابه وحضّهم على القتال، وباكرهم بقتال لم ير مثله قطّ. وجاءه عبدالملك بن المهلّب مجفّفاً[٣] وقد كشفت خيل سفيان بن الأبرد

فقال له الحجّاج:

---

١ أوب: ما في الأصل لوب (باللّام) والمثبت من مط. الأوب: القصد والعادة والطريق. يقال: «جاؤوا من كلّ أوب» أي: من كل جهة

٢ بثق: كذا في الأصل والطبري (٨، ١٠٩٩) وما في مط شق. بثق النهر: كسر سدّه ليفيض منه نماء.

٣ مجفّفاً: كذا في الأصل، وما في مط مهمل من دون نقط. وفي الطبري: محفّفاً (بالحاء المهملة). جفّفه ألبسه التجفاف. آلة للحرب يُتّقى بها كالدرع، للفرس والإنسان. حفّفه القوم (بالحاء المهملة): أحدقوا به

ـ «ضمّ إليك يا عبدالملك هذا النشر[١] لعلّى أحمل عليهم.»

ففعل، وحمل الناس [431] من كلّ جانب. فانهزم أهل العراق أيضاً وقتل أبو البختري الطائيّ وعبدالرحمان بن أبى ليلى، وكانا قالا قبل أن يقتلا:

ـ «إنّ الفرار كلّ ساعة لقبيح بنا.»

فصبرا وأصيبا.

ومشى بسطام بن مصقلة فى أربعة آلاف ممّن بايعوه على الموت، فهزم أهل الشام مراراً وكشفهم حالاً بعد حال. ولم يكن الحجّاج يعرف إليهم طريقاً إلّا الطريق الذى يلتقون فيه. فأتى بشيخ كان راعياً، فدلّه على طريق من وراء أجمة فى الكرخ طوله ستّة فراسخ فى ضحضاح من الماء. فبات الحجّاج الليلة وانتخب من جَلَد أهل الشام أربعة آلاف، وقال لقائدهم:

ـ «ليكن هذا العلج أمامك وهذه خمسة آلاف درهم. فإن أقامك على عسكرهم فادفع إليه المال، وإن كذبنا فاضرب عنقه. فإن رأيتهم فاحمل عليهم فى من معك وليكن شعاركم: يا حجّاج يا حجّاج.»

فانطلق القائد صلاة العصر، والتقى عسكر الحجّاج وعسكر ابن الأشعث حين فصل القائد بمن معه. فاقتتلوا إلى الليل، فانكشف الحجّاج من جهة بسطام بن مصقلة كما حكينا من أمره قبل، حتّى عبر السّيب ودخل ابن الأشعث [432] عسكره فانتهبه.

ذكر تكاسل كان من ابن الأشعث عاد بوبال عليه واتّفاق محمود للحجّاج

قيل لابن الأشعث:

---

١ النشر كذا فى الأصل ومط والطبرى (٨: ١٠٠). النشر: القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس. يقال: اللّهم اضمم نشرى. أى. ما تفرّق من أمرى.

ـ «الرأي أن تتبعه ولا تنفّس عنه.» فقال:

ـ « [قد] تعبنا ولحقنا نصب.»

فرجع إلى عسكره، وألقىٰ أصحابه السلاح وباتوا آمنين، فى أنفسهم لهم الظفر، وهجم القوم عليهم نصف الليل يصيحون بشعارهم. فجعل الرجل من أصحاب ابن الأشعث لا يدرى أين يتوجّه، دجيل من يساره ودجلة أمامه ولها جرف منكر. فكان من غرق أكثر ممن قتل. وسمع الحجّاج الصوت، فعبر السيب، وكان قد قطعه إلى عسكره، ثمّ وجّه خيله إلى القوم، فالتقى العسكران على ابن الأشعث، فانهزم في ثلاثمائة. فمضىٰ على شاطئ دجلة حتّى أتى دجيلاً، فعبره في السفن وعقروا دوابّهم، وانحدر في السفن إلى البصرة. فدخل الحجّاج عسكره وقتل من وجد، حتّى قتل أربعة آلاف، فيهم بسطام بن مصقلة وجماعة من أهل الشرف والصبر.

وخرج ابن الأشعث بمن معه من الفلّ منهزمين نحو سجستان فلمّا [433] دخل كرمان تلقّاه عمرو بن لقيط وكان عامله عليها. فسأله نزلاً، ونزل.

فقال له شيخ من عبدالقيس يقال له معقل:

ـ «والله، لقد بلغنا عنك يابن الأشعث أنّك جبان في مواطنك.»

فقال عبدالرحمان:

ـ «ما جبنتُ، والله لقد دلفت إلى الرجال بالرجال، ولففت الخيل بالخيل، ولقد قاتلت وقاتلت راجلاً، فما انهزمت، ولا تركت العرصة للقوم في موطن حتّى لا أجد مقاتلاً، ولا أرىٰ معي مقاتلاً، ولكنّي زاولت مُلكاً مؤجّلاً.»

ثمّ مضى ابن الأشعث بمن معه حتّى فوّز في مفازة كرمان وخيل الشام تتبعه، ثمّ مضىٰ حتّى خرج إلى زَرَنج[1] مدينة سجستان، وفيها رجل من بني تميم كان

١. زَرَنج: مدينة هى قصبة سجستان، وسجستان اسم الكورة كلّها (معجم البلدان). اسم قديم لمدينة كانت ←

استعمله عبدالرحمان عليها يقال له عبدالله بن عامر من بني مجاشع فلمّا قدم عليه ابن الأشعث منهزماً أغلق باب المدينة دونه، ومنعه دخولها. فأقام عبدالرحمان أيّاماً رجاء افتتاحها ودخولها. فلمّا رأى أنه لا يصل إليها خرج حتّى أتى بُست[1]، مكان استعمل عليها رجلاً يقال له: عياض بن هميان السدوسي، فاستقبله وقال له:

ـ «انزل.» [434]

ذكر طمع عياض في ابن الأشعث

فجاء ابن الأشعث حتّى نزل به وانتظر حتّى غفل أصحاب عبدالرحمان، وتفرّقوا عنه وثب عليه، فأوثقه وأراد أن يأمن بها عند الحجّاج ويتخذ بها عنده مكاناً، وقد كان رُتبيل حين سمع بمقدم عبدالرحمان عليه استقبله في جنوده، وجاء حتّى أحاط ببست، وبعث إلى البكريّ. والله، لئن آذيته بما يُقذي عينه أو ضررته ببعض المضرّة، أو رزأته حبلاً من شعر، لا أبرح العرصة حتّى أستنزلك فأقتلك وجميع من معك، ثمّ أسبي ذراريكم، وأقسّم بين الجند أموالكم، وأقتل من عائد[2] منكم.»

فأرسل إليه البكريّ أن:

ـ «أعطنا أماناً على أنفسنا وأموالنا ونحن ندفعه إليك سالماً وما كان له من مال موفّراً.»

→

مركز سجستان. وقد تبدّل هذا الإسم في ما بعد إلى مدينة سجستان (=شهر سيستان) والإسم الأخير كان عليها حتّى الأيام التي خربت المدينة فيها على يد تيمور (السترنج ٦٠ ـ ۳٥۹)

1. بُست مدينة بين سجستان وغزنين وهراة وأظنّها من أعمال كابل (معجم البلدان) وتقع على ملتقى رافدي نهر هيرمند في أفغانستان (م).

2. عائد: كذا في الأصل وهو الصحيح وما في مط: عاد

فصالحه على ذلك وآمنهم. ففتحوا لابن الأشعث وخلّوا سبيله، فأتى رُتبيل فقال له بعدما أنس وتساءلا:

ـ «هذا الرجل كان عاملى على هذه المدينة، وركب منّى ما رأيت، فأذنْ لى فى قتله؟» قال:

ـ «آمنته وأكره الغدر به.» فقال:

ـ «فأذن لى فى لهزه ودفعه والتصغير[1] به.» [435] فقال:

ـ «أمّا هذا فنعم.»

ففعل به عبدالرحمان، ثمّ مضى مع رُتبيل حتّى دخل بلاده، فأنزله رُتبيل وأكرمه وعظّمه وكان معه ناس من الفلّ كثير.

ذكر ما اغترّ به عبدالرحمان حتّى فارق رُتبيل ثمّ اضطرّ إلى معاودته

كان جماعة من أصحاب عبدالرحمان وعُظم فلوله ممّن لم يقبلوا أمان الحجّاج وناصبوه فى مواطنه لم يكن لهم عنده وجه، فاضطرّوا إلى الخروج فى إثر عبدالرحمان، فلم يزالوا يتساقطون إلى نواحى سجستان حتّى اجتمع منهم وممّن اتّبعهم من أهل البلد نحو من ستين ألفاً. فنزلوا على عبدالله بن عامر، فحصروه وكتبوا إلى عبدالرحمان يخبرونه بعددهم وجماعتهم وهو عند رتبيل، وكان يصلّى بهم عبدالرحمان بن العبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطّلب، وكتبوا إليه أن:

ـ «أقبل، لعلّنا نسير إلى خراسان، فإنّ بها منّا جنداً عظيماً، فلعلّهم يبايعوننا[2] على قتال أهل الشام وهى بلاد واسعة عريضة فيها حصون.»

---

١ التصغير، كذا فى مط والطبرى (٨: ١١٠٣). وما فى الأصل: التصمير (بالعين المهملة)

٢ يبايعوننا: ما فى الأصل ومط: يبايعونا، والمثبت يوافق الطبرى.

فخرج إليه عبدالرحمان بمن معه، فحصروا عبدالله بن عامر حتّى استنزلوه، فأمر به عبدالرحمان، فضُرب وعُذّب وحُبس. ثمّ إنّه توجّه [436] إليهم خيل الشام، عليهم عمارة بن تميم اللخميّ.

ذكر آراء أُشير بها على ابن الأشعث ورأى رءاه وحده سديد لو ساعدوه عليه

أشار أصحاب عبدالرحمان عليه أن يخرج عن سجستان، وقالوا له:

ـ «هلمّ بنا، نأتي خراسان وندع لهم سجستان.»

فقال عبدالرحمان:

ـ «على خراسان يزيد بن المهلّب وهو شابّ شجاع صارم وليس بتارك سلطانه، ولو قد دخلتموها وجدتموه سريعاً إليكم، ولن يدع أهل الشام اتّباعَكم،[1] فأكره أن يجتمع عليكم أهل خراسان وأهل الشام، وأخاف ألّا تنالوا ما تظنّون.»

فقالوا:

ـ «إنّما أهل خراسان منّا، ونحن نرجو أن لو دخلناها أن يكون من يتّبعنا منهم أكثر ممّن يقاتلنا، وهى أرض طويلة عريضة نتنحّىٰ[2] فيها حيث شئنا ونمكث حتّى يهلك الله الحجّاج أو عبدالملك، أو نرىٰ رأينا.»

فقال لهم عبدالرحمان:

ـ «سيروا على اسم الله.»

فساروا حتّى بلغوا هراة. فلم يشعروا بشيء حتّى خرج من عسكره عبيدالله بن عبدالرحمان [437] بن سمرة بن جندب القرشيّ في ألفين، ففارقه وأخذ طريقاً سوى طريقهم.

۱. الضبط من الأصل، وهو يوافق الطبرى (۸: ۱۱۰۵).

۲. نتنحّى: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (۸: ۱۱۰۵): نتنحى.

فلمّا أصبح ابن الأشعث خطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «أمّا بعد، فإنّي قد شهدتكم في هذه المواطن، وليس منها مشهد لا أصبر لكم فيه[1] نفسي حتّى لا يبقىٰ فيه منكم أحد. وقد كنت لمّا رأيتكم لا تصبرون ولا تصدقون القتال، أتيت ملجأً ومأمناً فكنت فيه. فجاءتني كتبكم بأن: أقبل إلينا فإنّا قد اجتمعنا وأمرنا واحد، لعلّنا نقاتل عدوّنا. فأتيتكم، فرأيتم أن أمضي إلى خراسان وزعمتم أنّكم مجتمعون لي، وأنّكم لن تتفرّقوا عنّي، فحسبي منكم يومي هذا. قد صنع عبدالله ما قد رأيتم، فاصنعوا أنتم أيضاً ما بدا لكم. أما أنا فمنصرف إلى صاحبي الذي أتيتكم من قِبله. فمن أحبّ منكم أن يتبعني فليتبعني، ومن كره ذلك فليذهب حيث أحبّ في كنف الله.»

فتفرّقت منهم طائفة ونزلت معه طائفة وبقي عظم العسكر. فوثبوا إلى عبدالرحمان بن عباس الهاشميّ لمّا انصرف ابن الأشعث، فبايعوه ثمّ مضى عبدالرحمان بن الأشعث إلى رُتبيل ومضوا هم إلى خراسان حتّى انتهوا إلى هراة، فلقيهم الرقاد بن عبيد العتكيّ، فقتلوه [438] وخرج إليهم يزيد بن المهلّب، وأرسل إليهم وإلى الهاشميّ:

ـ «قد كان لك في البلاد متّسع ومن هو أكلّ منّي حدّاً وأهون شوكة، فارتحل إلى بلد ليس [لي][2] فيه سلطان، فإنّي أكره قتالك. وإن أحببت أن أمدّك بمال لسفرك أعنتك عليه.»

فأرسل إليه:

ـ «ما نزلنا هذه البلاد لمحاربة ولا انتقام، ولكنّا أردنا أن نريح ثمّ نشخص إن شاء الله، وليست بنا حاجة إلى ما عرضت.»

فانصرف رسول يزيد إليه، وأقبل الهاشميّ على الجباية وبلغ يزيد، فقال:

١. فيه: كذ في الطبري (٨: ١١٠٥) ومط. وما في الأصل: فيها، وهو سهو
٢. ما بين [ ] تكملة من الطبري (٨: ١١٠٦) تطلّبه سياق العبارة، فأصفناه

ـ «من أراد أن يريح ثمّ يجتاز لم يجبْ الخراج.»

فقدّم المفضّل في خمسة آلاف ثمّ أتبعه في أربعة آلاف.

ووزن يزيد نفسه بسلاحه، فكان أربعمائة رطل، فقال:

ـ «ما أراني إلّا قد ثقلت عن الحرب. أيّ فرس يحملني!»

ثمّ دعا بفرسه الكامل، فركبه حتّى أتىْ هراة، وأرسل إلى الهاشميّ:

ـ «قد أرحت وأسمنت وجبيت، فلك ما جبيت، وإن أردت زيادة زدناك. فاخرج، فوالله ما أريد أن أُقاتلك.»

فأبى إلّا القتال، ودسّ الهاشميّ إلى جند يزيد يمنّيهم ويعدهم إلى نفسه. فأُخبر بعضهم يزيد، فقال:

ـ «جلّ [439] الأمر عن العتاب. أتغدّى بهذا قبل أن يتعشّى بي.»

فسار إليه حتّى تدانى العسكران وتأهّبوا للقتال، وألقي ليزيد كرسيّ، فقعد عليه، وولّى الحرب أخاه المفضّل، وقال له:

ـ «هدّم خيلك.»

فتقدّم بها وتهايجوا، فلم يكن بينهم كبير قتال حتّى تفرّق الناس عن عبدالرحمان الهاشميّ، وصبر وصبرت معه طائفة من أهل الحفاظ، فكثرهم الناس، فانكشفوا. فأمر يزيد بالكفّ عن اتباعهم، وأخذوا ما كان في عسكرهم، وأسروا منهم أسرىٰ فيهم سعيد بن سعيد بن أبي وقّاص، وموسى بن عمر بن عبيدالله بن معمر، وعيّاش بن الأسود بن عوف الزهري، والهلقام بن نُعيم[1] بن القعقاع بن معبد بن زرارة، ويزيد بن الحصين، وعبدالرحمان بن طلحة بن عبيدالله بن خلف، وعبدالله بن فضالة الزهراني. ولحق الهاشمي بالسند، وابن سمرة قصد مرو. ثمّ انصرف يزيد إلى مرو، وبعث بالأسرى إلى الحجّاج مع ابن عمّ له، وخلّى عن

---

١ في مط: «الزهري والهذ أم نعيم» بدل «الزهري والهلقام بن نعيم»، والتحريف غريب!

ابن طلحة وعبدالله بن فضالة.

وسعى قوم عبيدالله بن عبدالرحمان بن سمرة، فأخذه يـزيد، وحـبسه. فـأمّا محمد بن سعد بن أبي وقّاص، فيقال: إنّه قال ليزيد:

ـ «أسألك بدعوة أبي لأبيك.»

ولقوله هذا حديث فيه طول. [1440]

ذكر ما تقدّم به الأسرىٰ عند الحجّاج

لمّا قدم الأسرىٰ على الحجّاج، قُدّم موسى بن عمر بن عبدالله بن معمر، فقال:

ـ «أنت صاحب عُدىٰ الرحمان.» فقال:

ـ «أصلح الله الأمير، كانت فتنة شملت البرّ والفاجر، فدخلنا فيها، وقد أمكنك الله منّا، فإن عفوت فبحلمك وبفضلك، وإن عاقبت، عاقبت ظلمة[1] مذنبين.» فقال الحجّاج:

ـ «أمّا قولك: شملت البرّ والفاجر فكذبت، ولكنّها شملت الفجّار وعوفي منها الأبرار، وأمّا اعترافك بذنبك فعسىٰ أن ينفعك.»

فعزل، ورجا له الناس العافية. حتّى قدّم الهلقام بن نعيم، فقال له الحجّاج:

ـ «أخبرني عنك، ما رجوت اتّباع عبدالرحمان بن محمد، أرجوت أن يكون خليفة؟» قال:

ـ «نعم، رجوت ذلك وطمعت أن يُنزلني منزلتك من عبدالملك.»

فغضب الحجّاج، وقال:

ـ «إضربوا عنقه.»

ونظر إلى موسى بن عمر بن عبدالله بن معمر وقد كان نُحّى[2] عنه، فقال:

---

١. في مط: «وإن عاقبت فظلمة» بدل: «إن عاقبت، عاقبت ظلمة».

٢. نُحّى: كذا في الأصل وهو الصحيح. وما في مط: بحى. وهو خطأ.

ـ «إضربوا عنقه!»
وقتل، وقتل بقيّتهم.

كلام للشعبيّ لمّا حُمل إلى الحجّاج

كان الحجّاج لمّا هزم الناس نادى مناديه:
ـ «من لحق بقتيبة بن مسلم بالريّ فهو أمانه.»
فلحق ناس كثير بقتيبة وفيهم عامر الشعبيّ. فذكره الحجّاج يوماً وقال:
ـ «أين هو، [441] وما فعل؟»
قال له يزيد بن أبي مسلم، وهو كاتب الحجّاج:
ـ «بلغني أيها الأمير أنّه لحق بقتيبة.»
فكتب الحجّاج إلى قتيبة أن يبعث إليه بالشعبى حين ينظر في كتابه. فسرّحه إليه.
قال الشعبى: كنت لابن أبى مسلم صديقاً. فلمّا قدم بى على الحجّاج لقيته وقلت له:
ـ «أشر عليّ.» قال:
ـ «ما أدرى ما أشير به عليك، غير أن: اعتذر ما استطعت من عذر.»
فلمّا دخلت سلّمت بالإمرة ثمّ قلت:
ـ «أيها الأمير إنّ الناس قد أمرونى أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق. وأيم الله لا أقول فى هذا المقام إلّا حقاً. قد والله سوّدنا عليك، وخرجنا واجتهدنا عليك كلّ الجهد فما ألونا[1]. فما كنّا بالفجرة الأقوياء، ولا بالبررة الأتقياء. ولقد نصرك الله علينا، وأظفرك بنا. فإن سطوت فبذنوبنا وما جرّت إليها أيدينا، وإن

---

١ ألونا كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨: ١١١٢): آلونا. وهو خطأ وقوله فما ألونا أى: فما قصرنا، وما أبطأنا. ومنه قولهم: لم نأل جهداً.

عفوت عنّا فبحلمك. وبعد فالحجّة[1] لك علينا.»

فقال له الحجّاج:

ـ «أنت والله أحبّ إليّ ممّن يدخل عليّ يقطر سيفه من دمائنا ثمّ يقول: ما فعلت وما شهدت. قد أمنت عندنا يا شعبيّ.»

قال: فانصرفت. فلما مشيت قليلاً، قال:

ـ «هلمّ يا شعبيّ!» [442]

قال: فوجل لذلك قلبي، ثمّ ذكرت قوله: «قد أمنت». فاطمأنّت نفسي. قال:

ـ «كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبيّ؟»

وكان لي مكرماً. فقلت:

ـ «أصلح الله الأمير، إكتحلتُ والله بعدك السهر، واستوعرتُ الجناب واستحلستُ الخوف وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً.» قال:

ـ «إنصرف يا شعبيّ.»

فانصرفت.

فيروز يمنع الحجّاج أن ينال ماله

وقيل: إنّ الحجّاج لمّا أُتي بالأسرى من عند يزيد بن المهلّب، قال لحاجبه:

ـ «إذا دعوت بسيّدهم فأتني بفيروز فأبرزوا سريره.»

وهو حينئذ بواسط القصب، قبل أن تُبنى مدينة واسط. ثمّ قال لحاجبه.

ـ «جئني بسيّدهم.»

فقال لفيروز:

ـ «قم!»

---

١ فالحجّة: ما في الأصل: الحجة بدون الفاء. والفاء أضفناها من مط.

فقال له الحجّاج:

ـ «أبا عثمان ما أخرجك[١] مع هؤلاء؟ فوالله ما لحمك من لحومهم، ولا دمك من دمائهم.» فقال:

ـ «فتنة عمّت الناس فكنّا فيها.» فقال:

ـ «أكتب لي أموالك.» قال:

ـ «ثمّ ماذا؟» قال:

ـ «أكتبها أوّل.» قال:

ـ «ثمّ أنا آمن على دمي؟» قال:

ـ «أكتبها، ثمّ أنظر.» قال:

ـ «أكتب يا غلام: ألف ألف [١،٠٠٠،٠٠٠]، ألفي ألف [٢،٠٠٠،٠٠٠].»

حتّى ذكر مالاً عظيماً. فقال الحجّاج:

ـ «أين هي، وعند من هذه الأموال؟» قال:

ـ [«عندي.» قال:

ـ «فأدّها.» قال:

ـ «وأنا آمن على دمي؟» قال:

ـ «والله، لتؤدّينّها، ثمّ لأقتلنّك.» قال:][٢]

ـ «لا والله لا، جمعت[٣] مالي ودمي.»

فقال الحجّاج للحاجب:

ـ «نحّه!»

---

١ ما أخرجك مع هؤلاء. كذا في الأصل وما في مط: ما أخوجك مع هؤلاء. وهو خطأ.

٢ ما بين [ ] تكملة من الطبري (٨: ١١٢٠). والعبارة سقطت من الأصل ومط. وهي موجودة في ابن الأثير (٤: ٤٨٧) أيضاً

٣. لا جمعت. كذا في الأصل. وفي مط: لا اجتمعت. وهو خطأ وما في الطبري. لا تجمع

فنحّاه ثمّ أمر به فعُذّب. وكان فى ما عَذّب به أن كان يُشدّ عليه [443] القصب الفارسىّ المشقّق، ثمّ يجرّ حتّى تحرّز[1] جسده، ثمّ ينضح عليه الخلّ والملح. فلما أحسّ بالموت، قال لصاحب العذاب:

ـ «إنّ الناس لا يشكّون أنّى قُتلت. ولى ودائع أموال عند النـاس لا تـؤدّى إليكم أبداً. فأظهرونى للناس ليعلموا أنّى حىّ فيؤدّوا المال.»

فأعلم الحجّاج فقال:

ـ «أظهروه.»

فأُخرج، فصاح فى الناس:

ـ «من عرفنى فقد عرفنى، ومن أنكرنى فأنا فيروز الحصين[2]. إنّ لى عـند أقوام مالاً. فمن كان لى عنده شىء فهو له وهو فى حلّ فلا يـؤدّينّ أحـد مـنه درهماً. ليبلغ الشاهد الغائب.»

فأمر به الحجّاج فقتل.

ذكر خديعة للحجّاج

ظنّ الناس بها أنّه آمنهم حتّى قتلهم

كان الحجّاج أمر منادياً فنادىٰ عند الهزيمة يوم الزاوية:

ـ «ألا لا أمان لفلان ولا لفلان.»

سمّى رجالاً من الأشراف ولم يقل: الناس آمنون. فقال الناس:

---

١ حتّى تحرّز: كذا فى الأصل، وفى مط: ثمّ يحرز. وفى الطبرى (٨: ١١٢٢): حتّى يخرّق. وفى تعاليقه: يحرر. وفى ابن الأثير (٤: ٤٨٩): حتّى يجرح.

٢ فى الأصل ومط: فيروز بن حصين. كتب فى هامش الأصل: «فيروز ليس ابن الحصين. وإنّما هو من أولاد أكابر العجم، أسلم طوعاً على يدى الحصين العبرى، فولاؤه له، وهو يسمّى فيروز حصين، يعرف به.» وفى الطبرى (٨: ١١٢٢) وابن الأثير (٤: ٤٨٩): «فيروز حصين» بدل «فيروز بن حصين»، ولذلك حذفنا «بن».

ـ «قد آمن الناس كلّهم إلّا هؤلاء النفر.»

فأقبلوا إلى حجرته. فلما اجتمعوا أمرهم بوضع أسلحتهم، ثمّ قال:

ـ «لآمرنّ بكم اليوم رجلاً ليس بينه وبينكم قرابة.»

فأمر بهم عمارة بن تميم اللخميّ، ففرّقهم وقتلهم.

فروى النضر بن شميل عن هشام بن حسّان أنّه قال يوماً: قتل [444] الحجّاج صبراً مائة ألف وعشرين ألفاً، أو مائة ألف وثلاثين ألفاً، منهم يوم الزاوية أحد عشر ألفاً، ما استبقى منهم إلّا رجلاً واحداً كان ابنه في الكتّاب[1] مع ابن الحجّاج، فدعا الصبيّ وقال:

ـ «أهبه لك»، قال:

ـ «نعم.»

فخلّى سبيله.

ذكر هلاك عبدالرحمان بن الأشعث ورأى لبعض أصحابه صحيح

كان مع عبدالرحمان بن الأشعث لمّا انصرف من هراة راجعاً إلى رتبيل، رجل من أود يقال له: علقمة بن عمرو. فقال له:

ـ «إنّى ما أريد أن أدخل معك.»

قال له عبدالرحمان:

ـ «ولِمَ؟» قال:

ـ «لأنّى أتخوف عليك وعلى من معك.» قال:

ـ «وكيف؟» قال:

ـ «والله لكأنّى بكتاب من الحجّاج قد جاء فوقع إلى رتبيل يُرغبه ويُرهبه، فإذا

---

1. الكتّاب: سقطت من مط، وهى موجودة فى الأصل.

هو قد بعث بك سِلماً[١] أو قتلك ومن معك. ولكن هاهنا خمسمائة رجل قد تبايعنا على أن ندخل مدينة فنتحصّن[٢] فيها ونقاتل حتّى نُعطى أماناً، أو نموت كراماً.»

فقال عبدالرحمان:

ـ «كلّا، فادخل معي، فإنّي أُواسيك وأُكرمك.»

فأبى عليه. ودخل عبدالرحمان إلى رتبيل وخرج هؤلاء الخمسمائة. فبعثوا عليهم مودوداً[٣] البصريّ. فأقاموا [445] حتّى قدم عليهم عمارة بن تميم اللخميّ، فحاصرهم، فقاتلوه، وامتنعوا منه حتّى آمنهم. فخرجوا إليه، فوفىٰ لهم.

وتتابعت كتب الحجّاج إلى رتبيل في عبدالرحمان أن:

ـ «ابعث به إليّ، فوالله لأُوطِئنّ أرضك ألف ألف مقاتل.»

وكان عمارة قد انتهى إلى سجستان في ثلاثين ألفاً، وكان عند رُتبيل رجل من تميم من بني يربوع يقال له: عبيد بن أبي سبيع، وكان مع ابن الأشعث، فخصّ برتبيل، وكان قديماً رسول ابن الأشعث فخفّ عليه. فلمّا رأى رتبيل لا يُسلم ابن الأشعث خلا به وخوّفه الحجّاج، وقال:

ـ «أنا آخذ لك من الحجّاج عقداً ليكفّنّ الحجّاج عن أرضك سبع سنين على أن تدفع إليه ابن الأشعث.» فقال رُتبيل:

ـ «فإنّي أفعل.»

فكاتب الحجّاج وأعلمه أنّ رتبيل لا يعصيه وأنّه يتوصّل له إلى أخذ ابن الأشعث، وأخذ من الحجّاج مالاً، وخرج إلى عمارة بن تميم، فاستجعل منه ألف

١ ضبط الأصل. سِلماً (بكسر السين) وأما عند ابن الأثير (٤: ٥٠١) سَلماً (بالفتح).

٢ فنتحصّن فيها: كذا في الأصل والطبري (٨: ١١٣٢) وهو الصحيح. وما في مط: فنشخص بها.

٣ مودوداً البصريّ: كذا في الأصل ومط وابن الأثير (٤: ٥٠١) وما في الطبري (٨: ١١٣٣): مودوداً النضري.

ألف [١،٠٠٠،٠٠٠] درهم، وأخذ من رتبيل[1] أيضاً مالاً، واشترط لرتبيل ألّا يغزى بلاده عشر سنين، وأن يؤدّي بعد العشر سنين في كلّ سنه تسعمائة [446] ألف درهم. فأعطى هو وابن أبي سبيع، وأرسل رتبيل إلى ابن الأشعث، فأحضره وثلاثين من أهل بيته وقد أعدّ لهم الجوامع والقيود، فألقى في عنقه جامعة، وفي عنق أخيه القاسم بن محمد بن الأشعث جامعة، وأرسل بهم إلى أدنى مسلحة عمارة منه. وقال لجماعة من كان مع ابن الأشعث:

ـ «تفرّقوا إلى حيث شئتم.»

ولمّا قرب ابن الأشعث من عمارة، ألقى نفسه من فوق قصر، فمات واحتزّ رأسه، فأُتي به وبالأسرى عمارة فضرب أعناقهم، وأرسل برأس الأشعث وبرؤوس أهله إلى الحجّاج، فأرسل به الحجّاج إلى عبدالملك، فأرسل به عبدالملك إلى أخيه عبدالعزيز وهو يومئذ على مصر.

فحكى ابن عايشة: أنه لمّا أُتي عبدالملك برأس ابن الأشعث، أرسل به مع خصيّ له إلى امرأة من بنات عمر بن الأشعث كانت تحت رجل من قريش. فلمّا وضع بين يديها نهضت إليه وقالت:

ـ «مرحباً برأس[2] لا يتكلّم، ملك ابن ملوك[3]، طلب ما هو أهله، فأبت المقادير.»

فذهب الخصيّ ليأخذ الرأس واجتذبته من يده وقالت:

ـ «لا والله حتّى أبلغ حاجتي منه.»

ثمّ دعت بخطميّ [447] فغسلته وغلّفته، ثمّ قالت:

١ رتبيل: كذا في الأصل والطبري وابن الأثير في جميع المواطن. وما في مط «رسيل» في المواطن كلها وهو تصحيف

٢ برأس لا يتكلّم: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (١١٦٨): برائر لا يتكلّم

٣ في الأصل ومط: ملك ابن ملوك. في الطبري: ملك من الملوك

ـ «شأنك به الآن.»

فأخذه. ثمّ أخبر عبدالملك. فلما دخل عليه زوجها قال له:

ـ «إن استطعت أن تصيب منها سحلة [1].»

ذكر سبب عزل يزيد بن المهلّب عن خراسان

كان الحجّاج يهاب ناحية يزيد بن المهلّب بعد فراغه من عبدالرحمان بن محمد ويعرف منزلته من عبدالملك فيخشاه على موضعه وقد كان أذلّ أهل العراق كلّهم، إلّا آل المهلّب. فأكثر على عبدالملك في شأن يزيد بن المهلّب، وخوّفه غدره وغيّره، فإنّه وأهل بيته زبيريّون.

فكتب إليه عبدالملك:

ـ «قد أكثرت في معنى يزيد، وإنّ الذي دعا آل المهلّب إلى الوفاء لابن الزبير هو الذي يدعوهم إلى الوفاء لي.»

وبلغ يزيد بن المهلّب ما يريد الحجّاج. فكان يكثر الغزوات ويحتلّ على الحجّاج إذا استقدمه أنّه بإزاء عدوّ وحروب. إلى أن أذن عبدالملك في عزل يزيد وتقليد قتيبة بن مسلم خراسان.

فكتب الحجّاج إلى يزيد بن المهلّب أن:

ـ «استخلف أخاك المفضّل.»

وكتب إلى المفضّل بولاية خراسان. فجعل المفضّل [448] يستحثّ يزيد. فقال له يوماً يزيد:

ـ «يا أخي، إنّ الحجّاج لا يقرّك بعدي، وإنما دعاه [إلى] [2] ما صنع مخافة أن

---

١ سحلة: كذا في الأصل ومط. السحل: الثوب الأبيض الرقيق. أو: ثوب لا يبرم غزله. وفي الطبري: سخلة (بالخاء المعجمة) والسخلة: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد.

٢ إلى: سقطت من الأصل ومط. فأخذناها عن الطبري (٨: ١١٤١).

أمتنع عليه.» قال:

ـ «بل حسدتنى.»

قال يزيد:

ـ «أنا أحسدك يابن بهلة [١]؟ ستعلم.»

وقد كان يزيد قال لنصحائه:

ـ «من ترون الحجّاج يولّى خراسان؟» قالوا:

ـ «رجلاً من ثقيف.» قال:

ـ «كلّا، ولكنّه يكتب إلى رجل منكم بعهده. فإذا قدمتُ عليه عزله، فولّى رجلاً من قيس، وأخلِق بقتيبة.»

قال: فلمّا قال له أخوه ما قال وولّاه الحجّاج بعد يزيد تيقّن يزيد ما كان يظنّه قبل ذلك. فاستشار الحصين [٢] بن المنذر، فقال له:

ـ «أقم واعتلّ، فإنّ أميرالمؤمنين حسن الرأى فيك، وإنّما أُتيت من قبل الحجّاج، فإن أقمت رجوت أن يكتب إليه بإقرارك.»

قال يزيد:

ـ «إنّا أهل بيت بورك لنا [٣] فى الطاعة، وأنا أكره المعصية والخلاف.»

فقال الحصين ابن المنذر:

أمـرتُك أمراً حـازماً فعصيتَنى ... فأصبحتَ مسلوبَ الإمارة نـادمَا

فما أنا بـالباكى عـليك صبابةً ... وما أنا بالدّاعى لِترجعَ سـالمَا

---

١ بهلة ـ كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى بصورتين: بَهلَة (فى النثر) وبهلَّة (فى النظم) وفى بعض الأصول بُهلَة

٢. الحصين (بالصاد المهملة) كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى وابن الأثير الحضين (بالضاد المعجمة)

٣ بورك لنا العبارة سقطت من مط وتجدها عند الطبرى (٨: ١١٤١) أيضاً.

فلمّا قدم قتيبة خراسان، قال لحصين:

ـ «كيف قلت ليزيد؟»

قال: قلت له: [449]

أمـرتُك أمـراً حـازما فـعصيتَنى فنفسَك وَلِّ اللّومَ إن كـنتَ لائـمَا

فإن يَبلغِ الحجّاجَ أن قد عـصيتَهُ فـإنّك تـلقىٰ أمـرَهُ مـتفاقِمَا

قال:

ـ «فماذا أمرته فعصاك؟» قال:

ـ «أمرته ألّا يدع صفراء ولا بيضاء إلّا حملها إلى الأمير.»

فقال رجل لعباط[1] بن الحصين:

ـ «أمّا أبوك فوجده قتيبة حين فزّه[2] قارحاً بقوله: أمرته ألّا يدع صفراء ولا بيضاء إلّا حملها إلى الأمير.»

فكان عزل يزيد عن خراسان وخروج قتيبة إليها فى سنة خمس وثمانين، وذلك أنه لمّا حصل يزيد عند الحجّاج عزل المفضّل وولّى قتيبة.

وفى هذه السنة قُتل موسى بن عبدالله بن خازم بالتِّرمذ

ذكر السبب فى ذلك

كنّا ذكرنا ما كان من عبدالله بن خازم من قبل مع بنى تميم. فتفرّق عنه عُظم من كان معه منهم، فخرج إلى نيسابور، وخاف بنى تميم على ثقله بمرو، فقال

١ لعباط: ما فى الأصل بدون نقط ونقطة الباء من مط. وفى الطبرى (٨: ١١٤٢): عياص. بدل: عباط.

٢ فزّه قارحاً: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: فره وارجا.

لابنه موسى:

ـ «حوّل ثقلي من مرو، واقطع نهر بلخ حتّى تلجأ إلى حصن تثق بـه فـتقيم فيه.»

فشخص موسى فى مائتين وعشرين فارساً من الصعاليك، فصار فى أربعمائة [450] وانضمّ إليه رجال من بنى سليم، فـقطع النـهر وأتـى بـخارى[1] فسـأل صاحبها أن يلجأ إليه فأبىٰ وخافه وقال:

ـ «رجل فاتك وأصحابه مثله طالبو[2] حرب وشرّ، ولا آمنهم.»

فبعث إليهم بصلة من عين ودوابّ وكسوة، فنزل عـلى عـظيم مـن عـظماء بخارى فى نوقان[3]، فقال له الرجل:

ـ «إنّه لا خير لك فى المقام وهم لا يأمنونك.»

فخرج يلتمس ملكاً يلجأ إليه أو حصناً. فلم يأت بلداً إلّا كرهوا مقامه فيهم، وسألوه أن يخرج عنهم حتّى أتىٰ سمرقند وصاحبها طرخون. فـأنزله وأكـرمه. فجرى بينهما ما استوحش منه طرخون، فقال له:

ـ «لولا أنّي أعطيتكم الأمان لقتلتكم، فاخرجوا عن بلدى.»

ووصله وأخرجه، فخرج موسى وأتىٰ كِسّ. فكتب صاحب كسّ إلى طرخون يستنصره. فأتاه فخرج إليه موسى فى سبعمائة، فقاتلهم حتّى أمسوا وتحاجزوا وبأصحاب موسى جراح كثير.

فلمّا أصبحوا أمرهم موسى فحلقوا رؤوسهم كما تـصنع الخـوارج، وقـطعوا

---

١ بخارى. فى الأصل. بخارا. خلافاً للمواطن الأخرى فى الأصل. فوحّدنا الضبط وكتبناها بالياء كما هو فى كلّ المواطن فى هذا النصّ.

٢ طالبو حرب. كذا فى مط وهو أصحّ. وفى الأصل. طالبى حرب (بتقدير «يكونون»؟) وما فى الطبرى (١١٤٦): أصحاب حرب

٣ نوقان. لا نقطة على النون الأولىٰ فى الأصل ومط. وهى من الطبرى (٨: ١١٤٦) وفى حواشيه عن بعض الأصول: بوقان، موقان.

صفنات[1] أقبيتهم كما تصنع العجم إذا استماتوا. ودسّ إلى طرخون زرعة بن علقمة، فقال:

ـ «إنّ القوم مستقبلون، فما حاجتك إلى أن تقتل من لا تصل إليه حتّى يُقتل من أصحابك عدّتهم، ولو قتلته وإيّاهم جميعاً [451] ما نلت حظّاً، لأنّ له قدراً في العرب. فلا يلي أحد خراسان إلّا طالبك بدمه. فإن سلمت من واحد لا تسلم من آخر.» قال:

ـ «ليس إلى ترك كسّ عليه سبيل.» قال:

ـ «فكُفّ عنه حتّى يرتحل.»

فكفّ عنه. وأتى موسى الترمذ وبها حصن يشرف على النهر. فنزل موسى على بعض الدهاقين خارجاً من الحصن، والدهقان مجانب لترمذ شاه. فقال لموسى:

ـ «إنّ صاحب الترمذ متكرّم شديد الحياء. فإن ألطفته وهاديته أدخلك حصنه.»

فأهدى له وألطفه موسى حتّى لطف الذي بينهما. وخرج فتصيّد معه وكثر ألطاف موسى له. فصنع يوماً صاحب الترمذ طعاماً، وأرسل إليه:

ـ «إنّي أحبّ أن أكرمك، فتغدّ عندي، وأتني في مائة من أصحابك.»

فانتخب موسى مائة من أصحابه، فدخلوا على خيولهم، فقيل لهم:

ـ «انزلوا.»

فنزلوا، وأُدخلوا بيتاً خمسين في خمسين، وغدّوهم. فلمّا فرغوا من الغداء

---

١ صفنات أقبيتهم. كما في الأصل ومط. وفي الطبري (٨: ١١٤٧): صفنات أخبيتهم. الصّفنة والصّفن: السُّفرة تجمع بالخيط كالعيبة يكون فيها متاع الرجل وأداته. خريطة للراعي يكون فيها زاده ورباده وما يحتاج إليه كالسفرة من أدم لأهل البادية يجعلون فيها زادهم، وربما استقوا بها الماء كالدلو. والأخبية: جمع مفرده الخباء: ما يعمل من وبر أو صوف أو شعر للسّكن.

اضطجع موسى، فقالوا له:

ـ «اخرج.» قال:

ـ «لا أصيب منزلاً مثل هذا. فلست بخارج منه حتّى يكون بيتي أو قبري.»

وقاتلوهم في المدينة. فقتل خلق من أهلها وهرب الآخرون. فدخلوا منازلهم وغلب موسى على المدينة [452] وقال لترمذشاه:

ـ «اخرج، فإنّي لست أعرض لك ولا لأحد من أصحابك.»

فخرج الملك وأهل المدينة، فأتوا الترك يستنصرونهم. فقالوا:

ـ «دخل عليكم مائة رجل فأخرجوكم عن بلادكم، وقد قاتلناهم بكشّ، فعرفناهم، فنحن لا نقاتل هؤلاء.»

وأقام ابن خازم بالترمذ، ودخل إليه أصحابه، وكانوا سبعمائة. فلمّا قتل أبوه انضمّ إليه من أصحاب أبيه أربعمائة فارس، فقوى، فكان يخرج ويغير على من حوله. فراسله الترك بقوم ليعلموا ما الذي يريد، ويتقرّر أمورهم على صلح، ويكفّوا[1] عن الغارة.

فلمّا قدموا قال موسى لأصحابه:

ـ «إنّ هؤلاء يسمّونكم جنّاً[2] وأريد أن أكيدهم بمكيدة، وذلك في أشدّ ما يكون من زمان الحرّ.»

ذكر مكيدة ضعيفة تمّت على قوم أغتام

ثمّ أمر موسى بنار، فأُججت، وألبس أصحابه ثياب الشتاء، ولبسوا فوقها لبوداً، ومدّوا أيديهم إلى النار كأنّهم يصطلون، وأذن موسى للترك، فدخلوا. فلمّا رأوهم على تلك الحال فزعوا وقالوا:

---

١. يتقرّر... ويكفّوا.. عطف على مجرور اللّام في «ليعلموا» بتقدير «أن» أي. ليتقرّر، وليكفّوا.

٢. جنّاً: كذا في الأصل. وما في مط «حياء» وهو خطأ.

ـ «ما هذا، ولِمَ صنعتم ما نرى؟» قالوا:

ـ «أنّا نجد البرد في هذا الوقت [453] ونجد الحرّ في الشتاء.»

فلمّا رجعوا أخبروا أصحابهم، فقالوا:

ـ «هذا صنيع الجنّ، ولا خير في قتال هؤلاء، والرأى مقاربتهم.»

ولمّا ولي بكير بن وساج خراسان لم يعرض له ولم يوجّه إليه أحداً.

ثمّ قدم أميّة، فسار بنفسه يريده. فخالفه بكير وخلع ورجع إلى مرو، كما حكينا في ما تقدّم. فلمّا صالح أميّة بكيراً وحال الحول، وجّه إلى موسى رجلاً من خزاعة في جمع كثير. فعاد أهل الترمذ[1] إلى الترك، فاستنصرهم، وقالوا:

ـ «نجتمع عليهم مع من غزاهم منهم فنظفر بهم.»

فسارت الترك مع أهل الترمذ في جمع كثير، فأطاف بموسى الترك والخزاعيّ. فكان يقاتل الخزاعيّ أوّل النهار والترك آخره. فقاتلهم ثلاثة أشهر على ذلك.

ثمّ قال موسى لعمرو بن خالد بن حصن الكلبي، وكان فارساً:

ـ «قد طال أمرنا هؤلاء، وقد أجمعت أن أبيّت عسكر الخزاعيّ، فإنّهم للبيات آمنون، فما ترى؟» قال:

ـ «البيات نصّا هو، فليكن ذلك بالعجم، فإنّ العرب أشدّ حذراً وأسرع فزعاً وأجرأ[2] على الليل من العجم.»

فعمل موسى على بيات الترك. فلمّا ذهب الليل ثلثه خرج في أربعمائة، وقال لعمرو بن خالد:

ـ «اخرجوا بعدنا وكونوا قريباً، فإذا سمعتم التكبير [454] فكبّروا.»

وأخذ على شاطئ النهر حتّى ارتفع فوق العسكر، ثمّ أخذ من ناحية كفتان[3].

---

١. الترمذ (بالذال المعجمة) كذا في الأصل في جميع المواطن، وما في مط. الترمد (بالدال المهملة)

٢. أجرأ كذا في الأصل، وما في مط: اجراء، وهو خطأ.

٣. كفتان كذا في الأصل في مط كنمان؛ وما في الطبري (٨: ١١٥٠): كفتان، وفي حواشيه عن الأصول: كفمان، كفتان، كميان.

فلمّا قرب من عسكرهم جعل أصحابه أرباعاً. ثمّ قال:
ـ «أطيفوا بعسكرهم، فإذا سمعتم تكبيرنا فكبّروا.»
وأقبل وقدّم حُمراً بين يديه ومشوا خلفه. فلمّا رءاهم أصحاب الأرصاد قالوا:
ـ «من أنتم؟» قالوا:
ـ «عابروا سبيل.»
فقال لهم صاحب الرصد:
ـ «جوزوا.»
فلمّا جازوا الرصد تفرّقوا وأطافوا بالعسكر وكبّروا، فلم يشعر الترك إلّا بوقع السيوف. فثاروا، وأقبل بعضهم يقتل بعضاً. ثمّ ولّوا وحووا عسكرهم وأصابوا سلاحاً ومالاً، وأصبح الخزاعيّ[1] وأصحابه وقد كسرهم ذلك وخافوا مثلها من البيات، فتحرّزوا.

ذكر مكيدة لعمرو بن خالد

فقال عمرو بن خالد لموسى:
ـ «إنّك لا تظفر إلّا بمكيدة، وأرى لهم أمداداً فهم يكثرون. فتناولني بضرب فلعلّي أُصيب من صاحبهم فرصة فأقتله ويتفرّق عنك هؤلاء الجمع.»
فقال له:
ـ «تتعجّل الضرب، ثمّ تتعرض للقتل.» قال:
ـ «أمّا القتل فأنا متعرّض له في كلّ يوم، وأمّا الضرب فما أيسره في جنب ما أريد.»
فتناوله بالضرب، ضربه [455] خمسين سوطاً، فخرج من عسكره موسى،

---

١ الحراعي كذا في الأصل وما في مط الخزاعي وهو خطأ

فأتى عسكر الخزاعيّ مستأمناً، وقال:

ـ «أنا رجل من أهل اليمن، كنت مع عبدالله بن خازم. فلمّا قتل أتيت ابنه، فلم أزل معه. فلمّا قدمت اتّهمني وتنكّر لي، ثمّ تعصّب عليّ وقال: أنت عين له، فضربني ولم آمن القتل وقلت: ليس بعد الضرب إلّا القتل، فهربت منه.»

فأمنه الخزاعيّ، وأقام معه إلى أن دخل يوماً وهو خال، ولم ير عنده سلاحاً، فقال له كأنّه ينتصّح له:

ـ «إنّ مثلك في مثل حالك لا ينبغي أن يكون في حال من أحواله بغير سلاح.» فقال:

ـ «إنّ معي سلاحاً.»

ورفع صدر فراشه، وإذا سيف منتضىً. فتناوله عمرو فضربه به حتّى قتله، وخرج فركب فرسه ونذر به الناس وقد أمعن. فطلبوه، ففاتهم ورجع إلى موسى، وتفرّق ذلك الجيش وأتى بعضهم موسى مستأمناً، فآمنه.

ولم يوجّه إليه أميّة أحداً إلى أن قدم المهلّب، فلم يعرض له ووصّى بنيه، فقال:

ـ «إيّاكم وموسى، فإنّكم لاتزالون ولاة هذا الثغر ما أقام هذا الرجل بمكانه، فإنْ قتل كان أوّل طالع عليكم أميراً على خراسان رجل من قيس.»

فمات المهلّب، وولّى [456] يزيد فلم يعرض له.

وكان المهلّب ضرب حُريث بن قُطبة الخزاعيّ، فخرج هو وأخوه ثابت إلى موسى. فلمّا ولى يزيد بن المهلّب أخذ أموالهما وحرمهما، وقتل أخاً لأمّهما يقال له الحارث بن منقذ. فبلغهما صنيع يزيد. وكان ثابت محبّباً في العجم بعيد الصوت فهم يعظّمونه ويثقون به، حتّى إنّهم كانوا يحلفون بحياته فلا يكذبون. فخرج ثابت إلى طرخون، فشكا إليه ما صنع به، فغضب له طرخون، وجمع له

نيزك[1] والسّيل[2] وأهل بخارىٰ والصغانيان، فقدموا مع ثابت إلى موسى بن عبدالله وقد سقط إلى موسى فلّ عبدالرحمان بن عباس القرشى من هراة وفلّ ابن الأشعث من العراق وغيرهم.

فاجتمع إلى موسى ثمانية آلاف من تميم وقيس وربيعة واليمن. فقال له ثابت:

ـ «سر حتّى تقطع النهر، فتخرج يزيد بن المهلّب من خراسان ونولّيك، فإنّ طرخون ونيزك والسيل وأهل بخارىٰ معنا.»

فهمّ أن يفعل، فقال له نصحاؤه:

ـ «إنّ ثابتاً وأخاه خائفان من يزيد، وإن أخرجت يزيد عن خراسان تولّيا الأمر وغلباك على خراسان، فأقم بمكانك.»

فقبل رأيهم، وأقام بالترمذ وقال لثابت:

ـ «إن أخرجنا يزيد قدم عامل عبدالملك [457] ولكنّا نخرج عمّال يزيد من وراء النهر ما يلينا، ونحصّل لنا ماوراءالنهر[3] فنأكلها.»

ورضى ثابت، وأخرج عمّال يزيد من وراء النهر، وحملت إليهم الأموال، فقوى أمرهم.

وانصرف طرخون ونيزك والسيل وأهل بخارىٰ إلى بلادهم وتدبير الأمر كلّه لثابت وحريث، والأمير موسى ليس له غير الإسم. فألحّ أصحاب موسى عليه فى الفتك بثابت وحريث، فأبى وقال:

ـ «ما كنت لأغدر بهم.»

فبينا هم على ذلك إذ أخرجت عليهم الهياطلة والتبّت والترك فى سبعين ألفاً لا

١. نيزك. كذا فى الأصل والطبرى (٨: ١١٥٢)، وما فى مط: نيزل (بدون نقطتى الياء).

٢. والسّيل: كذا فى الأصل، وما فى مط: السبيل. وفى الطبرى: السبل. والسيل: موضع فى بلاد الرباب قرب اليمامة (ياقوت).

٣. وزاد فى مط «وحملت إليهم»

يعدّون الحاسر ولا صاحب بيضة جمّاء إلّا أن تكون البيضة ذات قونس[١].
فخرج موسى لقتالهم إلى ربض المدينة، ووقف ملك الترك على تلّ في مائة ألف.
فقال موسى لأصحابه:

ـ «إن أزلتم هؤلاء، فليس الباقون بشيء.»

فقصد لهم حريث، وألحّ عليهم حتّى أزالهم عن التلّ، ورمى حريث في جبهته بنشّابة. ثمّ بيّتهم موسى، وحمل أخوه خازم بن عبدالله بن خازم حتّى وصل إلى شمعة[٢] ملكهم، فقتله وقتل العجم قتلاً ذريعاً، ونجا من نجا منهم بشرّ. ومات حريث بعد يومين، وحملوا الرؤوس إلى الترمذ، فبنوا من تلك [458] الرؤوس جوسقين[٣].

فقال أصحاب موسى:

ـ «وقد كفيت أمر حريث، فأرحنا من أمر ثابت.»

فأتى وبلغ ثابتاً بعض ما يخوضون فيه، فدسّ غلاماً كان في خدمة موسى وأعطاه مالاً وقال له:

ـ «إيّاك أن تتكلّم بالعربيّة، وإن سألوك: من أنت؟ فقل: من سبي باميان[٤].»

فكان الغلام ينقل إلى ثابت خبرهم إلى أن واقفوا[٥] يوماً موسى على الفتك بثابت. فقال موسى:

ـ «قد أكثرتم، وفيه هلاككم، فعلى أيّ وجه تفتكون به وأنا لا أغدر به؟»

فقال نوح بن عبدالله بن خازم:

---

١. القَونَس والقَونوس أعلى بيضة الحديد. أعلى الرأس.

٢ شمعة كذا في الأصل ومط والطبري (٨: ١١٥٤). وفي حواشي الطبري عن بعض الأصول سمعة (بالسين المهملة).

٣ جوسق: معرّب أصله الفارسي، كوشك kushk البناء العالي. القصر

٤. باميان. كذا في الأصل والطبري (٨ ١١٥٥) وما في مط: باسيان.

٥. واقفوا كذ في الأصل وما في مط- وافقوا. واقفه على كذا ـ سأله الوقوف والثبات عليه

ـ «إذا غدا إليك غدوة عدلنا به إلى بعض الدور فضربنا عنقه فيها قبل أن يصل إليك.» فقال:

ـ «أما والله، إنّه لهلاككم.»

فخرج الغلام، فأعلمه، فخرج من تحت ليلته، وأصبحوا وقد ذهب وفُقد الغلام. فعلموا أنّه كان عيناً له عليهم، وخرج إلى ثابت قوم، فقصد خشـوان[1]. فـقال موسى:

ـ «قد فتحتم على أنفسكم باباً فسدّوه.»

وسار إليه موسى، وراسل ثابت طرخون، فأقبل معيناً له، وبلغ موسى مجيء طرخون، فرجع إلى الترمذ، وصار ثابت في ثمانين ألفاً، فحصروا موسى وقطعوا عنه المادة [459] حتّى جُهدوا. فلما اشتدّ عليهم الحصار، قال يزيد بن هذيل:

ـ «إنّما مقام هؤلاء مع ثابت، والله لأفتكنّ بثابت، أو لأموتنّ، فالقتل أحسن من الموت جوعاً.»

فخرج إلى ثابت مستأمناً، فقال ظهير لثابت:

ـ «أنا أعرف بهذا منك، والله ما أتاك رغبة فيك، ولا جزعاً منك، ولقد جاءك بغدرة، فخلّني وإيّاه.» فقال:

ـ «ما كنت لأقدم على رجل أتاني لا أدري أكذلك هو أم لا.» قال:

ـ «فدعني أرتهن منه رهناً.» قال:

ـ «أمّا هذا فنعم.»

فقال ثابت ليزيد بن هذيل:

ـ «أمّا أنا فواثق بك وابن عمّك أعلم بك منّي، فانظر ما يقول لك.»

فقال يزيد لظهير:

١. حشوان. كذا في الأصل. وما في مط: خوان. والعبارة في الطبري: ولحق ثابت إلى بحشورا منزل المدينة وخرج إليه قوم كثير من العرب والعجم. فقال موسى لأصحابه: قد فتحتم على أنفسكم.

ـ «أبيت يابا سعيد إلّا حسداً. ما يكفيك ما ترىٰ من الذلّ، تشرّدت عن العراق عن أهلي، وصرت بخراسان على ما ترى، أما يعطفك الرحم؟»

فقال له ظهير:

ـ «أما والله، لو تركت ورأيي فيك لما كان هذا، ولكن أرهنّا[1] ابنيك قدامة والضحّاك.»

فدفعهما، فكانا في يدى ظهير. فأقام يزيد يلتمس غرّة ثابت، فلا يجدها حتّى مات ابن لزياد القصير الخراعي، أتاه نعيه من مرو. فخرج ثابت متفضّلاً إلى زياد ليعزّيه ومعه ظهير وطائفة من أصحابه [460] وفيهم يزيد بن هذيل وقد تقدّم ظهير في أصحابه، فدنا من ثابت وضربه، فعضّ السيف برأسه، فوصل إلى الدماغ، ورمىٰ يزيد بنفسه في نهر الصغانيان، فنجا سباحة، وحمل ثابت إلى منزله.

فلمّا أصبح طرخون أرسل إلى ظهير:

ـ «ائتني بابني يزيد.»

فأتاه بهما فقتلهما. وكان يزيد بن هذيل سخيّاً شجاعاً شاعراً. وعاش ثابت سبعة أيّام، ثمّ مات، وقام بأمر العجم طرخون، وقام ظهير بأمر أصحاب ثابت قياماً ضعيفاً وانتشر أمرهم، وأجمع موسى على بياتهم. فجاء رجل فأخبر طرخون، فضحك وقال:

ـ «موسى يعجز أن يدخل متوضّأه، فكيف بيّتنا. لقد طار قلبك، لا يحرسنّ الليلة أحد العسكر.»

فلمّا ذهب من الليل ثلثه خرج موسى في ثلاثمائة، وأخوه في ثلاثمائة، ويزيد بن هذيل في ثلاثمائة، ورقبة بن الحرّ في ثلاثمائة، وقال لهم:

ـ «تفرّقوا أرباعاً حتّى تدخلوا عسكرهم من أربع نواحي، ولا يمرّ أحد منكم

١ أرهنّا: كذا في الأصل والطبري (٨: ١١٥٨)، وما في مط: ارهن.

بشيء إلّا ضربه.»

فدخلوا عسكرهم من النواحي لا يمرّون بدابّة ولا رجل ولا خباء، ولا جوالق إلّا ضربوه، وهجم نوح بن عبد الله بن [461] خازم على سرادق طرخون. فبرز إليه فتجاولا، وطعن طرخون فرس نوح في خاصرته فشبّ ودلّى بنوح حتّى سقط في نهر الصغانيان، وراسل طرخون موسى:

ـ «كفّ أصحابك، فإنّا نرتحل إذا أصبحنا.»

فرجع موسى إلى عسكره، وارتحل طرخون وجميع من معه، فأتى كلّ قوم بلادهم.

فكان أهل خراسان يقولون:

ـ «ما رأينا قطّ مثل موسى بن عبد الله بن خازم، ولا سمعنا به، قاتل مع أبيه سنتين، ثمّ خرج يسير في بلاد خراسان، حتّى أتى ملكاً، فغلبه على مدينته، ثمّ سار إليه الجنود من العرب والعجم والترك.»

فكان يقاتل العرب[1] في أول النهار والعجم آخر النهار، وأقام في حصنه خمس عشرة سنة، وصار ماوراءالنهر لموسى لا يعازّه فيه أحد.

فلمّا ولي المفضّل خراسان أخرج عثمان بن مسعود من الحبس، وقال:

ـ «إنّي أريد أن أوجّهك إلى موسى بن عبد الله.» قال:

ـ «والله، لقد وترني[2]، وإنّي لثائر بابن عمّي ثابت وما يد أبيك وأخيك عندي وعند أهل بيتي بالحسنة، لقد حبستموني، وشرّدتم بني عمّي، واصطفيتم أموالهم.»

فقال له المفضّل:

ـ «دع عنك هذا، وسر، فأدرك بثأرك.»

---

١. العرب. كذا في الأصل. وما في مط: العراب. والعراب من الخيل والإبل: كرائم سالمة من الهجنة

٢. لقد وترني. كذا في الأصل والطبري (٨: ١١٦١). وما في مط: لقد ترى. وهو خطأ

فوجّهه [462] فى ثلاثة آلاف، وقال له:

ـ «مر منادياً فلينادِ: من لحق بنا فله ديوان.»

فنادى بذلك فى السوق، فتسارع الناس، وكتب المفضّل إلى أخيه مُدرك وهو ببلخ أن يسير معه. فنزل عثمان جزيرة بالترمذ يعرف اليوم بجزيرة عثمان، فى خمسة عشر ألفاً، وكتب إلى السّبل وطرخون، فقدموا عليه، وحصروا موسى، فضيّقوا عليه وعلى أصحابه، وخندق عثمان وحذر البيات، فلم يقدر موسى منه على غرّة، فقال يوماً لأصحابه:

ـ «حتّى متى؟ أخرجوا بنا، فاجعلوه يومكم، إمّا ظفرتم وإمّا قتلتم.»

وقال لهم:

ـ «اقصدوا للصّغد والترك.»

وخلّف النضر بن سليمان بن عبدالله بن خازم فى المدينة وقال له:

ـ «إن قتلت فلا تسلمنّ المدينة إلى عثمان، بل ادفعها إلى مُدرك بن المهلّب.»

وخرج، وصيّر بإزاء عثمان قوماً من أصحابه وقال:

ـ «لا تهايجوه حتّى يقاتلكم.»

وقصد لطرخون، فصدقه، فانهزم طرخون والترك، وأخذوا عسكرهم، فجعلوا ينقلونه، وكرّت الصغد[1] والترك راجعة، فحالوا بين موسى وبين الحصين، فقاتلهم، فعقر به، فسقط، فنادى مولىً له:

ـ «احملنى ويحك.»

فقال:

ـ «الموت كريه، ولكن ارتدف [463] فإن نجونا نجونا معاً، وإن هلكنا هلكنا معاً.»

---

١ الصعد فى الأصل. السعد (بالسين بدل الصاد) فبدّلنا السين بالصاد توحيداً للضبط. وفى مط. السد. وما فى الطبرى يوافق ما أثبتناه (٨: ١١٦٢).

فارتدف ونظر إليه عثمان حين وثب، فقال:
ـ «وثبة موسى وربّ الكعبة.»

فخرج من الخندق، وحمل وكشف أصحاب موسى، وقصد لموسى، فعثرت دابّة موسى، فسقط هو ومولاه، فابتدروه فقتلوه وبقيت المدينة فى يد النضر، فدفعها إلى مُدرك وآمنه، وكتب المفضّل بالفتح إلى الحجّاج، وذلك فى سنة خمس وثمانين.

ثمّ دخلت سنة ستّ وثمانين

وفيها مات عبدالملك بن مروان. فكانت خلافته ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر.

أسماء وزراء عبدالملك بن مروان
وما نقل إلينا من آرائهم وتدابيرهم التى يليق ذكرها بهذا الكتاب[١]

قبيصة بن ذؤيب

كان يكتب لعبدالملك قبيصة بن ذؤيب الخزاعىّ، ويكنّى أبا إسحق، وكان خاصّاً به، وكان يتولّى ديوان الخاتم. وبلغ من لطافة محلّه منه أنّ الكتب الواردة على عبدالملك كان يقرأها قبيصة قبل أن تصل إلى عبدالملك، ثمّ يدخل بها إليه مفضوضة الختم فيقرأها.

وكان مروان عهد إلى أخيه عبدالعزيز [464] بعد عبدالملك، فهمّ عبدالملك، لمّا تمكّن واستقام أمره، بخلعه والعقد لابنيه الوليد وسليمان، فنهاه قبيصة بن ذؤيب كاتبه، وقال:

---

١. لم نجد فى الطبرى أسماء الوزراء والكتّاب الآتية أسماؤهم، والروايات هنا أخذها مسكويه من مصدر آخر.

ـ «انتظر، فلعلّ الموت يأتي عليه فيكفيكه.»

وكان قلّده مصر. فورد الكتاب بوفاته سنة خمس وثمانين، فقرأه قبيصة على عادته، ثمّ دخل على عبدالملك فعزّاه بأخيه، وعقد لابنيه الوليد وسليمان العهد بعده، وكتب إلى البلدان بذلك فبايعوه.

أبو الزعيزعة

وكان يكتب له أبو الزعيزعة مولاه. فحكي أنّه حضر زفر بن الحارث يوماً عند عبدالملك وبحضرته أبو الزعيزعة بعد أن اجتمع إليه. فقال لزفر بن الحارث:

ـ «كيف ترى ما ساقه الله إلينا؟»

فقال زُفر:

ـ «الحمد لله الذي نصرك على كُره من كَره.»

فقال أبو الزعيزعة:

ـ «ما كره ذلك إلّا كافر.»

فقال له زُفر:

ـ «كذبت! قال الله عزّوجلّ لنبيّه: كما أخرجك من بيتك بالحقّ، وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون[1]، أمؤمنين سمّاهم أم كفّاراً؟»

فغضب عبدالملك، فقال زُفر:

ـ «يا أميرالمؤمنين، أرأيت لو قلت: الحمد لله الذي نصرك، فقد كنت مسروراً بذلك، أما كنت تمقتني [465] ويمقتني الله وأنا أُقاتلك تسع سنين؟» فقال له:

ـ «صدقت.»

---

١ س ٨، الأنفال: ٥

رَوح بن زنباع

وكان يكتب له رَوح بن زنباع. ورَوح هذا هو الذى همّ به معاوية، فقال له
ـ «يا أميرالمؤمنين، لا تشمتنّ بى عدوّاً أنت وقمته[1]، ولا تسوءنّ فىّ صديقاً أنت سررته، ولا تهدمنّ ركناً أنت بنيته. هلّا أتى حلمك وإحسانك على جهلى وإساءتى!»
فأمسك عنه.

ربيعة الغار الحرشىّ

وكان يكتب له ربيعة الغار الحرشى. وكان استشاره عبدالملك في تقليد الوليد ابنه العهد، فقال:
ـ «أمهلنى سنة.»
فأمهله. فلمّا انقضت عاوده وقال:
ـ «إنّى عزمت أن أولّيه شيئاً من النواحى، فإذا مضت له مدّة قلّدته العهد.»
فقال:
ـ «يا أميرالمؤمنين، إنّك بعثت الوليد يقسم الأموال بين الناس ما رضوا عنه، فكيف تبعثه جابياً؟ إن احتاط ذمّ، وإن رفق عجز، وأنت تريد أن تُحبّبه، فولّه المَعاون والصوائف[2]، فيكون ذلك شرفاً وذكراً.»

صالح بن عبدالرحمان
وهو الذى نقل الدواوين من الفارسيّة إلى العربيّة

وكتب له صالح بن عبدالرحمان مولى بنى مُرّة بن عبيد بن تميم من سبى

١ وقم الدابّة: جذب عنانها لتقف. وقم الرجل: قهره وردّه عن حاجته أقبح الردّ.
٢ المَعاون والصوائف. المعاون جمع مفرده المعونة: العون. الصوائف جمع مفرده الصائفة: الغزوة فى الصيف. صائفة القوم: ميرتهم فى الصيف

سجستان، ويُكنّى صالح أبا الوليد. وهو الذي نقل الدواوين من الفارسيّة إلى العربيّة. وكان ذلك أنّ الدواوين [466] كانت تجري فيها وجوه الأموال بالفارسيّة.

وكان بالبصرة والكوفة ديوان بالعربيّة لإحصاء الناس وأرزاقهم وأعطياتهم، وهو الذي كان عمر رسمه وكان بالشام أيضاً ديوانان: أحدهما بالروميّة، والآخر بالعربيّة، فجرى الأمر عليه إلى أيّام عبدالملك، وكان إذ ذاك يتقلّد ديوان الفارسيّة زادانفرّوخ، فحذفه عليه صالح بن عبدالرحمان، فخفّ[1] على قلب الحجّاج وحضّ به. فقال لزادانفرّوخ:

ـ «إنّي قد خففتُ على قلب الحجّاج، ولست آمن أن أُزيلك عن محلّك[2] لتقديمه إيّاي[3]، وأنت ربيبي.»

فقال له زادانفرّوخ:

ـ لا تفعل، فإنّه إليّ أحوج منّي إليه» فقال له:

ـ «وكيف ذلك؟» قال:

ـ «لا يجد من يكفيه الحساب.»

فقال له صالح:

ـ «لو شئتُ حوّلته إلى العربيّة.» فقال له:

ـ «فحوّل منه سطراً.»

فحوّل منه شيئاً كثيراً.

فقال زادانفرّوخ لأصحابه:

ـ «التمسوا كسباً غير هذا.»

١ حف في لأصل ومط حفّ (بالحاء المهملة) فأعجمناها بقرينة تكرار الكلمة بشكل «خففت» دساه. خفّ على الأمير: قبله وأنس به

٢. محلّك: كذا في الأصل وهو الصحيح. وفي مط: محلّه.

٣ سقط من مط قوله «إيّاي» إلى قوله «لا يجد من»، أي أكثر من عشرين كلمة.

فلمّا بلغ الحجّاج ذلك أمر صالحاً بنقل الدواوين، فنقلها إلى العربيّة فى سنة ثمان وسبعين. وكان عامّة كتّاب العراق تلامذة صالح.

ولمّا هم صالح بنقل [467] الدواوين، قال له بعض كتّاب الفرس:

ـ «كيف تصنع بواذ[1]» قال:

ـ «أكتب: أيضاً.» فقال:

ـ «كيف تصنع بدهيازده[2]؟» قال:

ـ «أكتب عُشراً.» فقال:

ـ «كيف تصنع بدهبوده[3]، وبنجبوده[4]؟» قال:

ـ «أكتب عشيراً[5] ونصف عَشير.» قال له:

ـ «قطع الله أصلك من الدنيا، كما قطعت الفارسيّة.»

وقال الحجّاج يوماً لصالح، وكان متّهماً برأى الخوارج:

ـ «إنّى فكّرت فيك فوجدت مالك ودمك حلالين لى وأنّنى غير آثم إن تناولتهما.»

فقال صالح:

ـ «إنّ أغلظ ما فى الأمر ـ أعزّ الله الأمير ـ أنّ هذا القول بعد الفكر.»

فضحك منه ولم يقل له شيئاً.

---

١ واذ، كذا فى الأصل وما فى مط. واد (بالدال المهملة). ولعله مصحّف من: «وار» وهو لغة فى «بار» ومن معانى «بار» فى الفارسية: الإعادة والتكرار و«أيضاً».

٢ دهيارده كذا فى الأصل وفى مط: دهيارده (بالراء المهملة).

٣ دهبوده. الحرفان الثالث والخامس مهملان فى الأصل أعجمناهما كما فى مط

٤ بنجبوده: كذا فى مط. وما فى الأصل: بنجيوده (بالياء).

٥ العشير: العُشر أو عُشر العُشر

عبيد بن المخارق

ومن كتّاب الحجّاج عبيد بن المخارق، قـلّده الحـجّاج الفـوجتين، فـوردها وقال:

ـ «هل هاهنا دهقان يعاش برأيه؟» فقيل له:

ـ «هذا جميل بن بَصبهرى.»

فأحضره وشاوره، فقال له جميل:

ـ «خبّرني أقدمت لرضىٰ ربّك، أم رضىٰ نفسك، أم رضىٰ من قلّدك؟» فقال:

ـ «ما استشرتك إلّا برضى الجميع.» قال:

ـ «فاحفظ عنّي خلالاً: لا يختلف حكمك على الرعيّة، ليكن حكمك عـلى الشريف والوضيع[1] سواءً، ولا تتّخذنّ حاجباً ليردّ عنك الوارد [468] من أهل عملك، وليكن على ثقة من الوصول إليك، وأطل الجلوس لأهل عملك يـتهيّبك عمّالك، ولا تقبل هديّة، فإنّ صاحبها لا يرضى بثلاثين ضعفاً[2] لها، فإذا فعلت ذلك فاسلخ جلودهم من فروعهم إلى أقدامهم.»

قال: فعملت بوصيّته، فجبيتها خمسة عشر ألف ألف [۱۵،۰۰۰،۰۰۰] درهم.

يزيد بن أبي مسلم

وكان يزيد بن أبي مسلم ـ واسم أبي مسلم دينار من موالي ثـقيف ـ كـاتباً للحجّاج، وكان أخاه من الرضاعة. فتقلّد له ديوان الرسائل، وكنيته أبـوالعـلاء. وكان الحجّاج يُجرى له في كلّ شهر ثلاثمائة درهم، فكان يُعطى امرأته خمسين درهماً، وينفق في ثمن اللّحم وما يتّصل به خمسة وأربعين درهماً، وينفق باقيها في ثمن الدقيق وسائر عوارض نفقته، وإن فضل منها شيء ابتاع به ماءًا وسقاه

---

۱. الوضيع كذا في الأصل وهو الصحيح. وما في مط: الرضيع!

۲. ضعفاً لها في الأصل ومط: ضعفها لها. وهو سهو نشأ من الخلط بين «ضعفاً» و «لها» عند النسخ

المساكين، وربما ابتاع قُطفاً وفرّقها فيهم وهو مع ذلك يقتل الخلق للحجّاج

وحكى أنّ الحجّاج عاده من علّة اعتلّها، فوجد بين يديه كانوناً من طين ومنارة خشب، فقال:

- «يا أبا العلاء، ما أرى[1] أرزاقك تكفيك.» فقال:

- «إن كانت ثلاثمائة لا تكفيني، فثلاثون ألفاً لا تكفيني.»

ويزيد بن أبي مسلم [469] هو الذي نبّه الحسن البصري على الإستتار حتّى سلم من الحجّاج، وذلك أنّه لقيه خارجاً من عنده فقال له:

- «تَوارَ يابا سعيد، فإنّي لست آمن أن تتبعك[2] نفسُه.»

فتوارى عنه، وسلم منه. وقيل: إنّه استتر تسع سنين.

عبدالملك وكاتب له قبل هديّة

وبلغ عبدالملك أنّ بعض كتّابه قبل هديّة، فقال له:

- «أ قبلت هديّة منذ ولّيتك؟» فقال:

- «أمورك، يا أميرالمؤمنين، مستقيمة، والأموال دارّة، والعمّال محمودون، وخراجك موفّر.» فقال:

- «أخبرني عمّا سألتك.» قال:

- «نعم، قد قَبِلتُ.» قال:

- «فوالله لئن كنت قبلت هديّة لا تنوى مكافأة للمُهدى لها، إنّك لدنيّ ولئيم، وإن كنت قبلتها لتستكفى رجلاً لم تكن لتستكفيه لولاها، إنّك لخائن، ولئن كنت نويت تعويض المُهدى عن هديّته ولا تخون له أمانة ولا تثلم له[3] ديناً، فلقد

١ وفي مط: لا أرزاقك، بدل: ما أرى أرزاقك. وهو خطأ.

٢. تتبعك. مهملة في الأصل، وما أثبتناه يوافق مط.

٣. له: سقطت من مط

قبلك ما بسط عليك لسان معامليك، وأطمع فيك ساير مجاوريك، وسلبك هيبة السلطان، وما فى من أتى أمراً لم يخلُ فيه، من لؤم أو دناءة أو خيانة أو جهل مصنع[1].»

وخلعه عن عمله. [470]

---

١ مصنع. كذا في الأصل، مع شيء من الغموض. وما في مط: مصنع



خلافة الوليد بن عبدالملك

وبويع للوليد بن عبدالملك بالخلافة. فخطب الناس لمّا انصرف من دفن أبيه، وقال فى آخر خطبته:

ـ «أيّها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإنّ الشيطان مع الفرد. أيّها الناس، من أبدى ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ومن سكت مات بدائه.»

ثمّ نزل وحاز أدوات الخلافة وأثاثها، وكان جبّاراً عنيداً.

وُرُودِ قتيبة إلى خراسان

وفى هذه السنة وهى سنة ستّ وثمانين، ورد قتيبة بن مسلم إلى خراسان فقدمها والمفضّل يعرض الجند وهو يريد أن يغزو الموضع الذى يقال له: أخرون وشومان. فخطب الناس قتيبة، وحثّهم على الجهاد، وسار، فلمّا كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماؤهم، فساروا معه. فلمّا قطع النهر تلقّاه تيش[1] الأعور ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب. فدعاه إلى بلاده. فمضى مع تيش إلى الصغانيان، فسلّم إليه بلاده. وسار قتيبة إلى أخرون[2] وشومان وهما من

١ تيش الأعور: كذا فى الأصل. وما فى مط: تيش الأعور، وأما فى الطبرى (٨: ١١٨٠) بيش الأعور. وفى حواشيه عن الأصول: تيش.

٢ أخرون وشومان: كذا فى الأصل ومط. والطبرى. وما فى ابن الأثير آخرون وشومان.

طخارستان [471] فجاءه صاحبها، فصالحه على فدية أدّاها، فقبلها قتيبة ورضي، وانصرف إلى مرو، واستخلف أخاه صالحاً. وفتح صالح بعد رجوع قتيبة باسان انبجغر[1]، وكان معه نصر بن سيّار، فأبلى يومئذٍ، فوهب له قرية تدعى تنجابه[2].

ثمّ قدم صالح على قتيبة بعد ذلك فاستعمله على الترمذ، وغزا قتيبة بعد ذلك بيكند، وهي أدنى مدائن بخارى، فلمّا نزل بعقوتهم استنصروا السغد، واستمدّوا من حولهم، فأتوهم في جمع كثير، وأخذوا بالطرق، فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه خبر نحو شهرين، وأبطأ خبره على الحجّاج، فأشفق على الجند، وأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد وهم يقتتلون في كلّ يوم. وكان لقتيبة عين يقال له تُنْدُر[3] من العجم، فأعطاه أهل بخارى مالاً على أن يفثأ[4] عنهم قتيبة.

ذكر حيلة لتُنْدُر ما نفذت له وقتل لأجلها

أقبل تُنْدُر إلى قتيبة، فقال:

ـ «أخلني.»

فنهض الناس واحتبس قتيبة ضرار بن حصين الضبّي، فقال تندر:

ـ «هذا عامل يقدم عليك وقد عزل الحجّاج، فلو انصرفت بالناس [472] إلى مرو.»

فدعا قتيبة سُوَلاً مُمْشياً، فقال له:

---

١ باسان انبجغر كذا في الأصل (بإهمال الحرف الذي يلي النون الثانية) وفي مط: باسان انجغر. وما في ابن الأثير (٤: ٥٢٤): كاشان وأورشت (أورشيت).

٢ سحابه مهمله في الأصل إلّا في الياء. وفي مط: سحابة؛ وما في الطبري (تسحانه (بتخانه؟)) وفي حواشيه: بتخايه (بإهمال الحرف الأول).

٣ تُندر في الأصل. تَندر بفتح الأول والصحيح كما ضبطناه، لأنه اسم فارسي بمعنى الرعد وضبطه في القواميس الفارسية Tondar. وما في الطبري (٨: ١١٨٦): تندر، ومصحفات في الحواشي.

٤ يفثأ: من قولهم فثأه عن الأمر، أي: سكّنه عنه، كفّه عنه.

ـ «إضرب عنق تندر!»

فقتله.

ثمّ قال لضرار:

ـ «لم يعلم هذا الخبر غيري وغيرك، وإنّي أُعطي الله عهداً، إن ظهر هذا الحديث من أحد حتّى تنقضي حربنا، لأُلحقنّك بتندر، فاملك لسانك، فإنّ انتشار هذا الحديث يفتّ في أعضاد الناس.»

ثمّ أذن للناس، فدخلوا، فراعهم قتل تُنْدَر، فوجموا وأطرقوا، فقال قتيبة:

ـ «ما يردعكم من قتل عبد أحانه[1] الله.» قالوا:

ـ «كنّا نظنّه ناصحاً للمسلمين.» قال:

ـ «بل كان غاشّاً، قد مضى لسبيله بذنبه، فاغدوا على قتال عدوّكم والقوهم بغير ما كنتم تلقونهم به.»

فغدا الناس متأهبين، فأخذوا مصافّهم، ومشى قتيبة فحضّ أهل الرايات. فكانت بين الناس مشاولة، ثمّ إنّهم تزاحفوا والتقوا، وأخذت السيوف مآخذها، فقاتلوهم حتّى زالت الشمس، ثمّ منح الله المسلمين أكتافهم، فانهزم المشركون يريدون المدينة، فاتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول، فتفرّقوا، وركبهم المسلمون قتلاً وأسراً، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل. فوضع قتيبة [473] الفعلة في أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم، واستعمل عليهم رجلاً من قيس، وارتحل عنهم يريد الرجوع. فلمّا سار مرحلتين نقضوا، وكفروا، وقتلوا العامل وأصحابه وجدعوا آنفهم[2] وآذانهم، وبلغ ذلك قتيبة، رجع إليهم وقد تحصّنوا، فقاتلهم شهراً، ثمّ وضع الفعلة في أصل المدينة، فعلّقوها بالخشب وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فينهدم. فسقط الحائط وهم يعلّقونه،

---

۱. أحانه الله: أهلكه الله. الحَين بمعنى الهلاك والمحنة.

۲. آنفهم. كذا في الأصل. وفي مط: آنافهم.

فقتل أربعين رجلاً من الفعلة، فطلبوا الصلح، فأبى، وقاتلهم، فظفر بها عنوة، فقتل من كان فيها من المقاتلة، وكان في من أخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش[1] الترك على المسلمين. فقال لقتيبة:

ـ «أنا أفدي نفسي.»

فقال له سُلَيم الناصح:

ـ «ما تبذل؟» قال:

ـ «خمسة آلاف حريرة صينيّة قيمتها ألف ألف (١،٠٠٠،٠٠٠).»

قال قتيبة:

ـ «ما ترون؟» قالوا:

ـ «نرى أنّ فداءه زيادة في غنائم المسلمين وما عسى أن يبلغ من كيد هذا؟»

قال:

ـ «لا والله، لا يروّع بك مسلم أبداً.»

وأمر به فقتل. وأصاب في بِيكَنْد من آنية الذهب والفضّة ما لا يحصى. فولّى الغنائم والقسم [474] عبدالله بن والان، وكان قتيبة يسمّيه الأمين بن الأمين، وإياس بن بَيْهَس، فأذابا الآنية والأصنام ورفعاه إلى قتيبة، ورفعا إليه خَبَث[2] ما أذابا، فوهبه لهما، فأعطيا به أربعين ألفاً، فأعلماه فرجع فيه، فأمرهما أن يذيباه، فأذاباه، فخرج منه خمسون ألف مثقال، وأصابوا في بيكند شيئاً كثيراً، فصار في أيدي المسلمين من بيكند شيء لم يصيبوا مثله بخراسان.

١. استجاش (بالجيم المعجمة): كذا في الأصل. وما في مط: استحاش (بالحاء المهملة) وما في الأصل هو الصحيح.

٢. الخَبَث: ما كان في الذهب والحديد ونحوهما من الغشّ.

ذكر اتّفاق عجيب مع إضاعة حزم

وهو السبب الذى سمى به قتيبة عبدالله بن وألان الأمين بن الأمين

كان السبب الذى سمّى قتيبة له عبدالله بن وألان الأمين بن الأمين أنّ مسلماً الباهلىّ قال لوألان:

ـ «إنّ عندى مالاً أُحبّ أن استودعكه.» فقال:

ـ «أتريد أن يكون مكتوماً أو لا؟»

فكره أن يعلمه الناس. قال:

ـ «لا، بل أُحبّ أن تكتمه.» قال:

ـ «ابعث به مع رجل تثق به إلى موضع كذا.»

وأمره إذا رأى رجلاً جالساً فى ذلك الموضع أن يضع ما معه وينصرف. قال:

ـ «نعم.»

فجعل المسلم المال فى خُرج وحمله على بغل [475] وقال لمولىً له:

ـ «انطلق بهذا البغل إلى موضع كذا، فإذا رأيت رجلاً جالساً، فخلّ عن البغل وانصرف.»

فانطلق الرجل بالبغل، وقد كان وألان أتى الموضع لميعاده، فأبطأ عليه رسول مسلم، ومضى الوقت الذى وعده، فظنّ أنّه قد بدا له، فانصرف. وجاء رجل من بنى تغلب، فجلس فى ذلك الموضع، وحضر الرسول مع البغل والمال، فرأى الرجل جالساً، فخلّى عن البغل ورجع. فقام التغلبىّ. فلما رأى البغل والمال ولم ير معه أحداً قاد البغل إلى منزله وقبض المال إليه.

وكان ظنّ مسلم أنّ المال صار إلى وألان، فلم يسأل عنه حتّى احتاج إليه، فلقيه وقال:

ـ «مالى.» قال:

ـ «ما قبضتُ شيئاً ولا لك عندى مال.»

فكان مسلم يشكوه ويتنقّصه. فأتى يوماً مجلس بني ضُبيعة، فشكاه، والتغلبيّ جالس. فقام إليه وخلا به وسأله عن المال، فأخبره، فانطلق به إلى منزله، وأخرج الخُرج إليه، وقال:

- «أتعرفه؟» قال:

- «نعم،» قال:

- «والخاتم؟» قال:

- «نعم.» قال:

- «فاقبض مالك.»

وأخبره الخبر. فكان مسلم بعد ذلك يأتي القبائل وجميع من شكا وألان عندهم وخوّنه فيعذره ويخبرهم الخبر. [476]

ذكر رأي للحجّاج
أشار به وهو بواسط على قتيبة وهو بخراسان حتّى فتح بخارىٰ
وموقف لأصحاب قتيبة مستحسن

غزا قتيبة وَرْدان خذاه ملك بخارىٰ سنة تسع وثمانين. فلم يظفر من البلد بشيء. فرجع إلى مرو، فكتب إليه الحجّاج:

- «صوّرها لي والطرق إليها.»

فبعث إليه بصورتها. فكتب إليه الحجّاج أن:

- «ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله عزّوجلّ ممّا كان منك وائتها من مكان كذا وكذا.»[1]

فخرج قتيبة إلى بخارىٰ وذلك في سنة تسعين، من حيث أشار به الحجّاج،

١. ورد في الطبري (٨: ١١٩٩، ١٢٢٩): «وقيل. كتب إليه الحجّاج أن كِس بكِس، وانسف نسفاً، وردوردان، وإيّاك والتحويط، ودعني من بُنيّات الطريق.»

فأرسل وردان حذاه إلى السغد والترك ومن حولهم يستنصرهم. فأتوهم وقد سبق إليها قتيبه، فحصرهم. فلمّا جاءتهم أمدادهم خرجوا إليهم يقاتلونهم، فقالت الأزد:

- «إجعلونا على حدة وخلّوا بيننا وبين قتالهم.»

فقال لهم قتيبة:

- «شأنكم، تقدّموا.»

فتقدّموا، فقاتلوهم وقتيبة جالس عليه رداء أصفر فوق سلاحه، فصبروا جميعاً، ثمّ جال المسلمون وركبهم المشركون، فحطّموهم حتّى دخلوا عسكر قتيبة وجازوه حتّى ضرب النساء وجوه الخيل [477] وبكين، وقاتلوهم حتّى ردّوهم. فوقف الترك على نشز[1]، فقال قتيبة:

- «من يزيلهم لنا عن هذا الموقف؟»

فلم يقدم عليهم أحد والأحياء[2] كلّهم وقوف. فمشى قتيبة إلى بنى تميم فقال:

- «يا بنى تميم، أنتم بمنزلة الحُطمة[3]، فيوماً كأيّامكم، فداؤكم أبى.»

فأخذ اللواء وكيع بيده وقال:

- «يا بنى تميم، أتسلموننى اليوم؟» فقالوا:

- «لا يابا المطرّف.»

وهريم بن طحفة المجاشعىّ على خيل بنى تميم ووكيع رأسهم. فأحجموا جميعاً، فقال وكيع:

- «يا هُريم، قدّم!»

---

١ النشر المكان المرتفع وفى الطبرى أيضاً: نشز (بالزاء المعجمة).

٢. الأحياء، أى أحياء العرب (أنظر الطبرى ٨: ١٢٠٢).

٣ الحُطمة كذا فى الأصل وفى الطبرى الحطمية وفى حواشيه: الحطمة والحطيّة.

ودفع إليه الراية، وقال:

ـ «قدّم خيلك.»

فتقدّم هُريم ودبّ وكيع فى الرجال، فانتهى هُريم إلى نهر بينه وبين العدوّ، فوقف وقال له وكيع:

ـ «أقحم يا هُريم.»

فنظر هُريم إلى وكيع نظر الجمل الصؤول[1] وقال:

ـ «أنا أورد وأقحم خيلى هذا النهر، فإن انكشفت كان هلاكها. والله إنّك لأحمق.» قال:

ـ «يابن اللخناء لا أراك تردّ أمرى.»

وحدفه[2] بعمود كان معه. فضرب هريم فرسه فأقحمه، وقال:

ـ «ما بعد هذا أشدّ من هذا.»

وعبر هريم فى الخيل، وانتهى وكيع إلى النهر، فدعا بخشب فقنطر على النهر وقال لأصحابه:

ـ «من وطّن منكم نفسه على الموت فليعبر، ومن لا فليثبت مكانه.»

فما عبر معه إلّا [478] ثمانمائة رجل، فدبّ حتّى إذا أعيوا [أقعدهم][3] فأراحوا حتّى إذا دنوا من العدوّ جعل الخيل مجنّبتين، وقال لهريم:

ـ «إنّى مطاعن القوم فاشغلهم عنّا بالخيل وقل للناس: شدّوا.»

فحملوا، فوالله ما انثنوا حتّى خالطوهم، وحمل هريم [فى] خيله[4] عليهم،

---

١ الجمل الصؤول: الجمل الذى يهجم على الناس ويقتلهم. من قولهم: صؤل (بصؤل صآلة) البعير: أخذ يهجم على الناس ويقتلهم.

٢ حدفه (بالدال المهملة): لغة فى حذفه. أى ضربه. الحذف بالعصا كالقذف بالحصى. وما فى الطبرى (٨: ١٢٠٢): حذفه (بالذال المعجمة).

٣. ما فى الأصل غير واضح ويشبه أن يكون: «فلم تقدهم؟». وما أثبتناه مأخوذ من الطبرى (٨: ١٢٠٢).

٤ وحمل هريم خيله عليهم. كذا فى الأصل والطبرى. وما فى ابن الأثير (٤: ٥٤٣): وحمل هريم فى

فطاعنوهم بالرماح، فما كفّوا عنهم حتّى حدّروهم عن موقفهم، ونادى قتيبة:

ـ «من جاء برأس فله مائة.»

فزعم موسى بن المتوكل القريعيّ، قال: جاء يومئذ أحد عشر رجلاً من بنى قريع كلّ رجل يجيء برأس، فيقال:

ـ «ممّن أنت؟» فيقول:

ـ «قريعيّ.»

فجاء رجل من الأزد برأس، فقالوا له:

ـ «من أنت؟» فقال:

ـ «قريعيّ.»

قال: وجهم بن زحر قاعد، فقال:

ـ «كذب والله، أصلح الله الأمير، والله لابن عمّي.»

فقال له قتيبة:

ـ «ويحك! ما الذى دعاك إلى هذا؟» قال:

ـ «رأيت كلّ من جاء برأس قال: قريعيّ. فظننت أنّه ينبغي لكلّ من جاء برأس أن يقول ذلك.»

فضحك قتيبة حتّى استغرب[1].

وفتح الله على يديه بخارى، وفضّ أولئك الجمع. فلمّا تمّ له ذلك هابه أهل الصغد، فرجع طرخون ملك الصغد ومعه فارسان حتّى وقف قريباً من عسكر قتيبة [479] وبينهما نهر بخارى، فسأل أن يبعث إليه رجلاً يكلّمه، فأمر قتيبة رجلاً، فدنا منه فسأل الصلح على فدية يؤدّيها إليهم، فأجابه قتيبة إلى ما طلب،

→

الخيل. فردنا «هي» بأمارة ما في ابن الأثير.

١. استغرب، واستُغرب، وأغرب في الضحك: بالغ فيه.

وصالحه وأخذ منه رهناً حتّى بعث إليه بما صالحه عليه. وانصرف طرخون إلى بلاده، ورجع قتيبة ومعه نيزك.

ذكر غدر نيزك
ونقضه عهد قتيبة، وظفر قتيبة به بعد ذلك
وقتله إيّاه

أمّا طرخون فقد ذكرنا أنّه هاب قتيبة فصالحه. وأمّا نيزك فإنّه هابه ونقض الصلح. وكان سبب غدره أنّه لمّا فصل من بخارى مع قتيبة رأى ما صنع طرخون فقال لأصحابه وخاصّته:

ـ «إنّي قد هبت هذا العربيّ لما يتمّ على يده من الفتوح وأنا معه ولست آمنه. وذلك أنّ العربيّ بمنزلة الكلب إذا ضربته نبح، وإذا أرضيته بصبص[1]، وإن أنا غزوته ثمّ أرضيته شيئاً نسي ما صنعت به. وقد قاتله طرخون مراراً، فلمّا أعطاه فدية قبلها، وهو مع ذلك شديد السطوة فلو استأذنته ورجعت، كان الرأي.» قالوا:

ـ «فافعل.»

فاستأذنه في الرجوع إلى [480] طخارستان فأذن له. فقال لأصحابه:

ـ «أحثّوا السير.»

فساروا سيراً شديداً حتّى أتوا النوبهار[2]. فنزل يصلّي فيه ويتبرّك به، وقال لأصحابه:

ـ «إنّي لا أشكّ أنّ قتيبة قد ندم حين فارقنا عسكره على إذنه لي، وسيقدم

١ بصبص الكلب حرّك ذنبه

٢ نوبهار معبد بوذيّ كانت البرامكة يلون سدانته قبل إسلامهم ثمّ وراثهم للعباسيين. ويقال إنّه كان بيت نار في بلخ وكانت له مكانة عند المجوس مثل ما للكعبة عند المسلمين (قم). أنظر أيضاً الطبري (٨: ١١٨١، ١٢٠٥).

الساعة رسوله على المغيرة بن عبدالله بأمره بحبسي فأقيموا ربيئة [١] ينظر، فإذا رأيتم الرسول قد جاوز المدينة وخرج من الباب فإنّه لا يبلغ البروقان حتّى يبلغ طخارستان.»

فبعث المغيرة رجلاً فلا يدركنا حتّى نبلغ شعب خَلم [٢]، ففعلوا، وكان كما قال: وأقبل رسول قتيبة إلى المغيرة يأمره بحبس نيزك. فلمّا مرّ الرسول إلى المغيرة وهو بالبروقان ـ ومدينة بلخ يومئذ خراب ـ ركب نيزك في أصحابه فمضوا، وقدم الرسول على المغيرة وهو بالبروقان في طلبه، فوجده قد دخل في شعب خَلم، فانصرف المغيرة، وأظهر نيزك الخلع، وكتب إلى إصبهبذ بلخ، وإلى باذان ملك مروروذ، وإلى سهرك ملك الطالقان، وإلى شهرك ملك الفارياب، وإلى ملك الجوزجان يدعوهم إلى خلع قتيبة، فأجابوه وواعدهم [481] الربيع أن يجتمعوا ويغزوا قتيبة، وكتب إلى كابلشاه يستظهر به، وبعث إليه بثقله، وسأله أن يأذن له، إن اضطرّ إليه، أن يأتيه ويؤمنه في بلاده. فأجابه إلى ذلك، وضمّ ثقله. وكان جبغويه [٣] ملك طخارستان ونيزك من عبيده، إلّا أنّه كان ضعيفاً واسمه الشذّ [٤]، فأخذه نيزك وقيّده بقيد من ذهب مخافة أن يشغب عليه ويمنعه. فلمّا استوثق منه أخرج عامل قتيبة من بلاد جبغوية وكان العامل محمد بن سليم الناصح، وكان محبّباً مصدّقاً عند الناس، وبلغ قتيبة خلع نيزك في قبل الشتاء، وقد تفرّق عنه الجند، فلم يبق معه إلّا أهل مرو، فبعث أخاه عبدالرحمان إلى بلخ في اثني عشر ألفاً إلى البروقان وقال:

١ الربيئة الطليعه الذي يرقب العدو من مكان عال لئلّا يدهم قومه. وما في الطبري ربئه

٢ خَلم كذا ضبط في الأصل (بفتح الخاء المعجمة) وضبط في الطبري خُلم (بضم الخاء)

٣ جبغويه حرف الثاني مهمل من النقط في الأصل، فأعجمناه كما تكرر في المواضع التالية مط جبغويه، وفي متن الطبري (٨ ١٢٢١) جيغويه. وفي حواشيه عن الأصول جبغوية وجيغويه.

٤ الشذّ كذا في الأصل والطبري (٨: ١٢٠٦) الشذّ.

ـ«أقم ولا تحدث شيئاً، فإذا حسر الشتاء فعسكر وسر نحو طخارستان واعلم أنّي قريب منك.»

فسار عبدالرحمان، فنزل البروقان، وأهل قتيبة، حتّى إذا كان فى آخر الشتاء كتب إلى أهل أبرشهر وأبيورد وسرخس، فقدموا عليه مع أهل هراة، فأوقع بالطالقان لأنّ ملكها [482] طابق نيزك على حرب قتيبة وواعده مع من استجاب للنهوض معه من الملوك لحرب قتيبة.

فسار قتيبة إلى الطالقان، فأوقع بأهلها وقتل منهم مقتلة عظيمة وصلب منهم سماطين أربعة فراسخ فى نظام واحد، وبلغ مرزبان مرو الروذ إقباله إلى بلاده، فهرب إلى بلاد الفرس. فقدم قتيبة مرو الروذ، فوجد ابنين له فقتلهما وصلبهما، ومضى إلى ملك الفارياب، فتلقّاه ملكها بالطاعة، فرضى عنه ولم يقتل بها أحداً، واستعمل عليها رجلاً، وخرج صاحب الجوزجان هارباً، فترك أرضه ولحق بالجبال.

ثمّ مضى يتبع أخاه عبدالرحمان وكان خلّف نيزك على فم الشعب مقاتلة، وترك أيضاً فى قلعة من وراء الشعب مقاتلة. فأقام قتيبة أيّاماً يقاتلهم على مضيق الشعب لا يقدم منهم على شيء ولا يقدر على دخوله ولا يعرف طريقاً يفضى إلى نيزك إلّا الشعب أو مفازة لا تحمل العساكر. فهو فى ذاك متحيّر إذ قدم عليه [الرؤب خان][1] ملك الرؤب[2]، فاستأمنه على أن يدلّه [483] على مدخل القلعة التى من وراء الشعب. فآمنه قتيبة وأعطاه ما سأله، وبعث معه رجالاً ليلاً، فانتهى بهم إلى القلعة التى من وراء شعب خلم، فطرقوهم وهم آمنون وقتلوهم وهرب من كان فى الشعب، ودخل قتيبة، والناس معه، الشعب، وسار إلى نيزك،

---

١ الرؤب خان. ما فى لأصل ومط. الرومجار. إلّا أنّ الحرف الآخير غير واضح فى الأصل.

٢ كذا فى الأصل والطبرى (٨ ١٢١٩). وما فى مط: الروم. وما أثبتناه فى الكلمتين، ترجيح لما فى الطبرى. وفى حواشى الطبرى: الروب جار.

وقدّم أخاه عبدالرحمان. وبلغ خبره نيزك[1]، فارتحل من منزله وقطع وادى فرغانه، ووجّه بثقله وأمواله إلى كابلشاه، ومضى حتّى نزل الكرّز وعبدالرحمان بن مسلم يتبعه، وأخذ عليه مضائق الكرّز، فتحرّز نيزك فى الكرّز وليس إليه مسلك إلّا من وجه واحد وذلك الوجه صعب لا تطيقه الدوابّ. فحصره قتيبة شهرين حتّى قلّ ما فى يد نيزك من الطعام، وأصابهم الجدريّ وجُدّر جبغويه، وخاف قتيبة الشتاء، فدعا سليماً الناصح فقال له:

ـ «إنطلق إلى نيزك، فاحتل أن يأتينى به بغير أمان، فإن أعياك وأبى فآمنه واعلم أنّى إن عاينتك وليس هو معك صلبتك، فاعمل[2] لنفسك.»

قال:

ـ «فإن كنت فاعلاً فاكتب إلى عبدالرحمان لا يخالفنى.» [484] وكان بينهما فرسخان، قال:

ـ «نعم.»

فكتب له.

فلمّا قدم على عبدالرحمان، قال:

ـ «ابعث رجالاً، فليكونوا على فم الشعب، فإذا خرجت أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا، فليحولوا بيننا وبين الشعب.»

قال: فبعث عبدالرحمان خيلاً، فكانت حيث أمرهم سُليم، وحمل معه من الأطعمة والأخبصة[3] التى تبقى أيّاماً أوقاراً حتّى أتى نيزك، فقال له نيزك:

ـ «خذلتنى يا سُليم!» قال:

---

١ نيزك: كذا فى الأصل والطبرى فى جميع المواطن. وما فى مط: يترك.

٢. فاعمل: كذا فى الأصل وهى ساقطه من مط

٣ الأخبصة: كذا فى الأصل وما فى مط: الأحبصة (بالحاء المهملة). والخبيصة الحلواء المخبوصة وهى أخصّ من الخبيص الذى هو حلواء معمولة بالتمر والسمن.

ـ «ما خذلتك، ولكن عصيتني وأسأت إلى نفسك، خلعت وغدرت» قال:

ـ «دعني من العتاب، مالرأى؟» قال:

ـ «الرأى أن تأتيه، فقد أمحكته[1] وليس يبارح[2] موضعه هذا وقد اعتزم على أن يشتو بمكانه، هلك أو سلم.» قال:

ـ «يا سُليم آتيه من غير أمان.» قال:

ـ «ما أظنّه يؤمنك، فقد ملأت قلبه غضباً. ولكنّى أرى ألّا يعلم بك حتّى تضع يدك فى يده، فإنّى أرجو إن فعلت ذلك أن يستحى منك ويعفو عنك.» قال:

ـ «أترى ذاك؟» قال:

ـ «نعم.» قال:

ـ «إنّ نفسى لتأبى هذا وهو إن رآنى قتلنى.»

قال سليم:

ـ «ما أتيتك إلّا لأشير عليك بهذا، ولو فعلت لرجوت [485] أن تسلم وتعود حالك عنده إلى ما كانت. فأمّا إذا أبيت فأنا منصرف.» قال:

ـ «فنغدّ الآن.» قال:

ـ «لأظنّكم فى شغل عن تهيئة الطعام ومعنا طعام كثير.»

ودعا سليم بالغداء، فجاؤوا بطعام كثير لا عهد لهم بمثله منذ حُصروا، فانتهبه الأتراك، فغمّ ذلك نيزك وتبيّن ذاك فى وجهه. فقال له سليم:

ـ «ياأبا الهيّاج، إنّى لك من الناصحين، إنّى أرى أصحابك قد جهدوا، وإن طال بهم الحصار لم آمنهم أن يستأمنوا بك، فانطلق معى حتّى تأتى قتيبة» قال:

ـ «ما كنت لآتيه على غير أمان وإنّ ظنّى به أنّه قاتلى وإن آمننى، ولكنّ

---

١ أمحكه ماحكمه محكه. حاصمه ولاجّه وتمادى فى اللجاجة. أمحكه- أغضبه.

٢ يبارح كذا فى الأصل وهو الصحيح وما فى مط- تبارح وهو خطأ

[الأمان][١] أعذر لي وأرجى أن يؤمنني.» قال.
ـ «فقد آمنك، أفتتّهمني؟» قال:
ـ «لا.» قال:
ـ «فانطلق معي.»
فقال له أصحابه:
ـ «إقبل قول سُليم، فلم يكن ليقول إلّا حقاً.»
فدعا بدوابّه وخرج مع سُليم فلمّا انتهى إلى الدرجة التي يهبط منها إلى قرار الأرض، قال:
ـ «يا سُليم، من كان لايعلم متى يموت فإنّي أعلم متى أموت. أموت ساعة أُعاين قتيبة.» قال:
ـ «كلّا.»
فركب ومضى معه جيغويه، وقد كان برأ من الجدري. فلمّا خرجوا من الشعب عطفت الخيل التي خلّفها [486] سليم على فوهة الشعب، فحالوا بين الأتراك وبين الخروج، فقال نيزك لسليم:
ـ «هذا أوّل الشرّ.» قال:
ـ «لا تفعل، تخلُّف[٢] هؤلاء عنك خير لك.»
وأقبل سليم ونيزك ومن خرج معه حتّى دخلوا على عبدالرحمان بن مسلم، فأرسل رسولاً إلى قتيبة يعلمه، فأرسل قتيبة عمرو بن مهزوم إلى عبدالرحمان أن اقدم بهم. فحبس أصحاب نيزك، ودفع نيزك إلى ابن بسّام الليثي وكتب إلى الحجّاج يستأذنه في قتل نيزك. فجعل ابن بسّام نيزك في قبّته وحفر حول القبّة خندقاً، ووضع عليه حرساً، ووجّه قتيبة معاوية بن عامر بن علقمة العُليمي،

---
١ ما بين [ ] أخذناه من الطبري (٨: ١٢٢١). وهو ساقط من الأصل ومط كليهما.
٢ تخلُّف كذا في الأصل بالضبط. وضبطت الكلمة في الطبري: تُخلِّف. ولكلا الضبطين وجه من الصحة

فاستخرج ما كان فى الكرّز من المتاع ومن كان فيه فعدم بهم على قتيبة فحبسهم ينتظر كتاب الحجّاج بعد أربعين يوماً يأمره بقتل نيزك. فدعا به وقال له:

ـ «هل لك عندى عقد أو عند عبدالرحمان أو عند سليم؟» قال:

ـ «لى عند سليم.» قال:

ـ «كذبت.»

وقام ودخل وردّ نيزك إلى حبسه، فمكث ثلاثة أيّام ولا يظهر للناس. وتكلّم الناس فى أمر نيزك، فقال بعضهم:

ـ «لا يحلّ قتله.»

وقال بعضهم:

ـ «لا يحلّ له [487] تركه.»

وخرج قتيبة فى اليوم الرابع، فجلس وأذن للناس. فقال:

ـ «ما ترون فى قتل نيزك؟»

فاختلفوا: فقال قائل:

ـ «اقتله.» وقال قائل:

ـ «قد أعطيته[1] عهداً، فلا تقتله.» وقال قائل:

ـ «لا تأمنه على المسلمين.»

فدخل ضرار بن الحصين الضبّى. فقال:

ـ «ما تقول يا ضرار؟» قال:

ـ «أقول: إنّى سمعتك تقول: أعطيت الله لئن مكّننى منه لأقتلنّه! فإن لم تفعل لم ينصرك عليه.»

فأطرق قتيبة طويلاً ثمّ قال:

---

١ قد أعطيته: كذا فى الأصل. ما فى مط: أعطيتم.

ـ «والله، لئن لم يبق من أجلي إلّا ثلاث كلمات لقلت: اقتلوه، اقتلوه، اقتلوه.» وأرسل إلى نيزك، فأمر بقتله وقتل أصحابه. فقتلوا وهم سبعمائة.

وفي رواية أخرى: إنّ قتيبة قال لبكر بن حبيب السهمي من باهلة:

ـ «هل بك قوّة؟» قال:

ـ «نعم، وأريد[1].»

وكانت في بكر أعرابيّة، قال:

ـ «دونك هؤلاء الدهاقين.»

فقتل يومئذ اثني عشر ألفاً، وصلب نيزك وابني أخيه في أصل عين تدعى: وَخْش خاشان.

ثمّ أذن قتيبة للسبل والشذّ، فانصرفا إلى بلادهما، وأطلق جبغوية ومنّ عليه، وبعث به إلى الوليد، فلم يزل بالشام حتّى مات الوليد.

وكان الحجّاج يقول:

ـ «بعثت قتيبة [488] فتىً غرّاً، فما زدته ذراعاً إلّا زادني كراعاً.»

فتح شومان وكِسّ ونَسَف

ثم غزا قتيبة شومان وكِسّ ونَسَف، فافتتحها عنوة، وسرّح أخاه عبدالرحمان بن مسلم إلى السغد، فسار حتّى نزل بمرج قريب منهم، فراسله ملكها بشيء صالحه عليها، ودفع إليه رهناً كانوا معه، وانصرف عبدالرحمان إلى قتيبة وهو ببخارى، فرجعوا إلى مرو، فقالت السغد لطرخون:

ـ «إنّك قد رضيت بالذلّ، وأعطيت الجزية وأنت شيخ!» فقال:

ـ «إنّ عدوّنا قويّ، ورأيٰ مداراته أدوم لنا وأجمع لشملنا.» فقالوا:

---

١. أريد كذا في الأصل ومط وما في الطبري (٨: ١٢٢٣)-أُريد.

ـ «لا حاجة لنا فيك.» قال:

ـ «فولّوا من أحببتم.»

فولّوا غورك[1] وحبسوا طرخون. فقال طرخون:

ـ «ليس بعد سلب الملك والحبس إلّا القتل. فيكون ذلك بيدى أحبّ إليَّ من أن يليه منّى غيرى.»

واتّكأ على سيفه حتّى خرج من ظهره.

فتح خوارزم

وغزا قتيبة خوارزم، فصالحه صاحبها، ومضى منها إلى السغد، وذلك في سنة ثلاث وتسعين. وكان سبب ذلك أن ملك خوارزم كان ضعيفاً، فغلبه أخوه خُرّزاذ على أمره، وكان خُرّزاذ أصغر منه. فكان إذا بلغه أنّ عند [489] أحد ممّن هو منقطع إلى الملك، جارية أو دابّة أو متاعاً فاخراً، أرسل فأخذه، وإذا بلغه أنّ عند أحد منهم بنتاً[2] أو أختاً جميلة أرسل فغصبه إيّاها، وإذا شُكى إلى الملك، قال:

ـ «لا أقوىٰ عليه.»

وقد ملأه مع هذا غيظاً. فكتب إلى قتيبة يدعوه[3] إلى أرضه، واشترط عليه أن يدفع إليه أخاه وكلّ من كان يضادّه ليحكم فيه ما يرىٰ. وبعث فى ذلك رسلاً ولم يطلع أحداً من مرازبته على ما كتب به. فقدم رسله على قتيبة فى آخر الشتاء وقت الغزو وقد تهيّأ للغزو، فأظهر قتيبة أنّه يريد السغد، ورجع رسل خوارزم شاه إليه بما أحبّ من قبل قتيبة، وجمع خوارزم شاه دهاقنته وأمناءه، فقال لهم.

١. غورك كذا فى الأصل وما فى مط غورك (مهملة). وفى الطبرى (٨: ١٢٢٩). بالضبط غوزك.

٢. بنتاً كذا فى الأصل وهو الصحيح وما فى مط: بنيا!

٣. سقط من مط من قوله «يدعوه إلى أرضه» إلى قوله: «وبعث فى». فأصبح النصّ فى مط «فكتب إلى قتيبة ذلك رسلاً»!

ـ «إنّ قتيبة يريد السغد وليس بغازيكم، فهلمّوا نتنعّم في ربيعنا.»

فأقبلوا على الشرب والتنعّم وأمنوا عند أنفسهم الغزو، فلم يشعروا حتّى نزل قتيبة في هزار دشت[1]، فقال خوارزم شاه لأصحابه:

ـ «ما ترون؟» فقالوا:

ـ «نرى أن نقاتله.» قال:

ـ «لكنّي لا أرى ذلك، لأنّه عجز عنه من هو أقوى منّا وأشدّ شوكة، ولكنّا نؤدّي إليه شيئاً نصرفه به عامنا [490] ونرى رأينا.» قالوا:

ـ «فرأينا رأيك.»

فأقبل خوارزم شاه حتّى نزل في مدينة الفيل من وراء النهر ومدائن خوارزم ثلاث يطيف بها فارقين واحد[2]، فمدينة الفيل أحصنهنّ، وقتيبة في هزار دشت بينهما نهر بلخ، فلم يعبر، فصالحه على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع على أن يعينه على ملك خامجرد[3] وأن يفي له بما كتب إليه. فقبل منه قتيبة ووفى له، وبعث أخاه إلى ملك خامجرد، وكان يعادي خوارزم شاه، فقاتله فقتله عبدالرحمان وغلبه على أرضه، وقدم منهم على قتيبة بأربعة آلاف أسير. فلمّا جاء بهم عبدالرحمان أمر قتيبة بسريره، فأُخرج فقتل الأسرى بين يديه.

فحكى المهلّب بن إياس أنّه أُخذت سيوف الأشراف يضرب بها الأعناق فكان فيها ما لا يقطع ولا يجرح، فأخذ سيفي فلم يضرب به شيء إلّا أبانه. فحسدني بعض آل قتيبة، فغمز الذي يضرب به أن اصفح بالسيف، فصفح به قليلاً، فوقع في

١ هزار دشت: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨: ١٢٣٨): هزار سب. وفي حواشيه عن الأصول هراست. وفي ابن الأثير (٤: ٥٧٠): هزار أسب.

٢ كذا في الأصل والطبري (٨: ١٢٣٨) أيضاً والعبارة: «ومدائن خوارزم»، «فارقين واحد» في ابن الأثير (٤: ٥٧٠).

٣ خامجرد: في الأصل: خام جرد (بالإهمال). والمثبت من الطبري، ويؤيده ابن الأثير

ضرس المقتول فثلمه.

قال: فرأيت السيف وكان أبو الذيّال يقول: هو [491] عندى بعينه.

فتح السغد

ولمّا أخذ قتيبة صلح صاحب خوارزم قام إليه المُجشّر[١] بن مزاحم السلمى فقال:

ـ «إنّ لى حاجة فأخلنى.»

فأخلاه، فقال:

ـ «إن أردت السغد يوماً من الدهر فالآن. فإنّهم آمنون من أن تأتيهم عامك هذا، وإنّما بينك وبينهم عشرة أيام.»

فقال له قتيبة:

ـ «أشار عليك أحد بهذا؟» قال:

ـ «لا.» قال:

ـ «فأعلمتَه أحداً؟» قال:

ـ «لا.» قال:

ـ «فوالله، لئن تكلّم به أحد لأضربن عنقك.»

فأقام يومه ذلك. فلمّا أصبح من الغد دعا عبدالرحمان فقال:

ـ «سر فى الفرسان والمرامية وقدّم الأثقال إلى مرو.»

فوجّهت الأثقال إلى مرو، ومضى عبدالرحمان يتبع الأثقال يريد مرو يومه كلّه. فلمّا أمسى كتب إليه:

ـ «إذا أصبحت فوجّه الأثقال إلى مرو، وسر فى الفرسان والمرامية نحو السغد

١. المجشر: كذا فى الأصل (بالسين المهملة). وفى الطبرى (٨. ١٢٤١) أيضاً المجشر، وفى حواشيه عن لأصول المحشر. المجشّر. وفى ابن الأثير (٤. ٥٧١): المجشّر

واكتم الأخبار فإنّي بالأثر.»

فلمّا أتى عبدالرحمان الخبر أمضى الأثقال إلى مرو، وسار حيث أمره. وخطب قتيبة الناس فقال:

ـ «إنّ الله، عزّوجلّ، قد فتح لكم هذه البلدة فى وقت الغزو فيه ممكن وهذه السغد [492] شاغرة برجلها قد نقضوا العهد الذى كان بيننا، ومنعونا من مال الصلح الذى صالحنا عليه صاحبهم، وصنعوا به ما بلغكم. وقال الله، عزّوجلّ: وَمَن نَكَثَ فَإنَّما يَنكُثُ على نَفسِهِ[1]. فسيروا على بركة الله فإنّى أرجو أن تكون خوارزم والسغد كالنضير وقريظة.»

فأتى السغد وقد سبقه عبدالرحمان بن مسلم فى عشرين ألفاً، وقدم عليه قتيبة فى أهل خوارزم بعد ثالثة ورابعة، فقال:

ـ «إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساءَ صَباحُ المنذَرين[2].»

فحصرهم شهراً، فقاتلوه فى حصارهم من وجه واحد. وخاف أهل السغد طول الحصار، فكتبوا إلى أهل الشاش وأخشيذ[3] فرغانة:

ـ «إنّ العرب إن ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به، فانظروا لأنفسكم فاجتمعوا على أن تأتوهم.»

فأرسلوا إليهم أنْ:

ـ «أرسلوا إليهم من يشغلهم حتّى نبيّت عسكرهم.»

وانتخبوا فرساناً من أبناء المرازبة والأساورة والأشدّاء الأبطال، فوجّهوهم وأمروهم أن يبيّتوا عسكرهم. وجاءت عيون المسلمين، فأخبروهم، فانتخب

---

١ س ٤٨ الفتح ١٠

٢. والآية فإذا نَزَل بساحتِهم فساءَ صَباحُ المنذَرين (س ٣٧ الصافّات: ١٧٧).

٣. كذا فى الأصل: إخشيذ، وما فى الطبرى (٨: ١٢٤٢) وابن الأثير (٤: ٥٧٢): إخشاد، وفى حواشى الطبرى أخشيد (بالدال المهملة).

قتيبة [493] ثلاثمائة أو ستمائة من أهل النجدة واستعمل عليهم صالح بن مسلم.

وكان ملك الشاش وإخشيذ فرغانة وخاقان لمّا أتاهم كتاب غورك قالوا:

ـ «إنّ صاحب السغد بيننا وبين العرب، فإن وصلوا إليهم كنّا أضعف وأذلّ، فإنّا والله ما نُؤتى إلّا من سفلتنا وإنّهم لا يجدون كوجدنا، ونحن معشر الملوك المعنيّون بهذا الأمر.»

فانتخبوا أبناء الملوك وفتيانهم وقالوا لهم:

ـ «أخرجوا حتّى تأتوا على عسكر قتيبة، فإنّه مشغول بحصار السغد.»

وولّوا عليهم ابناً لخاقان. وبلغ قتيبة الخبر كما حكيناه من أمره، فانتخب من أهل النجدة والبأس، فكان منهم: شعبة بن ظهير، وزهير بن حيّان، وعدّة من أمثالهم، فقال لهم:

ـ «إنّ عدوّكم قد رأوا بلاء الله عندكم وتأييده إيّاكم، فأجمعوا على أن يحتالوا ويطلبوا غرّتكم وبياتكم، واختاروا دهاقينهم وملوكهم، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم وقد فضّلكم [الله][1] بدينه، فأبلوا الله بلاءاً حسناً تستوجبون به الثواب مع الذبّ عن أحسابكم.»

ووضع قتيبة [494] عيوناً على العدوّ، حتّى إذا قربوا منه قدر ما يصلون إلى عسكرهم من الليل، أخرج الذين انتخبهم، واستعمل عليهم صالح بن مسلم. فخرجوا من العسكر عند المغرب، فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم الذين وُصف لهم.

وفرّق صالح خيله، وأكمن كميناً عن يساره ويمينه، حتّى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه جاء العدوّ باجتماع وإسراع وصمت، وصالح واقف فى خيله. فلمّا رأوه شدّوا عليه حتّى إذا اختلف الرماح شدّ الكمينان عن يمين وشمال فلم ير قوم

---

١. ما بين [ ] تكملة من الطبرى (٨: ١٢٤٧).

كانوا أشدّ منهم.

فتحدّث شعبة قال: إنّا لنختلف عليهم بالضرب والطعن إذ تبيّنت قتيبة، فضربت ضربة أعجبتني وأنا أنظر إلى قتيبة فقلت:

ـ «كيف ترى بأبي أنت وأُمّي؟» فقال:

ـ «اسكتْ دقّ الله فاك.»

فقتلناهم، فلم يفلت منهم إلّا الشريد، وأقمنا نحوى[1] الأسلاب، ونحتزّ الرؤوس حتّى أصبحنا، ثمّ أقبلنا إلى العسكر. فلم أرَ قطّ جماعة جاؤوا بمثل ما جئنا به، ما منّا رجل إلّا معلّقاً رأساً معروفاً باسمه، وسلباً من جيّد السلاح [495] وكريم المتاع ومناطق الذهب ودوابّ فُرّه، وجئنا بالرؤوس إلى قتيبة، فقال:

ـ «جزاكم الله خيراً عن الدين والأحساب.»

ثم أكرمني من غير أن يكون باح لى بشيء، وقرن بى فى الصلة والإكرام حيّان العدوى وحُليساً الشيبانى. فظننت أنّه رأى منهما مثل الذي رأى منّي. وكسر ذلك أهل السغد وطلبوا الصلح وعرضوا الفدية، فأبى قتيبة وقال:

ـ «أنا ثائر بدم طرخون ـ يعني صاحبهم ـ كان مولاي، وفي ذمّتي.»

ووضع قتيبة عليهم المجانيق فرماهم وهو في ذلك لا يقلع عنهم، وناصحه من كان معه من أهل بخارى وأهل خوارزم، وبذلوا أنفسهم.

فأرسل إليهم غوزك:

ـ «إنّك إنّما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي من العجم فأخرجْ[2] إلى العرب.»

فغضب قتيبة ودعا الجدليّ وقال:

ـ «اعرض الناس وميّز أهل البأس.»

فجمعهم، ثمّ جلس قتيبة يعرضهم بنفسه، ودعا العرفاء، فجعل يدعو برجل

---

١. من قولهم: حوى يحوى.

٢. الضبط من الأصل.

رجل فيقول:

ـ «ما عندك؟» فيقول العريف:

ـ «شجاع.» ويقول:

ـ «ما هذا؟» فيقول:

ـ «محتضر[1].» ويقول:

ـ «ما هذا؟» فيقول:

ـ «جبان.»

فسمّى قتيبة الجبناء الأنتان[2]، وأخذ خيلهم وجيد سلاحهم [496] فأعطاه الشجعاء والمحتضرين[3]، فترك لهم رثّ السلاح، ثمّ زحف بهم فقاتل بهم فرساناً ورجالاً، ورمى المدينة بالمجانيق، فثلم فيها ثلمة فسدّوها بغرائر الدخن[4] وجاء رجل حتّى قام على الثلمة، فشتم قتيبة شتماً قبيحاً فضيحاً[5] بالعربيّة. وكان مع قتيبة قوم رماة، فقال لهم:

ـ «إختاروا منكم رجلين.»

فاختاروا، فقال:

ـ «أيّكما يرى هذا الرجل، فإن أصابه فله عشرة آلاف وإن أخطأ قطعت يده.»

فتلكّأ أحدهما وتقدّم الآخر، فلم يخطئ عينه. فأمر له بعشرة آلاف.

فتحدّث يحيى بن خالد بن ثابت مولى مسلم بن عمرو قال: كنت في رماة قتيبة، فلمّا فتحنا المدينة صعدت السور، فأتيت مقام ذلك الرجل الذي كان فيه،

---

١ محتضر كذا في الأصل وما في الطبري (٨: ١٢٤٤): محتصر.

٢ الأنتان: ما في الأصل غير واضح والمثبت من الطبري.

٣ المحتضرين كذا في الأصل. وما في الطبري المختصرين.

٤ الدخن: نبات عشبيّ من النجيليّات، حبّه صغير أملس كحبّ السمسم ينبت بريّاً ومزروعاً

٥ وعند الطبري (٨: ١٢٤٩) في نقل رواية: «فقال: فنادى ساد فصيح بالعربية، يشتم قتيبة.»

فوجدته ميّتاً على الحائط ما أخطأت النشّابة عينه حتّى خرجت من قفاه.

ثم أصبحوا من غد فرموا المدينة حتّى ثلموا فيها. وقال قتيبه:

ـ «ألحّوا عليها حتّى تعبروا الثلمة.»

فقاتلوهم، ورماهم السغد بالنشّاب، فوضعوا تِرَسَتَهم على أعينهم، ثمّ حملوا حتّى صاروا على الثلمة، وكانوا طلبوا الصلح، فقال قتيبة.

ـ «لا والله! [497] ما نصالحكم إلّا ورجالنا على الثلمة ومجانيقنا تخطر على مدينتكم.»

فصالحهم من غد على ألفي ألف ومائتي ألف[1] [٢،٢٠٠،٠٠٠] في كلّ عام، على أن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس[2] ليس فيه صبيّ ولا شيخ ولا ذو عيب، وعلى أن يخلوا المدينة لقتيبة، فلا يكون لهم فيها مقاتل، فيبني فيها مسجد فيدخل ويصلّي، ويوضع له فيها منبر، ويتغدّى ويخرج.

فلمّا تمّ الصلح بعث قتيبة بعشرة من كلّ خُمس[3] برجلين، فقبضوا ما صالحهم عليه، فقال قتيبة:

ـ «الآن ذلّوا حين صار أزواجهم وأولادهم في أيديكم.»

ثم أخلوا المدينة وبنوا مسجداً ووضعوا منبراً، فدخلها قتيبة في أربعة آلاف انتخبهم. فلمّا دخلها أتى المسجد، فصلّى وخطب، ثمّ تغدّى. وأرسل إلى أهل السغد:

ـ «من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذ، فإنّي لست خارجاً منها، وإنّما صنعت هذا لكم، ولست آخذ منكم أكثر مما صالحتكم عليه غير أنّ الجند يقيمون فيها.»

---

١. كذا في الأصل والطبري (٨: ١٢٤٥). وفي ابن الأثير: «... ومائتي ألف مثقال...»

٢. رأس: كذا في الأصل والطبري. وفي ابن الأثير: فارس.

٣. من كلّ خُمس: كذا في الأصل (بالضبط) وفي الطبري (٨: ١٢٤٥) أيضاً.

والباهليّون يقولون: صالحهم قتيبة على مائة ألف رأس[1] وبيوت النيران وحلية الأصنام. فقبض [498] ما صالحهم عليه، وأتي بالأصنام فسلبت ووضعت بين يديه وكانت كالقصر العظيم حين جمعت، فأمر بتحريقها.

فقالت الأعاجم:

ـ «إنّ فيها أصناماً من حرقها هلك.»

فقال قتيبة:

ـ «أنا أحرقها بيدي.»

فجاء غورك[2]، فجثا بين يديه وقال:

ـ «إنّ شكرك عليّ واجب، لا تعرّض لهذه الأصنام.»

فدعا قتيبة بالنار، فأخذ شعلة بيده، وخرج فكبّر، ثمّ أشعلها وأشعل الباب، فاضطرمت، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضّة خمسين ألف مثقال.

جارية رابعة ليزدجرد أصابها قتيبة

ومن مُلح الحديث وإن لم يكن من شرط هذا الكتاب، أنّ قتيبة أصاب بالسغد جارية رابعة من ولد يزدجرد[3]، فقال:

ـ «أترون ابن هذه يكون هجيناً؟» فقالوا:

ـ «نعم، يكون هجيناً من قبل أبيه.»

فبعث بها إلى الحجّاج، فبعث بها الحجّاج إلى الوليد، فولدت له يزيد بن الوليد

---

١ رأس كذا في الأصل والطبري (٨ ١٢٤٦) وفي مط. وابن الأثير (٤ ٥٧٣): مارس

٢ غورك كذا في الأصل ومط وما في الطبري (٨ ٧ ـ ١٢٤٦): غوزك. وفي ابن الأثير (٤، ٥٧٣): غورك.

٣ نجد الرواية عند الطبري أيضاً (٨ ـ ٧٠ ـ ١٢٤٦)

ما أوصى به قتيبة عبدالله بن مسلم

ولمّا فتح قتيبة سمرقند استخلف عليها عبدالله بن مسلم وخلّف عنده جنداً كثيفاً وآلة من آلات الحرب كثيرة، وقال:

ـ «لا تدعنّ مشركاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلّا [499] مختوم اليد. فإن جفّت الطينة قبل أن يخرج فاقتله، وإن وجدت معه حديدة أو سكّيناً فما سواه فاقتله. وإن أغلقت الباب ليلاً فوجدت فيها منهم فاقتله.

وقال قتيبة لمّا جمع بين فتح خوارزم وسمرقند:

ـ «هذا العداء لا عداء العيرين.»

لأنّه افتتح خوارزم وسمرقند في عام واحد، وذلك أنّ الفارس إذا صرع في طلق واحد عيرين، قيل: عادى بين عيرين.

فتوح أخرىٰ تمّت في هذه المدّة

وفي هذه المدة التى ذكرنا فيها أمور الحجّاج بالعراق وأخباره مع الخوارج وعبدالرحمان بن الأشعث وغزوات قتيبة والمهلّب قبله كانت غزوات لعبدالله بن عبدالملك أرض الروم، فتح فيها المصيصة وغيرها، وغزوات لمسلمة بن عبدالملك، ففتح فيها طوانة، وغيرها، وقسطنطنين، وغزالة، وحصن سورية، وعمّورية وهرقلة، وقمولية، وغزا أيضاً مسلمة بن عبدالملك في هذه المدة الترك حين بلغ الباب من ناحية أذربيجان.

وأغزى موسى بن نصير الأندلس، ففتحها، وفتح موسى بن نصير من بلاد الأندلس عدّة مدن، وقتل ملكها، وكان [500] رجلاً من أهل إصبهان، وكان ملوك الأندلس يلقّبون كما تلقّب الأكاسرة والقياصرة، فيقال لملكها: الأذرينوق[1].

١ أنظر ابن الأثير ٤ ٥٥٦

فقتله موسى بعد قتال شديد لم تكن فيها مكيدة، وكانت فيها غزوات العباس بن الوليد أرض الروم

وغزوات لمروان بن الوليد الروم، فتحوا لهم مدناً وحصوناً.

ولم يذكر في جميع ذلك ما يستفاد منه تجربة.

وقتل الحجّاج سعيد بن جبير في سنة خمس وسبعين.

ذكر كلام لسعيد بن جبير كان سبب قتله

قال: لمّا أُتي الحجّاج بسعيد بن جبير، قال:

ـ «لعن الله ابن النصرانيّة..»

يعني خالداً القسريّ وهو الذي كان أرسل به من مكّة.

ـ «.. أتراني ما كنت أعرف مكانه؟ بلي والله والبيت الذي هو فيه بمكّة.»

ثم أقبل على سعيد، فقال:

ـ «يا سعيد، ما أخرجك عليّ مع عدوّ الرحمان[1]؟» قال:

ـ «أصلح الله الأمير، إنّما أنا رجل من المسلمين يخطئ مرّة ويصيب مرّة.»

قال: فطابت نفس الحجّاج وتطلّق حتّى رجونا [501] أن يتخلّص منه.عاوده في شيء، فقال:

ـ «إنّما كانت له بيعة في عنقي.»

قال. فغضب الحجّاج وانتفخ حتّى سقط أحد طرفي ردائه عن منكبه، وقال:

ـ «يا سعيد، ألم أقدم مكّة فقتلت ابن الزبير، ثمّ أخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأميرالمؤمنين عبدالملك؟» قال:

ـ «بلى.» قال:

---

١ عدو الرحمان: كذا في الأصل. وما في مط: عيدى الرحمان.

ـ «ثم قدمت الكوفة والياً على العراق، فجدّدت لأميرالمؤمنين البيعة فأخذت بيعتك له ثانية؟» قال:

ـ «بلى.» قال:

ـ «فنكثت لأميرالمؤمنين بيعتين، ووفيت بواحدة لابن الحائك! يا حرسيّ اضرب[1] عنقه.»

ثم قام ليركب، فوضع رجله في الركاب، وقال:

ـ «لا والله، لا أركب حتّى تبوّأ مقعدك من النار.»

فضربت عنقه، فالتبس عقله مكانه، فجعل يقول:

ـ «قيودنا قيودنا!»

فظُنّ أنّه يريد القيود التى فى رجل سعيد بن جبير، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود. فكان إذا نام يراه فى منامه كأنّه يأخذ بمجامع ثوبه، فيقول:

ـ «ما لى ولابن جبير؟»

موت الحجّاج بن يوسف

وفى هذه السنة مات الحجّاج بن يوسف، وكان استخلف فى مرضه [502] على حرب العراقين والصلاة بأهلها يزيد بن كبشة، وعلى خراجها يزيد بن أبى مسلم، فأقرّهما الوليد بعد موت الحجّاج، وكذلك فعل بعمّال الحجّاج، أقرّهم على أعمالهم التى كانوا عليها فى حياته.

ودخلت سنة ستّ وتسعين

من سيرة الوليد بن عبدالملك

وفيها مات الوليد بن عبدالملك فى النصف من جمادى الآخرة منها، وكان

---

١. اضرب عنقه: كذا فى الأصل. وما فى مط: اضربا عنقه.

عند أهل الشام أفضل خلائفهم[1]، وذلك أنّه بنى مساجد منها مسجد دمشق ومسجد المدينة، ووضع المنار وأعطى المجذّمين وأفردهم، وقال:

ـ «لا تسألوا الناس!»

وأعطى كلّ مقعد خادماً وكلّ ضرير قائداً.

وفتحت في ولايته فتوح عظام. أمّا موسى بن نصير ففتح الأندلس، وبلغ قتيبة كاشغر، وهي أوّل مدائن الصين، وفتح محمد بن القاسم الهند.

وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع. فكان الناس في أيامه إذا التقوا فإنّما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والضياع

ثم ولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، وكان الناس [503] يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري.

فلمّا ولى عمر بن عبدالعزيز، كانوا يلتقون فيقولون:

ـ «ما وِردُك؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ وكم تصوم من الشهر؟»

وكان الوليد وسليمان وليّي عهد عبدالملك. فلمّا أفضى الأمر إلى الوليد أراد أن يبايع لابنه عبدالعزيز ويخلع سليمان. فأبى سليمان، فأراده[2] على أن يخلعه من بعده، فامتنع أيضاً، فعرض عليه أموالاً كثيرة، فأبى. فكتب إلى عمّاله بأن يبايعوا لعبدالعزيز، ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه أحد إلّا الحجّاج وقتيبة.

ذكر رأى لعبّاد بن زياد

فقال عبّاد بن زياد:

ـ «يا أميرالمؤمنين، إنّ الناس لا يجيبونك إلى هذا، ولو أجابوك لم آمنهم على الغدر بابنك، فاكتب إلى سليمان فليقدم عليك. فإن لك عليه طاعة، فأرده على

١ خلائفهم: في الأصل ومط: خلافتهم وهو تصحيف. والمثبت من الطبرى (٨: ١٢٧١).

٢ فأراده. كذا في الأصل ومط والطبرى (٨: ١٢٧٤).

البيعة لابنك عبدالعزيز من بعده، فإنّه لا يقدر على الامتناع وهو عندك، فإن أبي كان الناس عليه.» [504]

فكتب الوليد إلى سليمان يأمره بالمسير إليه، فأبطأ، واعتزم الوليد على المسير إليه وعلى أن يخلعه. فأمر الناس بالتأهّب وأخرجت مضاربه ومات قبل أن يسير.

فتح كاشغر وما دار بين مبعوثي قتيبة وملك الصين

وكان قتيبة قد غزا في هذه السنة مدينة كاشغر وهي أدنى مدائن الصين. فلمّا بلغ فرغانة أتاه موت الوليد، فوغل قتيبة حتّى قرب من الصين، فكتب إليه ملك الصين أن:

ـ «ابعث إليّ رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ونسأله عن دينكم.»

فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلاً من أفناء[1] القبائل لهم جمال وأجسام وألسن وبأس. وبعد أن سأل عنهم، فوجدهم بحيث أحبّ، فكلّمهم قتيبة وفاطنهم، فرأى عقولاً وجمالاً، فأمر لهم بعدّة حسنة من السلاح والمتاع والجيّد من الخزّ والوشي واللّيّن من الثياب والرقيق والبغال والعطر، وحملهم على خيول مطهّمة تقاد معهم، ودوابّ يركبونها، وقال لهم:

ـ «سيروا على بركة الله، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أنّي قد حلفت أن لا [505] أنصرف حتّى أطأ بلادهم و [أختم][2] ملوكهم وأجبي خراجهم.»

فساروا وعليهم هبيرة بن المُشَمْرَج[3]، فلمّا قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم. فدخلوا الحمّام، ثمّ خرجوا، فلبسو ثياباً بياضاً تحتها الغلائل. ثمّ مشوا

١ الأفناء: جمع مفرده الفنء: الجماعة من الناس. تقول: جاء فنء من الناس. والفنأ: الكثرة. تقول: مال ذو فنأ.

٢ وأختم: كذا في مط والطبري (٨: ١٢٧٧). وما في الأصل غير واضح.

٣ المُشَمْرَج: ضبطناه كما في الطبري. وهو غير مضبوط في الأصل ومط.

الغالية، ولبسوا النعال والأردية ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته، فجلسوا، فلم يكلّمهم الملك ولا أحد من جلسائه، فنهضوا فقال الملك لمن حضره:

ـ «كيف رأيتم هؤلاء؟» قالوا:

ـ «رأينا قوماً هم نساء، ما بقي منّا أحد حين رءاهم ورأى شعورهم ووجد رائحتهم إلّا انتشر ما عنده.»

قال: فلمّا كان الغد أرسل إليهم فلبسوا الوشى وعمائم الخزّ والمطارف وغدو عليه. فلمّا دخلوا إليه قيل لهم:

ـ «ارجعوا!»

ثم قال لأصحابه:

ـ «كيف رأيتم؟» قالوا:

ـ «هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك [الهيئة][1] الأولى وهم أولئك.»

فلمّا كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدّوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر، وتقلّدوا السيوف، وأخذوا الرماح، وتنكّبوا القسيّ [506] وركبوا خيولهم. فنظر إليهم صاحب الصين من منظرة له، فرأى أمثال الجبال مقبلة. فلمّا دنوا ركّزوا رماحهم، ثمّ أقبلوا مشمّرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا:

ـ «ارجعوا!»

فانصرفوا. فلمّا ركبوا خيولهم اختلجوا رماحهم ثمّ رفعوا خيولهم كأنّهم يتطاردون بها. فقال الملك لأصحابه:

ـ «كيف ترونهم؟» قالوا:

ـ «ما رأينا مثل هؤلاء قطّ.»

فلمّا أمسى أرسل إليهم أن ابعثوا إليّ زعيمكم وأفضلكم رجلاً.

---

١ سقط ما بين [ ] من الأصل. فأضفناه عن مط. كما أنّ الكلمة ليست في الطبري أيضاً (أنظر ٨: ١٢٧٨)

فبعثوا إليه هبيرة، فقال له حين دخل عليه:

ـ «قد رأيتم عظيم ملكي وأنّه ليس أحد يمنعكم منّي وأنتم في بلادي بمنزلة الخاتم في كفّي، وأنا سائلكم عن أمر، فإن لم تصدقوني[١] قتلتكم.» قال:

ـ «سل.» قال:

ـ «لِمَ صنعتم ما صنعتم من الزيّ[٢] في اليوم الأوّل والثاني والثالث؟» قال.

ـ «أمّا زيّنا في اليوم الأوّل فلباسنا في أهالينا، وأمّا يومنا الثاني، فإذا أتينا أمراءنا، وأمّا يومنا الثالث فزيّنا لعدوّنا، فإذا هاج هيج كنّا هكذا.» قال:

ـ «ما أحسن ما دبّرتم دهركم! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف [507] فإنّي قد عرفت حرصه وقلّة أصحابه وإلّا بعثت إليه من يهلكه ويهلككم معه.»

ذكر كلام لهبيرة
في جواب الملك صار سبباً لحمله الخراج وتهيّبه العرب

فأجابه هبيرة وقال:

ـ «كيف يكون قليل الأصحاب مَن أوّل خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون، وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا وراءه قادراً عليها وغزاك؟ وأمّا تخويفك إيّانا بالقتل فإنّ لنا آجالاً إذا حضرت فأسنا نكرهها ولا نخافها.»

فقال بعد أن أطرق:

ـ «فما الذي يرضي صاحبك؟» قال:

ـ «إنّه قد حلف ألّا ينصرف حتّى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويُعطى

١. في الأصل ومط والطبري: لم تصدقني (بصيغة المفرد) وفي بعض الأصول عن حواشي الطبري: لم تصدقوني، وهو أنسب.

٢. الزي: كذا في الأصل والطبري، وهو الصحيح. وما في مط: الذي!

الجزية.»

قال:

ـ «فإنّا نخرجه من يمينه: نبعث إليه بتراب أرضنا فيطأه، ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها.»

قال: فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم. ثمّ أجازهم فأحسن جوائزهم، فساروا فقدموا بما بعثوا به.»

فقبل الجزية وختم الغلمة وردّهم ووطئ التراب فقال فى ذلك سوادة بن عبدالله السلولى:

لا عيبَ فى الوفد الذين بعثتهم ... للصين لو سلكوا طريق المنهج [508]

كسروا الجفون على البذى[1] خوف الرّدى ... حاشا الكريم هبيرة بن مُشَمْرَج

لم يرضَ غيرَ الختمِ فى أعناقهم ... ورهائنٍ دُفعت لحمل سَمَرَّج

أدّى رسالتكَ التى استرعيتهُ ... وأتاكَ من حِنْثِ اليمين بمَخْرَج

قال: فأوفد قتيبة هبيرة إلى الوليد، فمات بقرية من فارس.

من سيرة قتيبة

وكان من سيرة قتيبة إذا بعث طلائع الفرسان أو غيرهم أن يأمر بلوح منقوش فيشقّ شقّتين. فيعطيهم شقّة ويحتبس شقّة ويأمرهم أن يدفنوها فى موضع يصفه من مخاضة معروفة، أو تحت شجرة معلومة، ثمّ يبعث بعده من يستخرجها ليعلم أصادق طليعته أم لا.

---

١. البذى، كذ فى الأصل ومط وما فى الطبرى (٨ ١٢٧٩): القذى. وفى حواشيه عن بعض الأصول: العذى

خلافة سليمان بن عبدالملك بن مروان

وفى هذه السنة بويع سليمان بن عبدالملك وخالف قتيبة بخراسان وتأدّى أمره إلى أن قتل.

ذكر السبب فى ذلك

كان سبب ذلك ما حكيناه من إجابة قتيبة الوليد إلى خلع سليمان

فلمّا مات الوليد وبويع سليمان خافه قتيبة، وأشفق أن يولّى سليمان يزيد بن المهلّب خراسان [509] لمودّة كانت بين يزيد بن المهلّب وبين سليمان.

فكتب قتيبة كتاباً إلى سليمان يهنّئه بالخلافة ويعزّيه عن الوليد ويُعلمه بلاءه[1] وطاعته لعبدالملك والوليد وأنّه على مثل ذلك له من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان، ثمّ كتب كتاباً آخر يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته فى صدورهم وبعد صوته فيهم، ويذمّ المهلّب وآل المهلّب، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنّه.

ثم كتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه.

وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة وقال:

---

١ بلاءه كذا فى الأصل والطبرى (٨ ١٢٨٤)، وما فى مط: بلاده، وهو خطأ.

ـ «ادفع هذا الكتاب، فإن كان يزيد بن المهلّب حاضراً فقرأه ثمّ ألقاه إليه فادفع إليه هذا الكتاب، فإن قرأه وألقاه إليه فادفع إليه هذا الكتاب الثالث. وإن قرأ الأوّل ولم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين.»

فقدم رسول قتيبة ودخل على سليمان وعنده يزيد بن المهلّب، فدفع الكتاب الأوّل، فقرأه، ثمّ ألقاه إلى يزيد، ثمّ دفع إليه الكتاب الثاني [510] فقرأه ثمّ رمى به إلى يزيد، ثمّ أعطاه الكتاب الثالث فتمعّر[١] لونه ثمّ دعا بطين فختمه. ثمّ أمسكه [بيده][٢]. ثمّ أمر رسول قتيبة أن ينزل. فحوّل إلى دار الضيافة. فلمّا أمسى دعا به سليمان، فأعطاه صرّة فيها دنانير، فقال:

ـ «هذه جائزتك وهذا عهد صاحبك على خراسان، فسر، وهذا رسولي معك بعهده.»

فخرج الباهليّ و [معه][٣] رسول سليمان. فلمّا كانا بحلوان تلقّاهما الناس بخلع قتيبة واضطراب الأمر. فدفع الرسول العهد إلى رسول قتيبة وانصرف هو.

ذكر عجلة قتيبة بالخلع وما دبّره من أمره

فأمّا قتيبة فإنّه لمّا همّ بالخلع استشار إخوته، فقال عبدالرحمان:

ـ «اقطع بعثاً، فوجّه فيه كلّ من تخافه، ووجّه قوماً إلى مرو وسر[٤] حتّى تنزل سمرقند، ثمّ قل لمن معك: من أحبّ المقام فله المواساة، ومن أراد الإنصراف فغير مستكره ولا متبوع بسوء، فإنّه لا يقيم معك إلّا ناصح.»

---

١. فتمعّر: كذا في الأصل والطبري ٨ ١٢٨٥ وفي حواشي الطبري عن الأصول: تمعّر. وفي مط: تمعّر تمعّر لونه أو وجهه: تغيّر وعلته صفرة: تمغّر: أصبح مغرة. والمغرة: الطين الأحمر يصبغ به.

٢. ما بين [ ] غير مقروء في الأصل، فأخذناه من مط.

٣. ما بين [ ] غير مقروء في الأصل ومأخوذ من مط.

٤. في الأصل ومط: «إلى مرو وسرخس حتّى تنزل» من دون «سر». وفي الطبري: «إلى مرو وسر حتّى تنزل» فرأينا الصواب ما في الطبري لسياق العبارة. وخلط النسّاخ بين «سر» و «حتّى».

وقال أخوه عبدالله:

ـ «اخلعه مكانك، وادعُ الناس إلى خلعه، فليس يختلف عليك رجلان.»

فأخذ برأى عبدالله [511] فخلع سليمان ودعا الناس إلى خلعه، وخطب:

ـ «أيها الناس، إنّي قد جمعتكم من عين التمر وفيض البحر، فضممت الأخ إلى أخيه والولد إلى أبيه، وقسمت بينكم فيئكم، وأجريت عليكم أعطياتكم غير مكدّرة ولا مؤخّرة، وقد جرّبتم الولاة [قبلى،][1] أتاكم أميّة، فكتب إلى أميرالمؤمنين أنّ خراج خراسان لا يقيم مطبخى، ثمّ جاءكم أبو سعيد[2]، فدوّم[3] ثلاث سنين ولا تدرون: أفى طاعة أنتم أم فى معصية، لم يُجْبِ فيئاً، ولا نكا عدوّاً. ثمّ جاءكم بنوه بعده. فحل تنازى[4] إليه النساء، وإنّما خليفتكم يزيد بن ثروان هبنّقة القيسى، فلم يجبه أحد.»

فغضب وقال:

ـ «.. لا أعزّ الله من نصرتم، والله لو اجتمعتم على عير ما كسرتم قرنه يا أهل السافلة ـ ولا أقول العالية ـ يا أوباش الصدقة، جمعتكم كما تجمع إبل الصدقة من كلّ أوب، يا معشر بكر بن وائل، يا أهل النفخ والكذب والبخل! بأىّ يوميكم تفخرون: بيوم حربكم، أم يوم سلمكم؟ يا أصحاب مسيلمة، يا بنى ذميم ـ ولا أقول: تميم ـ يا أهل الخور والقصف والغدر، كنتم تسمّون الغدر [512] فى الجاهليّة كيساً[5]، يا معشر عبدالقيس القساة، تبدّلتم من أبر النخل أعنّة الخيل، يا

---

١ ما بين [ ] غير مقروء فى الأصل، فزدناه من مط، كما يوافق الطبرى.

٢. كتب فى حاشيه الأصل «يعنى المهلّب.»

٣ مدوّم ثلاث سنين، كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٨ـ ١٢٨٧): فدوّم بكم ثلاث سنين (بزيادة «بكم»)

٤ تنازى إليه النساء، كذا فى الأصل. وفى مط. ينادى إليه النساء. وما فى الطبرى: تبارى إليه النساء.

٥ فى الأصل والطبرى: كيسان. وما فى مط: كيس.

معشر الأزد تبدّلتم من [قلوس][1] السفن أعنّة الحصن. الأعراب، وما الأعراب! يا كناسة المصرين، جمعتكم من منابت الشيح[2] والقيصوم ومنابت الفلفل، تركبون البقر والحمر فى جزيرة بنى كاوان[3]، حتّى إذا جمعتكم كما يجمع قزع[4] الخريف، قلتم كيت وكيت. أما والله، لأعصبنّكم عصب السلمة[5]. يا أهل خراسان! هل تدرون من واليكم؟ يزيد بن ثروان. كأنّى بأمير قد جاءكم، من جاء وحكم فغلبكم على فيئكم وظلالكم. إنّ هاهنا ناراً ارموها أرم معكم، إرموا غرضكم الأقصى. قد استخلف عليكم أبو نافع ذو الودعات. الشام أب مبرور، والعراق أب مكفور، حتّى متى يشطح أهل الشام بأفنيتكم وظلال دياركم. يا أهل خراسان! انسبونى تجدونى عراقىّ الأب، عراقىّ الأمّ، عراقىّ المولد، عراقىّ الهوى والرأى والدين، وقد أصبحتم اليوم فى ما ترون من الأمن والعافية وقد فتح الله لكم البلاد، وآمن سبيلكم، فالظعينة تخرج [513] من مرو إلى بلخ بغير جواز، فاحمدوا الله على النعمة، وسلوه المزيد.»

ثم نزل.

فأتاه أهل بيته، فقالوا:

ـ «ما رأينا كاليوم قطّ، والله، ما اقتصرت على العالية وهم شعارك ودثارك،

---

١. أخذنا ما بين [ ] من الطبرى وهو ساقط من الأصل ومط.

٢. الشيح والقصوم والفلفل: الشيح: نبت سهلى رائحته طيبة قوية ترعاه المواشيه والقيصوم نبات طيب الرائحة يتداوى به. والفلفل: معروف. ولكن فى الأصل ومط: القلفل ولم ننته الى معنى به وفى الطبرى: الفلفل كما أثبتناه.

٣. جزيرة بنى كاوان ويقال: جزيرة كاوان: جزيرة عظيمة يقال لها جزيرة «لافت» وهى فى بحر فارس بين عمان والبحرين، كان بها قرى ومزارع وهى الآن خراب (مراصد الاطلاع).

٤. قزع: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى: قزع. القزع: والواحدة القزعة قطع من السحاب صغار والقرع معروف.

٥. السلمة: واحدة السلم. والسلم: جنس شجر أو نبات شائك من فصيلة القطانيات ينمو فى البلدان الحارّة

حتّى تناولت بكراً وهم أعضادك وأنصارك، ثمّ لم ترض بذلك حتّى تناولت تميماً وهم إخوتك، ثمّ لم ترض حتّى تناولت الأزد وهم يدك.»

فقال:

ـ «ويحكم! إنّي لمّا تكلّمت فلم يجيبوا غضبت، فلم أدر ما قلت. أمّا أهل العالية فكإبل الصدقة وقد جمعت من كلّ أوب، وأمّا بكر فإنّها أمة لا تمنع يد لامس، وأمّا تميم فجمل أجرب، وأمّا عبدالقيس فما تضرب[1] العير بذنبه، وأمّا الأزد فأعلاج أشرار لو وسمتُهم لما أنستُ.»

فغضب الناس من شتم قتيبة، فأجمعوا على خلافه، وكرهوا أيضاً خلع سليمان. فكان أوّل من تكلّم في ذلك الأزد. فأتوا حصين بن المنذر، فأبى أن يقبل رئاستهم فأرادوا أن يولّوا عبدالله بن ذودان الجهضمي، فأبى وتدافعوها، فرجعوا إلى حصين وقالوا:

ـ «قد تدافعنا الرئاسة، فنحن نولّيك أمرنا وربيعة [514] تخالفك.» قال:

ـ «لا ناقة لي في هذا ولا جمل.» قالوا:

ـ «فما ترى؟» قال:

ـ «إن جعلتم هذه الرئاسة في تميم تمّ أمركم.» قالوا:

ـ «فمن ترى من تميم؟» قال:

ـ «ما أرى أحداً غير وكيع.»

فقال حيّان النبطيّ وكان حاضراً:

ـ «إنّ أحداً لا يتقلّد هذا الأمر ثمّ يصلى بحرّه ويبذل دمه ويتعرّض للقتل، فإن قدم أمير أخذه بما جنى وكان المهنأ لغيره إلّا هذا الأعرابي ـ يعني وكيعاً ـ فإنّه معدام لا يبالي ما ركب ولا ينظر في عاقبة، وله عشيرة كثيرة تطيعه[2]، وهو

١ فما تضرب: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٨: ١٢٨٩): فما يضرب.
٢ تطيعه كذا في الأصل والطبري. وما في مط قطيعة، وهو خطأ.

موتور يطلب قتيبة برئاسته التي صرفها عنه وصيّرها لضرار بن حصين بن زيد الفوارس الضبيّ.»

فمشى الناس بعضهم إلى بعض سرّاً، وقيل لقتيبة:

ـ «ليس يفسد أمر الناس إلّا حيّان.»

فأراد أن يغتاله. وكان حيّان كثير الملاطفة لحشم الولاة، فلا يخفون عنه شيئاً. فدعا قتيبة رجلاً وأمره بقتل حيّان وسمعه بعض الخدم. فأتى حيّان فأخبره. فأرسل إليه يدعوه، فحذر وتمارض وأتى الناس وكيعاً فسألوه أن يقوم بأمرهم، فقال:

ـ «نعم.» وتمثّل:

سأجنى ما جنيتُ وإنَّ أمرى لَمُعتمِدٌ على نَهْدٍ ركينِ [515]

وبخراسان يومئذٍ من المقاتلة من جميع القبائل نحو من خمسين ألفاً ومن الموالى سبعة آلاف، وكان الذى يلى أمر الموالى حيّان. ويقال: إنه ديلميّ، وقيل: بل هو من خراسان، وإنّما قيل له نبطيّ للكنته[1].

فأرسل حيّان إلى وكيع:

ـ «أرأيت إن كففت عنك وأعنتك، أتجعل لى جانب نهر بلخ خراجه مادمت والياً؟» قال:

ـ «نعم.» فقال للعجم:

ـ «هؤلاء يقاتلون على غير دين، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً.» قالوا:

ـ «نعم.»

---

١. لكنته: كذا في الطبري (٨: ١٢٩١) وما في الأصل ومط: للكنيه. وليس له معنى

فبايعوا وكيعاً سرّاً. فأتى ضرار بن حصين قتيبة، فقال له:

ـ «إنّ الناس يختلفون إلى وكيع ويبايعونه.»

فكان وكيع يأتي منزل عبدالله بن مسلم الفقير أخي قتيبة فيشرب عنده، فقال عبدالله:

ـ «هذا يحسدُ وكيعاً والحديث باطل. وكيع في بيتي يشرب ويسكر ويسلح[1] في ثيابه وهذا يزعم أنّهم يبايعونه.»

وجاء وكيع إلى قتيبة، فقال:

ـ «إحذر ضراراً، فإنّي لا آمنه عليك.»

فأنزل قتيبة ذاك على الحسد الذي بينهما. وتمارض وكيع، فدسّ قتيبة ضرار بن سنان الضبّي إلى وكيع، فبايعه سرّاً، فتبيّن لقتيبة أمره، فدعا ضراراً وقال له:

ـ «كنت صدقتني.» قال:

ـ «لم أخبرك إلّا بعلم، فأنزلت [516] ذلك منّي على الحسد.» قال:

ـ «صدقت.»

فأرسل قتيبة إلى وكيع يدعوه فوجده الرسول قد طلى على رجليه مغرة[2] وعلّق عليها خرزاً وعنده من يرقيه[3]. فقال له:

ـ «أجب الأمير.» قال:

ـ «قد ترى ما برجلي.»

فرجع الرسول إلى قتيبة، فأعاده إليه وقال:

---

١ يسلح (بالحاء المهملة) كذا في الأصل والطبري. سلح (يسلحُ سَلحاً) تغوّط وهو خاصّ بالطير والبهائم. واستعماله للانسان من باب التساهل على التشبيه وفي مط يسلج (بالجيم المعجمة). سلج (يسلج سلوجاً) الإبل: استطلقت بطونها من أكل السلج وهو نبات ترعاه الإبل. سلج اللّقمة: بلعها.

٢. المَغْرة والمَغَرة: طين أحمر يُصبغ به، وحمرته ليست ناصعة. أو شُقرة بكدرة.

٣ يرقيه: من قولهم رقى المريض: عوّذه. ويقال: بإسم الله أرقيك، والله يشفيك.

ـ «ايتني به محمولاً على سرير.» قال:

ـ «لا أستطيع.»

فقال قتيبة لشريك بن الصامت، وكان على شرطته، ورجل آخر من غنيّ[١]:

ـ «انطلقا إلى وكيع فأتيا به، فإن أبى فاضربا عنقه.»

ووجّه معهما خيلاً فقال هريم بن طخفة[٢]:

ـ «أنا آتيك به أصلحك الله.» قال:

ـ «فانطلق.»

قال هريم: فركبت برذوني وركضت مخافة أن يردّني، فأتيت وكيعاً وقد سبق إليه الخبر والخيل يأتيه.

فخرج وخرج معه هُريم وهو على يمينه. ونادى وكيع في الناس، فأقبلوا أرسالاً من كلّ وجه، وأقبل في الناس وهو يقول:

قَرمٌ إذا حُمِّل مكروهةً شدّ الشراسيفَ لها والحزيم

وأمر قتيبة رجلاً فقال:

ـ «نادِ في الناس: أين بنو عامر؟» فنادى:

ـ «أين بنو عامر؟» [517] فقال له مجفر[٣] بن جزء الكلابيّ:

ـ «وقد كان جفاؤهم حيث وضعتهم.» قال:

ـ «ناد: أذكّركم الله والرحم.»

قال مجفر:

١ حر من غنيّ كذا في الأصل والطبري (٨: ١٢٩٢) وما في مط: ولعلّه «من غنيّ»

٢ هريم بن أبي طحفه كذا في الأصل ومط. وفي الطبري: هريم بن أبي طحمة

٣ مجفر بن جزء كذا في الأصل ومط وفي الطبري (٨: ١٢٩٤): محفن بن جزء.

ـ «أنت قطعتها.» قال:

ـ «نادِ لكم العتبى.»

فناداه مجفر وغيره:

ـ «لا أقالنا الله إذاً.»

فدعا قتيبة ببرذون له مدرّب كان يلحأ إليه في الزحوف[1]، فقُرّب إليه، فجمل يقمص حتّى أعياه. فلمّا رأى ذلك عاد إلى سريره وقال:

ـ «دعوه، هذا أمر يراد.»

وجاء حيّان النبطي في العجم، فوقف وقتيبة واجد عليه، فوقف معه عبدالله مسلم، وقال لحيّان:

ـ «احمل على أحد هذين الطرفين.» قال:

ـ «لم يأن لي ذلك.»

فغضب عبدالله وقال:

ـ «ناولني قوسي.» فقال:

ـ «ليس هذا يوم قوس.»

وأرسل وكيل إلى حيّان:

ـ «أين ما وعدتني؟»

فقال حيّان لابنه:

ـ «إذا رأيتني قد حوّلت قلنسوتي ومضيت، فمل بمن معك من العجم إليّ.»

ففعل، ومالت[2] الأعاجم إلى عسكر وكيع، فكبّر أصحابه. وبعث قتيبة أخاه صالحاً إلى الناس، فرمى بسهم فأصاب هامته، فحمل إلى قتيبة مائل الرأس،

١ الزحوف. كذ في الأصل والطبري (٨: ١٢٩٤). وفي مط: الزحوب! والعبارة في الطبري: «وكان يتطير إليه في الزحوف.» بدل: «وكان يلجأ إليه في الزحوف.»

٢ ومالت الأعاجم. كذا في الأصل والطبري (٨: ١٢٩٥). وما في مط: سالت الأعاجم

وتهايج الناس، وأقبل عبدالرحمان بن مسلم نحوهم، فرماه أهل السوق [518] والغوغاء فقتلوه، ودنوا من قتيبة، فدعا بدابّة فأُتي به، فلم يقرّ ليركبه، فقال.

ـ «إنّ له لشأناً.»

ورجع فجلس، وجاء الناس حتّى بلغوا فسطاطه، فخرج عنه من كان حوله فقتل وقُتل معه من بني مسلم[1] أحد عشر رجلاً سبعة منهم لصلب مسلم، وأربعة من بني أبنائهم، فصلبهم وكيع، وهم: قتيبة، وعبدالرحمان وعبيدالله، وعبدالله الفقير، وصالح، ويسار[2]، ومحمد بنو مسلم، وكثير بن قتيبة، ومفلّس بن عبدالرحمان، ورجلان آخران، ولم ينج من صلب مسلم غير عمرو، وكان عامل الجوزجان، وضرار أخوه استنقذ أخواله، وكانت أمّه الغرّاء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة، وسقطت على قتيبة يوم قتل جارية له خوارزميّة، فوضعت بعد ليزيد بن المهلّب، فأخذها، فهي أمّ خليدة.

ولمّا قتل قتيبة صعد وكيع المنابر، فعلم منه أنّه يأتي بآبدة[3] وهَوَجة[4]، فصعد معه عمارة بن حنّية[5]، فتكلّم فأكثر، فقال وكيع:

ـ «دعنا من هذرك وقذرك.»

وتكلّم وكيع فقال:

ـ «مثلي ومثل قتيبة، ما قال الأوّل:

---

١ مسلم. كذا في الأصل والطبرى ٨: ١٢٩٦ وما في مط سليم وهو خطأ

٢ يسّار كذا في الأصل ومط. وما في الطبرى: بشّار.

٣. الآبدة: الأمر العجيب يستغرب له. أوابد الكلام: غرائبه وعجائبه.

٤. الهَوَج: الحمق والطيش والشجاعة.

٥. حنّية: كذا في الأصل. وفي مط حبيبة. وما في الطبرى (٨: ١٢٩٨): جنّية

مَن يَنِكِ العَيرَ يَنِكْ نَيّاكاً [519]

مِن أيِّ يوميك من الموت تفرّ   أيومَ لم يُقدَرْ، أم يومَ قُدِر

«.. أراد قتيبة أن يقتلني وأنا قتّال، والله لأقتلنّ ثمّ لأقتلنّ، ثمّ لأصلبنّ. إنّي لوالغ دماءً، إلاّ أنّ مرزبانكم هذا ابن الزانية قد أغلى أسعاركم، والله ليصيرنّ القفيز في السوق غداً بأربعة، أو لأصلبنّه. صلّوا على نبيّكم صلّى الله عليه.»

ثم نزل.

وطلب وكيع رأس قتيبة وخاتمه، فقيل له:

ـ «إنّ الأزد أخذته.»

فخرج وكيع وهو يقول:

ـ «دُهدُرَّين سعد القين![1] والله الذي لا إله غيره لا أبرح حتّى أُوتىَ بالرأس، أو يذهب برأسي معه.»

ودعا بخشب، فقال:

ـ «إنّ هذه الخيل لابدّ لها من فرسان يهدّد بالصلب.»

فقال له حصين:

ـ «يا أبا مطرّف، تؤتىَ به فاسكن.»

وذهب حصين إلى الأزد، وهو سيّدهم فقال:

ـ «أحمقىٰ أنتم؟ بايعناه وأعطيناه المقادة وعرّض نفسه، ثمّ تأخذون الرأس! أخرجوه، لعنه الله من رأس!»

١. دُهدرَّين سعد القين. كذا في الأصل. والضبط في الطبري «دُهْ دُرَّين سعد القين». قال في متن اللغة: دُهدُرَّين (= دُهدرّية). الرجل الكذوب. وقولهم دُهدرّين سعد القين. مثل ومعناه: بَطَلَ سعد القين، لأنّ دُهدرّين اسم فعل لبَطَلَ. والقين: الحدّاد والصانع. أي بطل الحدّاد لتشاغل الناس عنه بما هم فيه من الشدّة والقحط. (نقل بالتلخيص)

فجاؤوهُ به، فوهب لمن جاء به ثلاثة آلاف درهم. وبعث بالرأس مع رجال من القبائل وعليهم [520] سليط، ولم يبعث من بني تميم أحداً.

ووفّى لحيّان النبطي بما كان وعده به.

فقال رجل من عجم خراسان:

ـ «يا معشر العرب! قتلتم قتيبة، والله لو كان منّا ثمّ مات فينا لجعلناه شهيداً وحفظنا تابوته إلى الحشر نستفتح به إذا غزونا.»

وقال الإصبهبذ يوماً لرجل:

ـ «يا معشر العرب! قتلتم قتيبة ويزيد وهما سيّدا العرب.» قال:

ـ «نعم، فأيّهما كان أهيب في صدوركم وأعظم قدراً عندكم؟»

فقال له الإصبهبذ:

ـ «لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى جُحر به مكبّلاً بالحديد ويزيد معنا في بلادنا والٍ علينا، لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد.»

ورثى الشعراء قتيبة، فأكثروا.

وولّى سليمان يزيد بن المهلّب العراق مكان الحجّاج حربها وخراجها وصلاتها.

ذكر رأي رءاه يزيد لنفسه عاد مكروهاً عليه

فكّر يزيد في نفسه فقال:

ـ «إنّ العراق قد أخربها الحجّاج، وأنا اليوم رجاء أهل العراق، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذّبتهم عليه صرت [520][1] مثل الحجّاج وأعيد عليهم مثل تلك السجون التي قد عافاهم الله منه أو متى لم آت سليمان بمثل

---

١ رقم الصفحة مكرّر في مصوّرة الأصل، فكرّرناه نحن أيضاً، حرصاً على بقاء الأرقام في الصفحات الآتية كما هي، لتفادي الخلط عند المراجعة.

ما جاء به الحجّاج لم يقبل منّي.»

فأتى يزيد سليمان وقال له:

ـ «أدلّك على رجل بصير بالخراج تولّيه إيّاه فتكون أنت الذي تأخذه بـه؟» قال:

ـ «نعم.»

قال صالح بن عبدالرحمان: قال:

ـ «قد قبلنا رأيك.»

وولّاه. فأقبل يزيد إلى العراق وتقدّم صالح فنزل واسطاً. فلمّا قدم يزيد خرج الناس يتلقّونه. وقيل لصالح:

ـ «هذا يزيد وقد خرج الناس يتلقّونه.»

فلم يخرج حتّى قرب يزيد من المدينة، فخرج صالح عليه درّاعة وبين يديه أربعمائة من أهل الشام، فلقى يزيد فسايره، فلمّا دخل المدينة، قال له صالح:

ـ «قد فرّغت لك هذه الدار.»

وأشار إلى دار. فنزلها يزيد واحتمل ذلك، ثمّ ضيّق صالح على يزيد فلم يملكه شيئاً.

واتخذ يزيد ألف خوان يطعم الناس عليها، فأخذها صالح. فقال له يزيد:

ـ «أكتب عليّ ثمنها.»

واشترى متاعاً كثيراً وصكّ صكاكاً إلى صالح لباعتها فلم يُنفذ. فرجعوا إلى يزيد، فغضب وقال:

ـ «هذا عملي بنفسي.»

فلم يلبث [أن جاء][1] صالح، فأوسع له يزيد، فجلس وقال ليزيد.

---

١ فلم يلبث [أن جاء] صالح سقط ما بين [ ] من الأصل، فنقلناه من مط

ـ «ما هذه [521] الصكاك التي لا يقوم لها الخراج. قد أنفذت لك منذ أيّام صكاً بمائة ألف (١٠٠،٠٠٠) درهم وعجّلت لك أرزاقك، ثمّ سألت مالاً للجند، فأعطيتك، فهذا لا يقوم له شيء ولا يرضى به أميرالمؤمنين وتؤخذ به.»

فقال له يزيد:

ـ «يا با الوليد، أجز هذه الصكاك هذه المرّة.» قال.

ـ «فإنّي أجيزها، فلا تكثرنّ عليّ.» قال:

ـ «لا.»

وضجر يزيد بصالح[1]، فكان لا يصل معه إلى شيء. فدعا عبدالله بن الأهتم، فقال له:

ـ «إنّي أريدك لأمر قد أهمّني فأحبّ أن تكفينيه ولك مائة ألف.» قال:

ـ «مرني بما شئت.» قال:

ـ «أنا في ما ترى من الضيق، قد أضجرني ذلك، وبلغني أنّ أميرالمؤمنين ذكر خراسان لعبدالملك أخي، فاخرج واحتلْ حتّى يسمّيها لي.» قال:

ـ «أفعل، سرّحني إلى أميرالمؤمنين في بعض الأمور فإنّي أرجو أن آتيك بعهدك عليها.»

ما احتال به الأهتم حتّى قُلّد يزيد خراسان

فكتب معه يزيد كتابين إلى سليمان وذكر في أحدهما أمر العراق وأثنى فيه على ابن الأهتم وعلمه بها. ثمّ وجّهه على البريد وأعطاه ثلاثين ألفاً، فسار سبعاً. [522] ثمّ قدم على سليمان فباسطه سليمان وحادثه وقال له:

ـ «إنّ يزيد بن المهلّب كتب إليّ يذكّر علمك بالعراق وبخراسان، فكيف علمك

---

١ والعبارة في الطبري (٩: ١٣٠٨): «... فبلغ الخبر يزيد بن المهلّب وقد ضجر بالعراق وقد ضيّق عليه صالح بن عبدالرحمان، فليس يصل معه إلى شيء...»

بها[١]؟» قال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، بها ولدت وبها نشأت، فلي بها خبر وعلم.» قال:

ـ «ما أحوج أميرالمؤمنين إلى مثلك، فأخبرني عن خراسان.» قال:

ـ «أميرالمؤمنين أعلم بمن يريد أن يولّي، فإن ذكر أحداً أخبرته برأيي فيه: هل يصلح أم لا.»

فسمّى سليمان رجلاً من قريش. فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، ليس من رجال خراسان.» قال:

ـ «فعبدالملك بن المهلّب.» قال:

ـ «ولا هو.»

حتّى عدّد رجالاً كان في آخرهم وكيع بن أبي سود. فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، ما أحد أوجب شكراً ولا أعظم عندي يداً من وكيع. لقد أدرك بثأري وشفاني من عدوّي، ولكنّ أميرالمؤمنين أعظم حقّاً عليّ وإنّ النصيحة تلزمني له. إنّ وكيعاً لم يجتمع له قطّ ثلاثمائة عنان إلّا حدّث نفسه بغدرة. خامل[٢] في الجماعة نابه[٣] في الفتنة.» قال:

ـ «صدقت. ويحك! فمن لها؟» قال:

ـ «رجل أعلمه لم يسمّه أميرالمؤمنين.» قال:

ـ «فمن هو؟» قال:

ـ «لا أبوح به إلى أن يضمن أميرالمؤمنين ستر ذلك عليّ وأن يجيرني[٤] منه إن

---

١ فكيف عنسك بها كذا في الأصل. وما في مط: وكيف علمك. (من دون «بها»)

٢ خامس كذا في الأصل والطبري (٩: ١٣٦١). وما في مط: خامل.

٣ نابه الكلمة مطموسة في الأصل، فأثبتناها كما في مط والطبري.

٤ أن يجيرني. ما في الأصل مطموس. وما في مط والطبري (٩: ١٣٦٠). يوافق ما أثبتناه كما يؤيده ما في الأسطر الآتية في الأصل: «استجرت».

علم » قال:

ـ «نعم، سمّه لي من هو؟» قال:

ـ «يزيد بن المهلّب.» [523] قال:

ـ «ويحك! ذاك بالعراق، والمقام بها أحبّ إليه من المقام بخراسان.» قال:

ـ «قد علمت يا أميرالمؤمنين، ولذلك استجرت[1] بك. ولكن تُكرهه على ذلك، فتستخلف على العراق، ويسير هو.» قال:

ـ «أصبت.»

فكتب عهده على خراسان، وأنفذه إليه على يد ابن الأهتم. فقدم به على يزيد، فدعا يزيد ابنه مخلداً، فقدّمه إلى خراسان، فسار من يومه، ثمّ سار يزيد، واستخلف على واسط الجرّاح بن عبدالله الحكمي، وعلى البصرة عبدالله بن هلال الكوفي، وصيّر مروان بن المهلّب على أمواله وأموره بالبصرة، وكان أوثق إخوته عنده، وعلى الكوفة بشير بن حسّان الهدى. ولمّا قرب مَخلد من مرو تلقّاه الناس، فتثاقل وكيع، وكان مَخلد قدّم عمرو بن عبدالله بن سنان المتكى حين دنا من مرو. فأرسل عمرو بن عبدالله إلى وكيع:

ـ «انطلق إلى أميرك فتلقّه[2] ولا تكن أعرابيّاً أحمق جافياً.»

وأخرجه على كره. فلمّا بلغ الناس إلى مخلد ترجّلوا له غير وكيع ومحمد بن حُمران وعبّاد بن لقيط. فجاءهم قوم، فأنزلوهم.

ولمّا قدم مخلد مرو حبس وكيعاً، فعذّبه وأصحابه قبل [524] قدوم أبيه.

فتحدّث إدريس بن حنظلة قال: لمّا قدم مخلد مرو حبسني، فجاءني ابن الأهتم، فقال لي:

١ استجرت: كذا في الأصل. وما في مط: استحرت (بالحاء المهملة) وهو خطأ (أنظر التعليقة السابقة).
٢ فتلقّه ولا تكن: كذا في الأصل. وما في مط: فيلقه ولا يكن. تجد الرواية عند الطبري أيضاً ولكن بسياق مختلف (أنظر ٩: ١٣١٢).

ـ «أتريد أن تنحو؟» قلت:

ـ «نعم.» قال.

ـ «أخرج الكتب التى كتبها القعقاع بن خُليد العبسى وحُـريم[1] بن عمرو المُرّى إلى قتيبة فى خلع سليمان.» فقلت له:

ـ «يابن الأهتم إيّاى تخدع عن دينى؟»

قال: فدعا بطومار وقال:

ـ «إنّك أحمق.»

وكتب كتباً عن لسان القعقاع ورجال من قريش إلى قتيبة:

ـ «إنّ الوليد قد مات وإنّ سليمان باعث هذا المزونىّ[2] على خراسان، فاخلعه.» فقلت:

ـ «يابن الأهتم تُهلك والله نفسك. لئن دخلت عليه لأُعلمنّه أنّك كتبتها.»

فلم يحفل وقال:

ـ «قد قلت: إنّك أحمق.»

ذكر حيلة تمّت على مسلمة بن عبدالملك فى هذه السنة بأرض الروم حتّى كاد يهلك هو والمسلمون

كان وجّه أخاه مسلمة إلى قسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتّى يفتحها أو يأتيه أمره. فشتا[3] بها وصاف، وذلك أنّه لمّا دنىٰ من قسطنطينية أمر كلّ فارس أن يحمل على عجز فرسه مدّين من طعام حتّى يأتى به قسطنطينية. [525] فأمر

١. حريم: كذا فى الأصل والطبرى (٩: ١٣١٢). وما فى مط وحواشى الطبرى عن الأصول: خريم.
٢. المزونىّ: كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط: المروانى.
٣. فشتا بها وصاف: كذا فى الأصل وهو الصحيح. وما فى مط: «فشا بها وصاق»؛ وهو خطأ. شتا بها وصاف: أقام شتاءً وصيفاً.

بالطعام فألقى ناحية مثل الجبال. ثمّ قال للمسلمين:

ـ «لا تأكلوا منه شيئاً.»

فغبروا[1] فى أرضهم وازدرعوا، وعمل بيوتاً من خشب، فشتّنا فيها، وزرع الناس. ومكث ذلك الطعام فى الصحراء لا يكنّه شيء طول الصيف، والناس يأكلون مما أصابوا من الغارات، ثمّ أكلوا من الزرع.

فأقام مسلمة على قسطنطينية قاهراً لأهلها ومعه وجوه أهل الشام. واتفق موت ملك الروم، فراسلوا إليون صاحب أرمينية، فشخص إليون من أرمينية ومكر فى طريقه بمسلمة، ووعده أن يسلّم إليه قسطنطينية، وكانت قد راسلت الروم إليون:

ـ «إن صرفت عنّا مسلمة ملّكناك.»

ووثّقوا له. فلمّا أتى إليون مسلمة، قال له:

ـ «إنّك لا تصدقهم القتال ولاتزال تطاولهم مادام هذا الطعام عندك، وقد أحسّوا بذلك، فلو أحرقت الطعام أعطوا بأيديهم.»

فأحرقه، ووجّه مسلمة معه من شيّعه حتّى نزل بقسطنطينية، وملّكه الروم.

فكتب إلى مسلمة يخبره بما جرى من أمره ويسأله أن يأذن له حتّى يدخل من الطعام من النواحى، [526] [وما][2] يعيش به القوم ويصدّقونه بأنّ أمره وأمر مسلمة واحد وأنّهم فى أمان من [السباء] والخروج من بلادهم، وأن يأذن لهم ليلة واحدة فى حمل الطعام وقد [هيّأ] إليون السفن والرجال. فأذن له، فما بقى

---

١ فغبروا: ما فى الأصل. فغبّروا (بتشديد الباء) وما ضبطناه يوافق مط. وفى الطبرى، أغيروا. وفى تعاليقه. أعبروا؛ فصروا؛ مكثوا؛ بقوا. أغيروا: شنّوا الغارات. ولكلا الضبطين وجه.

٢. كل كلمة وضعناها بين [ ] والتى وقعت على صفحة [526] من الأصل فهى كلمات وقعت فى ابتداء سطور تلك الصفحة وغير ظاهرة بكاملها فى التصوير. فأثبتناها كما هى فى مط والطبرى (٩: ١٣١٦)

فى تلك العظائر إلّا ما لا يذكر، حمل [فى] ليلة واحدة. وأصبح إليون محارباً وقد خدعه خديعة لو كان امرأة لعيب [بها][1]. فلقى الجند ما لم يلق جند قطّ، حتّى إن كان الرجل ليخاف أن يخرج من عسكره وحده. وأكلوا الدوابّ والجلود وأصول الشجر والعروق [و] الورق، وكلّ شىء حتّى الروث، وسليمان مقيم بدابق ونزل الشتاء، فلم يقدر [على] أن يمدّهم حتّى هلك سليمان.

سليمان يحرّض يزيد بذكر فتوح قتيبة

فأمّا يزيد بن المهلّب فإنّه أقام ثلاثة أشهر، وكان سليمان بن عبدالملك كلّما افتتح قتيبة فتحاً قال ليزيد بن المهلّب:

ـ «أما ترى ما صنع الله على يدى قتيبة ؟»

فيقول له يزيد بن المهلّب:

ـ «ما فعلتْ جرجان [التى] حالت بين الناس والطريق الأعظم وأفسدت قومس وأبرشهر.» ويقول:

ـ «هذه الفتوح ليست بشىء فى جرجان.»

وكذلك كانت حال جرجان، لأنّ سعيد بن العاص [527] كان صالح أهل جرجان. ثمّ إنّهم امتنعوا وكفروا، ولم يأتهم أحد بعد سعيد، ومنعوا ذلك الطريق. فلم يكن يسلك طريق خراسان من ناحيته إلّا بوجل وخوف. كان الطريق من فارس إلى كرمان، فأوّل من صيّر الطريق من قومس قتيبة بن مسلم. ثمّ غزا مصقلة خراسان فى أيّام معاوية فى عشرة آلاف، فأصيب هو وجنده بالرّويان، فهلكوا فى واد من أوديتها، أخذ العدوّ عليهم بمضائقه، فقتلوا جميعاً، فهو يسمّى: وادى مصقلة، وكان يضرب به المثل: «حتّى يرجع مصقلة من خراسان».

---

١. لعيب بها كذا فى الطبرى (٨ ١٣١٦) وما فى الأصل لعيت بها وفى مط. لما تمّ عليها. بدل: لعيب بها وفى حواشى الطبرى عن الأصول. لعيى بها.

اهتمام يزيد بن المهلّب بجرجان

فلمّا ولي يزيد بن المهلّب لم تكن له همّة غير جرجان. فخرج إلى دهستان[1]، وبها صول التركيّ مع الأتراك، وهناك جزيرة في البحر بينها وبين دهستان خمسة فراسخ، وهي من جرجان ممّا يلي خوارزم. فكان صول يغير على فيروز مرزبان جرجان، وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً، فيصيب من أطرافهم، ثمّ يرجع إلى البحيرة ودهستان.

فوقع بين فيروز وبين ابن عمّ له يقال له. المرزبان، منازعة، فاعتزله المرزبان، فنزل المياسان[2]، فخاف فيروز أن يغير عليه الترك، فخرج إلى يزيد بن المهلّب [528] وأخذ صول جرجان. فلمّا قدم على يزيد بن المهلّب قال له:

ـ «ما أقدمك؟» قال:

ـ «خفت صولاً فهربت منه.»

فقال له يزيد:

ـ «هل من حيلة لقتاله؟» قال:

ـ «نعم، وشيء واحد إن ظفرت به قتلته. أو أعطى بيده» قال:

ـ «ماهو؟» قال:

ـ «أن يخرج من جرجان حتّى ينزل البحيرة، فإن أتيته هناك وحاصرته ظفرت به، فاكتب إلى الإصبهبذ كتاباً تسأله فيه أن يحتال لصول حتّى يقيم بجرجان، واجعل على ذلك جُعلاً[3] ومَنّه، فإنّه يبعث بكتابك إلى صول يتقرّب به إليه، لأنّه يعظّمه، فيتحوّل على جرجان فينزل البحيرة.»

---

١. دهستان: كذا في الأصل ومط والطبري (٩ ١٣١٨). وفي تعاليق الطبري عن الأصول. فهستان

٢ المياسان كذا في الأصل وفي مط. الماسياب. وما في الطبري: البياسان.

٣. الجعل والجعاله بتثليث الجيم أجر العامل، ما يعطى للمحارب إذا حارب

ذكر هذه الحيلة
التي احتال بها يزيد بمشورة فيروز حتّى ظفر به

فكتب يزيد بن المهلّب إلى صاحب طبرستان:

ـ «إنّي أريد أن أغزو صولاً وهو بجرجان، فخفت، إن بلغه أنّي أريد ذلك أن يتحوّل إلى البحيرة فينزلها، وإن يتحوّل إليها لم يُقدر عليه، وهو يسمع منك ويستنصحك، فإن حبسته العام بجرجان، فلم يأت البحيرة، حملتُ إليك خمسين ألف مثقال، فاحتل له بكلّ حيلة حتّى تحبسه بجرجان، فإن أقام ظفرت به.»

فلمّا أتى الإصبهبذ الكتاب تقرّب به إلى صول. فلمّا أتى [529] صولاً الكتاب أمر الناس بالرحيل إلى البحيرة، وحمل الأطعمة ليتحصّن بها وبلغ يزيد مسيره من جرجان إلى البحيرة، وحمل الأطعمة ليتحصّن بها. فخرج إلى جرجان فى ثلاثين ألفاً ومعه فيروز، واستخلف على خراسان مخلد بن يزيد، وعلى سمرقند وكِشّ ونسف وبخارىٰ ابنه معاوية، وعلى طخارستان حاتم بن قبيصة بن المهلّب.

دخول يزيد بن المهلّب جرجان

وأقبل حتّى أتى جرجان ولم تكن يومئذ مدينة، إنّما هى جبال محيطة بها أبواب ومخارم يقوم عليها الرجل فلا يقدم عليه أحد. فدخلها يزيد لم يعارّه أحد، وأصاب أموالاً، وهرب المرزبان عمّ فيروز، وخرج يزيد بالناس إلى البحيرة، وأناخ على صول، فحاصرهم، وكان صول يخرج إليه فى الأيّام فيقاتله ثمّ يرجع إلى حصنه. حتّى عجزوا وانقطعت عنهم المواد.

فأرسل إليه صول يطلب الصلح، فقال يزيد:

ـ «لا إلّا على حكمى.»

فأبى. فأرسل إليه:

ـ «إنّى أُصالحك على نفسى ومالى وثلاثمائة من أهل بيتى وخاصّتى على أن تؤمننا فننزل[1] البحيرة.»

فأجابه إلى ذلك. فخرج بماله وغلمانه ممّن أحبّ، وصار مع يزيد. فقتل يزيد من الأتراك جماعة صبراً ومنّ على آخرين، وقال الجند ليزيد:

ـ «أعطنا أرزاقنا.»

فدعا [530] إدريس بن حنظلة العمّى، فقال له:

ـ «يابن حنظلة، أحص لنا ما فى البحيرة حتّى نعطى الجند.»

فدخلها إدريس فلم يقدر على إحصاء ما فيها، فقال ليزيد:

ـ «فيها ما لا يستطاع إحصاؤه فى هذه السرعة. وهناك ظروف. فتُحصى الجواليق وتعلم ما فيها، ثمّ تقول للجند: أدخلوا فخذوها. فمن أخذ شيئاً عرفنا ما أخذ من حنطة، أو شعير، أو أرُز، أو سمسم، أو عسل، فأثبتناه عليه.» قال:

ـ «نِعمَ ما رأيتَ.»

ففعلوا ذلك، وقال للجند:

ـ «خذوا.»

فكان الرجل يخرج وقد أخذ ثياباً أو طعاماً، أو حمل من شىء فيُكتب على كلّ رجل ما أخذ. فأخذوا شيئاً كثيراً.

طمع يزيد بن المهلّب فى طبرستان

ولمّا فرغ يزيد من صول طمع فى طبرستان أن يفتتحها، وهمّ بالمسير إليها. فاستعمل عبدالله المعمر اليشكرى على دهستان البياسان، وضمّ إليه أربعة آلاف

1 فننزل كذا فى الأصل. والعبارة فى الطبرى (٩: ١٣٢٥): على أن تؤمّنى فننزل البحيرة.. فقتل يزيد من الأتراك أربعة عشر ألفاً.

رجل، وسار إلى آخر حدود جرجان مما يلى طبرستان، فاستعمل اندرشان[1] أسد بن عمرو، ويقال: بل إبناً لعبدالله بن المعمّر وضمّ إليه أربعة آلاف، ودخل يزيد بلاد الإصبهبذ، فراسله الإصبهبذ يسأله الصلح، وأن يخرج من طبرستان ولا يوغلها. فأبى يزيد، ورجا أن يفتتحها. فوجّه أخاه [531] أبا عيينة من وجه وخالد بن يزيد من وجه وأبا الجهم الكلبى من وجه. وقال:

ـ «إذا اجتمعتم فأبو عيينة على الناس.»

فسار أبو عيينة فى أهل المصرين ومعه هُريم بن أبى طحمة، ووصّى يزيد أبا عيينة بأن يشاور هُريماً وقال:

ـ «هو ناصح وذو رأى.»

وأقام يزيد معسكراً واستجاش الإصبهبذ بأهل جيلان والديلم، فأتوه والتقوا فى سفح جبل، فانهزم المشركون، واتبعهم المسلمون حتّى انتهوا إلى فم الشعب، فدخله المسلمون وصعد المشركون واتّبعهم المسلمون، فرماهم وهم فوقهم بالحجارة والنشّاب، فانهزم أبو عيينة والمسلمون، فركب بعضهم بعضاً يتساقطون من الجبل، فلم يثبتوا حتّى انتهوا إلى عسكر يزيد، وكفّ العدوّ عن اتّباعهم.

وكتب الإصبهبذ إلى المرزبان ابن عمّ فيروز وهو بأقصى جرجان مما يلى البياسان:

ـ «إنّا قد قتلنا يزيد وأصحابه، فاقتل[2] أنت من فى البياسان من العرب.»

فخرج إلى البياسان والمسلمون غارّون فى منازلهم فقتلوا جميعاً فى ليلة.

وأصبح عبدالله بن المعمّر مقتولاً فى أربعة آلاف من المسلمين لم ينج منهم أحداً [532] وقتل من بنى عمّ يزيد خمسون رجلاً، وكتب المرزبان إلى الإصبهبذ:

---

١ اندرشان، كذ فى الأصل ومط. ولعلّه تصحيف «اندرستان» كما فى الطبرى (٩ ١٣٢٧) وهناك تصحيفان آخران أوردا فى حواشى الطبرى عن الأصول وهما: أندرسان، أندر سار

٢ والعبارة فى مط: فاقبل أنت فى السلسان. فخرج إلى البياسان.

ـ «إنّي قد قتلت من عندي من العرب، فخذ أنت المضائق والطرق على من بقى منهم قبلك.»

وبلغ يزيد والمسلمين مقتل عبدالله بن المعمّر وأصحابه، فأعظموا ذلك وهالهم. ففزع يزيد إلى حيّان النبطيّ وقال:

ـ «لا يمنعنّك ما كان منّي إليك من نصيحة المسلمين.» وكان يزيد قد غرّم حيّان مائتي ألف درهم ـ وسنذكر ذلك ـ وشكا يزيد إليه ما يرى بالمسلمين من الوهن بما بلغهم عن جرجان ثمّ بما أخذ عليهم الإصبهبذ من الطرق، وقال له:

ـ «إعمل في الصلح.» قال:

ـ «أفعل.»

فأتى حيّان الإصبهبذ وقال له:

ـ «أنا رجل منكم وإن كان الدين فرّق بيني وبينكم، وأنا لك ناصح، فإنّك أحبّ إليّ على كلّ حال من يزيد، وقد بعث يستمدّ وأمداده منه قريبة، وإنّما أصابوا منه طرفاً، ولست آمن أن يأتيك ما لا تقوم له. فأرح نفسك منه وصالحه، فإنّك إن صالحته صيّر حدّه على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم من قتلوا.»

فقبل الإصبهبذ منه وصالحه على سبعمائة ألف [٧٠٠,٠٠٠]، ويروى: خمسمائة ألف [533] وأربعمائة وقر زعفران أو قيمته من العين وأربعمائة رجل على يد كلّ رجل جام فضّة وسرقة حرير[١] وكسوة ثمّ رجع إلى يزيد وقال:

ـ «إبعث من يحمل صلحهم الذى صالحتهم عليه.» قال:

ـ «من عندهم، أو من عندنا؟» قال:

ـ «من عندهم.»

وكان يزيد قد طابت نفسه أن يعطيهم ما سألوا ويرجع إلى جرجان. فبعث من

١. سرقة حرير كذا في الأصل ومط. وما في الطبرى (٩: ١٣٢٩): سرقة حرّ. السرقة، (وجمعها: السرق): الشقّة من الحرير

يحمل ما صالحهم عليه حيّان، وانصرف إلى جرجان.

فأمّا سبب تغريم يزيد حيّان مائتى ألف درهم وخوفه أنّه لا يناصحه، فهو أنّ مخلد بن يزيد كان ببلخ ويزيد يومئذٍ بمرو، وعرض لحيّان ما احتاج فيه إلى مكاتبة مخلد. فأحضر كاتبه وأملى عليه:

ـ «من حيّان مولى مصقلة إلى مخلد بن يزيد.»

فقال له ابنه مقاتل بن حيّان:

ـ «يا أبه[1] تكتب إلى مخلد وتبدأ بنفسك.» فقال:

ـ «نعم يا بنيّ. فإن لم يرض لقى ما لقى قتيبة.»

وتمّم كتابه وأنفذه إلى مخلد. فبعث مخلد بالكتاب إلى أبيه يزيد فأغرمه يزيد مائتى ألف درهم.

يزيد بن المهلّب يفتح جرجان الفتح الآخر

ثم إنّ يزيد بعد انصرافه من طبرستان ومصالحة الإصبهبذ قصد جرجان وأعطى الله عهداً لئن ظفر بهم ألّا يقلع عنهم ولا يرفع السيف [534] حتّى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين ويأكل منه لغدرهم بجنده ونقضهم لعهده.

فلمّا بلغ المرزبان أنّه قد صالح الإصبهبذ وتوجّه إلى جرجان ضاقت به الأرض، فجمع أصحابه وأتى وجاة[2] وتحصّن فيها وصاحبها لايحتاج إلى عدّة من طعام وشراب، وأقبل حتّى نزل عليها وهم متحصّنون فيها وحولها غياض عظيمة، فليس يعرف لها إلّا طريق واحد. فأقام على ذلك سبعة أشهر لا يقدر منهم على شيء ولا يعرف لهم ما يأتى إلّا من وجه واحد، فكانوا يخرجون إليه

١. يا أبه. كذا ضبط فى الأصل. وأمّا فى مط فضبط: يا أبت. كما فى الطبرى ٩: ١٣٣٠.

٢. وجاة (بالتاء المنقوطة): كذا فى الأصل. وما فى مط وجا. وفى الطبرى: وجاه (بالهاء) وفى تعاليقه عن الأصول وجّاه (بتشديد الجيم).

فى الأيّام ويقاتلونه ثمّ يرجعون إلى حصنهم.

فبيناهم على ذلك إذ خرج رجل من عسكر يزيد بن المهلّب إلى الصيد ومعه شاكريّة له، فأبصر وعلاً فى الطريق يرقى[١] فى الجبل فاتّبعه وقال لمن معه:

ـ «قفوا مكانكم.»

ووقل فى الجبل يتبع الوعل، فما شعر بشيء حتّى اطّلع على عسكر العدوّ، فرجع يريد أصحابه وخاف ألّا يهتدى إن عاد، فجعل يحرق قباءه وعمامته، ويعقد على الشجر علامات حتّى ظفر بأصحابه ينتظرون. [535] ثمّ رجع إلى العسكر وأتى من أوصله إلى يزيد.

فلمّا رءاه يزيد قال:

ـ «ما عندك؟» فقال:

ـ «أتريد أن تدخل وجاة[٢] بغير قتال؟» قال:

ـ «نعم.» قال:

ـ «جُعالتى؟» قال:

ـ «إحتكم.» قال:

ـ «أربعة آلاف.» قال:

ـ «بل أضعافها.» قال:

ـ «عجّلوا إلى أربعة آلاف. ثمّ أنتم بعد من وراء الأحساب.»

فأمر له بأربعة آلاف، وندب الناس، فانتدب ألف وأربعمائة، فقال:

ـ «الطريق لا يحتمل هذه الجماعة، لالتفاف الغياض[٣].»

---

١. يرقى: كذ في الأصل والطبرى (٩: ١٣٣١). وما فى مط: يرمى وهو خطأ.

٢. وجاة: كذا فى الأصل. وما فى الطبرى: وجاه (أيضاً) وفى مط: فجاه (فجأة ؟).

٣. الغياض: جمع مفرده: الغيضة: مجتمع الشجر فى مغيض الماء. الأجمة. والمغيض مجتمع الماء ومدخله فى الأرض. غاض الماء: نقص، غار، نضب.

فاختار منهم ثلاثمائة رجل، واستعمل عليهم ابنه خالد بن يزيد، وضمّ إليه جهم بن زَحر، وقال لابنه:

ـ «إن غلبت على الحياة، فلا تغلبنّ على الموت، وإيّاك أن أراك عندى منهزماً.»

وقال للناس:

ـ «إذا وصلتم إلى المدينة فانتظروا حتّى إذا كان فى السحر فكبّروا، ثمّ توجّهوا نحو باب المدينة فإنّكم تجدونى قد نهضت بجميع الناس إلى بابها.»

فلمّا أشرف ابن زَحر على المدينة أمهل حتّى إذا كانت الساعة التى أمره يزيد أن ينهض فيها، مشى بأصحابه، فأخذ لا يستقبل من أحراسهم أحداً[1] إلّا قتله. وكبّر ففزع أهل المدينة فزعاً لم يدخلهم مثله قطّ، لم يرعهم [536] إلّا والمسلمون معهم فى مدينتهم يكبّرون. فدهشوا وأقبلوا لا يدرون أين يتوجّهون. غير أنّ عصابة منهم أقبلوا نحو جهم بن زحر، فقاتلوا ساعة فدقّت يد جهم وصبر لهم هو وأصحابه، فلم يلبثوهم إلّا قليلاً حتّى قتلوهم.

يزيد بن المهلّب يدخل باب جرجان ويبرّ يمينه فى أهلها

وسمع يزيد بن المهلّب التكبير، فوثب فى الناس إلى الباب، فوجدهم قد شغلهم جهم بن زحر عن الباب، فلم يجد من يمنعه ولا يدفع عنه كبير دفع، ففتح الباب ودخلها من ساعته، فأخرج من كان فيها من المقاتلة، فنصب لهم الجوذع فرسخين عن يمين الطريق وعن يساره، فصلبهم أربعة فراسخ وسبى وأصاب ماكان فيها وقاد أربعين ألفاً [٤٠،٠٠٠] إلى اندرهرز وادى جرجان وقال:

ـ «من طلبهم بثأر فليقتل.»

---

١ أحداً: تكرّرت الكلمة فى الأصل، فحذفنا إحداهما.

فكان الرجل من المسلمين يقتل الجماعة في الوادي، وأُجري الماء على الدم وعليه أرحاء، ليطحن بدمائهم ولتبرّ يمينه، فطحن واختبز وأكل وهي مدينة جرجان، ولم يكن جرجان يومئذ مدينة.

وكتب بذلك إلى سليمان بن عبدالعزيز بالفتح، وعظّم [537] ذلك قال:

ـ «إنّ الله فتح لأميرالمؤمنين من جرجان وطبرستان ما أعيا سابور ذا الأكتاف، وكسرى بن قباذ، وكسرى بن هرمز، وأعيا الفاروق عمر بن الخطّاب، وعثمان بن عفّان، ومن بعدهما من خلفاء الله.»

وكتب في الكتاب[1] أن:

ـ «قد صار عندي من خُمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كلّ ذي حقّ حقّه من الفيء والغنيمة ستّة آلاف ألف [٦،٠٠٠،٠٠٠] وأنا حامل ذلك إلى أميرالمؤمنين إن شاء الله.»

ذكر رأي أُشير به على يزيد بن المهلّب فلم يقبله فعاد وبالاً عليه

فقال له كاتبه المغيرة بن أبي قرّة:

ـ «لا تكتب بتسمية مال، فإنّك من ذلك بين أمرين: إمّا استكثره فأمرك بحمله، وإمّا سخت نفسه بذلك به فسوّغكه فتكلّف له الهديّة ولا يأتيه من قبلك شيء إلّا استقلّه، ويحصّل الكتّاب ما سمّيته في دواوينهم فيبقى مخلّداً عليك، فإن ولي والٍ بعده أخذك به، وإن ولي من يتحامل عليك لم يرض منك بأضعافه، فلا تمض كتابك، ولكن اكتب بالفتح وسله القدوم عليه، ثمّ تشافهه بما أحببت وتقصّر في الكتاب. [538] فإنّك إن تقصّر عمّا أصبت أحرىٰ من أن تكثّر.»

---

١ في الكتاب كذا في الأصل وهو صحيح ولكن في مط: اكتساب. وهو خطأ.

فأبى يزيد وأمضى الكتاب.

ودخلت سنة تسع وتسعين

وفيها توفّي سليمان بن عبدالملك يوم الجمعة لعشر ليالٍ مضين من صفر. فكانت خلافته سنتين وسبعة أشهر. وكانوا يتبرّكون به ويسمونه مفتاح الخير، وذاك أنّه ذهب عنهم الحجّاج، فأطلق الأسرىٰ وخلّى أهل السجون وأحسن إلى الناس.



خلافة عمر بن عبدالعزيز

واستخلف سليمان بن عبدالملك عمر بن عبدالعزيز على ما سنحكيه. وهو أنّه لمّا مرض مرضته التى مات فيها، عهد فى كتاب كتبه لبعض بنيه وهو غلام لم يبلغ.

قال رجاء بن حيوة[1]: فقلت:

ـ «ما تصنع يا أميرالمؤمنين، إنّه ممّا يحفظ به الخليفة فى قبره أن يستخلف على المسلمين الرجل الصالح.»

فقال سليمان:

ـ «أنا أستخير الله وأنظر فيه، ولم أعزم عليه.»

قال: فمكث يوماً أو يومين، ثمّ خرّقه ودعانى، فقال:

ـ «ما ترى فى داود بن سليمان؟»

يعنى ابنه. قلت:

ـ «هو غائب عنك بقسطنطينية وأنت لا تدرى أحيّ [539] هو أم ميّت.» فقال لى:

ـ «فمن ترى؟» قلت:

---

١ حيوه: كذا فى الأصل. والكلمه مهملة فى مط. وما فى الطبرى (٩، ١٣٤١): حيوة.

ـ «رأيك يا أميرالمؤمنين.»

ـ «وأنا أريد أن أنظر من يذكر [1].» قال:

ـ «كيف ترى في عمر بن عبدالعزيز؟» فقلت:

ـ «أعلمه والله خيّراً فاضلاً مسلماً.» فقال:

ـ «هو والله على ذلك.»

ثم قال:

ـ «والله، لئن ولّيته ولم أولّ أحداً سواه، لتكوننّ فتنة، ولا يتركونه يلي أبداً عليهم إلّا أن يجعل أحدهم بعده.»

ويزيد بن عبدالملك يومئذٍ غائب على الموسم. قال:

ـ «فأجعل يزيد بن عبدالملك بعده، فإنّ ذلك ممّا يسكّنهم ويرضون به.» قلت:

ـ «رأيك.»

فكتب:

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبدالله بن سليمان أميرالمؤمنين لعمر بن عبدالعزيز. إنّي ولّيتك الخلافة من بعدي، ومن بعدك يزيد بن عبدالملك. فليسمع المؤمنون له وليطيعوا، وليتّقوا الله ولا يختلفوا، فيُطمع فيهم.»

وختم الكتاب، وبعث به إلى صاحب شرطته يأمره أن يجمع أهل بيته ولمّا اجتمعوا قال سليمان لرجاء:

ـ «اذهب بكتابي إليهم، فأخبرهم أنّه كتابي، ومرهم فليبايعوا من ولّيت فيه.»

ففعل رجاء. فلمّا قال رجاء ذلك لهم قالوا: [540]

ـ «ندخل ونسلّم على أميرالمؤمنين.» قال:

ـ «نعم.»

---

١ من يذكر كذا في الأصل والطبري ٩: ١٣٤١ وما في مط: تذكر (بصيغة الخطاب)

فدخلوا، فقال لهم سليمان:

ـ «في هذا الكتاب ـ وهو يشير لهم إليه وهم ينظرون إلى يد رجاء بن حيوة ـ عهدى. فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سمّيت في هذا الكتاب.»

فبايعوه رجلاً رجلاً.

قال: ثمّ خرج بالكتاب مختوماً.

قال رجاء: فلمّا تفرّقوا جاءني عمر بن عبدالعزيز، فقال[١]:

ـ «إنّي أخشى أن يكون هذا قد أسند إليّ شيئاً من الأمر. فأنشدك الله وحرمتي ومودّتي إلّا أعلمتني إن كان ذلك حتّى أستعفيه الآن قبل أن تأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة.»

قال رجاء:

ـ «لا والله، ما أنا بمخبرك حرفاً.»

فذهب عمر غضبان.

قال رجاء: ولقيني هشام بن عبدالملك، فقال:

ـ «يا رجاء، إنّ لي بك حرمة ومودّة قديمة وعندي شكر، فأعلمني فإن كان إليّ علمت، وإن كان إلى غيري تكلّمت. فليس مثلي قُصّر به ذلك، ولك الله عليّ ألّا أذكر من ذلك شيئاً أبداً.»

قال رجاء: فأبيت وقلت:

ـ «لا والله، لا أُخبرك حرفاً واحداً ممّا أُسرّ إليّ.»

قال: فانصرف هشام وقد يئس وضرب بإحدى يديه على الأُخرى [541] وهو يقول:

ـ «فإلى من إذا نحّيت[٢] عنّي! أتخرج من بني عبدالملك؟»

١. فقال. كذا في الأصل وهو الصحيح. وما في مط: «فقد» بدل «فقال» وهو تصحيف عجيب.

٢. إذا نحّيت كذا في الأصل. والضبط في الطبري (٩. ١٣٤٣): إذا نحّيت. وفي مط: تحسّب.

قال رجاء: ودخلت على سليمان وهو يجود بنفسه، فلقّنته الشهادة، وحرّفته إلى القبلة، وسجّيته، وأجلست على الباب من أثق به، ووصّيته ألّا يبرح حتّى آتيه، ولا يدخل على الخليفة أحد. ثمّ خرجت وأرسلت إلى صاحب الشرطة حتّى جمع أهل بيت أميرالمؤمنين في مسجد دابق[1]، وتوسّطتهم إلى المنبر، وقلت:

ـ «بايعوا» فقالوا:

ـ «قد بايعنا مرّة ونبايع أخرىٰ.» قلت:

ـ «هذا عهد أميرالمؤمنين. فبايعوا من سمّي في هذا الكتاب المختوم.»

فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً. فلمّا بايعوا بعد موت سليمان رأيت أنّي قد أحكمت الأمر. قلت:

ـ «قوموا إلى صاحبكم فقد مات.» قالوا:

ـ «إنّا لله وإنّا إليه راجعون.»

وقرأت الكتاب عليهم. فلمّا انتهيت إلى ذكر عمر بن عبدالعزيز، نادى هشام بن عبدالملك:

ـ «لا نبايعه أبداً.» قلت:

ـ «أضرب والله عنقك. قم فبايع من[2] قد بايعته مرّتين.»

فقام يجرّ رجليه.

قال رجاء: وأخذت بضبعَي[3] عمر بن عبدالعزيز، فأجلسته على المنبر وهو يسترجع [542] لما وقع فيه وهشام يسترجع لما أخطأه.

ولمّا كفّن سليمان وصلّىٰ عليه عمر ودفنه وأُتي بمراكب الخلافة من البراذين

---

١ دابق. كذا في الأصل والطبري. وما في مط: دابو. وهو خطأ

٢. من: سقطت من مط.

٣ بضبعَي عمر: الضبع: وسط العضد. العضد كلّها. الإبط. يقال: أخذ بضبعيه: أي أعانه

والخيل والبغال، ولكلّ دابّة سائس مفرد، فقال:

ـ «ما هذا؟» قالوا:

ـ «مراكب الخلافة.» قال:

ـ «دابّتى أوفق لى.»

وركب دابّته وصرفت تلك الدوابّ. ثمّ أقبل سائراً. فقيل له:

ـ «منزل الخلافة.» فقال:

ـ «فيه عيال أبى أيّوب ـ يعنى سليمان ـ وفى فسطاطى كفاية حتّى يتحوّلوا.»

فأقام فى منزله حتّى فرّغوه من بعد.

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى العمّال بكلّ بلد بما صار إليه، فأوجز وأحسن.

ثم وجّه إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه بخيل عتاق وأموال عظيمة.

وعزل يزيد بن المهلّب عن العراق، ووجّه على البصرة عدىّ بن أرطاة الفزارىّ، وبعث على الكوفة عبدالحميد بن عبدالرحمان بن زيد بن الخطّاب من بنى عدىّ بن كعب، فضمّ إليه أبا الزياد[1]، فكان أبو الزياد كاتب عبدالحميد بن عبدالرحمان. وبعث عدىّ فى إثر يزيد بن المهلّب موسى بن الوجيه [543] الحميرى.

ودخلت سنة مائة

وفيها خرجت الخارجة على عمر بن عبدالعزيز بالعراق

فكتب عمر إلى عبدالحميد بن عبدالرحمان بن زيد بن الخطّاب عامله على العراق، يأمره أن يدعوهم إلى العمل بكتاب الله وسنّة نبيّه، صلّى الله عليه، ففعل.

---

١ أبا الزياد: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٩١: ١٣٤٧) أبا الزناد ولعلّ هذا هو الصحيح

ولمّا أعذر فى دعائهم، بعث إليهم عبدالحميد جيشاً فهزمتهم الحروريّة. فبلغ عمر، فبعث إليهم مسلمة بن عبدالملك فى جيش من أهل الشام جهّزهم من الرقّة.

وكتب إلى عبدالحميد:

ـ «قد بلغنى ما فعل جيشك السوء، وقد بعثت مسلمة بن عبدالملك، فخلِّ بينه وبينهم.»

فلقيهم مسلمة فى أهل الشام، فلم ينشب أن أظهره الله عليهم.

وكان هذا الخارجىّ بسطام من بنى يشكر ويلقّب شوذب، وكان خروجه فى ثمانين فارساً أكثرهم من ربيعة. وكان عمر كتب إلى بسطام يدعوه[1] ويسأله عن مخرجه ويقول فى كتابه:

ـ «بلغنى أنّك خرجت غضباً لله ولنبيّه، صلّى الله عليه، ولست بأولى بذلك منّى. فهلمّ [544] أناظرك، فإن كان الحقّ بأيدينا دخلت فى ما دخل فيه الناس، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرك.»

فأمسك بسطام عن الحرب ولم يحرّك ساكناً، وكتب إلى عمر:

ـ «قد أنصفتَ وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك.»

فلمّا وصل الرجلان إلى عمر، أطالا معه حتّى قالا له:

ـ «أخبرنا عن يزيد، لِمَ تقرّه خليفة بعدك.» قال:

ـ «صيّره غيرى[2].» قالا:

ـ «أفرأيت لو ولّيتَ مالاً لغيرك، ثمّ وكلته[3] إلى غير مأمون عليه، أتُراك كنت

---

١. فى الأصل يدعوهم. والمثبت يوافق مط والطبرى، وهو أنسب.

٢. صيّره غيرى كذا فى الأصل. وما فى مط صيّر غيرى (بدون الهاء).

٣. وكلته، كذ ضبط ما فى الأصل ومط. وضبط فى الطبرى (١٣٤٩:٩) وكلّته (تشديد الكاف) وكل إليه الأمر فوّضه إليه واكتفى به.

أدّيت الأمانة إلى من ائتمنك عليها[١]؟» فقال:

ـ «أنظرني ثلاثاً.»

فخرجا من عنده. وبلغ ذلك مروان، فخافوا أن يخرج ما في أيديهم من الأموال وأن يخلع يزيد. فدسّوا إليه من سقاه سمّاً. فلم يلبث بعد خروجهما من عنده إلّا ثلاثاً حتّى مات.

عمر بن عبدالعزيز يحبس يزيد بن المهلّب

ثم عدنا إلى حديث يزيد بن المهلّب. لمّا أقبل يزيد بن المهلّب فنزل واسطاً، ركب منها السفن يريد البصرة، فبعث عديّ من منعه وأوثقه، ثمّ بعث به إلى عمر بن عبدالعزيز، وكان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول:

ـ «هم جبابرة، ولا أحبّ أمثالهم.»

وكان يزيد يبغض عمر ويقول: [545]

ـ «إنّي لأظنّه مرائياً.»

فلمّا ولي عمر عرف يزيد أنّ عمر كان من الرئاء بعيداً.

ولمّا وصل يزيد إلى عمر سأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان. فقال:

ـ «كنت من سليمان بالمكان الذي قد علمت. وإنّما كتبت إلى سليمان لأُسمع الناس به، وكنت علمت أنّ سليمان لم مكن ليأخذني بشيء سمعتُ به، ولا بأمر أكرهه.» فقال له:

ـ «لا أجد في أمرك إلّا حبسك[٢]، فاتّق الله وأدّ ما قِبلك، فإنّها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها.»

وردّه إلى محبسه.

---

١. عليها: في الأصل ومط: إئتمنك عليه. ماأثبتنا الصمير

٢. لا أجد... إلّا حبسك: كذا في الأصل وهو صحيح. وما في مط: ما أجدك إلّا حسك!

ويعث الجرّاح بن عبدالله الحكمي، فسرّحه إلى خراسان.

وأقبل مخلد بن يزيد من خراسان يعطى الناس، لا يمرّ بكورة إلّا أعطاهم فيها أموالاً عظاماً، حتّى قدم على عمر بن عبدالعزيز. فدخل عليه، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

ـ «إنّ الله، يا أميرالمؤمنين، صنع لهذه الأمّة بولايتك عليها، وقد ابتلينا بك. فلا نكن أشقى الناس بولايتك، علامَ تحبس هذا الشيخ؟ أنا أتحمّل ما عليه، فصالحني على ما[1] إيّاه تسأل.»

فقال عمر:

ـ «لا، إلّا أن[2] تحمل جميع ما إيّاه نسأل.» فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، إن كانت لك بيّنة [546] فخذه بها، وإن لم تكن بيّنة فصدّق مقالة يزيد، وإلّا فاستحلفه[3]، فإن لم يفعل فصالحه.»

فقال عمر:

ـ «ما أجد إلّا أخذه بجميع المال.»

فلمّا خرج مخلد من عند عمر، قال:

ـ «هذا خير عندى من أبيه.»

ولمّا أبى يزيد أن يؤدّى إلى عمر شيئاً، ألبسه جبّة صوف وحمله على جمل وقال:

ـ «سيروا به إلى الدهلك[4].»

---

١ على ما إيّاه تسأل: كذا في الأصل. وفي مط: على إيّاه تسأل. فسقطت «ما».

٢ لا أن تحمل: كذ في الأصل. وما في مط: إلّا صححان تحمل! وهو خطأ غريب.

٣ استحلفه (بالحاء المهملة): كذا في الأصل. وما في مط: استخلفه (بالخاء المعجمة) وهو خطأ.

٤ دهلك، ويقال: دهلكة: جزيرة في بحر اليمن وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة، بلدة ضيّقة حرجة حارّة كان بنو أميّة إذا سخطوا على أحد نفوه إليها (مراصد الإطلاع).

فلمّا أُخرج، فمرّ به على الناس أخذ يقول:

ـ «أما لي عشيرة؟ مالي يُذهب بي إلى دهلك! وإنّما يُذهب إلى دهلك بالفاسق المريب الحارب[1]. سبحان الله! أما لي عشيرة.»

فدخل على عمر سلامة بن نُعيم الخولاني، فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، اردد يزيد إلى محبسه، فإنّي أخاف إن أمضيته أن ينتزعه قومه. فإنّي قد رأيت قومه غضبوا له.»

فردّه إلى محبسه. فلم يزل في محبسه ذلك حتّى بلغه مرض عمر. فأخذ يعمل في الهرب من محبسه مخافة يزيد بن عبدالملك، لأنّه قد كان عذّب أصهاره، وكان يزيد بن عبدالملك قد عاهد الله: لئن أمكنه الله من يزيد ليقطعنّ منه طابقاً. فكان يخشى ذلك. فبعث [547] يزيد بن المهلّب إلى مواليه، فأعدّوا له إبلاً، وخرج حتّى حاز مراصد عمر. وكتب إلى عمر بن عبدالعزيز:

ـ «إنّي والله لو علمت أنّك تبقى ما خرجت من محبسي، ولكنّي لم آمن يزيد بن عبدالملك.»

وقد قيل: إنّ يزيد بن المهلّب إنّما هرب من سجن عمر بعد موت عمر.

وكانت خلافة عمر سنتين وخمسة أشهر. ومات وهو ابن تسع وثلاثين سنة.

ذكر بعض سيرة عمر بن عبدالعزيز

كان الجرّاح بن عبدالله لمّا ولي خراسان استخرج الجزية من كلّ من اتّهم إسلامه. فكتب عمر إليه:

ـ «أُنظر من صلّى إلى القبلة قبلك، فضع عنه الجزية.»

فسارع الناس إلى الإسلام. فقيل للجرّاح:

---

١ الحارب (بالحاء المهملة): كذا في الأصل. والكلمة ساقطة من مط. وما في الطبري (٩: ١٣٥١): الخارب (بالمعجمة). والحارب (بالمهملة): حربه حرباً: سلبه جميع ما يملك

ـ «إنّ الناس قد سارعوا إلى الإسلام. وإنّما ذلك تعوّذ[١] من الجزية، فامتحنهم بالختان.»

فكتب الجرّاح بذلك إلى عمر. فكتب عمر إليه:

ـ «إنّ الله بعث محمّداً صلّى الله عليه داعياً ولم يبعثه خاتناً[٢].»

وقال عمر:

ـ «أبغوني رجلاً صدوقاً أسأله عن [548] خراسان.»

فقيل له:

ـ «قد أصبته، عليك بأبي مُجلز.»

وكان الجرّاح لمّا قدم خراسان، كتب إلى عمر: «إنّي قدمت خراسان، فوجدت قوماً قد أبطرتهم الفتنة، فهم ينزون فيها نزواً. أحبّ الأمور إليهم أن تعود ليمنعوا حقّ الله عليهم، فليس يكفّهم إلّا السيف والسوط، وكرهت الإقدام على ذلك إلّا بإذنك.»

فكتب إليه عمر:

ـ «يابن أمّ الجرّاح! أنت أحرص على الفتنة منهم، لا تضربنّ مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلّا في حقّ، واحذر القصاص، فإنّك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[٣]، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها[٤].»

وكتب إليه أن:

ـ «احمل معك أبا مُجلز[٥]، وخلّف على خراسان عبدالرحمان بن نُعيم الغامدي، وعلى جزيتها عبدالله بن حبيب.»

---

١. تعوّذ: كذا في الأصل وفي مط. تعود. وما في الطبري: نفوراً. وما في مط خطأ.
٢. خاتناً: كذا في مط والطبري. وما في الأصل غامض و خاتياً؟ خابياً؟
٣. س ٤٠ الغافر: ١٩. ٤. س ١٨ الكهف: ٤٩.
٥. أبا مُجلز: كذا في الأصل. والضبط في الطبري. أبا مِجلَز.

ولمّا قدم أبو مُجلز لاحق ابن حميد على عمر، وكان رجلاً لا تأخذه العين، دخل على عمر في غمار الناس، فلم يثبته عمر، وخرج مع الناس. فقيل لعمر وقد سأل عنه بأنه:

ـ «دخل مع الناس، ثمّ خرج.»

فدعا به عمر، فقال: [549]

ـ «يابا مُجلز، إنّي لم أعرفك.» قال:

ـ «فهلّا ـ يا أميرالمؤمنين ـ أنكرتني إذ لم تعرفني.» قال:

ـ «أخبرني عن عبدالرحمان بن عبدالله.» قال:

ـ «يكافئ الأكفاء، ويعادي الأعداء، وهو أمير يفعل ما يشاء، ويقدم، إن وجد من يساعده.» قال:

ـ «فعبدالرحمان بن نعيم؟» قال:

ـ «ضعيف ليّن يحبّ العافية، وتأتّى [1] له.» قال:

ـ «الذي يحبّ العافية وتأتّى له أحبّ إليّ.»

فولّاه الحرب والصلاة، وولّى عبدالرحمان القشيري الخراج.

وكتب إلى أهل خراسان:

ـ «إنّي استعملت على حربكم عبدالرحمان بن نعيم، وعبدالرحمان بن عبدالله على خراجكم من غير معرفة منّي بهما ولا اختيار إلّا ما أُخبرت عنهما، فإن كانا على ما تحبّون فاحمدوا [2] الله. وإن كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.»

---

١. وتأتّى له. كذ في الأصل والطبري (٨: ١٣٥٦). وما في تعاليق الطبري: تأتّى (بالواو).

٢. فاحمدوا الله (بصيغة الجمع) كذا في الأصل. وما في مط: فاحمد لله (بصيغة المفرد)

ابتداء دعوة بني هاشم[1]

وفي هذه السنة، وهي سنة مائة، وجّه محمد بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس من أرض السراة ميسرةَ إلى العراق، ووجّه محمد بن خُنيس وأبا عكرمة السرّاج وحيّان العطّار رجال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان دعاة، وعلى خراسان [550] يومئذ الجرّاح بن عبدالله الحَكمي، فدعَوا إليه وكتبوا بأسماء من استجاب، وبعثوا بالكتاب إلى ميسرة، وبعث به ميسرة إلى محمد بن عليّ. فكان ذلك ابتداء دعوة بني هاشم.

فاختار أبو محمّد الصادق وهو أبو عكرمة السرّاج لمحمّد بن عليّ، اثنى عشر نقيباً منهم:

سليمان بن كثير الخزاعيّ، ولاهز بن قريظ التميمي، وقحطبة بن شبيب الطائيّ، وموسى بن كعب التميميّ، وخالد بن إبراهيم، والقاسم بن مجاشع، وعمران بن إسماعيل، ومالك بن هيثم الخزاعيّ، وطلحة بن زُريق، وأبو حمزة عمرو بن أبي أعين، وشبل بن طهمان وهو أبو علي الهرويّ، وعيسى بن أعيَن.

ثم اختار سبعين رجلاً كتب إليهم محمّد بن عليّ كتاباً كالسيرة والمثال يسيرون بها.

---

١ العنوان مستخرج من النص في الأسطر الآتية من دون أي تغيير والعنوان في الطبري (٩. ١٣٥٨) «أوّل الدعوة». وفي ابن الأثير (٥ ٥٣) «ذكر ابتداء الدعوة العبّاسيّة».

خلافة يزيد بن عبدالملك

ودخلت سنة احدى ومائة

وفيها ولي يزيد بن عبدالملك الخلافة، وكنيته أبو خالد، وهو ابن تسع وعشرين سنة في قول هشام بن محمّد.

وفيها قتل شوذب الخارجي[1]. [551]

ذكر ذلك

قد كنّا ذكرنا خروج من خرج من قبل شوذب لمناظرة عمر. فلمّا مات عمر أحبّ عبدالحميد بن عبدالرحمان أن يحظّى عند يزيد بن عبدالملك. فبعث بمحمّد بن جرير في ألفين إلى محاربة شوذب، ولم يرجع رسولا شوذب، ولم يعلم بموت عمر. فلمّا طلع عليهم محمّد بن جرير مستعدّاً للحرب، قالوا:

ـ «ما أعجلكم قبل انقضاء المدّة بيننا وبينكم، أليس قد تواعدنا إلى أن يرجع الرسولان؟»

فأرسل إليه محمّد:

ـ «إنّه لا يسعنا ترككم.»

---

۱. الحاروجی. كذا في الأصل. والكلمة ساقطة من مط.

فقالت الخوارج:

ـ «ما فعل هؤلاء. هذا إلّا وقد مات الرجل الصالح.»

فبرز لهم شوذب، فأكثروا القتل فى أهل الكوفة وولّوا منهزمين والخوارج فى أكنافهم[١] تقتل حتّى بلغوا أخصاص الكوفة وجرح محمّد بن جرير فى إسته.

ورجع شوذب إلى موضعه ينتظر صاحبيه. فجاءا فأخبراه بما جرى ويموت عمر. فأقرّ يزيد بن عبدالملك عبدالحميد على الكوفة، ووجّه من قبله تميم بن الحباب[٢] فى [552] ألفين، فراسلهم وأخبرهم أنّ يزيد لا يقارّهم على ما فارقهم عليه عمر. فلعنوه، ولعنوا يزيد. ثمّ حاربوه وقتلوه وهزموا أصحابه. فلجأ بعضهم إلى الكوفة ورجع الآخرون إلى يزيد. ووجّه إليهم نجدة بن الحكم الأزدى فى خلق كثير، فقتلوه وهزموا أصحابه. ووجّه إليهم الشحّاج[٣] بن وداع فى ألفين من أهل البأس والنجدة، فقتلوه وقتل منهم نفراً منهم هدبة اليشكرى ابن عمّ شوذب وكان عابداً، وفيهم أبو شبيل مقاتل بن شيبان، وكان فاضلاً فيهم سيّداً.

دخول مسلمة الكوفة ومقتل شوذب الخارجى

فلمّا دخل مسلمة الكوفة فى ما روى هشام شكا إليه أهلها مكان شوذب وخوفهم منه، وما قد قتل منهم. فدعا مسلمة سعيد بن عمرو الحرشى وكان فارساً شجاعاً، فعقد له على عشرة آلاف، ووجّهه إليه وهو مقيم بموضعه، فأتاه ما لا طاقة له به. فقال شوذب لأصحابه:

ـ «من كان يريد الله فقد جاءته الشهادة، ومن كان إنّما خرج للدنيا فقد ذهبت الدنيا، وإنّما البقاء فى الدار الآخرة.» [553]

١ أكنافهم: ما فى الأصل مطموس. وفى الطبرى (٩: ١٣٧٦): أعقابهم. والمثبت من مط.

٢ الحُباب: ما فى الأصل مهمل. وما فى مط مهمل أيضاً إلّا فى الباء الأخيرة. وما ضبطناه يوافق الطبرى.

٣ الشحّاج كذا فى الأصل والطبرى. وما فى مط وابن الأثير: السحّاج (بالسين المهملة)

فكسروا أغماد سيوفهم وحملوا، فكشفوا[1] سعيداً وأصحابه مراراً حتّى خاف المضيحة، فذمر أصحابه وقال.

ـ «أ من هذه الشرذمه ـ لا أبأ لكم ـ تفرّون؟ يا أهل الشام يوماً كأيّامكم!»

فحملوا عليهم، فطحنوهم طحناً ولم يبقّوا منهم أحداً وقتلوا شوذباً ـ وهو بسطام ـ وفرسانه، والريّان بن عبدالله اليشكري. فرثاهم الشعراء وأكثروا، إلّا أنّا لا نكتب في هذا الكتاب ما يجرى هذا المجرى، وقد ذكرنا كثيراً منه في اختيارنا من أشعار العرب.

دخول يزيد بن المهلّب البصرة وخلعه يزيد بن عبدالملك

وفي هذه السنة لحق يزيد بن المهلّب بالبصرة، فغلب عليها وقد كنّا حكينا هربه من محبس عمر.

ولمّا مات عمر وبويع ليزيد بن عبدالملك بلغه هرب يزيد بن المهلّب. فكتب إلى عبدالحميد بن عبدالرحمان يأمره أن يطلبه ويستقبله. وكتب إلى عديّ بن أرطاة يعلمه هربه ويأمره أن يطلبه ويستقبله.

فأمّا عديّ بن أرطاة فإنّه أخذ مـن أولاد المـهلّب وعشـيرته مـن وجـدهم، فحبسهم، وفيهم: المفضّل، [554] وحبيب ومروان بنو المهلّب، وأفلت محمّد بن المهلّب فلم يقدر عليه.

وأقبل يزيد حتّى ارتفع فوق القطقطانة، وبعث عبدالحميد بن عـبدالرحـمان هشام بن مساحق القرشيّ في ناس من أهل الكوفة ذوى[2] بأس، ووجوه الناس وأهل القوّة، فقال:

ـ «انطلق حتّى تستقبله، فإنّه اليوم يمرّ بجانب العذيب.»

---

١. فكشفوا: كذا في الأصل والطبري (٩، ١٣٧٨)، وما في مط. فكسروا.

٢. ذوى بأس. كذا في الأصل وما في مط ذوو بأس (بالرفع).

فمشى هشام قليلاً، ثمّ رجع إلى عبدالحميد، فقال:

ـ «أجيئك به أسيراً، أم آتيك برأسه؟» فقال:

ـ «أيّ ذلك شئت.»

فكان من سمع ذلك منه تعجّب له.

فلمّا خرج هشام مضى إلى العذيب حتّى نزله. ومرّ به يزيد بن المهلّب غير بعيد، فلم يتجاسر أحد منهما الإقدام عليه حتّى عبروا. ومضى نحو البصرة، وانصرف هشام بن مساحق إلى عبدالحميد.

فجمع عديّ بن أرطاة أهل البصرة، وخندق عليها.

فقال عبدالملك بن المهلّب لعديّ بن أرطاة:

ـ «خذ ابني رهينة، واحبسه مكاني وأنا أضمن لك أن أردّ يزيد أخي عن البصرة حتّى يأتي فارس وكرمان ويطلب لنفسه الأمان [555] ولا يقربك[1].»

فأبى عليه.

وجاء يزيد مع أصحابه الذين أقبل فيهم، والبصرة محفوفة بالرجال، وقد جمع محمّد بن المهلّب ـ ولم يكن ممّن حبس ـ رجالاً من قومه وأهل بيته وناس من مواليه. فخرج حتّى استقبله في كتيبة تهول من رءاها، وكان عديّ قد بعث على كلّ خمسين من أخماس البصرة رجلاً مرضيّاً، وأقبل يزيد بن المهلّب لا يمرّ بخيل من خيولهم ولا قبيلة من قبائلهم إلّا تنحّوا له عن السبيل تهيّباً وإعظاماً. حتّى انتهى إلى المغيرة بن عبدالله الثقفيّ وهو على الخيل فاستقبله ليردّه. فحمل عليه محمّد بن المهلّب، فأفرج له عن الطريق هو وأصحابه وأقبل يزيد حتّى نزل داره، واختلف الناس إليه. وأخذ يبعث إلى عديّ بن أرطاة أن:

ـ «ادفع إليّ إخوتي وأنا أصالحك على البصرة وأخلّيك وإيّاها حتّى آخذ

---

١. يقربك (يقربك؟) الحرف الرابع مهمل في الأصل ومط.

لنفسى ما أُحبّ من يزيد بن عبدالملك.»

فلم يجبه إلى ذلك.

وكان خرج إلى يزيد بن عبدالملك حُميد بن عبدالملك بن المهلّب يصلح [556] أمر عمّه يزيد. فبعث معه يزيد بن عبدالملك خالد بن عبدالله القسرىّ[١] وعمر بن يزيد الحكمى بأمان يزيد بن المهلّب وأهل بيته. وأخذ يزيد بن المهلّب، قبل أن يوافيه حُميد، يعطى كلّ من أتاه العطايا العظيمة ويقطع لهم قطع الذهب والفضّة. فمال الناس إليه، ولحق به عمران بن مسمع ساخطاً على عدىّ. وذلك أنّه نزع منه راية بكر بن وائل وأعطاها ابن عمّه. ومالت إلى يزيد ربيعة كلّها وبقيّة تميم وقيس، وناس بعد ناس فيهم عبدالملك ومالك ابنا مسمع وناس من أهل الشام.

وكان عدىّ لا يعطى إلّا درهمين درهمين ويقول:

ـ «لا يحلّ لى أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلّا بأمر يزيد بن عبدالملك، ولكن تبلّغوا بهذا حتّى يأتى الأمر فى ذلك.» وله يقول الفرزدق:

أظنُّ رجالَ[٢] الدرهمين يقودهم[٣] ... إلى الموت آجالٌ لهم ومَصارعُ
فأحزمهم مَن كان فى قعر بيته ... وأيقنَ أنّ الأمرَ لابدَّ واقعُ

وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب عدىّ، فنزلوا المربد. فبعث إليهم يزيد بن المهلّب [557] مولىً له يقال له دارس. فحمل عليهم فهزمتهم. فقال الفرزدق:

---

١ القسرى: كذا فى الأصل وهو صحيح. وما فى مط: القرى. وهو خطأ.
٢ رجال الدرهمين: كذا فى الأصل وهو الصحيح. وما فى مط: الرجال الدرهمين. وهو خطأ.
٣ يقودهم: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٩: ١٣٨٣): يسوقهم. وكلاهما صحيح.

تفرّقت الجَمراءُ[1] أن صـاح دارسٌ ولم يصبروا تحتَ السيوف الصوارم
جزى الله قيساً عـن عـديٍّ مـلامةً ألا صـبروا حـتّى تكـون تـلاحم

وخرج يزيد بن المهلّب حتّى اجتمع له الناس، حتّى نزل جُبّانة بنى يشكر وهو المنصف فى ما بينه وبين القصر. وجاءته تميم وأهل الشام، فاقتتلوا هنيهة، فحمل عليهم محمّد بن المهلّب، فضرب مسور بن عباد الحبطىّ بالسيوف، فقطع أنف البيضة، وأسرع السيف فى وجهه، وحمل على هُرَيم بن أبى طحمة، فـأخذ بمنطقته فجذبه عن فرسه وتماسك فى السرج حتّى انقطعت المنطقة، وقال:

ـ «هيهات! عمّك أرزن من هذا.»

فانهزم القوم وأقبل يزيد فى أثر القوم يتلوهم حتّى دنا من القصر. وخرج إليه عدىّ بنفسه فى أصحابه، فقاتلوا ساعة وقتل من أصحابه خلق فيهم: الحارث بن مصرّف الأودى، وكان من أشراف أهل الشام وفرسان الحجّاج، وقتل موسى بن الوجيه الحميرى [558] وقتل جماعة أمثالهم.

ثم انهزم أصحاب عدىّ، وسمع أخـوه يـزيد ـ وهـم فـى محبس عـدىّ ـ الأصوات تدنو والنشّاب تقع فى القصر والصحن، فقال لهم عبدالملك:

ـ «إنّى لا أرى يزيد إلّا قد ظهر، ولست آمن من مع عدىّ من مضر ومن أهل الشام أن يأتونا فيقتلونا قبل أن يصل يزيد إلى الدار، فأغلقوا الباب ثـمّ أسندوه بالثياب والرحل.»

ففعلوا، فلم يلبثوا ساعة حتّى جاءهم عبدالله بن دينار مولى بنى عامر وكان على حرس بنى عدىّ. فجاء يشتدّ إلى الباب هو وأصحاب له وقـد صـنع بـنو المهلّب ما قال لهم عبدالملك، ووضعوا متاعاً كثيراً على الباب، ثمّ اتّكأوا عليه.

١ الجمراء. كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٩ ١٣٨٣): «الحمراء إذ» بدل «الجمراء أن». وفى حواشيه عن الأصول. الجفراء.

وأخذ القوم يعالجون الباب فلا يستطيعون الدخول، وأعجلهم الناس فخلّوا عنهم، وجاء يزيد بن المهلّب حتّى نزل دار سليم بن زياد بن أبي سفيان إلى جانب القصر، وأُتي بالسلاليم، فلم يلبث سفيان أن فتح القصر، وأُتي بعديّ بن أرطاة، فجيء به، وخاطبه بما يجري مجرى التبكيت. ثمّ أمر بحبسه وقال له.

ـ «أما إنّ حبسي إيّاك [559] ليس إلّا لحبسك بني المهلّب وتضييقك علينا في ما كنّا نسألك التسهيل عليهم.»

ذكر اتّفاق سيّء اتّفق على يزيد بن المهلّب

خرج الحواريّ بن زياد بن عمرو العتكي يريد يزيد بن عبدالملك هاربين من يزيد بن المهلّب فلقي في طريقه خالد بن عبدالله القسري وعمر بن يزيد الحكمي ومعهما حُميد بن عبدالملك بن المهلّب قد أقبلوا من عند يزيد بن عبدالملك بأمان يزيد المهلّب وكلّ شيء أراده. فاستقبلهما فسألاه عن الخبر. فلمّا رأى حميد بن عبدالملك معهما خلا بهما وقال:

ـ «أين تريدان؟» قالا:

ـ «نريد يزيد بن المهلّب، قد جئناه بكلّ شيء يريد ويقترح.» فقال:

ـ «هيهات، قد تجاوز الأمر ذلك وما تقدران أن تصنعا بيزيد أو يصنع هو بكما، قد ظهر على عدوّه عديّ بن أرطاة وقد قتل سراة الناس ووجوه الفرسان، وحبس[1] عديّاً، فارجعا ولا تهديا نفوسكما إلى يزيد.»

فمادي مع الحواريّ بن زياد وأقبلا بحُميد معهما إلى يزيد بن عبدالملك.

فقال لهما حُميد:

ـ «أنشدكم الله أن تخالفا في أمر يزيد وما بعثتما به، فإنّ يزيد قابل منكما وإنّ

---

١. حبس: كذا في الأصل وهو صحيح. وما في مط: حلس! وهو خطأ.

هذا [560] وأهل بيته لم يزالوا لنا أعداء. فنناشدكما الله أن تسمعا مقالة هذا فينا»

فلم يقبلا قوله وأقبلا به حتّى دفعاه إلى عبدالرحمان بن مسلم الكلبي، وكان يزيد بن عبدالملك بعثه إلى خراسان عاملاً عليها. فلمّا بلغه خلعُ يزيد بن المهلّب، كتب إلى يزيد بن عبدالملك:

ـ «إنّ جهاد من خالفك[1] أحبّ إليّ من ولايتي خراسان، فلا حاجة لي فيها، واجعلني ممّن توجّه إلى يزيد بن المهلّب.»

وبعث بحُميد بن عبدالملك إلى يزيد. ووثب عبدالحميد بن عبدالرحمان بن زيد بن الخطّاب على خالد بن يزيد بن المهلّب وهو بالكوفة، وعلى حمّال[2] بن زحر وليسا ممّن ينطف[3] بشيء، إلّا أنّه أوثقهما لما عرف بين حمّال وبين بني المهلّب، وسرّح بهما إلى يزيد بن عبدالملك، فحبسهما جميعاً ولم يفارقا السجن حتّى هلكا فيه.

وبعث يزيد بن عبدالملك رجالاً من أهل الشام إلى الكوفة يسكّنونهم ويثنون عليهم بطاعتهم ويمنّونهم الزيادات.

ثم إنّ يزيد بن عبدالملك بعث العبّاس بن الوليد بن عبدالملك في أربعة آلاف فارس جريدة[4] خيل حتّى وافوا الحيرة [561] يبادر إليها يزيد بن المهلّب. أقبل بعد ذلك مسلمة بن عبدالملك في جنود أهل الشام، فأخذ على الجزيرة على شاطئ الفرات، واستوسق أهل البصرة ليزيد بن المهلّب، وبعث عمّاله إلى الأهواز وفارس، وبعث عبدالرحمان إلى بني تميم:

---

١ خالفك: كذا في الأصل وفي مط. خلفك، وهو خطأ.

٢ حمّال بن زحر: كذا في الأصل والطبري (٩: ١٣٨٩). وفي حواشيه عن الأصول. جمال بن زحر

٣. ينطف: كذا في مط والطبري. وما في الأصل: تنطف.

٤ الجريدة: جماعة الخيل لا رجّالة فيها وقد جرّدت عن سواها بوجه. قس العبارة بما في الطبري (٩: ١٣٦٠).

ـ «إنّ هذا مدرك بن المهلّب يريد أن يلقى بينكم الحرب وأنتم فى بلاد عافية فى طاعة وعلى جماعة.»

فخرجوا ليلاً يستقبلونه ويكيدونه. وبلغ ذلك الأزد، فخرج منهم نحو ألفى فارس حتّى لحقوهم قبل أن ينتهوا إلى رأس المفازة. فقالوا لهم:

ـ «ما جاء بكم وما أخرجكم إلى هذا المكان؟»

فاعتلّوا عليهم بأشياء ولم يقرّوا أنّهم خرجوا ليكيدوا مدرك بن المهلّب.

فقال لهم الأزد:

ـ «بل قد علمنا أنّكم لم تخرجوا إلّا لتلقّى صاحبنا وها هو ذا منكم قريب، فما شئتم.»

ثم أسرعت الأزد حتّى لقوا مدركاً على رأس المفازة، فنصحوا له وأعلموه أنّه يقع فى بلاء لا يدرون ما عاقبته ويشيرون عليه بالإنصراف إلى أن يتمّ أمر يزيد.»

فقبل ورجع من مكانه.

ثم إنّ يزيد بن المهلّب لمّا استجمع له أهل البصرة، صعد المنبر وخطبهم وأخبرهم أنّه[1] يدعوهم [562] إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ويحثّ على الجهاد ويزعم أنّ جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم.

فكان الحسن البصرى حاضراً. فرفع صوته وقال:

ـ «والله لقد رأيناك والياً ومولّياً[2] عليك، فما ينبغى لك.»

فوثب عليه من كان بجنبه، فأخذوا بيده وفمه وأجلسوه، وما شكّ الناس أنّه سمعه ولكنّه لم يلتفت إليه ومضى فى خطبته.

ثم إنّ الحسن خرج يخذّل الناس عنه ويقول:

---

١ ما فى الأصل: أنهم وهو سهو فصحّحناه كما فى مط والطبرى (٩: ١٣٩١).

٢ مولّياً: كذا فى الأصل ومط والطبرى. وما فى بعض الأصول: موالياً.

ـ «كان بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون[1] يسرّح بها إلى بني مروان، يريد بهلاك هؤلاء رضاهم.»

فلمّا غضب نصب قصباً ووضع عليه خرقاً وقال:

ـ «قد خالفت هؤلاء، فخالفوهم.»

وقال:

ـ «إنّي أدعوكم إلى سنّة العُمَرين، ألا إنّ سنّة العُمَرين[2] أن يوضع قيد في رجليه، ثمّ يردّ إلى محبس عمر الذي حبسه فيه.»

فقال ناس من أصحابه ممّن سمعوا قوله:

ـ «والله، لكأنّك يابا سعيد راض عن أهل الشام.» فقال:

ـ «أنا راض عن أهل الشام[3]؟ قبّحهم الله وبرّحهم! أليسوا الذين أحلّوا حُرَم رسول الله، صلّى الله عليه، يقتلون أهله ثلاثة أيّام وثلاث ليال وقد أباحوها لأنباطهم وأقباطهم يحملون الحرائر [563] وذوات الدين لا يتناهون عن انتهاك حرمة، ثمّ خرجوا إلى بيت الله الحرام، فهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها، عليهم لعنة الله وسوء الدار.»

ثم إنّ يزيد خرج من البصرة، واستخلف عليها مروان بن المهلّب، وقدّم بين يديه عبدالملك بن المهلّب، وخرج معه بالسلاح وبيت المال، وأقبل حتّى نزل واسطاً. وكان قبل أن يبلغها استشار أصحابه وقال لهم:

ـ «إنّ أهل الشام قد نهضوا إليكم.»

ذكر آراء أُشير بها على يزيد بن المهلّب فما عمل بها

فقال له حبيب وغيره:

١. ترون، كذا في الأصل والطبري (٩: ١٣٩٢). وفي مط: يرون.

٢. ألا إنّ سنّة العُمَرين. العبارة سقطت من مط. وفي الطبري: وإنّ من سنّة العمرين.

٣. أنا راض عن أهل الشام! هذه العبارة أيضاً سقطت من مط.

ـ «نرى أن تخرج حتّى تنزل فارس وتأخذ بالشعاب والعقاب وتدنو من خراسان وتطاول القوم، فإنّ أهل الجبال ينقضّون إليك وفي يدك القلاع والحصون.» فقال:

ـ «ليس هذا برأى وليس يوافقنى. إنّما تريدون أن تجعلونى طائراً على رأس جبل.»

فقال له حبيب:

ـ «فإنّ الرأى الذى كان ينبغى أن يكون فى أوّل الأمر قد فات. كنت أمرتك حين ظهرت على البصرة أن توجّه خيلاً [564] عليها بعض أهل بيتك حتّى يرد الكوفة، فإنّما هو عبدالحميد، مررت به فى سبعين رجلاً فعجز عنك، فهو عن خيلك أعجز فى العُدّة، وتسبق إليها أهل الشام وعُظم أهلها يرى رأيك ويحبّ أن لا يلى عليهم أهل الشام، فلم تطعنى. وأنا اليوم أشير عليك برأى: سرّح مع بعض أهل بيتك خيلاً عظيمة، فتأتى الجزيرة وتبادر إليها حتّى تنزل حصناً من حصونها، وتسير فى إثرهم، فإذا أقبل أهل الشام يريدونك لم يدعوا جنداً من جندك بالجزيرة ويقبلوا إليك. فيقيمون عليهم، فكانوا حابسيهم عنك حتّى تأتيهم ويأتيك [من][1] بالموصل من قومك وتبذل المال، ويأتيك أهل الجزيرة، وينقضّ إليك أهل العراق وأهل الثغور وتقاتلهم فى أرض رفيغة[2] السعر، وقد جعلت العراق كلّه وراء ظهرك.» فقال:

ـ «إنّى أقطع جندى.»

فلمّا نزل واسطاً أقام بها أيّاماً يسيرة.

---

١ من: سقطت من الأصل ومط وهى موجودة فى الطبرى (٩: ١٣٩٤).

٢ رفيغة: كذا فى الأصل. وما فى مط والطبرى: رفيعة (بالعين المهملة). وفى ابن الأثير: رخيصة. والرفيغة من الرفاغية وهى: سعة العيش وخصبه

ودخلت سنة اثنتين ومائة

قد حكينا ما كان من توجيه يزيد بن عبدالملك العباس بن الوليد بن عبدالملك [565] ومسلمة بن عبدالملك إلى يزيد بن المهلّب لمحاربته. واستعدّ يزيد للقائهما واستخلف على واسط ابنه معاوية، وجعل عنده بيت المال والخزائن والأسراء، وقدّم بين يديه أخاه عبدالملك، ثمّ سار حتّى مرّ بفم النيل، ثمّ سار حتّى نزل العقر. وأقبل مسلمة يسير على شاطئ الفرات حتّى نزل الأنبار، ثمّ عقد عليها الجسر، فعبر من قبل قرية يقال لها: فارط. ثمّ أقبل حتّى نزل على يزيد بن المهلّب وقد قدّم يزيد عبدالملك نحو الكوفة فاستقبله العباس بن الوليد بسورا[1]، فاصطفّوا. ثمّ اقتتل القوم فشدّ عليهم أهل البصرة شدّة كشفوهم فيها، وقد كان معهم ناس من بني تميم وقيس ممّن انهزم من يزيد من البصرة، فكانت لهم جماعة حسنة مع العبّاس بن الوليد فيهم هريم بن أبي طحمة المجاشعيّ. فلمّا انكشف أهل الشام تلك الإنكشافة نادى هريم بن أبي طحمة:

ـ «يا أهل الشام، الله الله أن إلى أين؟ أتسلموننا وقد اضطرّهم أصحاب عبدالملك إلى نهر؟»

فأخذوا يتنادونها:

ـ «لابأس عليك، إنّ لأهل الشام جولة في أوّل القتال [566] أتاك الغوث[2].»

ثم إنّ أهل الشام كرّوا عليهم، فكشف أصحاب عبدالملك وهزموا. وجاءهم عبدالملك حتّى انتهى إلى أخيه بالعقر وسقط إلى يزيد ناس كثير من أهل الكوفة ومن أهل الجبال. فبعث على الأرباع رؤساءهم عبدالله بن المفضّل الأزديّ، والنعمان بن إبراهيم بن الأشتر، ومحمّد بن إسحاق بن محمّد بن الأشعث،

---

١ سورا (بالألف المقصورة): موضع بالعراق من أرض بابل وهي مدينة السريانيّين وقد نسبوا إليها الخمر (معجم البلدان)

٢ أتاك الغوث: تكررت العبارة في الأصل، وهي غير مكرّرة لا في مط ولا في الطبري (٩: ١٣٩٦)

وحنظلة بن عتّاب بن ورقاء التميميّ. وجمعهم جميعاً مع المفضّل بن المهلّب.

فتحدّث علاء بن زهير قال: والله إنّا لجلوس عند يزيد ذات يوم إذ قال:

ـ «أترون أنّ في العسكر ألف سيف يضرب به؟»

قال: فيقول له: حنظلة بن العتّاب:

ـ «إنّهم والله ما ضربوا بألف سيف قطّ، والله لقد أحصي ديواني مائة وعشرين ألف. والله، لوددت أنّ مكانهم الساعة معي من بخراسان من قومي.»

ثم إنّه خطب الناس وحرّضهم، وقال في كلامه:

ـ «إنّه ذكر لي أنّ هذه الجرادة الصفراء (يعني مسلمة بن عبدالملك) وعاقر ناقة ثمود (يعني العبّاس بن الوليد وكان العباس أزرق أحمر، كانت أمّه [567] روميّة) والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه حتّى كلّمته فيه فأقرّه على نسبه؛ فبلغني أنّه ليس يهمّهما إلّا التماسي في الأرض. والله، لو جاؤوا بأهل الأرض جميعاً، وليس إلّا أنا، ما برحت العرصة حتّى تكون لي أو لهم.»

قالوا:

ـ «إنّا نخاف أن تمنّينا كما عنّانا عبدالرحمان بن محمد بن الأشعث.» قال:

ـ «إنّ عبدالرحمان فضح الذمار[1] وفضح حسبه، وهل كان يعدو أجله؟»نزل.

قال: ودخل عامر العميثل، وهو من الأزد وقد جمع جموعاً، فأتاه فبايعه.

وكانت بيعة يزيد:

ـ «تبايعوني على كتاب الله وسنّة نبيّه وعلى ألّا يطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا، ولا تعاد علينا سيرة الفاسق الحجّاج. ومن بايعنا على ذلك قبلنا منه، ومن أبى جاهدناه، وجعلنا الله بيننا وبينه.»

ثم يقول:

١ فضح الذمار والذمار كل ما يلزمك حمايته والدفاع عنه، وإن ضيّعته لزمك اللّوم. ومن معانيه الحرم والأهل وفي مط: فضح الذمار وفضح حسبه (بالصاد المهملة) وهو خطأ

ـ «تبايعون؟»

فإذا قالوا: «نعم.» بايعهم.

ذكر رأى صواب رءاه يزيد فخالفه فيه أصحابه

دعا يزيد بن المهلّب رؤساء أصحابه، فقال لهم:

ـ «إنّى قد رأيت أن أجمع اثنى عشر ألف رجل، فأبعثهم مع محمّد بن عبدالملك، حتّى يبيّتوا مسلمة ويحملوا معهم البراذع[1] [568] والأكُف والزُبُل من الخندق الذى حفروه، فيقاتلهم على خندقهم وعسكرهم بقيّة ليلته. وأمدّه بالرجال حتّى أصبح، فإذا أصبحت نهضت إليهم أنا بالناس فناجزتهم. فإنّى أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم.»

فقال السميدع (وكان كِندياً[2]) يرى رأى الخوارج، قد اعتزل مع طائفة من القرّاء أيّام قتال يزيد مع عدىّ بن أرطاة إلى أن قالت طائفة من أصحاب يزيد وطائفة من أصحاب عدىّ: قد رضينا بحكم السميدع. ثمّ دعاه يزيد إلى نفسه وشرط له العمل بالكتاب والسنّة، فأجابه، واستعمله على الأُبلّة فى تلك الأيّام:

ـ «إنّا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، وقد زعموا أنّهم قابلون منّا هذا، فليس لنا أن نمكر ولا أن نغدر، ولا أن نريدهم بسوء حتّى يردّوا علينا ما زعموا أنّهم قابلوه منّا.»

فقال جماعة من أهل الديانة:

ـ «هكذا ينبغى.»

١ البرادع والأكُف والزُبُل أمّا البراذع جمع مفرده: البردعة (والذال لغة): الحلس، البساط من مسح وغيره يلقى تحت الرحل. والأكُف: جمع مفرده الإكاف والأُكاف والوكاف. البردعة. والزبل جمع مفرده الزبيل، الزنبيل. القفّة. الجراب: الوعاء الذى يحمل فيه.

٢ كِندياً الكلمة غير واضحة فى الأصل، والمثبت من مط.

قال يزيد:

ـ «ويحكم! أتصدّقون بني أميّة أن يعملوا بالكتاب والسنّة وقد ضيّعوا[1] ذلك مذ كانوا! إنّهم لم يقولوا لكم إنّا نقبل منكم، وهم يريدون ألّا يعملوا في سلطانهم [569] إنّما[2] تأمرونهم وتدعونهم إليه، ولكنّهم أرادوا أن يكفّوهم عنهم حتّى يعملوا في المكر، فلا يسبقوكم إلى تلك. ابدأوهم بها! إنّي لقيت بني مروان، فوالله ما لقيت منهم رجلاً هو أشدّ تمرّداً ولا أبعد غوراً من هذه الجرادة الصفراء.» يعني: مسلمة. قالوا:

ـ «لا نرى أن نفعل ذلك حتّى يردّوا علينا ما زعموا أنّهم قابلوه منّا.»

وكان مروان بن المهلّب وهو بالبصرة يحثّ الناس على حرب أهل الشام ويسرّح الناس إلى يزيد.

وكان الحسن البصري يثبّط الناس عن يزيد بن المهلّب ويخطب أصحابه بما يقعدهم[3]. فلمّا بلغ ذلك مروان بن المهلّب، قام خطيباً كما كان يقوم، فأمر الناس بالجدّ والإجتهاد والإحتشاد، وقال:

ـ «لقد بلغني أنّ هذا الشيخ الضالّ المرائي ـ ولم يسمّه ـ يثبّط عنّا الناس. والله، لو أنّ جاره نزع من خُصّ[4] داره قصبة لظلّ يرعف أنفه، وينكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب حقّنا أو أن ننكر مظلمتنا! أما والله، ليكفّنّ عن ذكرنا، أو عن جمعه سقّاط الأُبلّة وعلوج فرات البصرة، [570] أو لأُنحينّ[5] عليه مبرداً خشناً.»

فلمّا بلغ ذلك الحسن قال:

---

١ ضيّعوا: كذا في الأصل والطبري (٩: ١٤٠٠). وما في مط: صنعوا، وهو خطأ.

٢ إنّما تأمرونهم وتدعونهم: كذا في الأصل. وفي مط: إنّما يأمرونهم ويدعونهم. وما في الطبري: إلّا ما تأمرونهم وتدعونهم.

٣ أنظر كلام الحسن البصري في الطبري (٩: ١٤٠٠). وفي هذا الكتاب وهذا الجزء ص 562 - 563

٤ الخُصّ: البيت من قصب أو شجر. البيت يسقف عليه بخشبة كالأزج. والأزج: البيت يُبنى طولاً.

٥ لأُنحينّ: غير معجم في الأصل، والإعجام من الطبري. وما في مط: لا نحيرا، وهو خطأ.

ـ «والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه.»

فقال ناس من أصحابه:

ـ «والله لو أرادك ثمّ شئت لمنعناك.»

فقال لهم:

ـ «قد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه. آمركم أن لا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري وأدعوكم أن يقتل بعضكم بعضاً دوني!.»

فبلغ ذلك مروان، فاشتدّ عليهم وأخافهم، وطُلبوا حتّى تفرّقوا، ولم يدع الحسن كلامه ذلك، وكفّ عنه مروان بن المهلّب.

وكانت مدّة إقامة يزيد بن المهلّب منذ اجتمع هو ومَسلمة ثمانية أيّام. حتّى إذا كان يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من صفر، بعث إلى الوضّاح أن يخرج بالوضّاحيّة في السفن حتّى يحرق السفن التي في الجسر، ففعل.

وخرج مسلمة فعبّى جنود أهل الشام ميمنة وميسرة، وازدلف بهم نحو يزيد، وخرج إليه يزيد في مثل تعبئته.

فحدّث العلاء بن منهال، أنّ رجلاً من أهل الشام خرج، فدعا إلى المبارزة، فلم يخرج إليه أحد. فبرز إليه محمّد بن عبدالملك، فحمل عليه، فاتّقاه الرجل بيده وعلى كفّه[1] كفّ [571] وساعد من حديد. فضربه محمّد، فقطع كفّ الحديد وأسرع السيف في كفّه، واعتنق فرسه. وأقبل محمّد يضربه ويقول:

ـ «المنجلُ أعْوَد عليك من مبارزة الفرسان، عليك بالمنجل!»

قال: وذكر أنّه كان حيّان النبطيّ. قال: ولمّا أحرق الوضّاح الجسر وسطع دخانه وقد نشبت الحرب ولم يشتدّ القتال نظر الناس إلى الدخان وقيل لهم:

ـ «أُحرق الجسر.»

---

١ سقط من مط من «كفّ وساعد» إلى قوله: «وأسرع السيف».

فانهزموا. وقيل ليزيد:

ـ «قد انهزم الناس.» قال:

ـ «وممّ انهزموا؟ وهل كان قتال يُنهزم من مثله؟»

فقيل له:

ـ «أحرق الجسر فلم يثبت أحد.» قال:

ـ «قبّحهم الله.»

قال:

ـ «بقٌ دُخّن عليه فطار.»

فخرج وخرج معه أصحابه ومواليه وناس من قومه. فقال [رجل من أهل بيته:

ـ «ينهزمون وهم كالجبال.» فقال:][1]

ـ «إضربوا وجوه المنهزمين.»

ففعلوا ذلك حتّى كثروا عليهم، واستقبلهم[2] منهم مثال الجبال.» فقال:

ـ «دعوهم، فوالله إنّي لأرجو أن لا يجمعني الله وإيّاهم في مكان واحد أبداً. دعوهم يرحمهم الله. غنم عدا في نواحيها الذئب.»

وكان يزيد لايحدّث نفسه بالفرار.

ولمّا انهزم الناس قال يزيد للسميذع:

ـ «يا سميذع! أصحّ أمر رأيك، ألم أُعلمك ما يريد القوم؟» قال:

ـ «بلى، والرأى والله كان رأيك [572] وأنا ذا معك لا أزايلك فمرنى بأمرك.»

قال:

---

١ ما وضع بين المعقوفتين ساقط من الأصل ولم نجده لا في الطبري (٩: ١٤٠٣) ولا في ابن الأثير (٥: ٨٢) بل زيادة خاصّة بمط. فأضفناها.

٢ واستقبلهم منهم مثل الجبال: كذا هي الأصل والطبري. وفي ابن الأثير: استقبله أمثال الجبال. أما في مط فسقطت العبارة ضمن سقوط عبارة أطول تبدأ بقوله: «اضربوا وجوه» وتنتهي بقوله. «فقال».

ـ «إمّا لا فانزل.»

فنزل في أصحابه. وجاء يزيد جاءٍ وقال:

ـ «إنّ حبيباً قد قتل.» فقال:

ـ «لا خير في العيش بعده امضوا بنا قُدُماً.»

فعلمنا أنّه مستقتل[1]. فأخذ من يكره القتال ينكص، وأخذوا يتسلّلون، وبقيت مع يزيد بقيّة: جماعة حسنة وهو يزدلف بهم. فكلّما مرّ بخيل أو جماعة من أهل الشام كشفها وعدلوا عن سَنَنه وسنن أصحابه. وأتاه آتٍ وقال له:

ـ «ذهب الناس.»

وهو يسرّ إليه وأنا أسمعه. وقال له:

ـ «هل لك أن تنصرف إلى واسط. فإنّها حصن حتّى تأتيك الأمداد من البصرة وعُمان والبحرين في السفن وتضرب خندقاً.» فقال:

ـ «قبّح الله رأيك! ألي تقول ذا؟ الموت أيسر عليّ من ذلك.» فقال:

ـ «ألا ترى من حولك من جبال الحديد؟.»

وهو يُسرّ إليه. فقال:

ـ « [أمّا] أنا [فما] أُباليها[2]. جبال حديد كانت أم جبال نار. إذهب عنّا إن كنت لا تريد القتال معنا.» وتمثّل:

أبالموت خشّنتي عُبادُ[3] وإنّما رأيتُ مَنايا الناسِ يسعى دليلُها

فما ميتةٌ إن متُّها[4] غيرَ عاجزٍ بعارٍ، إذا ما غالتِ النفسَ غُولُها [573]

---

١ مستقتل كذا في الأصل وما في مط. مستقبل. وهو تصحيف. والعبارة في الطبري (٩: ١٤٠٤): فعلمنا أنّه قد استقتل

٢ في الأصل ومط: «فأنا أُباليها». والتصحيح من الطبري.

٣. عُباد: كذا في الأصل بالضبط (أي بضمّ العين) وضبط في الطبري: «عِباد» (بكسرها).

٤ متُّها كذا في الأصل والطبري وهو صحيح وما في مط: منها!

وكان يزيد بن المهلّب على برذون له أشهب. فأقبل نحو مسلمة لا يريد غيره حتّى إذا دنا منه، دعا مسلمة بفرسه ليركب. فعطفت عليه خيول الشام فقتل يزيد بن المهلّب والسميدع، وقتل أخوه محمّد بن المهلّب.

فحكي: أنّ رجلاً من كلب يقال له: الفحل بن عيّاش[1] لمّا نظر إلى يزيد قال:

يزيد بن المهلّب والفحل بن عيّاش كلٌّ قَتَلَ صاحبه!

ـ «يا أهل الشام، هذا يزيد والله لأقتلنّه، أو يقتلني. إنّ معه ناساً، فمن يحمل معي يكفيني أصحابه حتّى أصل إليه؟»

فقال ناس من أصحابه:

ـ «نحن نحمل معك.»

ففعلوا، وحملوا بأجمعهم، فاضطربوا ساعة وسطع الغبار وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً وعن الفحل بن عيّاش بآخر رمق. فأومأ إلى أصحابه يُريهم مكان يزيد، يقول لهم:

ـ «أنا قتلته.»

ويومي إلى نفسه أنّه:

ـ «هو قتلني»!

وكان مسلمة لا يصدّق أنّه هو قتله. فبعث برأسه إلى يزيد بن عبدالملك مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

---

١. الفحل بن عيّاش. كذا في الأصل. وفي مط: الفحل بن عيّاس. وفي الطبري (١٤٠٥:٩): القحل بن عيّاش (بالقاف).

وأبلى يومئذ المفضّل بن المهلّب بعد قتل يزيد وإخوته حتّى ظنّ أنه يتلافى الأمر وحده مع نفر معه يذمر بهم ويقول لهم:

ـ «غضّوا أبصاركم [574] ولا تلتفتوا، فداكم أبي وأمّي.»

وبحمل الحملات الصادقة حتّى تفرّقت عنه تلك العصابة وبقي وحده. فأخذ الطريق إلى واسط. فقال الناس:

ـ «ما رأينا من العرب رجلاً في مثل منزلته كان أغشى للبأس[1] بنفسه ولا أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئة لأصحابه منه.»

وأسر أهل الشام خلقاً من أصحاب يزيد، فسرّح بهم إلى محمّد بن عمرو بن الوليد، فحبسهم إلى أن جاء كتاب من يزيد بن عبدالملك إلى محمّد بن عمرو بن أن:

ـ «اضرب أعناق الأسرى.»

فقال للعريان بن الهيثم وكان على شرطته:

ـ «أخرجهم عشرين عشرين، وثلاثين ثلاثين.»

فقام قوم من بني تميم وهم لا يدرون ماذا يراد بهم، فقالوا:

ـ «إتّقوا الله وابدأوا بنا، أخرجونا قبل الناس، فإنّا نحن انهزمنا بالناس.»

فقال لهم العريان:

ـ «اخرجوا على اسم الله!»

فأخرجهم إلى المصطبة، ثمّ أرسل إلى محمّد بن عمرو، ويخبره بإخراجهم وبمقالتهم، فبعث إليه أن:

ـ «اضرب أعناقهم.»

فتحدّث نجيح[2] مولى زهير قال: والله إني أنظر إليهم وهم يُقتلون وإنّهم ليقولون:

---

١ للبأس. كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٩: ١٤٠٧): للناس.

٢ نجيح. كذا في الأصل والطبري (بالجيم ثمّ الحاء) وما في مط. محرّف (بالحائين).

ـ «إنّا لله، انهزمنا بالناس وهذا جزاؤنا.»

فماهو إلّا أن فرغ منهم جاء رسول [575] مسلمة بكتابه فيه النهى عن قتل الأسرىٰ وإطلاقهم. وكان مسلمة ضمن لهم ضمانات وواطأهم إذا رأوا دخان الحريق من الجسر أن ينهزموا بالناس. فقعلوا، ثمّ قُتلوا.

ولمّا جاء فلّ يزيد إلى واسط أخرج معاوية بن يزيد بن المهلّب اثنين وثلاثين أسيراً كانوا فى يديه، فضرب أعناقهم. منهم: عدىّ بن أرطاة، وابنه محمّد بن عدىّ ومالك وعبدالملك ابنا مسمع وغيرهم من الأشراف. وكانوا قالوا له:

ـ «ويحك! إنّا لا نُراك[1] تقتلنا إلّا أنّ أباك قد قتل، وأنّ قتلنا ليس بنافعك فى الدنيا وهو والله ضارّك فى الآخرة.»

فقتلهم كلّهم إلّا ربيع بن زياد بن ربيع بن أنس. فقال له قوم:

ـ «نسيته.» فقال:

ـ «ما نسيته ولكن لم أكن لأقتله وهو شيخ من قومى له شرف ومعروف، ولست أتّهمه فى ودّ، ولا أخاف بغيه.»

ورثى الشعراء يزيد وإخوته المقتولين فأكثروا.

وأقبل معاوية بن يزيد حتّى أتى البصرة معه المال والخزائن. وجاء المفضّل، فاجتمع إليه جميع آل المهلّب بالبصرة، وقد كانوا أعدّوا السفن البحريّة وتجهزوا بكلّ الجهاز، لأنّهم كانوا يتخوّفون [576] ما كان، وقد كان يزيد بن المهلّب بعث وداع بن حُميد الأزدىّ على قَنْدابيل[2] أميراً، فقال له:

ـ «إنّى قد اخترتك من بين قومى لأهل بيتى، فكن عند حسن ظنّى بك.»

وأخذ عليه أيماناً غلاظاً، وقال:

---

١ نُراك. كذ ضبط فى الأصل وهذا صحيح، لأنّه لم يسمع مضارع «رأى» بمعنى الظن إلّا مجهولاً.

٢ قندابيل. كذا فى الأصل والطبرى (٩: ١٤١٠). فى مط: فرراتيل. وقندابيل مدينة بالسند، قصبة لولاية يقال لها الندهة، من قُصدار إليها خمسة فراسخ (مراصد الإطلاع).

ـ «إنّى سائر إلى هذا العدوّ ولو قد لقيتهم لم أبرح العرصة حتّى يكون لى، أو لهم، وإن ظفرت أكرمتك، وإن تكن الأخرى، ولجأ إليك أهل بيتى كنت فى حصن معهم وآويتهم حتّى يأخذوا لأنفسهم أماناً.»

ولمّا اجتمعوا بالبصرة حملوا عيالاتهم وأموالهم فى السفن البحرية، ثمّ لجّجوا فى البحر حتّى مرّوا بهزّم بن القزر[1]، وكان يزيد استعمله على البحرين. فقال لهم:

ـ «أشير عليكم أن لا تفارقوا سفنكم فإنّ ذلك بقاؤكم، وإن خرجتم منها يخطفكم الناس وتقرّبوا بكم إلى بنى مروان.»

فخالفوه ومضوا حتّى إذا كانوا بحيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالهم وأموالهم على الدوابّ. وكان معاوية بن يزيد بن المهلّب حين قدم البصرة بالخزائن والأموال أراد أن يتأمّر عليهم. فاجتمع آل المهلّب، فأمّروا عليهم المفضّل بن المهلّب، وقالوا:

ـ «المفضّل أكبرنا وسيّدنا وإنّما [577] أنت غلام حدث السن كبعض فتيان أهلك.»

فلم يزل المفضّل عليهم حتّى خرجوا إلى كرمان وبكرمان فلول كثيرة. فاجتمعوا إلى المفضّل.

وبعث مسلمة بن عبدالملك مدرك بن ضبّ الكلبىّ فى طلب آل المهلّب وفى أثر الفلّ. فأدرك مدركُ المفضّلَ بن المهلّب وقد اجتمعت إليه الفلول بفارس. فاتّبعهم فأدركهم فى عقبة، فعطفوا عليه، فقاتلوه واشتدّ قتالهم. فقتل ممن كان مع المفضّل: النعمان بن إبراهيم بن الأشتر، ومحمّد بن إسحاق بن الأشعث، وأُخذ ابن صول ملك دهستان أسيراً، وجرح عثمان بن إسحاق، ومحمّد بن الأشعث جراحة

---

١. بهرم بن العرر كذا فى الأصل، وما فى مط: بمهزم بن القرد. وفى الطبرى (٩: ١٤١٠): بهرم بن القزار.

شديده وهرب حتّى بلغ حُلوان. فدُلّ عليه هناك فقتل وحُمل رأسه إلى مسلمة.

ورجع ناس من أصحاب يزيد بن المهلّب فطلبوا الأمان، فأومنوا، منهم: مالك بن إبراهيم بن الأشتر والرُّرد[1] بن عبدالله بن حبيب السعدى من تميم، وكان قد شهد مع عبدالرحمان بن محمّد مواطنه كلّها.

ومضى آل المهلّب ومن سقط إليهم إلى قنْدابيل، وكان مسلمة ردّ مُدركاً الضبيّ وسرّح في أثرهم هلال بن أحوز التميميّ [578] من بني مازن بن عمرو بن تميم، فلحقهم بقَنْدابيل. فأراد آل المهلّب دخول قَنْدابيل، فمنعهم وداع بن حُميد، وكاتب هلال بن أحوز[2] ولم يباين آل المهلّب فيحذروه. فلمّا التقوا للحرب وصفّوا كان وداع بن حُميد على الميمنة وعبدالملك بن هلال على الميسرة وكلاهما أزديّ. فرفع لهم هلال بن أحوز المازنى راية الأمان، فمال إليها وداع بن حُميد وغدر بآل المهلّب، وتبعه عبدالملك بن هلال، وارفضّ عنهم الناس فخلّوهم.

فلمّا رأى ذلك مروان بن المهلّب ذهب يريد الإنصراف إلى النساء، فقال له المفضّل:

ـ «أين تريد؟» قال:

ـ «أدخل إلى النساء من أهلى فأقتلهنّ لئلّا يصل إليهنّ هؤلاء الفسّاق.» فقال:

ـ «ويحك! أتقتل أخواتك وبنات أخواتك ونساء أهلك؟ إنّا والله ما نخاف عليهنّ منهم.»

فردّه عن ذلك.

ثم مشوا بالسيوف وقاتلوا حتّى قُتلوا من عند آخرهم إلّا عيينة بن المهلّب وعثمان بن المفضّل بن المهلّب، فإنّهما نجوا، فلحقا بخاقان ورتبيل، وبعث

١. الررد كذا في الأصل ومط وما في الطبرى (٩: ١٤١١): الورد.

٢ أحوز كذا في الأصل والطبرى (٩: ١٤١٢) وما في مط أحوو (بالحاء المهملة)

برؤوسهم ونسائهم وأولادهم إلى مسلمة بن عبدالملك.

منع الجرّاح من بيع ذرّيّة آل المهلّب

وقال مسلمة:

ـ «والله لأبيعنّ [579] ذرّيّتهم.»

وكانوا في دار الرزق. فقال الجرّاح بن عبدالله:

ـ «فإنّي أشتريهم منك لأبرّ قسمك.»

فاشتراهم منه بمائة ألف درهم. قال:

ـ «هاتها.» قال:

ـ «إذا شئت [فخذها][1].»

ثم تركها عليه ولم يطالبه بها. وخلّى سبيلهم إلّا تسعة فتية منهم أحداثاً بعث بهم إلى يزيد بن عبدالملك، فقدم بهم عليه، فضرب أعناقهم. ورثاهم الشعراء.

يزيد بن عبدالملك يولّي مسلمة على الكوفة والبصرة وخراسان بعدَ قتل يزيد بن المهلّب

ولمّا فراغ مسلمة بن عبدالملك من حرب يزيد بن المهلّب، جمع له يزيد بن عبدالملك ولاية الكوفة والبصرة وخراسان في هذه السنة.

وفي هذه السنة وجّه مسلمة بن عبدالملك سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى خراسان، وهو الذي يلقّب بسعيد خُذَينة[2]، وإنّما استعمله مسلمة لأنّه كان ختنه على ابنته، وقدّم سعيد خُذَينة قبل شخوصه سَورة بن أبجر من بني دارم، فتقدّمها قبله بشهر أو نحوه، واستعمل شعبة بن ظهير

---

١. فخذها: ليست لا في الأصل ولا في مط وإنّما أضفناها من الطبري (٩: ١٤١٤)

٢. خُذَينة. كذا في الأصل ومط وما في الطبري (٩: ١٤١٧): حُذَينة (بالذال المعجمة)

الهشليّ على سمرقند، فخرج إليها في خمسة وعشرين رجلاً من أهل بيته. فأخذ على آمل اموية، وأتى بخارى، فصبّحه[1] وصحبه منها مائتا رجل، فقدم السغد وقد [580] كان أهلها ارتدّوا في ولاية عبدالرحمان بن نعيم، ثمّ عادوا إلى الصلح.

فخطب شعبة أهل السغد ووبّخ سكّانها من العرب وغيرهم بالجبن، وقال:

ـ «ما أرى فيكم جريحاً ولا أسمع فيكم أنّةً.»

فاعتذروا بأن جبّنوا عاملهم عِلباء بن حبيب العبديّ وكان على الحرب.قدم سعيد. فأخذ عمّال عبدالرحمان بن عبدالله الذين وَلَوا أيّام عمر بن عبدالعزيز فحبسهم، فكلّمه فيهم قوم فضمّنهم وأطلق عنهم، ثمّ رُفع إليه على عمّال يزيد بن المهلّب وهم ثمانية. فأرسل إليهم وحبسهم في القُهَنْدِز بمرو، فقيل له:

ـ «إنّ هؤلاء لا يودّون إلّا أن يبسط عليهم.»

وكان فيهم جهم بن زهر. فأرسل إليه ثمّ ضربه في ما بعد. وعزل شعبة بن ظهير عن سمرقند، وولّي حربها عثمان بن عبدالله بن مطرّف، وكان الناس يضعّفون سعيداً ولقّبوه خُذَينة[2]. فطمع فيه الترك، فجمع له خاقان الترك ووجّههم إلى السغد وكان عليهم كورصول، وأقبلوا حتّى نزلوا بقصر الباهليّ.

سبب طمع الترك في سعيد خذينة

وقيل: إنّ سبب طمع الترك أنّ بعض [581] عظماء الدهاقين رأى في ذلك القصر امرأة من باهلة فهويها، فأرسل إليها فخطبها، فأبت فاستجاش ورجا أن يُسبَوا فيأخذ المرأة قهراً. فأقبل كورصول في من معه من الترك حتّى حضر

---

١ فصبّحه كذا في الأصل. والكلمة ليست لا في مط ولا في الطبري (٩ـ ١٤١٨)

٢ وفي الطبري (٩ـ ١٤١٨): «... فلُقّب خذينة. وخذينة هي الدهقانه ربّة البيت.» وفيه (٩ـ ١٤١٧) أيضاً وإنّما لقب بذلك في ما ذكر لأنّه كان رجلاً ليّناً سهلاً متنعّماً. وإنّما استعمل مسلمه سعيد خذينة على خراسان لأنّه كان ختنه على ابنته. كان سعيد متزوّجاً بابنة مسلمة.

بالقصر، وفيه مائة أهل بيت بذراريّهم، وعلى سمرقند عثمان بن عبدالله، وخافوا من الترك، وأشفقوا أن يبطئ عنهم المدد. فصالحوا الترك على أربعين ألفاً وأعطوهم من الرجال سبعة عشر نفساً رهينة، وندب عثمان بن عبدالله بن مطرِّف الشخّير الناس، فانتدب المسيّب بن بشر الرياحيّ وانتدب معه أربعة آلاف من جميع القبائل، فقال شعبة بن ظُهير:

ـ «لو كان هاهنا خيول خراسان بأميرهم ما وصلوا إلى إغاثتهم[1].»

وكان في من انتدب شعبة بن ظُهير وجماعة من الرؤساء، فقال لهم المسيّب بن بشر لمّا عسكروا:

ـ «إنّكم تقدمون على حلبة الترك وهي حلبة خاقان، والعوض إن صبرتم الجنّة، والعقاب إن فررتم النار، فمن أراد الصبر فليقدم.»

فانصرف عنه ألف وثلاثمائة، وسار في الباقين. فلمّا سار قليلاً أقبل على الناس وقال مثل [582] مقالته الأُولى، فاعتزل ألف. ثمّ قال بعد ما سار فرسخاً مثل ذلك فاعتزل ألف آخر، وسار في سبعمائة، حتّى إذا كان على فرسخين من القوم نزل.

فأتاهم من[2] ترك خاقان مَلك قيّ[3]، فقال:

ـ «إنّه لم يبق هاهنا دهقان إلّا وقد تابع[4] الترك غيري وأنا في ثلاثمائة مقاتل، فهم معك. وعندي الخبر أنّ القوم قد كانوا صالحوا على أربعين ألفاً وأعطوهم سبعة عشر رجلاً يكونون في أيديهم رُهنا. فلمّا بلغهم مسيركم إليهم

---

١ إعاثتهم كذا في الأصل ومط وما في الطبري (٩ ـ ١٤٢٢): عايتهم وفي حواشيه عن الأصول: عاثتهم.

٢ من: موجودة في الأصل ومط وليست في الطبري.

٣ قيّ كذا في الأصل ومط والطبري، وفي بعض الأصول، فيّ.

٤. تابع: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري: بايع.

قتل الترك من كان أيديهم من الرهائن.»

قال: وكان فيهم نهشل بن يزيد الباهلي فنجا، والأشهب بن عبدالله الحنظلي، وميعادهم أن يقاتلوهم غداً أو يفتحوا القصر.

فبعث المسيّب رجلين من العرب ورجلاً من العجم من ساعته ــ وكان ليلاً ــ على خيولهم، وقال:

ــ «إذا قربتم فشدّوا دوابّكم بالشجر واعلموا علم القوم.»

فأقبلوا في ليلة مظلمة وقد أجرت الترك الماء في نواحي القصر. فليس يصل إليه أحد ودنوا من القصر فصاح بهم[1] الربيئة، فقال:

ــ «لا [583] تصح وادع لنا عبدالملك بن دثار.»

فدعوه[2] فقالا له:

ــ «أرسلنا المسيّب وقد أتاكم الغوث.» قال:

ــ «أين هو؟» قالا:

ــ «على فرسخين، فهل عندكم امتناع إلى أن يلحق؟» قال.

ــ «قد أجمعنا على تسليح[3] نسائنا وتقديمهم للموت أمامنا حتّى نموت جميعاً غداً.»

فرجعا إلى المسيّب، فأخبراه. فقال المسيّب للذين معه:

ــ «إنّي سائر إلى هذا العدوّ. فمن بايعني على الموت، وإلّا فليذهب.»

فلم يفارقه أحد وبايعوه على الموت. فلمّا أصبح سار وقد زاد الماء الذي أجروه إلى المدينة تحصيناً. فلمّا كان بينه وبينهم نصف فرسخ رأى أن ينزل وبيّتهم. فلمّا أمسى أمر الناس، فشدّوا على خيولهم وركب فحثّهم على الصبر

---

١. بهم: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري: بهما (٩ ١٤٢٣)

٢. فدعوه: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري: فدعاه.

٣. تسليح نسائنا: كذا في الأصل ومط. وفي الطبري: تسليم نسائنا. ولكليهما وجه من الصحة.

ورغّبهم فى ما يصير إليه أهل الجهاد والإحتساب والصبر وما لهم فى الدنيا من الغنيمة والشرف إن ظفروا، وما لهم فى الآخرة من الثواب والنعيم الأبدىّ إن قُتلوا.

ثم قال لهم:

ـ «إكعموا[١] دوابّكم وقودوها، فإذا دنوتم من القوم فاركبوا وشدّوا شدّة صادقة وكبّروا. وليكن شعاركم: «يا محمّد»، ولا تتّبعوا مولّياً [584] فتتفرّقوا، وعليكم بالدوابّ فاعقروها، فإنّ دوابّ القوم إذا عقرت أشدّ عليهم منكم. واعلموا أن القليل الصابر خير من الكثير الفشل، وليست لكم قلّة. إنّ سبعمائة سيف لا تُضرب بها فى عسكر إلّا أوهنوه وإن كثر أهله.»

وعبّأهم ميمنة وميسرة، وساروا حتّى إذا كانوا على غُلوتين[٢] كبّروا، وذلك فى السحر، وثار الترك وخالطهم المسلمون وانهزموا، فعقر المسلمون الدوابّ. عاد الترك وصابروا، فجال المسلمون وانهزموا، حتّى إذا صاروا إلى المسيّب وتبعهم الترك فضربوا عجز دابّة المسيّب. فترجّل قوم من المسلمين منهم البَختَرىّ، ومحمد بن قيس العنوى وزياد الإصبهانىّ، ومعاوية بن الحجّاج وثابت قطنة، وكان على ميسرة المسيّب. فأمّا البختريّ فقاتل حتّى قطعت يمينه فأخذ السيف بشماله فقطعت، فجعل يذبّ ببدنه حتّى استشهد. واستشهد أيضاً محمّد بن قيس، وشلّت يد الحجّاج الطائىّ. ثمّ لم يصبر الترك وانهزموا. وضرب ثابت قطنة عظيماً من عظمائهم، فقتله [585] ونادى منادى المسيّب:

ـ «لا تتبعوهم. فإنّهم لا يدرون من الرعب أتبعتموهم أم لا، واقصدوا القصر، ولا تحملوا للقوم شيئاً من المتاع إلّا المال، واقصدوا مَن ضعف عن المشى

---

١ كعم الدابّة: شدّ فمه لئلّا يعضّ أو يأكل، أو لأغراض أخرى.

٢ غلوتين كذ. فى الأصل والطبرى (٩: ١٤٢٤)، وما فى مط علوتين (بالعين المهملة) وهو تصحيف. والغلوة: الغاية وهى رمية سهم أبعد ما تقدر عليه.

فاحملوه ولا تحملوا من أطاق على المشى.»

وقال المسيّب:

ـ «من حمل امرأة أو صبياً أو ضعيفاً حِسْبةً[1] فأجره على الله ومن أبى فله أربعون درهما. وإن كان فى القصر أحد من أهل عهدكم فاحملوه.»

قال: فقصدوا جميعاً القصر، فحملوا من كان فيه. وانتهى رجل من بنى فُقَيم إلى امرأة، فقالت:

ـ «أغثنى[2] أغاثك الله.»

فوقف وقال:

ـ «دونكِ عَجُزَ الفرس.»

فوثبت، فإذا هى على عجز الفرس، وإذا هى أفرس من رجل يعجب لها من رءاها. وتناول الفقيمىّ بيد ابنها غلاماً صغيراً، فوضعه بين يديه وأتوا ملك قىّ[3] ترك خاقان. فأنزلهم قصره، وأتاهم بطعام وقال:

ـ «إلحقوا بسمرقند.»

ثم قال:

ـ «هل بقى أحدٌ؟» قالوا:

ـ «نعم، هلال الجديدىّ.» فقال:

ـ «لا أُسلمه.»

فأتاه به، وبه بضع وثمانون ضربة. فاحتمله فبرأ، إلى أن أُصيب يوم الشعب مع الجند؛ ورجع الترك من الغد، فلم يروا فى القصر أحداً ورأوا قتلاهم. فقالوا:

ـ «لم يكن الذين جاؤوا [586] بالأمس من الإنس.»

---

١. الحسبة: الأجر والثواب.

٢. أغثنى: كذا فى مط والطبرى (٩/١٤٢٥) وما فى الأصل: أعشنى. فرجّحنا ما فى مط والطبرى.

٣. ملك قىّ: كذا فى الأصل وهو صحيح. وما فى مط: ملك فى. وهو تصحيف.

فقال بعض من شهد ليلة قصر الباهلي: كنّا في القصر. فلمّا التقوا ظننّا أنّ القيامة قامت لهول ما سمعنا من هماهم القوم ووقع الحديد.

غزو سعيد الترك

وفي هذه السنة قطع سعيد خذينة نهر بلخ، وغزا الترك، وكانوا قد نقضوا العهد وأعانوا الترك. وذلك بعدما كلّم الناس سعيداً مراراً وقالوا له:

ـ «تركت الغزو. فقد كثر الترك، وكفر أهل السغد.»

فلمّا عبر سعيد وقصد السغد لقيه الترك وطائفة من السغد. فهزمهم المسلمون. وقال سعيد:

ـ «لا تتبعوهم، فإنّ السغد بستان أميرالمؤمنين.»

فلمّا كان الغد خرجت مسلحة المسلمين ـ والمسلحة يومئذ من تميم ـ فما شعروا إلّا بالترك معهم خرجوا عليهم من غيضة، وعلى خيل بني تميم شعبة بن ظهير، فقُتل شعبة. وذاك أنّه أُعجل عن الركوب، فقاتلهم راجلاً إلى أن قتل، وقتل نحو من خمسين رجلاً، وانهزم المسلحة وأتى الناس الصريخ[1].

فقال عبدالرحمان بن المهلّب العدوي: كنت أوّل من أتاهم لمّا أتانا الخبر وتحتي فرس جواد، فإذا عبدالله بن زهير إلى جنبه شجرة [587] كأنّه قنفذ من النشّاب وقد قتل. ثمّ لحق الناس وحملوا على العدوّ حتّى كفّوهم. وجاء الأمير والجماعة، فانهزم العدوّ.

ذكر كلمة صارت سبب حتف

كان سعيد عبر النهر مرّتين، فلم يجاوز سمرقند. وكنّا حكينا أنّه لمّا هزم

١ الصريخ: كذا في الأصل ومط. وما في الطبري (٩: ١٤٢٩): الصريح (بالحاء المهملة)

المسلمون الترك وأهل السغد ألحَوا[١] فى طلبهم. فنادى منادى سعيد:

ـ «لا تطلبوهم، فإنّ السغد بستان أميرالمؤمنين.»

وقال سعيد:

ـ «قد هزمتموهم أفتريدون بوارهم وأنتم يا أهل العراق قد قاتلتم أميرالمؤمنين غير مرّة، فعفا عنكم ولم يستأصلكم ورجع.»

وكان سعيد إذا بعث سريّة فأصابوا وغنموا وسبوا ردّ السبى وويخ السريّة. فقال له يوماً حيّان النبطىّ وهو بإزاء العدوّ من أهل السغد:

ـ «أيها الأمير، ناجز العدوّ.» فقال:

ـ «لا، هذه بلاد أميرالمؤمنين.»

فلمّا انهزم أهل السغد تبعهم حيّان، فقال له سَورة بن أبجر:

ـ «انصرف كما أمر الأمير.» فقال:

ـ «أدعْ عقيرةَ الله وأنصرف!»[٢] فقال له:

ـ «يا نبطىّ!» قال:

ـ «أنبط الله وجهك.» [588]

وكان حيّان يكنّى فى الحرب: أبا الهيّاج، وإيّاه عنى الشاعر:

إنّ أبـا الهـيّاج أريَـحىٌّ   للـرّيح فـى أثـوابه دَوىٌّ

فحقد عليه سَورة [وقال:][٣]

ـ «أنبط الله وجهك.»

١ ألحَوا: كذ فى الأصل وهو صحيح وما فى مط: ألحقوا. وهو تصحيف وخطأ

٢ فى الطبرى (٩: ١٤٣٠): عقيرة لله أدعها وأنصرف؟ وفى ابن الأثير (٥: ٩٥): عقيرة الله لا أدعها

٣. وقال: سقطت من الأصل وأخذناها عن مط.

ثم خلا بسعيد فقال:

ـ «إنّ هذا العبد أعدى الناس للعرب. قد عصى أمرك، وهو الذي أفسد خراسان على قتيبة وهو واثب بل مفسد عليك خراسان، ثمّ يتحصّن في بعض هذه القلاع.» قال:

ـ «يا سَورة لا تسمعنّ.»

سعيد يقتل حيّان بإطعامه ذهباً

ثم مكث أيّاماً وقد ثقل سعيد على الناس وضعّفوه، فلم يأمن حيّان. فأمر سعيد بذهب فسُحل[1] وألقي في طعام وناوله حيّان. فلمّا علم أنّه قد حصل في جوفه ركب وركب معه الناس وفيهم حيّان. فركض أربعة فراسخ فنزل حيّان وعاش أربعة أيّام ومات في الرابع.

وفي هذه السنة عُزل مسلمة بن عبدالملك عن العراق وخراسان وانصرف إلى الشام.

ذكر سبب عزل مسلمة عن العراق وخراسان [589]

كان سبب ذلك أنّ مسلمة لمّا ولي أرض العراق وخراسان لم يرفع من الخراج شيئاً، وكان يزيد بن عبدالملك يريد عزله فيستحييه، فيكتب يتشوّقه. فشاور مسلمة عبدالعزيز بن حاتم بن النعمان في الشخوص إلى يزيد ليزوره[2] فقال له:

ـ «أمن تشوّق بك إليه؟ إنّك لطروب.» قال:

ـ «إنّه لابدّ من ذاك.» قال:

ـ «إذاً لا تخرج من عملك حتّى تلقى الوالي عليه.»

---

١ سحل الذهب أو الفضّة: سحقهما بردّهما. والسحالة: البرادة.

٢. ليزوره. كذا في الأصل وهو صحيح، وما في مط: ليزوره. وهو تصحيف.

فشخص فلمّا بلغ دُورين لقيه عمر بن هبيرة الفزاريّ على خمس من دوابّ البريد. فدخل عليه ابن هبيرة مسلّماً، فقال:

ـ «إلى أين يابن هُبيرة؟» قال:

ـ «وجّهني أميرالمؤمنين في حيازة أموال بني المهلّب.»

فلمّا خرج من عنده أرسل إلى عبدالعزيز، فجاءه. فقال:

ـ «هذا ابن هبيرة قد لقينا كما ترى.» قال:

ـ «قد كنت أنبأتك.» قال:

ـ «فإنّه إنّما وُجّه لحيازة أموال بني المهلّب.» قال:

ـ «هذا أعجب من الأوّل: يُصرف عن الجزيرة ويُوجّه في حيازة أموال بني المهلّب.»

قال: فلم يلبث أن جاءه عزل ابن هبيرة عمّاله والغلظة عليهم. فقال الفرزدق: [590]

راحت بـمسلمة الركـابُ مـودّعاً	فـارعَي فـزارةُ لا هَـناك المـرتعُ
ولقد عـلـمتُ لـئـن فـزارةُ أُمّـرتْ	أن سوف تطمع في الإمارة أشجعُ

ظهور أمر الدعاة في خراسان

وفي هذه السنة غزا عمر بن هبيرة الروم. فسبيَ سبعمائة أسير وفيها[1] أيضاً وجّه ميسرة رسله من العراق إلى خراسان. فظهر أمر الدعاة فيها.

وكان سعيد خذينة يومئذٍ بخراسان، فأتاه آتٍ فقال:

ـ «إنّ هاهنا قوماً يدعون إلى إمام لهم وقد ظهر منهم كلام قبيح.» فبعث سعيد

---

١ أي سنة اثنتين ومائة. تجد الرواية في الطبري أيضاً (٩: ١٤٣٤).

إليهم فقال:

ـ «من أنتم؟» قالوا:

ـ «ناس من التجار.» قال:

ـ «فما الذى يُحكىٰ عنكم؟» قالوا:

ـ «لا ندرى.» قال:

ـ «جئتم دعاة؟» فقالوا:

ـ «إنّ لنا فى أنفسنا شغلاً عن هذا.»

فقال:

ـ «من يعرف هؤلاء؟»

فجاء قوم من خراسان جلّهم من ربيعة واليمن. فقالوا:

ـ «نحن نعرفهم، وهم علينا إن أتاك منهم شىء تكرهه.»

فخلّى سبيلهم.

ثم دخلت سنة ثلاث ومائة

سبب عزل سعيد خذينة عن خراسان

وفيها عزل عمر بن هبيرة سعيد خذينة عن خراسان. وذاك أنّ الناس شكوا [591] سعيد خُذينة. فكتب عمر بن هبيرة بذلك إلى يزيد، وكتب بأسماء من أبلىٰ يوم العقر، ولم يذكر سعيد بن عمرو الحرشىّ. فكتب إليه يزيد بن عبدالملك:

ـ «لِمَ لم تذكر الحرشىّ؟ ولّه خراسان!»

فولّاه، وخرج سعيد الحرشىّ وقدم خراسان فى سنة ثلاث ومائة والناس بإزاء العدوّ، وقد كانوا نُكبوا. فخطبهم وحثّهم على الجهاد وقال:

ـ «إنّكم لا تقاتلون عدوّ الإسلام بكثرة ولا بعُدّة، ولكن بنصر الله وعزّ الإسلام.»

وكان شاعراً، فقال:

فلستُ[١] لِعامرٍ إن لم تَرَوني	أمامَ الخيلِ أطعنُ بالعوالي
وأضربُ هامةَ الجبّارِ منهم	بعضبِ الحدِّ حودثَ بالصقالِ
فما أنا في الحروبِ بمستكينٍ	ولا أخشى مصاولةَ الرجالِ
أبَى لي والدي من كلِّ ذمٍّ	وخالي في الحوادثِ غيرُ خالِ
إذا خطَرتْ أمامي حيُّ كعبٍ	وزافتْ كالجبالِ بنو هلالِ

وكانت السغد قد أعانت الترك أيّام خذينة. فلمّا وليهم الحرشيّ خافوا [592] على أنفسهم. فأجمع عظماؤهم على الخروج من بلادهم، فقال لهم ملكهم:

ـ «لا تفعلوا. أقيموا واحملوا إليه خراج ما مضى، واضمنوا له خراج ما تستقبلون، واضمنوا له عمارة أرضكم، والغزو معه، إن أراد ذلك، واعتذروا إليه ممّا كان منكم، وأعطوه رهائن تكون في يديه.» قالوا:

ـ «لا نفعل، فإنّه لا يرضى ولا يقبل ذلك منّا. ولكنّا نأتي خُجندة فنستجير بملكها ونرسل إلى الأمير فنسأله الصفح عما كان منه ونوثق له ألّا يرى منّا أمراً يكرهه.» فقال:

ـ «أنا رجل منكم، وما أشرت به فهو خير لكم.»

فأبوا وخرجوا إلى خجندة، وخرج كارزَنْج[٢]، وكشر[٣]، وشاركث[٤]، وثابت

---

١ فلست. في الأصل ومط: لست. بدون الفاء. والفاء زدناها من الطبري (٩: ١٤٣٩).

٢ كارزنج: مهملة في الأصل ومط، فأعجمناها كما في الطبري (٩: ١٤٤٠). وفي حواشي الطبري عن الأصول: كازرنج (بتقديم الزاء على الراء).

٣ كشر: كذا في الأصل وبعض هوامش الطبري. وفي متن الطبري: كشّين، وفي مط: كشير

٤ شاركث: الحرف الأخير مهمل في الأصل. وما في الطبري بياركث وفي حواشيه عن الأصول: شاركث، بياركت شاركمت، وفي مط: شادلب.

بأهل إشتيخَن[1]. وأرسلوا إلى ملك فرغانة، وهو الطار، يسألونه أن يمنعهم ويُنْزِلهم مدينته. فأرسل إليهم:

ـ «سمّوا لي رُستاقاً أُفرّغه لكم، وأجّلوني عشرين يوماً، وإن شئتم فرّغت لكم شِعب عصام بن عبدالله الباهليّ.»

وكان قتيبة خلّفه فيه، فقيل: شِعب عصام. فأرسلوا إليه.

ـ «فرّغه لنا.» قال:

ـ «نعم، وليس لكم عليّ عقد ولا جوار حتّى تدخلوه، وإن أتتكم العرب [593] قبل أن تدخلوه لم أمنعهم.»

فرضوا، ففرّغ لهم الشِّعب. وقد كان هذا الشعب من رستاق أسفرة، وأسفرة يومئذٍ إلى وليّ عهد ملك فرغانة وهو بلاذا، وكان قال لهم كازَرْنج:

ـ «أخيّركم[2] ثلاث خصال إن تركتموها هلكتم. إنّ سعيداً فارس العرب، وقد وجّه على مقدّمته عبدالرحمان بن عبدالله القشيريّ في كماة[3] أصحابه، فبيّتوه واقتلوه، فإنّ الحرشيّ إن أتاه خبره لم يغزكم.»

فأبوا عليه. قال:

ـ «فاقطعوا إليه نهر الشاش، وسلوه: ما تريدون؟ فإن أجابكم، وإلّا مضيتم إلى سرباب[4].» قالوا:

ـ «لا.» قال:

ـ «فأعطوهم الخراج.»

---

١. اشتيخن كذا في الأصل والطبري، وما في مط مهمل من النقط. وفي تعاليق الطبري عن الأصول والنسخ: اسحخر، اسحتر (بالإهمال الكامل)، استحن.

٢. أخيركم (بالياء): كذ في الأصل والطبري (٩. ١٤٤١). وما في مط أُخبركم (بالباء الموحده).

٣. كماة. كذا في الأصل ومط. وما في الطبري: حماة.

٤. سرباب، ما في الأصل مهمل من النقط والاعجام من مط. وما في الطبري: سوياب. وفي تعاليقه عن الأصول: سوتات، سويات.

فأبوا ولحق كارزنج وأهل السغد بخُجندة.

* * *

* تمّت المجلدة الثانية من كتاب تجارب الأُمم وعواقب الهمم. ويتلوها فى المجلدة الثالثة: «ودخلت سنة أربع ومائة.» والحمد لله ربّ العالمين وصلواته على النبيّ محمّد وآله الطيّبين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* فرغ من انتساخه محمّد بن عليّ بن محمّد أبو طاهر البلخى فى (السابع والعشرين) من شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسمائة.

* وفرغ من انتساخه الحسن بن منصور فى منتصف شوّال سنة ستٍ و (... ؟)

* وفرغ من انتساخه ابنه محمد بن الحسن بن منصور فى ثالث جمادى الأُولىٰ سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.



فهرس العناوين




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

MISKAWAYH

(932-1030)

TAJĀRIB AL-UMAM

(Experiences of Nations)

EDITED, ANNOTATED & INTRODUCED

by

A.Emāmi, Ph.D.

VOL. 2

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

Soroush Press

Tehran 2001

MISKAWAYH
(932-1030)

TAJĀRIB AL- UMAM

(Experiences of Nations)

EDITED, ANNOTATED & INTRODUCED

by

A.Emāmi, Ph.D.

vol.2



Soroush Press
Tehran 2001

بها: شمیز ۲۹۰۰۰ ریال
گالینگور ۳۲۰۰۰ ریال

ISBN 964 - 435 - 593 - 8 شابک: ۸ - ۵۹۳ - ۴۳۵ - ۹۶۴
ISBN 964-435-331-5(7Vol.SET) شابک: ۵-۳۳۱-۴۳۵-۹۶۴ (دوره ۷ جلدی)